

الإعلام

بما في دين النصارى من الفساد والأوهام
وإظهار محاسن دين الإسلام
وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

تأليف

الإمام القرطبي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد حجازي السقا

الجزء الأول

دار التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

صور هذا الكتاب بالميكروفيلم فى معهد احياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر .. وطبعتنا هذه عن صورة الميكروفيلم ـ لأنه لم يطبع من قبل ـ وقد كتب المعهد عنه فى فهرس كتبه ما نصه :

« ٢٩ ـ الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ٠ واظهار محاسن دين الاسلام ٠ واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ٠ تأليف القرطبى (؟) وهو رد على كتاب ألفه أحد النصارى سماه : « تثليث الوحدانية » بعث به من « طليطلة » الى مدينة « قرطبة » فرغ منه سنة ٦٨٤ هـ بالكرك المحروس ٠ نسخة كتبت سنة ٨٧٩ بخط نسخ جيد واضح (كوبريللى ٧٩٤ مكرر ـ ١٠٧ ورقة ـ ١٨ x ٢٦ سم) » ا٠هـ

وقال الكاتب فى نهاية كتاب الاعلام هذا : انه فرغ منه سنة سبعمائة وست وعشرون من الهجرة ومعنى هذا : أن القرطبى مؤلف كتاب الاعلام ليس هو القرطبى الامام الفقيه المفسر للقرآن الكريم ، لأن القرطبى الامام الفقيه المفسر توفى سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، ويؤيد هذا : أن أسلوب مؤلف الاعلام غير أسلوب مفسر القرآن ، وأن ابن فرحون ـ رحمه الله ـ فى « الديباج المذهب »(١) لم يعد الاعلام من كتب القرطبى المفسر ٠ وأن القرافى الفقيه المتوفى سنة ستمائة وأربعة وثمانين من الهجرة نقل منه عن « أوغسطين » وعن « حفص » ٠

ويقول « كارل بروكلمان » : ان مؤلف الاعلام هو القرطبى مؤلف تفسير القرآن الكريم لا غيره ٠ ويقول : ان للاعلام نسختين خطيتين فى « كوبريللى » الأولى رقمها : سبعمائة وأربعة وتسعين رمز « باء » والثانية رقمها : ثمانمائة وأربعة عشر ، ويعرف بالقرطبى مؤلف الاعلام والتفسير المسمى : « الجامع لأحكام القرآن ٠ والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان » فيقول : هو شمس الدين : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح

---

(١) الديباج المذهب فى أعيان المذهب ـ ابن فرحون صفحة ٣١٧

الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، الموافق ألف ومائتين وثلاثة وسبعين من الميلاد • ويؤيده : أن القرافى مات فى نفس السنة التى فرغ منها مؤلف الاعلام كما يقول فهرس معهد المخطوطات عن تاريخ الفراغ ومن المحتمل أن يكون قد نقل عن المؤلف قبل اظهار الكتاب فى دور الكتب ، أو هما معا قد نقلا عن غيرهما •

ويؤيد « كارل بروكلمان » : الدكتور « زلط » الحاصل على الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر فى موضوع : « القرطبى ومنهجه فى التفسير » ويؤيده أيضا : صاحب كتاب « هدية العارفين » •

❋ ❋ ❋

وهذا الكتاب يشتمل على أربعة أجزاء • ويتضمن أربعة أبواب ، ومقدمة (صــدر) •

الباب الأول : فى بيان مذاهب النصارى فى الأقانيم الثلاثة وابطال قولهم فيها • وفى هذا الباب : بين المؤلف : أن أصل الأقنوم(١) عند النصارى هو : « الشىء المستغنى بذاته عن أصل جوهره ، فى اقامة خاصة جوهريته » وأن بعضهم يقول : « ان الأقانيم أسماء أفعال لله تعالى » ورد بقوله : ان أسماء الأفعال أكثر من ثلاثة ، وأن التوراة التى جاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مصححا لها ومصدقا غير ناسخ : نصت على أن الله واحد ، وعلى أن الله منزه عن المثل والشبه(٢) • وفى الانجيل ـ رغم تحريفه كالتوراة ـ مثل مافى التوراة عن الوحدانية وعن عدم مماثلة الله للبشر ، وأنه لا يرى ، ولا يقدر أحد أن يراه •

وذكر القرطبى ـ رحمه الله ـ قولهم فى أقانيم الصفات الثلاثة وهى : القدرة والعلم والحياة • أو : الوجود والعلم والحياة • ونقد قولهم هذا •

---

(١) أصل الأقنوم فى اللغة السريانية : « شخص مستقل بنفسه » وهو هكذا عند الكاثوليك ، الذين يقولون بتميز الأقانيم وانفصال كل أقنوم ـ أى اله ـ عن الآخر • ثم استعمل مجازا فى « مرحلة » من مراحل ثلاثة لذات الله تعالى عند الأرثوذكس ، القائلين بتجسد الله فى شخص المسيح ابن مريم ، أى أن عيسى هو الله الخالق الرازق المحيى المميت ـ **« كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا »** (الكهف : ٥) •

(٢) ففى التوراة : (أ) « الرب الهنا رب واحد » (ب) « **ليس مثل الله** » (انظر سفر تثنية الاشتراع) •

وذكر قولهم فى تعليل التثليث ، ورد عليهم فيه · وذكر أدلتهم على التثليث ورد عليها ، وبين أنهم مختلفون فى حقيقة الأقانيم اختلافا شديدا ·

الباب الثانى : فى بيان مذاهب النصارى فى الاتحاد والحلول وابطال قولهم فيهما · وفى هذا الباب : بين المؤلف ــ رحمه الله ــ قولهم فى كيفية اتحاد كلمة الله بجسد المسيح عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ وقولهم فى معنى الاتحاد ، ورد عليهم · ورد أيضا على قولهم بالواسطة التى تجسدت بين الله ــ تعالى ــ وبين موسى ــ عليه السلام ــ وهى : كلام الله لموسى فى طور سيناء · وقال : ان كلام الله لم يتجسد · ثم حكى من كلام المتقدمين منهم فى المذهب النصرانى ما يدل على اختلافهم الشديد فى « الاتحاد » ·

وفى نهاية الباب : ذكر مذهب **« أوغسطين »** الذى وضحه فى **مصحف « العالم الكائن »** ونقده نقدا شديدا ــ وبانتهاء البــاب الثانى ينتهى **الجزء الأول** ــ ·

الباب الثالث : فى النبوات وذكر كلام النصارى فيها · وهذا الباب ينقسم الى قسمين :

القسم الأول : حكى القرطبى ــ رحمه الله ــ فيه كلام مؤلف « تثليث الوحدانية فى معرفة الله » فى أمر **« المسيح المنتظر »** الذى هو **« المسيا »** الذى تشير اليه نبوءات : (ا) التوراة (الأسفار الخمسة) (ب) وأسفار الانبياء ، وبين أنه عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ والحق : **أنه محمد** رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

ثم نقل القرطبى ــ رحمه الله ــ قول مؤلف « تثليث الوحدانية فى معرفة الله » للمسلمين : **« وان كان فيها ــ أى فى التوراة ــ محمد منتظرا · ثم وافقت علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن رضا معبوده »** ورد القرطبى ــ رحمه الله ــ عليه : بأن التوراة والانجيل ــ رغم تحريفهما ــ فيهما ذكر لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبأن التوراة والانجيل فيهما تحريف لفظى ومعنوى ، ويحتمل مع هذا التحريف سقوط نبوءات عن محمد كانت واضحة عنه ، وحكى القرطبى أيضا سخرية مؤلف تثليث الوحدانية عن « هاجر » ــ رضى الله عنها ــ أم اسماعيل النبى ــ عليه السلام ــ ورد عليها بنصوص من التوراة تدل على أنها صديقة ·

والقسم الثانى : ذكر فيه المؤلف معنى « النبوة » ومعنى « المعجزة » وبين أن معجزات عيسى ــ عليه السلام ــ لا تدل على ألوهيته ، بل على نبوته ــ وعند هذا الحد ، انتهى **الجزء الثانى** ــ ·

وذكر المؤلف فى القسم الثانى أيضا **أربعة أنواع لاثبات نبوة نبينا محمد** ـ عليه الصلاة والسلام ـ ٠

النوع الأول : من الأدلة على ثبوت نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اخبار الأنبياء به قبله ٠

النوع الثانى : الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٠

النوع الثالث : الاستدلال على نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكتاب العزيز الذى **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »** (فصلت : ٤٢) أى باعجاز القرآن ٠

النوع الرابع : فى الاستدلال على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجملة من الآيات الخارقة للعادات ـ وبانتهاء هذا النوع ينتهى **الجزء الثالث** ـ

الباب الرابع : فى بيان أن النصارى متحكمون فى أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم الا محض أغراضهم وأهوائهم ٠ وهذا الباب يشتمل على :

١ ـ **مقدمة** ٠ بين فيها أن النصارى ليسوا على شىء ، وأنهم خرجوا على تعاليم التوراة وخرجوا على تعاليم الانجيل الذى قال فيه عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » ٠

٢ ـ ويشتمل على فنين :

الفن الأول : ذكر فيه من أسرار الكنيسة السبعة(١) ، وذكر فيه من الشعائر النصرانية والطقوس ٠

والفن الثانى : ذكر فيه عقائد الاسلام ، وأصول أحكامه ، ورد فيه على شبه النصارى على الاسلام ـ وبانتهاء الباب الرابع ينتهى **الجزء الرابع** ـ وهو الأخير ـ من هذا الكتاب المفيد ـ ٠

* * *

---

(١) أسرار الكنيسة السبعة هى : ١ ـ سر المعمودية ، وهى عند الأرثوذكس بالتغطيس فى الماء ، وعند الكاثوليك بالرش ٢ ـ سر المسحة ٣ ـ سر القربان ٤ ـ سر التوبة ٥ ـ سر مسحة المرضى ٦ ـ سر الزواج ٧ ـ سر الكهنوت ٠

وانه لكتاب مفيد فى « علم مقارنة الأديان » لأن مؤلفه رد فيه على كتب كثيرة ورسائل للنصارى ، نصارى الكاثوليك فى الأندلس ، وما حولها من القرى • ومن الكتب والرسائل التى رد عليها : كتاب « المسائل » وكتاب « الحروف » وكتاب « تثليث الوحدانية فى معرفة الله » ومصحف « العالم الكائن »(١) للقديس أوغسطين ، فيلسوف النصرانية ، وكتب من تآليف القسيس « حفص بن البر »(٢) ورسالة الأسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » وقوانين أساقفة « الأندلس » للرعية ، و « بليون الجاثليق » فى رسالته لـ « ليون » الملك ••• الخ •

ومؤلفه من العلماء الأذكياء ، الذين لهم حظ من حفظ نثر وشعر ، وأمثال وحكم ، وقرآن وسنة ، فتحدث بأسلوب أدبى راقى ، ووضع الكلمة فى موضعها المناسب ، وأحسن عرض الأفكار ، وأحكم الرد فى كثير من المسائل •

* * *

وما كنت أنوى اخراج هذا الكتاب ، لأنى أخرجت كتبا كثيرة فى موضوعه • منها : « اظهار الحق » للشيخ رحمت الله الهندى (١٢٣٣ — ١٣٠٨ هـ) الذى اطلع على كتاب الاعلام هذا فى « تركيا » أثناء مقامه فى ضيافة الخليفة عبد العزيز خان — رحمه الله — ونقل منه حساب « الجمل » وذم القديس « بولس » وصاغ كتابه على مثاله(٣) • ومنها : « شفاء الغليل فى بيان ما وقع فى التوراة والانجيل من التبديل » للجوينى عبد الملك أبى المعالى ، امام الحرمين • ومنها : « منظومة الامام الأبوصيرى فى الرد على النصارى واليهود » تأليف الأبوصيرى ناظم بردة المديح المباركة • ومنها كتاب : « على التوراة » للامام الباجى الشافعى ، وقد ألفه فى « الكرك » بالأردن ، فى نفس المكان الذى ألف فيه الاعلام • ومنها كتاب « الفصل • فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم — الجزء الخاص بنقد التوراة والانجيل — ومنها كتاب « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى » لابن قيم الجوزية •

---

(١) يقال : ان هذا الكتاب مفقود الى اليوم •

(٢) حفص بن البر ، هكذا كتب • وكتب أيضا : حفص بن البرقى •

(٣) واطلع عليه ونقل منه أيضا الامام القرافى مؤلف كتاب : (الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاجرة) ، نقل من كلام حفص ومن أوغسطين فى مصحف العالم الكائن • والقرافى — رحمه الله — مات فى سنة (٦٨٤ هـ — ١٢٨٥ م) وهو مصرى المولد والمنشأ والوفاة •

ولكنى أخرجته لحبى لأستاذى الجليل ، الأستاذ الدكتور الشيخ : عبد الغنى عوض الراجحى ، وتقديرى له • فانى لما رأيت أسلوب المؤلف كأسلوبه فى الحديث الشفهى ، وفى التأليف ، رأيت للذكرى أن أخرجه ليتجلى للناس مظهر من مظاهر قدرة الله فى خلقه وهو تشابه رجلين فى عصرين مختلفين فى العقل والنطق ، ولا يمكن أن يحدث هذا ومثل هذا من غير أن يكون وراء الكل مدبر حكيم ، وهو الله عز وجل •

يمتاز مؤلف الكتاب ، وأستاذنا مثله : بحبه للمعرفة ، وتأكده منها ، ثم حماسه لنشرها ، حماس المتعقل الفطن ، الذى يجعل الكلام فى النظريات — كما يقول القديس « أوغسطين » فى مصحف العالم الكائن — « على منازل ودرجات ، ليكون من اجتمع معنا فى الدرجة الأولى ، تكلمنا معه فى الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا فى الدرجة الثانية تكلمنا معه فى الدرجة الثالثة ، ثم نمضى كذلك الى أقصى نهايات الكلام • فانما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص فى معرفة هذه الدرج • لأنا متى ناظرنا فى الدرجة الثانية ، من لم يجتمع معنا فى الأولى ، لم يبلغ الكلام غاية ، ولم يقف على نهاية » اهـ •

وبهذا كان يقول الدكتور عبد الغنى(١) — أعزه الله — •

* * *

وقد رأيت أن أكتب فى هذا التقديم : مبحثين • المبحث الأول : (أصل الأقانيم وتطورها) والمبحث الثانى : (المسيا المنتظر)(٢) الذى هو (المسيح) لأن مؤلف الاعلام ترك شيئا وغابت عنه أشياء • وبذلك نكون معا قد وضعنا الرد التفصيلى ، المحكم بالأدلة : على النصارى •

---

(١) الدكتور عبد الغنى • لم يقتصر على فهم العلوم التى تدرس فى الأزهر وهى الفقه والنحو ••• الخ بل درس الكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء ••• الخ العلوم الحديثة • وكان يفهمها للازهريين بأسلوب واضح على نظرية « أوغسطين » فاستطاعوا أن يفهموها ، ولم يكن جامدا على القديم ، بل كان يجتهد ويخرج بآراء فى الفقه والتفسير وغيرهما تجعله من الأئمة المجتهدين ، وما كان يذم عالما للسماع عنه ، بل اذا سمع طلب الكتاب الذى فيه الرأى ، الذى قيل فيه الذم من أجله ، وينظر فيه بنفسه ، ثم يقول ما يقول عن علم ، لا عن سماع • ولذلك هو أول أزهرى أنصف الشيخ محمد عبده ومدرسته وأعطاهم حقهم من التقدير والاجلال والاحترام — جزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله — وقال للجامدين من الأزهريين : **« موتوا بغيظكم »** (آل عمران : ١١٩) •

(٢) **بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة •**

المبحث الأول :

أصل الأقانيم وتطوّرها

الاقانيم عند النصارى ثلاثة : هى أقنوم الآب ـ بمد الهمزة ، ونطق الباء نطقا خفيفا ـ وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس · وأصل « الآب » عندهم : لقب لله عز وجل وهو يساوى الآب · وأصل « الابن » عندهم : لقب للنبى المنتظر فى المزمور الثانى لداوود عليه السلام · ذلك لانهم يقولون : **« نحن أبناء الله وأحباؤه »** (المائدة : ١٨) كما حكى القرآن عنهم ، ولما أرادوا جعل النبى المنتظر الذى أخبر موسى عليه السلام أنه سيأتى من نسل اسماعيل عليه السلام : نبيا منهم أنفسهم لا من نسل اسماعيل ، وضعوا عليه لقب « ابن » كما يلقبون أنفسهم ليوهموا العالم أنه سيكون منهم لا من نسل اسماعيل · وأصل « الروح القدس » عندهم : لقب للنبى المنتظر أيضا فى الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا ، فقد روى عن عيسى ـ عليه السلام ـ : « بيركليت(١) الروح القدس » وبيركليت : اسم أحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والروح القدس : لقب لأحمد ، أى أحمد المصطفى نبيا من الله القدوس الطاهر · ولما أرادوا ختم النبوة بعيسى ـ عليه السلام ـ جعلوه هو « الابن » وجعلوه هو « الروح القدس » أى لقبوه بلقبى « الابن » و « الروح القدس » بعدما جعلوه هو الله « الآب » وغرضهم من ذلك : قفل باب النبوة فى وجه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ·

وبيـــان ذلك :

لقد كتبوا ـ ونحن نجادلهم بما كتبوا بغض النظر عن صحته أو عدم صحته ، لأنهم يعتقدون فى صحة المكتوب ـ كتبوا فى توراة موسى فى سفر التثنية فى الاصحاح الرابع عشر أن الله ـ تعالى ـ خاطب اليهود بقوله : « أنتم أولاد للرب الهكم » (تث ١٤ : ١) واليهود خاطبوا الله بقولهم : « أنت يا رب أبونا » (أشعياء ٦٣ : ١٦) واليهود يقولون : ان الأبوة والبنوة مجازية ، أى أن الله تعـالى ولى النعم وصاحب الفضل وهم منتسبون اليه ·

---

(١) بيركليت ، جاءت فى الكتاب أيضا « فيرقليط » ثم حرفوها الى « فارقليط » (باركليت) ثم حذفوها الآن من بعض الطبعات وكتبوا بدلها « المعزى » بضم الميم وفتح العين وتشديد الزاى مكسورة ·

يقول شيخ الاسلام الامام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ـ يرحمه الله ـ فى ذلك المعنى : « لفظ الابن يعبر به عمن ولد الولادة المعروفة ، ويعبر به عمن كان هو سببا فى وجوده ، كما يقال : « ابن السبيل » لمن ولدته الطريق ، فانه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده ، ويقال لبعض الطير : « ابن الماء » لأنه يجىء من جهة الماء • ويقال : « كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا » فان الابن ينتسب الى أبيه ويحبه ويضاف اليه أى كونوا ممن ينتسب الى الآخرة ويحبها ويضاف اليها • وهذا اللفظ موجود فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب فى حق « الصالحين » الذين يحبهم الله ويربيهم ، كما ذكروا أن المسيح قال : « أبى وأبيكم ، والهى والهكم »(يوحنا ٢٠ : ١٧) وفى التوراة : أن الله قال ليعقوب : « أنت ابنى بكرى » (خروج ٤ : ٢٢) ونحو ذلك مما يراد به ـ اذا كان صحيحا له معنى صحيح ـ : المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعنى مفهوما عند الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن يخاطبونه ، **وهو من الألفاظ المتشابهة** ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل »(١) ا•هـ

يقول اليهود بذلك لأن الآيات المحكمة فى التوراة تدل على أن الله واحد وليس كمثله شىء • ولم يره أحد ، ولن يقدر أحد على رؤيته • ففى الاصحاح السادس من سفر التثنية : « اسمع يا اسرائيل • الرب الهنا رب واحد »(٢) وفى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « ليس مثل الله » وفى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج قال الله لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الانسان لا يرانى ويعيش » وقال النصارى الأوائل ـ الذين كانوا فى الزمن من قبل التحريف بقول اليهود ، لأن عيسى نبيهم قال لهم : ما جئت لأنسخ التوراة • وفى الأناجيل المتداولة الى اليوم فى أيديهم رغم تحريفها دلائل على التوحيد والتنزيه • ففى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس : نجد كاتبا (عالما) من علماء اليهود يسأل عيسى ـ عليه السلام ـ عن الوحدانية فيجيبه بأن الله واحد كما قال فى التوراة موسى عليه السلام • يقول مرقس : « فجاء واحد من الكتبة ، وسمعهم يتحاورون • فلما رأى أنه أجابهم حسنا • سأله : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد ، وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ ابن تيمية صفحة ٣٤٦ جـزء ٢ •

(٢) وقد استدل عيسى بهذه الآية على أن الله واحد كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس ، وورد أيضا عنه فى متى ولوقا •

فكرك • هذه هى الوصية الأولى » وقد ذكر يوحنا فى الاصحاح الأول من انجيله أن : « الله لم يره أحد قط » كما جاء فى التوراة •

* * *

وسبب تنبؤ داوود عليه السلام عن النبى المنتظر ، وهو متبع للتوراة ، غير خارج عنها :

أن الله تعالى وعد ابراهيم(١) النبى ـ عليه السلام ـ ببركة الأمم فى ولديه : اسماعيل واسحاق ـ عليهما السلام ـ وأكد على ذلك فى أكثر من آية • فعن اسماعيل ـ عليه السلام ـ قال الله لابراهيم : « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه • ها أنا أباركه » (تكوين ١٧ : ٢٠) وقال ملاك الله لهاجر ـ رضى الله عنها ـ : « ها أنت حبلى فتلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل • لأن الرب قد سمع لمذلتك • وأنه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » (تكوين ١٦ : ١١ ـ ١٢) وعن اسحاق ـ عليه السلام ـ قال الله له : « أنا اله ابراهيم أبيك • لا تخف • لأنى معك • وأباركك • وأكثر نسلك • من أجل ابراهيم عبدى » (تكوين ٢٦ : ٢٤) ومعنى البركة : ١ ـ أن يكون من النسل ملوك على الشعوب ليحكموا الناس بشريعة الله حتى يحكم الناس أنفسهم ٢ ـ وأن يكون من النسل نبى يصطفيه الله ويعطيه شريعة ليتحاكم بها الناس •

وبدأت البركة فى نسل اسحاق أولا ، فقد اصطفى الله ولده يعقوب عليه السلام لتحل البركة فيه ، واصطفى من آل يعقوب (اسرائيل) موسى ابن عمران وأعطاه : التوراة **« موعظة وتفصيلا لكل شىء »** (الأعراف : ١٤٥) وجعل من بنى اسرائيل : أنبياء ، لكن على شريعة موسى لا ينسخونها ولا يخرجون عنها ، وجعل منهم ملوكا على الشعوب كما قال تعالى : **« واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين »** (المائدة : ٢٠) لقد جعل فيهم أنبياء وملوكا لتتحقق بهم بركة ابراهيم فى الأمم •

* * *

---

(١) يلقب النصارى ابراهيم عليه السلام بلقب « بطريك » لأنه رئيس الآباء ، وكلمة بطريرك من أصل يونانى (PATRIARCHES) وهى تتكون من مقطعين (PATRIA) أى عائلة و (ARCHE) أى رئيس •

ثم نبه الله – على لسان موسى – على مجىء نبى من اسماعيل ، تنتهى بمجيئه بركة ابراهيم فى الأمم بآل اسحاق ، وتبدأ بمجيئه بركة ابراهيم فى الأمم بآل اسماعيل ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان موسى عليه السلام فى آل اسحاق · قال موسى – عليه السلام – : « يقيم لك الرب الهك : نبيا ، من وسطك ، من اخوتك ، مثلى · له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب الهك فىحوريب يوم الاجتماع ، يوم قلت : لا أعود أسمع صوت الرب الهى ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت · قال لى الله : قد أحسنوا فيما تكلموا · أقيم لهم : نبيا ، من وسط اخوتهم ، مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكلما أوصيه به ·

ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه · وأما النبى الذى يطغى ، فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى (١) · وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ، فلا تخف منه » (تث ١٨ : ١٥ – ٢٢) ·

ومعنى : « كالذى سألت الله ربك فى حوريب ، يوم الاجتماع ، يوم قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى ، ولا أرى هذه النار العظيمة فأموت » ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام – كما كتبوا – : « ها أنا آت اليك فى ظلام السحاب ، لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمنوا بك » (خروج ١٩ : ٩) ولما جمع موسى الشعب نحو جبل حوريب ، اى جبل طور سيناء « كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد · وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خروج ٢٠ : ١٨ – ١٩) فقال الله لهم : حسنا قلتم · واذا أردت مخاطبتكم فسأرسل لكم نبيا مثل موسى له تسمعون وتطيعون ·

وهذه النبوءة تنطبق على محمد – صلى الله عليه وسلم – وهى المشار اليها فى الآية السابعة والخمسين بعد المائة فى سورة الأعراف ، ووجه دلالتها عليه : أنها تحدد تسعة أوصاف للنبى المنتظر كلهم فيه صلى الله عليه وسلم :

---

(١) فى التوراة السامرية ، وفى ترجمة اليسوعيين : « فليقتل ذلك النبى » ·

١ ـ نبى « يقيم لك الرب الهك نبيا » ٠

٢ ـ من بنى اسماعيل « من اخوتك » لأن اسحاق أخ لاسماعيل ولاسماعيل بركة مثل بركة اسحاق ٠

٣ ـ مثل موسى « مثلى » وفى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية « لن يقوم فى اسرائيل نبى كموسى » اذن الآتى هو من اسماعيل ٠

٤ ـ ينسخ شريعة موسى « له تسمعون » ٠

٥ ـ أمى ، لا يقرأ ولا يكتب « وأجعل كلامى فى فمه » ٠

٦ ـ أمين على الوحى الالهى « فيكلمهم بكل ما أوصيه به » ٠

٧ ـ يزيل ملك بنى اسرائيل من العالم ، أى ينهى البركة فيهم : « ويكون أن الانسان ـ من اليهود ـ الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى ٠ أنا أطالبه » أى الله ينتقم من الذى لا يسمع على يديه وأيدى أتبـــاعه ٠

٨ ـ لا يقتل « وأما النبى الذى يطغى ، فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبى » ٠

٩ ـ يتحدث عن مغيبات ، وتحدث فى المستقبل ، كما قال : « وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ٠ فلا تخف منه » ٠

* * *

هذا النبى الذى تنبأ عنه موسى عليه السلام ووصفه بالأوصاف التسعة ، كتب عنه اليهود نبوءة فى سفر المزامير (الزبور) ولقبوه بلقب « ابن الله » ليوهموا الناس أن النبى المنتظر الذى تنبأ عنه موسى فى التوراة سيكون من بنى اسرائيل لا من بنى اسماعيل ٠ ونص النبوءة ، وهى فى الزبور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا ، على الرب ومسيحه ٠ قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما ٠

الساكن فى السموات يضحك ٠ الرب يستهزىء بهم ، حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه ٠ أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون ، جبل موسى ٠

انى أخبر من جهة قضاء الرب • قال لى : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك • اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك ، تحطمهم بقضيب من حديد • مثل اناء خزاف تكسرهم •

فالآن • يا أيها الملوك تعقلوا • تأدبوا يا قضاة الأرض • اعبدوا الرب • بخوف ، واهتفوا برعدة ، قبلوا الابن لئلا يغضب ، فتبيدوا من الطريق ، لأنه عن قليل يتقد غضبه ، طوبى لجميع المتكلين عليه » ا•هـ (المزمور الثانى : ١ ـ ١٢) •

ومعنى النبوءة : أن أمم الأرض سيفكرون فى القضاء على النبى المنتظر ودعوته • هذا النبى الملقب منهم بلقب « مسيح » وبلقب « ابن الله » لكن **((الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون))** (البقرة : ١٥) ، ثم ينصر نبيه ، ويملكه على البلاد ، خاصة البلد التى فيها جبل « صهيون » فى أرض فلسطين •

ويقول داوود ـ ان كان هو القائل ـ : انى أخبر بما قضى الله أزلا وقدر ، انى أخبر : أن الله قال عن النبى المنتظر ، الملقب بلقب « مسيح » قال عنه : « أنت ابنى » أى **((اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى))** (الأعراف : ١٤٤) « أنا اليوم ولدتك » أى قدرت وجودك فى العالم من قبل أن تخلق ، وسوف يمتد ملكك الى أقصى الأرض ، وسوف تنتشر أتباعك فى كل مكان •

انى أعظكم أيها الناس : أن تقبلوا دين هذا النبى ، وأن تعملوا به ، لئلا تهلكوا •

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى التعليق على هذه النبوءة : « انه اذا كان الأب فى لغتهم هو الرب ،الذى يربى عبده ، أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوما مصطفى مختارا » وقال شيخ الاسلام : « وحينئذ فلا يكون تسميته ابنا لكون الرب أو صفته اتحدت به ، بل كما سمى داوود : ابنا ، وكما سمى اسرائيل : ابنا • فقال : « أنت ابنى بكرى » وهذا فى كتبهم »(١) •

* * *

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ جـ ٢ •

ولما ظهر المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وقال انه آخر نبى فى بنى اسرائيل ، وسيأتى من بعدى نبى اسمه أحمد • انقسم بنو اسرائيل على أنفسهم • ففريق آمن بعيسى عليه السلام ، وهم النصارى وفريق كفر به وهم اليهود • والفريق الذى كفر به • انقسم الى قسمين : قسم قال : لا نؤمن بعيسى ولا نطبق نبوءات التوراة عليه ، واذا ظهر محمد ، نقول ليس هو النبى المنتظر المنبأ عنه فى التوراة ، لأن نبوءات التوراة تشير الى آخر لم يأت بعد ، واذا أتى سيكون من اليهود • وقسم قال : نتظاهر بالايمان بعيسى ونطبق نبوءات التوراة عليه ظلما وزورا ، حتى اذا ظهر محمد نقول : ليس هو النبى المنتظر المنبأ عنه فى التوراة ، لأن نبوءات التوراة تشير الى عيسى ، وقد جاء •

وتحمل « بولس » عبء الدعوة الى تطبيق كل نبوءات التوراة على عيسى ابن مريم عليه السلام ، والترويج لها بين النصارى • وقد وجد فى البدء صدا واعراضا ، ثم فى مجمع نيقية بتركيا سنة ثلثمائة وخمسة وعشرين من الميلاد • أقر النصارى الضالون لأول مرة تطبيق نبوءة الابن على عيسى ـ عليه السلام ـ ففى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل ما نصه : « وكان شاول ـ أى بولس ـ مع التلاميذ ، الذين فى دمشق أياما ، وللوقت جعل يكرز ـ أى يبشر ويعظ ـ فى المجامع بالمسيح : أن هذا هو ابن الله » (أع ٩ : ٢٠) وفى نص قانون ايمان النصارى هذه العبارة : « ونؤمن برب واحد : يسوع المسيح ، ابن الله » أى أن المسيح قد جعل « الابن » المشار اليه فى الزبور الثانى ، ليقفلوا باب النبوة فى وجه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الأبد •

وقد ألف الدكتور هانى رزق ـ وهو من نصارى الأرثوذكس ـ كتابا فى « النبوءات » سماه : « يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته » وطبعه فى مصر طبعتين اثنتين ، ربط فيه بين نبوءات الأسفار الخمسة وبين نبوءة داوود عن النبى المنتظر ، الملقب بلقب ابن الله ونبوءات أخرى ، وبين أن كل نبوءات تشير الى نبى واحد هو فى نظره ، ونظر جميع النصارى : عيسى ابن مريم • ويقول الدكتور هانى رزق فى تعليقه على نبوءة داوود : « القول القائل « قال لى : أنت ابنى • أنا اليوم ولدتك » يشير الى أن يسوع المسيح هو ابن الله الآب ، وأن ولادته من الآب هو منذ الأزل • اذ أن اليوم فى هذا القول : هو الأزل •••• الخ »(١) •

هذا هو أصل أقنوم « الابن » عند النصارى • وأما « الآب » بمد الهمزة فهو لقب لله عز وجل عندهم يساوى الأب فى اللغة العربية •

❋ ❋ ❋

---

(١) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٩٤ •

وأما أصل أقنوم « الروح القدس » : فهو نبوءة تنبأ بها النبى عيسى – عليه السلام – عن نبى الاسلام محمد – صلى الله عليه وسلم – فى الاصحاح الرابع عشر وما بعده من انجيل يوحنا . قال عيسى – عليه السلام – لتلاميذه : « ان كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ، ليمكث معكم الى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ...

والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس ، الذى سيرسله الآب باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ... وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون ...

ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا اليكم من الآب ، روح الحق ، الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء . قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا . سيخرجونكم من المجامع ، بل تأتى ساعة ، فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم ، لأنهم لم يعرفوا الآب ، ولا عرفونى . لكنى قد كلمتكم بهذا ، حتى اذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم .

ولم أقل لكم من البداية ، لأنى كنت معكم . وأما الآن فأنا ماض، الى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى : أين تمضى ؟ لكن لأنى قلت لكم هذا ، قد ملأ الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق : انه خير لكم أن أنطلق . لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى . ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلانهم لا يؤمنون بى . وأما على بر فلانى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا . وأما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين .

ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدنى ، لأنه يأخذ بما لى ، ويخبركم » .

* * *

فى هذا القول : نرى المعزى « الروح القدس » أو المعزى « روح الحق » فمن هو المعزى الملقب بلقب « الروح القدس » أو « روح الحق » ؟

اتفقت كلمة اليهود والنصارى على أن الكلمة العبرانية « بيركليت » التى تترجم فى اليونانية : « بيركليتوس » معناها : أحمـد · ويقول النصارى : ان عيسى لم ينطق « بيركليت » بل نطق « باركليت » وهى صفة لا اسم ، ومعناها : الذى يأتى عوضا عن عيسى ليعزى بنى اسرائيل فى فقدهم الملك والنبوة ، وفى بعض التراجم كتبوا : « باركليت الروح القدس » وفى بعض التراجم كتبوا : « المعزى الروح القدس » ثم قال الأرثوذكس : ان المعزى الروح القدس هو نفسه عيسى ابن مريم · لأن عيسى — فى نظرهم — هو الله متجسدا ، وقبل تجسده يلقب بلقب « الآب » وبعد تجسده يلقب بلقب « الابن » وبعد قتله وصلبه وصعوده الى السماء يلقب بلقب « الروح القدس » ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين الناس ، وعد قبل اختفائه بناسوته من الدنيا أن يجىء اليهم بعد خمسين يوما من الاختفاء فى صورة أخرى ، ملقبا نفسه بلقب « الروح القدس » لا بلقب الابن · وكتبوا هذا القول فى الاصحاح الثانى من سفر أعمال الرسـل ·

وقال الكاثوليك : ان الآلهة متعددة ، لا الها واحدا متجسدا ، كما يقول الأرثوذكس ، الآب اله مستقل بنفسه ، والابن اله مستقل بنفسه ، والروح القـدس اله مسـتقل بنفسه ، ومع تعددهم هم واحـد فى درجة اللاهوت ، ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين الناس ، وعد قبل اختفائه بناسوته من الدنيا ، أن يرسل اليهم الاله الأخير بعد خمسين يوما من الاختفاء ، الاله الروح القدس · ومع هذا يقول الكاثوليك ان « المعزى الروح القدس » هو نفسه عيسى ابن مريم ، وغرضهم كغرض الأرثوذكس واليهود وهو : جعل كل نبوءات التوراة والأناجيـل الأربعة تنطبق على عيسى لقفل باب النبوة فى وجه محمد صلى الله عليه وسلم ·

فى كتاب النبوءات الذى ألفه الدكتور هانى رزق : ربط بين نبوءات التوراة ، وبين نبوءة داوود — عليه السلام — وبين تبشير عيسى عليه السلام بنبى من بعده فى قوله : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا ··· الخ » وقال تحت نبوءة « المعزى » : ان عيسى يبشر بالأقنوم الثالث فى الثالوث المقدس ، الذى هو نفسه عيسى عند الأرثوذكس ، وغير عيسى عند الكاثوليك ، وبين أن أشعياء قال فى سفره : ان الله تعالى قال لليهود : « كانسان تعزيه أمه ، هكذا أعزيكم أنا » (أشعياء ٦٦ : ١٣) وأن عيسى لما نطق : « وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا » كان ينطق استنادا على ما جاء فى سفر أشـعياء عن « المعزى » ·· يقول الدكتور هانى :

« بذلك تحققت نبوءة أشعياء بتعزية يسوع المسيح أبناء اسرائيل المؤمنين باسمه ، أثناء وجوده معهم ، ثم وعدهم بارسال المعزى الحقيقى الروح القدس اليهم ليمكث فيهم ويكون معهم • وقد أطلق السيد المسيح — له المجد — كلمة المعزى والمرشد على « الروح القدس » اذ هو يعزى المؤمنين على احتمال كافة الأوجاع والأحزان ، فى سبيل كلمة الرب ، ويرشدهم الى الحق »(١) •

ثم يبين الدكتور هانى : أن الروح القدس لقب للمعزى ، وأن المعزى الملقب بالروح القدس هو نفسه عيسى — عليه السلام — على مذهب الأرثوذكس يقول تحت عنوان : (الاله الواحد ذو الثلاثة أقانيم) :

« يعلن الكتاب المقدس فى العهد الجديد عن أن الاله الواحد ، قائم فى ثلاثة أقانيم هم : الآب ، الأقنوم الأول ، والابن يسوع المسيح ، الأقنوم الثانى • والروح القدس ، الأقنوم الثالث • وأن الثلاثة أقانيم فى وحدة كاملة هى الاله الواحد ، الثالوث المقدس »(٢) اهـ •

وفى مجمع القسطنطينية سنة ثلثمائة وواحد وثمانين من الميلاد اتفق النصارى على أن يكون عيسى هو « الروح القدس » كما اتفقوا من قبل على أنه الابن • وكتبوا هذه العبارة فى قانون ايمانهم وهى : « ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له • مع الآب والابن • الناطق فى الأنبياء » ليقفلوا باب النبوة فى وجه محمد — صلى الله عليه وسلم — الى الأبد •

****

وقد رد عليهم كثير من علماء المسلمين ، ليدخلوا فى الاسلام فيسعدوا فى الدنيا والآخرة • ومن العلماء الذين ردوا الامام الفقيه شهاب الدين أحمد بن ادريس المالكى القرافى فقد كتب فى كتابه « الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاجرة » عن « نبوءة الابن » نقل أولا من عبارات الزبور الثانى لداوود عليه السلام ، ثم بين أن النبوءة تشير الى محمد — صلى الله عليه وسلم — ونص عبارته : « قال داوود — عليه السلام — فى المزامير : « أنت ابنى وأنا اليوم ولدتك ، سلنى أعطيك الشعوب ميراثك ، وسلطانك الى أقصى الأرض ، ترعاهم بقضيب من حديد ، ومثل آنية الفخار تسحقهم » ومحمد — عليه السلام — هو الذى ورث ، وبلغ

---

(١) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٣٦

(٢) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٢٢٢

سلطانه أقطار الأرض ، وحاط الأمم ، وسامهم بسيفه ، ولم يتفق هذا لداوود ، ولا لأحد من بعده ، فيكون هو المبشر به ، وسمى : ابنا على العادة القديمة فى تسمية المطيع والنبى : ابنا . كما قال فى التوراة فى اسرائيل — عليه السلام — : « ابنى بكرى »(١) ا.هـ .

والامام الفقيه شيخ الاسلام ابن تيمية الحرانى . فقد كتب فى « الجواب الصحيح لمن بدلدين المسيح » عن « الفارقليط ، الروح القدس » نقل أولا كلام يوحنا ، ثم ذكر أقوال النصارى فى معنى « الفارقليط » ثم ذكر وجهة نظرهم ، ثم رد عليهم ردا حسنا . ومن عباراته : « ان معنى الفارقليط ، ان كان هو الحامد أو الحماد ، أو الحمد ، أو المعز . فهذا الوصف ظاهر فى محمد — صلى الله عليه وسلم — فانه وأمته : الحمادون ، الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد ، والحمد مفتاح خطبته ، ومفتاح صلاته . ولما كان حمادا جوزى بوصفه ، فان الجزاء من جنس العمل ، فكان اسمه : محمدا ، وأحمدا . وأما محمد فهو على وزن مكرم ومعظم ، وهو الذى يحمد حمدا كثيرا مبالغا فيه ، ويستحق ذلك ، فلما كان أحمد ، كان محمدا . وفى شعر حسان بن ثابت :

وشـــق له من اسـمه ، ليجـــله   فذو العرش : محمود ، وهذا : محمد

وأما أحمد ، فهو أفعل التفضيل ، هو أحمد من غيره ، أى أحق بأن يكون محمودا ، أكثر من غيره ، يقال : هذا أحمد من هذا ، أى هذا أحق بأن يحمد من هذا ، فيكون فيه تفضيل له على غيره فى كونه محمدا . فلفظ محمد ، يقتضى فضله فى الكمية ، ولفظ أحمد يقتضى فضله فى الكيفية . ومن الناس من يقول أحمد ، أى أكثر حمدا من غيره ، فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحماد .

وقال من رجح أن معنى الفارقليط فى لغتهم هو الحمد كما تقدم : اذا كان كذلك فهو ما جاء فى القرآن : **« ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »** (الصف : ٦) قالوا : ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد ... الخ »(٢) ا.هـ .

وقد وضحنا ذلك كله فى كتابنا : أقانيم النصارى . وفى كتابنا : الله وصفاته فى اليهودية والنصرانية والاسلام .

* * *

---

(١) كتاب الأجوبة الفاخرة — على هامش الفارق بين المخلوق والخالق لباجه جه زاده — مطبعة الموسوعات بمصر ص ٢٤٨ .

(٢) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٦ .

ولانهم على باطل فى أصل الأقانيم ، لأنهم أخذوا ما ليس لهم ، وبنوا عليه معتقدا ومذهبا : أختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا ، وتجادلوا جدالا عنيفا ، ولعن بعضهم بعضا ، وكفر بعضهم بعضا . وأذكر هنا اليسير مما فى كتبهم عن هذا الموضوع ليكون شاهدا على ما نقول : جاء فى كتاب « تاريخ الأقباط » لزكى شنودة فى الجزء الأول ما يلى عن الاختلاف والجدال :

قال « **نسطور** » : « ان مريم لم تلد الها ، بل ما يولد من الجسد ، ليس الا جسدا ، وما يولد من الروح هو روح . ان الخليقة لم تلد الخالق ، بل ولدت انسانا ، هو آلة اللاهوت » وقال **نسطور** أيضا : « انه لما كان الجزء اللاهوتى من طبيعة المسيح لم يولد من العذراء ، فلا يحق أن تسمى والدة الاله ، بل والدة المسيح الانسان » يريد أن يقول : ان المسيح ليس هو باله كلى ، وليس هو بانسان كلى ، بل بعضه اله ، وبعضه انسان . وبذلك جعل للمسيح أقنومين . أحدهما : انسانى . والآخر : الهى . واعتقد بأن الطبيعة الألهية لم تتحد بالانسان .

وقال « **مكدونيوس** » : « ان الروح القدس : عمل الهى منتشر فى الكون ، وليس أقنوما متميزا عن الآب والابن » .

وقال « **أوطاخى** » : « ان طبيعة المسيح الناسوتية اندمجت فى اللاهوتية ، اذ أن جسد المسيح بما أنه جسد اله ، لا يعتبر مساويا لجسدنا فى الجوهر ، لأن طبيعته البشرية قد تلاشت فى الطبيعة الألهية » .

وقال « **آريوس** »(١) : « نؤمن باله واحد متعال ، يفوق حد التصور ، منطو على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شىء له نهاية ، وهو فريد ، لا شبيه له . أزلى لا بداية له ، لا يموت ، صالح ، وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات » .

وقال « **كرنثيوس** » : « ان روح المسيح حلت على يسوع الناصرى عند عماده من يوحنا بنهر الأردن حتى اذا قبض عليه اليهود ليصلبوه طارت روح المسيح الى السماء تاركة يسوع يصلب وحده » .

---

(١) قال كثير من العلماء : فى الخطاب الذى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم وحمله اثم الاريسيين فيه اذا لم يسلم : ان المراد بالاريسيين أتباع القديس آريوس الذى جهر ونادى بعقيدة التوحيد والتنزيه ، وهذا القول سديد ، لأن أتباع آريوس ظلوا على دينهم من بعده ونادوا به .

وقال : « **أمونيوس السقاص** » : « اننا يجب أن نضم جميع **الأديان** بما فيها الدين المسيحى فى دين واحد ليعتنقها الجميع ، وأن نجعل **مبادىء** هذا الدين الجديد مرضية لكل أصحاب الأديان » .

وقال « **باريليوس** » : « ان يسوع المسيح قوة غير هيولية ، **وأنه** كان يتخذ لنفسه ما يشاء من الهيئات ولذلك فانه حين أراد **اليهود أن** يصلبوه اتخذ صورة سمعان القروى وأعطاه صورته فصلب سمعان **وأما يسوع** فقد صعد الى السماء » .

وقال « **كربوكراتس** » : « ان المسيح انسان كسائر الناس ، **وانما** يمتاز عليهم بقوته » .

وقال « **فالنتيوس** » : « ان المسيح مركب من جوهر روحى ، **وقد أخذ** جسدا أثيريا من السماء ، ومر به من جسد السيدة العذراء ، **ثم اتحد** بجسد يسوع عند العماد . فلما أراد اليهود صلب يسوع **تركته روح** المسيح الى السماء وعلق على الصليب جسد يسوع المـادى » .

وقال « **سابيليوس** » : « ان الله أقنوم واحد ، وقد أعطى **الناموس** لبنى اسرائيل بصفته الآب ، وصار انسانا فى العهد الجديد **بصفته الابن** ، وحل على الرسل فى علية صهيون(١) . بصفته الروح القدس . **وأن جزءا** من الطبيعة الالهية انفصل عن الله الآب ، وكون الابن **بالاتحاد مع الانسان** يسوع المسيح . وأن جزءا آخر انفصل عنه فكون الروح القدس » .

وقال « **نيبوس** » : « ان الوقت قد قرب ليملك المسيح **على الأرض** ألف سنة كأحد ملوك العالم » .

وقال « **بيرلس** » : « ان السيد المسيح قبل ولادته من العذراء **لم يكن** له لاهوت متميز ، وانما كان له لاهوت الآب . أى أن المسيح **لم يكن له** وجود قبل ولادته من مريم وأن النفس الانسانية التى **أصلها من الله** دخلت بالولادة واتحدت بالانسان ، وهى بلا ريب فائقة **كل النفوس البشرية** لأنها منبثقة من الطبيعة الالهية » .

وقال « **بولس السيمساطى** » : « ان ابن الله لم يكن من **الأزل ، بل** ولد انسانا حلت فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . **وأن هذه** الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب قد فارقته **حين أمسكه**

---

(١) اقرأ الاصحاح الثانى من سفر أعمال الرسل .

اليهود ليصلبوه • وبسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوغ القول : ان المسيح هو الله ولكن مجازا ، لا حقيقة » وقد أدى هذا القول بالسيمساطى لأن يزعم بأنه كان فى المسيح أقنومان وابنان لله • أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى • وبذلك شايع « سابيلوس » فى انكار الثالوث الأقدس بقوله : انه يوجد اله واحد هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب • وأن كلمته وحكمته ليست أقنوما ، بل انها فى الكيان الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى •

وقال ((**مانى**)) : « ان الكون يحكمه الهان ، هما اله النور ، واله الظلام ، وقد تمكن اله الظلام من مزج المادة المظلمة بقبس من النور • فكان هذا هو الانسان المكون من جسد مأخوذ من مادة الظلام • ومن روح مأخوذة من فيض النور • وقد أراد اله النور أن يخلص عنصر النور فى الانسان من عنصر الظلام ، فخلق من نفسه كائنين عظيمين هما : المسيح والروح القدس • وأرسل المسيح ليخلص أرواح النـاس ، ويعيدها الى وطنها السماوى • وقد ظهر المسيح بين اليهود لابسا صورة جسد انسانى وليس جسدا حقيقيا • وأعلن لهم السبيل الوحيد لخلاص النفوس من أجسادها وبرهن على لاهوته بعجائبه • ولكن اله الظلمة أغوى اليهود فصلبوه • ولما لم يكن له جسد ، لم تؤثر فيه الآلام وقد عاد المسيح الى عالم النور بعد أن ترك تلاميذه ليعلموا الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى ، وهو « البارقليط » •

* * *

وبعد ما قدمنا طرفا يسيرا من الخلافات والمجادلات فى العقائد الدينية ، نذكر أهم المجامع التى تقررت فيها العقائد النصرانية ، فننقول عن الجزء الأول من تاريخ الأقباط :

١ — مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية

يسمى مجمع نيقية بالمجمع المسكونى الأول • وعقد فى نيقية عاصمة « بثينية » بآسيا الصغرى فى ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ ميلادية • بأمر الامبراطور « قسطنطين » الكبير ، وقد حضره بنفسه وحضره ٣١٨ أسقفا غير القسوس والشمامسة من كل أنحاء العالم المسيحى •

وعند افتتاح جلسات المجمع دخل الامبراطور « قسطنطين » وتصدر الاجتماع • ثم ألقى خطابا حض فيه على فض المشاكل بالحكمة • ثم بدأ المجمع أعماله ، ونظر فى المسائل المعروضة عليه •

وكان السبب الرئيسى لعقد المجمع : النظر فى بدعة « آريوس » الذى نادى بأن « يسوع المسيح ليس أزليا ، وانما هو مخلوق من الآب » ·

وكان أبرز الذين جادلوه : القديس « أثناسيوس الاسكندرى » وقد قرر المجمع : حرم آريوس وتحريم بدعته ، وحرق كتبه ، ونفيه الى « الأليريكيون » بجوار بحر « الادرياتيك » ووضع المجمع الجزء من قانون الايمان ، الذى يبدأ بعبارة : « نؤمن باله واحد » وينتهى بعبارة « ليس لملكه انقضاء » ونصه :

« نؤمن باله واحد · الآب ضابط الكل · خالق السماء والأرض · ما يرى وما لا يرى · ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق من اله حق مولود غير مخلوق · مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس ، وصلب عنا ، على عهد بيلاطس النبطى وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث ، كما فى الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين أبيه ، وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه انقضاء »(١) ا·هـ ·

٢ — مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية

كان الغرض من عقد المجمع : محاكمة أصحاب البدع(٢) ، التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « مكدونيوس » و « يوسابيوس » و « أبوليناريوس » وكان مكدونيوس أسقفا أقامه الآريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٤٣ م ثم عزل فى سنة ٣٦٠ لمناداته ببدعة جديدة ، وهى انكار لاهوت الروح القدس · اذ قال : ان الروح القدس : مخلوق كسائر المخلوقات ، وقد ناقشه المجمع ثم حرمه ، وحرم بدعته ، وأسقطه من رتبة الأسقفية · وكان يوسابيوس ينكر وجود الثلاثة الأقانيم ، ويقول : ان الثالوث ذاتا واحدة ، وأقنوما واحدا ، فناقشه المجمع ثم قطعه وأسقطه من رتبته · وكان أبوليناريوس ، أسقفا على « اللاذقية » بالشام ، وقد أنكر وجود النفس البشرية فى المسيح ، واعتقد أن لاهوته قام مقام الروح الجسدية فى احتمال الآلام والموت ، أى أن الآلام والموت قد وقعا على جوهر اللاهوت ، كما اعتقد بوجود تفاوت فى العظمة بين الأقانيم الثلاثة · فالروح القدس عظيم والابن

---

(١) النص من خلاصة الأصول الايمانية فى معتقدات الكنيسة القبطية الأثروذكسية ·

(٢) فى نظر النصارى ·

أعظم والآب هو الأعظم • وقد حكم المجمع بحرم أبوليناريوس ، وتحريم بدعته ، واسقاطه من رتبته •

ثم وضع المجمع تكملة لقانون الايمان الذى وضعه مجمع نيقية ، ونص التكملة :

« ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لغفران الخطايا ونترجى قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتى • آمين »(١) •

٣ — مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ميلادية

كان الغرض من هذا المجمع : محاكمة أصحاب البدع التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « بيلاجيوس » و « نسطور » وكان بيلاجيوس يعتقد : أن خطيئة آدم قاصرة عليه ، ولم تتسرب منه الى نسله ، ولذلك فان الانسان حين يولد يكون كآدم قبل الخطيئة ، ومن ثم يمكنه بمحض ارادته وملكاته أن يبلغ أسمى درجات الكمال ، وكان نسطور ينادى بأن « طبيعة السيد المسيح اللاهوتية منفصلة عن طبيعته الناسوتية » ورتب على ذلك : أن اللاهوت لم يولد ولم يصلب ولم يقم مع الناسوت • كما رتب على ذلك : عدم جواز تسمية السيدة العذراء بوالدة الاله ، وتسميتها « أم يسوع » فقط • فانعقد المجمع وحكم بتحريم بدعة نسطور ، وأثبت أن فى المسيح أقنوما واحدا وطبيعة واحدة بعد الايجاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة • ولذلك فان العذراء تدعى بحق والدة الاله ، وقد وضع المجمع مقدمة لقانون الايمان تبدأ بعبارة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى » وتنتهى بعبارة « يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين » •

ونص المقدمة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ، ونمجدك أيتها العذراء المقدسة ، والدة الاله ، لأنك ولدت لنا مخلص العالم ، أتى وخلص نفوسنا • المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل ، اكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا • نبشر بالثالوث المقدس ، لاهوت واحد ، نسجد له ، ونمجده • يارب ارحم ، يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين »(٢) •

---

(١) النص من خلاصة الأصول الايمانية •

(٢) النص من كتاب العذراء فى التاريخ الكنسى — انظر ص ٦٠ من كتابنا اقانيم النصارى •

٤ — مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩ ميلادية

سبب انعقاد هذا المجمع : التماس تقدم به « أوطاخى » الذى كان قد اعترف بأن طبيعة المسيح الناسوتية ، اندمجت فى اللاهوتية ، وتاب من هذا الاعتراف ، وطلب براءته ، فانعقد المجمع وحكم ببراءته ، كما ناقش المجمع : الأسقف « فلابيوس » الذى اتهم بأنه من أتباع « نسطور » وحكم بعزله من وظيفته • ولما لم يرق فى عين أسقف (روما) قرارات هذا المجمع ، لم يعترف به ، وطلب عقد مجمع آخر ، هو مجمع « خلقيدونية » •

٥ — مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية

حضر هذا المجمع أساقفة روما ، كما حضره البابا « ديسقورس » بطريرك الاسكندرية ، ومعه أساقفته • وقد اشتد الخلاف فى اليوم الأول بين أساقفة روما وبين بطريرك الاسكندرية وأساقفته حتى اذا كان اليوم الثانى للمجمع منع البابا ديسقورس وأساقفته بالقوة من حضور الجلسة واجتمع أساقفة روما مع بعض أساقفة الشرق ، وحكموا بعزل ديسقورس ، ونفيه ، ونادوا بعقيدة الطبيعتين والمشيئتين • وقد أراد الامبراطور « مركيان » أن يلزم البابا ديسقورس بأن يعترف بهذه البدعة ، مهددا اياه بالقتل • فأجاب ديسقورس قائلا : « ان القيصر لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ، ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة ، فانهم يعرفون الكتب ، وخير له أن لا يميل مع الهوى ، ولا يتبع غير الحق » • فأصدر القيصر أمره بنفيه الى جزيرة « فلاغونيا » بآسيا الصغرى •

ولا تعترف الكنيسة القبطية (الأرثوذكس) بمجمع خلقيدونية ولا بقراراته ، كما لا تعترف بالمجامع التى عقدت بالقسطنطينية بعد ذلك فى سنة ٥٥٣ وسنة ٦١٠ وسنة ٧٨٦ لمخالفة الذين اشتركوا فيها مع الكنيسة القبطية فى الاعتقاد بأن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة » (انتهى من تاريخ الأقباط) •

* * *

لقد تم الانفصال التام بين الكنائس الغربية ، كنائس الكاثوليك (الملكانية) وبين الكنائس الشرقية كنائس الأرثوذكس (اليعاقبة) من يومئذ أى من يوم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية الى يومنا هذا ونحن فى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد ، ونادى الكاثوليك : بعقيدة تعدد الآلهة ، ونادى الأرثوذكس : بعقيدة تجسد الاله •

والمسيح ابن مريم اله ثان من الآلهة الثلاثة عند الكاثوليك ، اله مستقل بنفسه ، والمسيح ابن مريم هو الاله المتجسد عند الأرثوذكس ٠

يقول الكاثوليك : ان الآلهة ثلاثة : ١ ـ الآب (الله) ٢ ـ والابن (المسيح) ٣ ـ والروح القدس ٠ ويقول الكاثوليك : ان المسيح فيه طبيعة الهية كاملة ، وطبيعة انسانية كاملة ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ ويقول الأرثوذكس : ان الله ـ وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ حل فى بطن العذراء مريم ، واتحد ، وخرج انسانا هو المسيح يسوع ، ثم كبر وقتل ودخل القبر ومكث فى الجحيم ثلاثة أيام ، ثم خرج من الجحيم الى القبر ومن القبر قام وارتفع الى السماء ، وقبل التجسد يسمى أقنوم الآب ، وبعد التجسد يسمى أقنوم الابن ، وبعد القتل يسمى أقنوم الروح القدس ٠ والأقنوم عندهم مرحلة من مراحل ثلاث لذات الله تعالى ٠ ويقول الكاثوليك : انه لما ارتفع جلس بجوار أبيه ٠ وهذا يعنى أنه اله مستقل عن الاله الآب ٠ وأنه قبل قتله أوصى بقبول الروح القدس ، وقد نزل بعد ارتفاعه ، وهذا يعنى أن الروح القدس ثالث ثلاثة ٠

وقد رد الله تعالى عليهم فى القرآن الكريم بقوله لأتباع الكاثوليك والأرثوذكس : ((**ولا تقولوا ثلاثة**))(١) أى ثلاثة آلهة متعددين ، أو ثلاثة مراحل للاله الواحد المتجسد ٠ ورد على الكاثوليك بقوله : ((**لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة**))(٢) ورد على الأرثوذكس بقوله : ((**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم**))(٣) ٠

* * *

(١) النساء : ١٧١
(٢) المائدة : ٧٣
(٣) المائدة : ١٧ ، ٧٢

المبحث الثانى :

المسيا المنتظر

كان من عادة الكهنة ، علماء بنى اسرائيل أن يمسحوا الملوك بزيت ، أو بدهن ، عند توليهم الرئاسة على الناس ، وكانوا يمسحون العلماء أيضا والأنبياء ، ويطلقون على الملك الممسوح ، أو العالم أو النبى لقب : « مسيح » أى أن الله هو الذى اختاره واصطفاه واجتباه ٠

ولقب « المسيح » هو فى اللغة العبرانية : « هاماشيح » و « ها » فى العبرانية تساوى الألف واللام فى العربية ، فلذلك نطقت : « ماشيح » والسريانية أى الآرامية تنطقها : « ماشيح » ونطقها اليونان : « مسيح » وعرفت فى اللغة العربية واشتهرت : « مسيا » بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة ففى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا : **« مسيا ، الذى تفسيره المسيح »** (يوحنا : ١ : ٤١) ٠

ودليل الكهنة على المسح : آيات فى التوراة ، منها قول الله لموسى : « وتلبس هرون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكهن لى ، وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصة ، وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهنوا لى ٠ ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم كهنوتا أبديا فى أجيالهم » (خروج ٤٠ : ١٣ ـ ١٥) وقد مسح صموئيل : طالوت لما اصطفاه الله ملكا على بنى اسرائيل ـ كما هو مبين فى سفره ـ ومسح داوود مرتين ، ومسح أيضا سليمان ابنه ، وكذلك مسح ايلياء واليسع ٠

* * *

ولما كان لقب « مسيح الله » لقبا معظما فى بنى اسرائيل ، يتفاخر بحمله الملوك والعلماء والأنبياء لقبوا النبى الذى تحدث عنه موسى ـ عليه السلام ـ بقوله : « يقيم لك الرب الهك نبيا ٠٠٠ الخ » لقبوه بلقب « المسيح » وقالوا : نحن فى انتظار المسيح ٠ وهذا هو أصل ظهور فكرة « المسيح المنتظر » فى العالم ٠

وفى مدينة بابل أراد اليهود قصر شريعة التوراة عليهم ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء ٠ كرها فى العرب الذين خذلوهم فى حربهم لنبوخذ ناصر ملك بابل ٠ فأوهموا الناس أن المسيح الذى ينتظروه ليس من العرب أبناء اسماعيل ، بل سيظهر من اليهود ونشروا الاشاعة هذه فى كل مكان حلوا فيه ٠ وهذا أول مكان ظهرت فيه فكرة المسيح المنتظر فى العالم على أنه سيظهر من اليهود ٠

ولما رجع اليهود من سبى بابل انقسموا الى سامريين وعبرانيين ، كما كانوا قبل السبى بقليل وقال السامريون : ان المسيح سيظهر منا ، من آل يوسف — عليه السلام — وقال العبرانيون : ان المسيح سيظهر منا ، من آل داوود — عليه السلام — ·

فقال المسيح عيسى ابن مريم — عليه السلام — للعبرانيين : لن يظهر المسيح من آل داوود لأن داوود نفسه قال نبوءة عنه ، وقال فى النبوءة : « ان النبى المنتظر سيدى » ولا يكون الابن سيد أبيه ، وبالتالى : يكون النبى المنتظر ، الملقب بلقب المسيح لا يكون من آل داوود أبدا · يقصد : لا يكون البتة من اليهود ·

وبعد رفع عيسى — عليه السلام — الى السماء قال « بولس » للذين رضوا بتحريف دعوة عيسى — عليه السلام — : اجعلوا عيسى هو المسيح المنتظر ، وقولوا : انه هو الذى تحدثت عنه التوراة ، وأسفار الأنبياء ، ولا نبى بعده · فجعلوه هو المسيح المنتظر ، مع أنه بين فى حياته : أن المسيح المنتظر سيأتى من بعده ·

***

والآن · نسوق الأدلة من التوراة على أن المسيح المنتظر هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو عيسى ابن مريم كما يزعم النصارى ، وليس هو الى الآن لم يظهر واذا ظهر سيكون من اليهود كما يزعم اليهود · وقبلما نذكر الأدلة نقول : اننا بهذا لا نقول ان عيسى ابن مريم — عليه السلام — ليس مسيحا ، بل نقول : هو « مسيح » ولكن لا نقول انه هو « المسيح » هو مسيح كطالوت وكداوود وسليمان والياس واليسع — عليهم السلام — ولكن ليس هو المسيح الموعود به فى النبوءات ، بحسب اصطلاح اليهود والنصارى فى النطق والتعبير · ولا قيمة لاختلاف الأسماء والألفاظ اذا وضحت المسميات فان « العبرة بالمقاصد والمعانى ، لا بالألفاظ والمبانى » كما يقول أهل الأصول ·

الدليل الأول : فى التوراة نبوءة عن النبى المنتظر ، الذى يلقبونه بلقب المسيا ، وقال علماء بنى اسرائيل : ان هذه النبوءة أصل فكرة المسيا المنتظر ، ومن أوصافه فى النبوءة يعرفونه اذا جاء ، ونص النبوءة :

« يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى · له تسمعون ··· أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به · ويكون أن الانسان الذى **لا** يسمع لكلامى الذى يتكلم

به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى .. الخ » وقد سبق ذكرها . والدليل على أنها تدل على المسيا قول مفسرى التوراة فى شرحها : « يعلن موسى اعلانا نبويا مسيانيا ، عن النبى الذى سيأتى ، الذى سيخلفه فى وظيفته كنبى .. الخ »(١) .

أى أن الذى سيخلف موسى فى الدعوة هو المسيا المنتظر الذى تشير اليه هذه النبوءة . واذا كانت هذه النبوءة تدل على النبى المنتظر ، الذى يلقبونه بلقب مسيا ، - وهى تدل - فان المسيا المنتظر هو محمد - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك : أن علماء بنى اسرائيل الذى أسلموا وكتبوا كتبا فى اثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأدلة من التوراة ، قالوا : ان هذه النبوءة تشير اليه ، وأن علماء المسلمين الذين أثبتوا كما أثبت علماء بنى اسرائيل قالوا بقولهم . ومن علماء بنى اسرائيل : شموئيل بن يهوذا بن أيوب فى كتابه « بذل المجهود فى افحام اليهود » ومن علماء المسلمين : ابن قيم الجوزية فىكتابه « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى » والقرافى فى « الأجوبة الفاخرة » وابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وكثيرون لا يحصون عدا . ومن كتاب الفصل ما نصه : « وأما اعجاز القرآن فانما يعرفه العلماء بلغة العرب ، ثم يعرفه سائر الناس باخبار العلماء لهم بذلك . مع مافى التوراة من الانذار البين برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله تعالى فيها : « سأقيم لبنى اسرائيل نبيا من اخوتهم ، أجعل على لسانه كلامى ، فمن عصاه انتقمت منه » ولم تكن هذه الصفة لغير محمد - صلى الله عليه وسلم - واخوة بنى اسرائيل هم بنو اسماعيل »(٢) .

الدليل الثانى : فى التوراة ، يقول يعقوب - عليه السلام - لبنيه : ان الملك لن يزول منكم ، وان الشريعة لن تزول منكم الا اذا أتى « شيلون » فانه اذا أتى يتسلم الملك ويتسلم الشريعة ، وتدين له أمم الأرض بالطاعة والولاء . قال يعقوب - عليه السلام - : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعلوم أن الملك لم يزل من اليهود الا على يد عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - لما تسلم مدينة القدس (أورشليم) من البطريرك « صفرنيوس » ومعلوم أن النصارى شيعة من اليهود وطائفة . وعيسى - عليه السلام - هو آخر نبى فى بنى اسرائيل ولم ينسخ

---

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسون - المجلد الأول ص ٤٠٣ .

(٢) الفصل لابن حزم الظاهرى الأندلسى جـ ١ - ص ١١١ .

التوراة • وانما الذى صرح بنسخها نبى الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو الذى حقا زالت شريعة اليهود على يديه • والدليل على أن قول يعقوب ـ عليه السلام ـ هذا نبوءة عن المسيا المنتظر : قول مفسرى التوراة فى شرحها : « حتى يأتى شيلون : هذه عبارة صعبة • لكن يبدو أن أفضل تفسير هو ذاك الذى يعتبرها نوعا من الحديث عن المسيا اذا تحرك الحرف الساكن ـ وهذا أمر مسموح به فى اللغة العبرية ـ فان الكلمة يمكن أن تترجم « الذى له » ••• الخ »(١) أى أن النبوءة تدل على المسيا فى أفضل تفسير •

واذا كانت هذه النبوءة تدل على النبى المنتظر الذى يلقبونه بلقب مسيا ـ وهى تدل ـ فان المسيا هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والدليل على ذلك : هو الدليل الذى ذكرته فى النبوءة الأولى • ومن العبارات التى جاءت فى كتب تفسير القرآن الكريم عن هذه النبوءة قول الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره المسمى « تفسير المراغى » : « جاء فى سفر التكوين : « فلا يزول القضيب من يهوذا ، والراسم من تحت أمره ، الى أن يجىء الذى هو له ، واليه تجتمع الشعوب » وفى هذا دلالة على مجىء محمد ـ عليه السلام ـ بعد تمام حكم موسى وعيسى »(٢) •

الدليل الثالث : فى التوراة يقول الكاتب « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رسول الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الله من طور سيناء ، ويشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ، ومعه ربوة من أطهار الملائكة عن يمينه ، فوهب لهم وأحبهم ورحم شعبهم • وباركهم ، وبارك على أطهاره ، وهم يدركون آثار رجليك ويقبلون من كلمتك • أسلم لنا موسى مثله • وأعطاهم ميراثا لجماعة يعقوب ••• الخ » (تثنية ٣٣ : ١ ـ ٤) هذا النص من الترجمة اليونانية ، وأما النص العبرانى فهو : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران • وعن يمينه نار شريعة لهم • فأحب الشعب • جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب ••• الخ » •

ودلالة هذه النبوءة على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يقسم بركة الله التى وعد بها ابراهيم ـ عليه السلام ـ أن تتبارك الأمم فى نسله •

---

(١)تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسون ـ المجلد الأول ص ٢١٠ •

(٢) تفسير المراغى فى سورة الأعراف الجزء التاسع ص ٨٢ • وانظر أيضا تفسير المنار للشيخ رشيد رضا •

ونسل ابراهيم القائم بالبركة هو فى اسماعيل واسحاق ـ عليهما السلام ـ كما سبق ذكره وموسى الذى نزلت عليه التوراة فى طور سيناء وعيسى الذى نزل عليه الانجيل فى جبل ساعير ، هما من نسل اسحاق ـ عليه السلام ـ وقد أشار بفاران الى نبى يظهر من آل اسماعيل لتبدأ من وجوده بركة الأمم فى آل اسماعيل على يد واحد من نسله • والدليل على أنه يقصد بفاران نسل اسماعيل : يسوقه شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هكذا : يقول فى الجزء الثالث من كتابه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » :

« وبعضهم يقول فى الترجمة : « تجلى الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » قال كثير من العلماء ـ واللفظ لمحمد ابن قتيبة ـ ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض • لأن مجىء الله من طور سيناء : انزاله التوراة على موسى من طور سيناء ـ كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ـ وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير : انزاله الانجيل على المسيح ••• وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران : انزاله القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجبال فاران : هى جبال مكة • قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب : خلاف فى أن « فاران » هى : مكة • فان ادعوا أنها غير مكة ، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وافكهم • قلنا : أليس فى التوراة : أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ؟ (تكوين ٢١ : ٢١) وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران ؟ والنبى الذى أنزل عليه كتابا بعد المسيح ؟ أوليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف • فهل تعلمون : ظهر دين ظهور الاسلام ، وفشا فى مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟ ••• الخ »(١) •

والدليل على أن بركة اسماعيل تعنى الملك والنبوة وأن بركة اسماعيل مرتبطة بنبوءة فاران يسوقه الامام الشهرستانى هكذا فى الجزء الثانى من كتابه « الملل والنحل » : « واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى ـ عليه السلام ـ حقا ، وكون صاحب الشريعة صادقا ، بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه • اما تحريفا من حيث الكتابة والصورة • واما تحريفا من حيث التفسير والتأويل ، وأظهرها ذكره ابراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه اسماعيل ، ودعاؤه فى حقه وفى ذريته ، واجابة الرب تعالى اياه : « انى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم

---

(١) الجواب الصحيح جـ ٣ ـ ص ٣٠٠ •

الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها • وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتى » (تكوين ١٧ : ٢٠) •

واليهود معترفون بهذه القصة • الا أنهم يقولون : أجابه بالملك دون النبوة والرسالة •

وقد ألزمتهم : ان الملك الذى سلمتم • أهو ملك بعدل وحق ، أم لا ؟ فان لم يكن بعدل وحق ، فكيف يمن على ابراهيم بملك فى أولاده هو جور وظلم ؟ وان سلمتم : العدل والصدق من حيث الملك • فالملك يجب أن يكون صادقا على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله •

وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق ؟ اذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ، ففى تكذيبه ، تجويزه ، وفى التجويز : رفع المنة بالنعمة ، وذلك خلف •

ومن العجب : أن فى التوراة : أن الأسباط من بنى اسرائيل ، كانوا يراجعون القبائل من بنى اسماعيل ويعلمون أن فى ذلك الشعب علما لدنيا ، لم يشتمل التوراة عليه ، وورد فى التواريخ : أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون : آل الله ، وأهل الله •

وأولاد اسرائيل : آل يعقوب ، وآل موسى ، وآل هرون • وذلك كسر عظيـم •

وقد ورد فى التوراة : « أن الله تعالى جاء من طور سيناء ، وظهر بساعير ، وعلن بفاران » (تثنية ٣٣ : ٢) وساعير : جبال بيت المقدس ، الذى كان مظهر عيسى — عليه السلام — وفاران : جبال مكة ، الذى كانت مظهر المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ولما كانت الأسرار الالهية ، والأنوار الربانية فى الوحى والتنزيل والمناجاة والتأويل : على مراتب ثلاث : مبدأ ووسط وكمال • والمجيء : أشبه بالمبدأ • والظهور : بالوسط • والاعلان : بالكمال • عبر التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمجيء على طور سيناء ، وعن طلوع الشمس : بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ الى درجة الكمال والاستواء : بالاعلان على فاران • وفى هذه الكلمة : اثبات نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام »(١) اهـ •

وبعد ما عرفنا رأى أئمة المسلمين ، ومن يريد أن يعرف رأى علماء بنى اسرائيل فليقرأ ما كتبه شموئيل بن يهوذا فى (بذل المجهود) نذكر

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى — على هامش الفصل لابن حزم ج ٢ ، ص ٥١ — ٥٣ •

من كلام مفسرى التوراة ما يدل على أن تلك النبوءة ، نبوءة فاران تدل على المسيا المنتظر • يقول مفسرو التوراة ، مانصه : « فى يدك : الانتقال الى ضمير المخاطب جعل البعض يعتقدون : أن هذه نبوءة عن المسيا الآتى ••• الخ »(١) •

* * *

فأنت ترى مما تقدم : أن نبوءات التوراة (الأسفار الخمسة) أفصحت عن : ظهور نبى من بعد موسى ، مماثل له • وأن نبوءات التوراة هى التى حددت أوصاف هذا النبى ، الذى يلقبونه بلقب « مسيا » أى « المسيح المنتظر » وأن أئمة المسلمين ، بينوا : أن نبوءات التوراة التى حددت أوصاف المسيا تدل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك بين علماء بنى اسرائيل الذين هداهم الله الى الايمان ، وبناء على هذا : يكون المسيا هو محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس هو عيسى ـ عليه السلام ـ كما يزعم النصارى ، وليس هو نبى لم يظهر بعد واذا ظهر سيكون من اليهود كما يزعم اليهود •

* * *

وفى الأناجيل التى بأيدى النصارى نصوص تدل على أن عيسى ـ عليه السلام ـ بين ووضح لليهود : أن المسيا سيأتى من بعده ، ولن يكون من آل داوود • فقد روى متى فى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيله ما نصه : « وفيما كان الفريسيون(٢) مجتمعين ، سألهم يسوع قائلا : ماذا تظنون فى المسيح(٣) ؟ ابن من هو(٤) ؟ قالوا له : ابن داوود • قال لهم : فكيف يدعوه داوود بالروح : ربا ؟ قائلا : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » فان كان داوود يدعوه ربا ، فكيف يكون ابنه ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة • ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بتة » (متى ٢٢ : ٤١ ـ ٤٦) ومعنى الكلام : أن داوود ـ عليه السلام ـ قال فى سفر الزبور: : ان الله تعالى قال لسيدى : كن معى حتى أنصرك على أعدائك نصرا مؤزرا • فمن هو سيد داوود الذى قال الله له : كن معى حتى أنصرك كما حكى داوود عن الله ؟ يقول عيسى ـ عليه السلام ـ حيث قال داوود : ان الله قال لسيدى ، اذن النبى الآتى : سيد داوود • واذا ثبت أنه سيد لداوود يثبت أنه لا يكون من نسله ، لأن الابن لا يكون سيدا على أبيه ، واذا ثبت أنه لا يأتى من نسله ، فكيف يصح لليهود : أن يدعوا

---

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين ـ برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسون ـ المجلد الأول ص ٤٧٠ •

(٢) الفريسيون طائفة من علماء اليهود العبرانيين كانت تدعى الغيرة على الشريعة الموسوية •

(٣) يقصد : المسيا المنتظر • (٤) أى من أى نسل يكون ؟

مع وضوح الدليل من كلام داوود نفسه : أن النبى المنتظر الذى لقبوه بلقب المسيا أو المسيح سيأتى منهم ؟

وكلام داوود من ترجمة البروتستانت هكذا : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى ، حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك ، يرسل الرب قضيب عزك من صهيون . تسلط فى وسط أعدائك ، شعبك منتدب فى يوم قوتك ، فى زينة مقدسة . من رحم الفجر لك طل حداثتك ... الخ » (المزمور المئة والعاشر) ومن ترجمة الآباء اليسوعيين هكذا : « قال الرب لسيدى .... الخ » .

* * *

ومن هذا يتبين : أن عيسى نفسه لم يقل : اننى أنا المسيح المنتظر ، ويتبين : أن أوصـاف الزبور لا تحل عليه لأنه لم يحارب ولم ينتصر على أعدائه . صحيح أنه أمر أتباعه بحمل السيف للقتال ، ولكنه لم يحمل سيفا . ولم يجرد جيشا . ففى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل لوقا يقول لتلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحـذية . هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا : لا . فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك . ومن ليس له فليبع ثوبه ، ويشتر سيفا » (لو ٢٢ : ٣٥ ـ ٣٦) وفى الاصحاح العاشر من متى يقول : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض . ما جئت لألقى سلاما ، بل سيفا » (متى : ١٠ : ٣٤) .

وبعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ الى السماء . نادى « بولس » بأن عيسى هو المسيح ، لا مسيح ، وزعم أنه ينادى ، لا من تلقاء نفسه ، بل لأن المسيح ظهر له فى الرؤيا ، من بعد رفعه الى السماء بزمان ، وأمره فى الرؤيا : بأن ينادى فى الناس بأن عيسى كان هو المسيح وما كنا له بعارفين . ويقول العلماء : انه لم يخدع السذج والبسطاء والعامة بهذه الحيلة الا بعد مساندة له من بعض اليهود الذين تظاهروا باعتناق دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ ليحرفوها . وقولهم هذا قد استدلوا عليه بآيات فى رسالة بولس الى أهل غلاطية فى الاصحاح الثانى وهو قوله : « ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضا الى أورشليم ، مع برنابا آخذا معى تيطس أيضا . وانما صعدت بموجب اعلان(١) وعرضت عليهم الانجيل الذى أكرز به بين الأمم ، ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى أو قد سعيت باطلا ... الخ » (غلا ٢ : ١ ـ ٢) لماذا عرض عليهم انجيلا سريا للغاية ؟ لماذا عرضه على الأعيان والوجهاء البارزين فى المذهب على انفراد ؟ أكانت دعوة عيسى

---

(١) يشير بالاعلان الى الرؤيا ، المذكورة فى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل .

سرية ؟ كيف ذلك ؟ وفى الاصحاح الثامن عشر من انجيل يوحنا : « فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ؟ أجابه يسوع : أنا كلمت العالم علانية • أنا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائما ، وفى الخفاء لم أتكلم بشيء • لماذا تسألنى أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا : ماذا كلمتهم • هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا » ؟ (يوحنا ١٨ : ١٩ ـ ٢١) •

* * *

وهذا هو النص الذى فيه الرؤيا ، والذى فيه أنه جهر بعد الرؤيا بأن عيسى ـ عليه السلام ـ هو : ابن الله الذى تحدث عنه داوود ـ عليه السلام ـ فى المزمور الثانى ، وهو : المسيح ، الذى تدل عليه نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء ، فى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل : « أما شاول ـ بولس ـ فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب • فتقدم الى رئيس الكهنة ، وطلب منه رسائل الى دمشق ، الى الجماعات حتى اذا وجد أناسا من الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين الى أورشليم • وفى ذهابه حدث أنه اقترب الى دمشق ، فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له : شاول شاول لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذى أنت تضطهده • صعب عليك أن ترفس مناخس • فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك : ماذا ينبغى أن تفعل ؟ وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا • فنهض شاول عن الأرض ، وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحدا • فاقتادوه بيده وأدخلوه الى دمشق • وكان ثلاثة أيام لا يبصر ، فلم يأكل ولم يشرب •

وكان فى دمشق تلميذ اسمه حنانيا • فقال له الرب فى رؤيا : يا حنانيا • فقال : هأنذا يا رب • فقال له الرب : قم واذهب الى الزقاق الذى يقال له : المستقيم ، واطلب فى بيت يهوذا رجلا طرسوسيا ، اسمه شاول ، لأنه هو ذا يصلى • وقد رأى فى رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا وواضعا يده عليه لكى يبصر • فأجاب حنانيا : يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل ، كم من الشرور فعل بقديسيك فى أورشليم ، وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك • فقال له الرب : اذهب • لأن هذا لى اناء مختار ، ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبنى اسرائيل ، لأنى سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمى •

فمضى حنانيا ، ودخل البيت ووضع عليه يديه ، وقال : أيها الأخ شاول ، قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق ، الذى جئت

فيه لكي تبصر وتمتلىء من الروح القدس · فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور ، فأبصر فى الحال ، وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى ·

وكان شاول مع التلاميذ الذين فى دمشق أياما · وللوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح : أن هذا هو ابن الله · فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ، وقالوا : أليس هذا هو الذى أهلك فى أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم ، وقد جاء الى هنا لهذا ، ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة ·

وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين فى دمشق محققا : أن هذا هو المسيح ··· الخ » (أع ٩ : ١ ـ ٢٢) ·

وواضح من هذا النص : أن اليهود لما اضطهدوا عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وأتباعه ، ولم تتوقف الدعوة عن الانتشار مع الاضطهاد ، رأوا أن يتظاهر بعضهم باعتناق الدعوة ، ثم يكيدوا لها كيدا ، ومن اليهود الذين اضطهدوا الأتباع علنا : بولس · الذى كان من سكان مدينة « طرسوس » ولما لم يجد الاضطهاد : زعم أن عيسى نفسه ظهر له بعد قتله وصلبه ـ كما يزعمون ـ وأمره أن لا يضطهد أتباعه ، وأمره أيضا أن ينطلق بالدعوة لا الى بنى اسرائيل أنفسهم ، بل والى جميع الأمم · ولم يأمره بالدعوة التى جاء بها فى حياته ، ـ فانه لم يقل انه هو المسيح الذى تدل عليه النبوءات ـ بل أمره بغير ما صرح به فى الحياة الدنيا ·

* * *

وقد قرأنا فى كتاب « الاعلام » هذا : أن مؤلف « تثليث الوحدانية » قال للمسلمين : **« وان كان فيها ـ أى فى التوراة ـ محمد منتظرا · ثم وافقت علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن رضا معبوده » أفيخرج الآن من دينه بعد هذا البيان ؟**

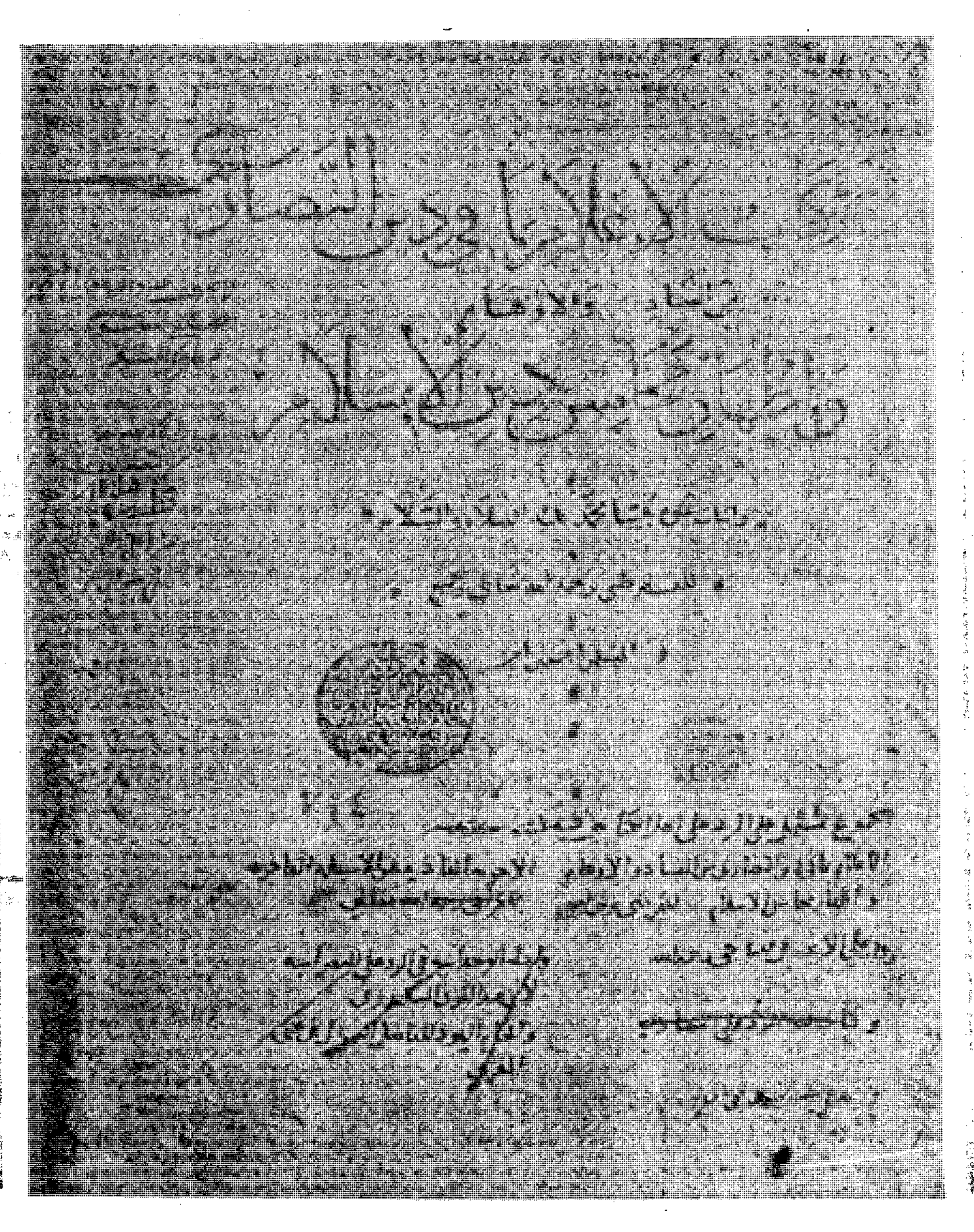
أسأل الله تعالى توفيقا وسدادا · **« وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب »**(١) ·

القاهرة فى { ٢٦ شوال سنة ١٣٩٨ هـ
٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٨ م }

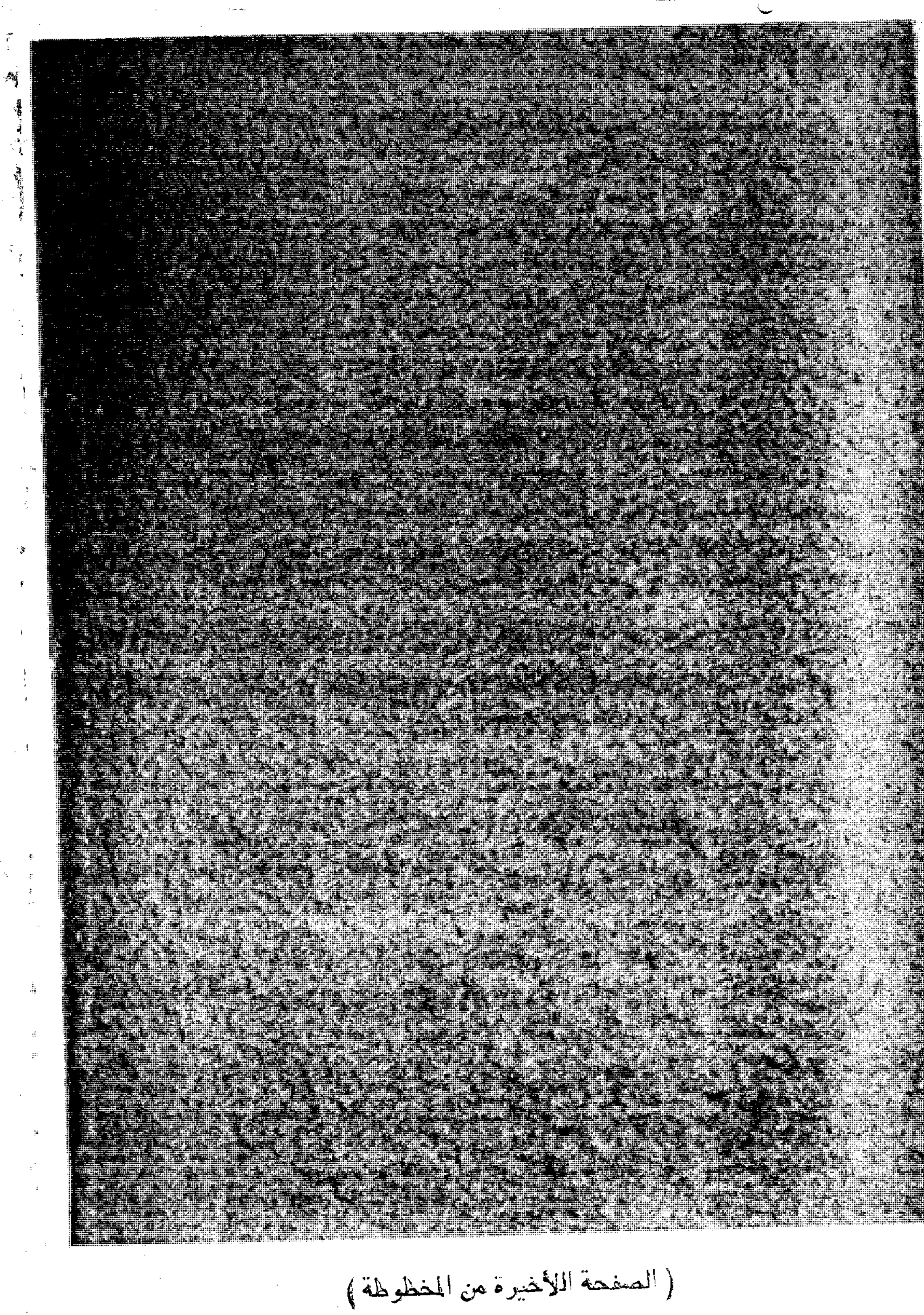
الدكتور الشيخ
أحمد حجازى أحمد السقا

---

(١) هود : ٨٨



(الصفحة الأولى من المخطوطة)



(الصفحة الأخيرة من المخطوطة)

مقدمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ، وأعن يا ألله

الحمد لله الذى من علينا بتوحيده ، وجعلنا من أفضل عبيده ، الذى جنبنا الأهواء المذلة ، والآراء المضلة . أرانا الحق ، اذ هدانا لبرهانه ودليله ، وأظهر لنا الباطل ، وتفضل علينا بالعدول عن سبيله ، نحمده بمحامده التى لا تحصى ، ونشكره على الآية التى لم تزل تترى ، ونسأله الصلاة على نجبه من كافة الورى ، أنبيائه ورسله ، أئمة الهدى . وخصوصا المبعوث الى الثقلين ، المفضل على العالمين ، المؤيد بالآيات الصادعة ، والبراهين القاطعة ، موضح الحق بواضحات الدلائل ، ومرهق الكفر والباطل ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، ورضى الله عن خلفائه الراشدين ، وعن صحابته أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد

فقد وقفت ــ وفقك الله ــ على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية سماه كتاب (تثليث الوحدانية) بعث به من « طليطلة » ــ أعادها الله الى مدينة « قرطبة » حرسها الله .. متعرضا فيه لدين المسلمين ، نائلا فيه من عصابة الحق الموحدين ، سائلا عما لا يعنيه ، ومتكلما بما لا يدريه ، فأمعنت النظر فيه ، فاذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف ، وينطق بما لا يحقق ، ناقض ولم يشعر ، وعمى من حيث يظن أنه يستبصر **« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل »**[1] يلحن اذا كتب ، ويعجم متى أعرب .

وذى خطل فى القول تحسب أنه مصيب فما يلمم به ، فهو قائله

دل بقوله على ضعف عقله ، وبمكاتبته على سوء محاولته . تعاطى درجة النظار ، وسود بأباطيله ذلك الطومار ، ليستزل به الأغبياء

---

(١) الفرقان : ٤٤

الأغمار ، ويحصل بذلك على مآكله شنار **« فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »**(١)وليته اذا ادعى النظر سلك طريقه ، والتزم شروطه ، فاعترف بالبديهيات ، ولم ينظر الضروريات ، التى هى أصول النظريات ، ولكن حل من عنقه ربقة العقول ، فهو فى كل جهالة يجول ، واليها يدعو ، وبها يقول ، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطورا • ولكن كان ذلك عليه فى الكتاب مسطورا •

وان لســــان المــرء ــ ما لم تــكن لــــه
حصــــاة ــ على عـــوراته : لدليـــــل

فاستخرت الله تعالى فى جوابه على تخليط معانيه ، وتثبيج خطابه • بعد أن أقول له : اعلم يا هذا : ان البغاة بأرضنا لا تستنسر ، والتمييز عندنا بين الفضة والقصة متيسر ، وها أنا ــ ان شاء الله تعالى ــ أجاوبك على ما كتبت حرفا حرفا ، وأبين فساده الذى لا يكاد يخفى ، على أنهم لو فتح عليهم بابا من السماء **« فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون »**(٢) فكيف لا ؟ وقد ركبوا من استحالة الاتحاد ، والتثليث ، والحلول ، ما يدرك فساده بضرورة العقول • وقد قالوا فى الآب ، والابن ، والأقانيم ، ما تمجه بفطرته الأولى ، كل ذى فهم مستقيم ، ولا يتسع لقبوله قلب ذى عقل سليم •

ومن كان اللعـــين له لســـانا فـــكل جــداله زور ونـــكر
فـــكل مقالهـــم افك وزيغ ونص كتابهـــم شرك وكفر

ومن أعظم ما ظهر عليهم من الفساد ، فصرفوا لذلك عن التوفيق والرشـــاد : انكارهم ما يدل على نبوة نبينـــا من المعجزات ، وواضـــح الدلالات ، وقـــد قاربت الضرورات ، حتى أنكروا ما جاء فى كتبهم من الاعلام على نبوته ، وايجاب اتباع شريعته • فلقد كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم • وسأذكر ان شاء الله تعـــالى ما وقع فى أناجيلهم من وصفه ، وصحيح نعته ، ولمـــا تبين للعقـــلاء عنادهم ، سقط لذلك ارشادهم ، ووجب حملهم على السيف ، وجهادهم • فقد يفعل الله بالسيف واللسان ، مالا يفعل بالبرهان • ومن كلام الحكماء : « يزغ الله بالسلطان ، مالا يزغ بالقرآن » فأعرض العقلاء عنهم ،

---

(١) البقرة : ٧٩
(٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم ، ووكلوا الناظر فيه ، لظهور تناقضه ، وفساد معانيه .

وقد كنت عزمت على الاقتداء بالعقلاء فى الاعراض ، حتى أكثر هذا المتكلم من التعرض والاعتراض . فتعين لذلك الجواب . وأنا أسأل الله التوفيق للصواب ، ومجانبة الخطأ ، وما يوجب العتاب ، انه ولى التوفيق ، وهو باجابة السائلين حقيق .

(فصل) لتعلم يا هذا المنتسب لدين المسيح : أنى أجاوبك — ان شاء الله تعالى — بمنطق عربى فصيح . أسلك فيه مسلك الانصاف ، وأترك طريق التعصب والاعتساف . على أن كلامك لا يستحق الاصغاء اليه ، ولا الجواب عنه . لأنك لا تحسن السؤال ، ولا تعرف ترتيب المقال . بل تقول مالا تفهم ، وتكتفى بأنك تتكلم . ولكون كلامك هذا كثير الغلط ، ظاهر التناقض والشطط . وأنت مع ذلك لا تعـــرف مذاهب النصـــارى المتقدمين ، الذين كانوا بنوع نظر متمسكين ، وان كانوا عن مذهب الحق ناكبين ، حتى أنهم لو سمعوا كثيرا مما ذكرته لتبرأوا عنه ، ولأنفوا منه . اذ لا ينسب أكثر ذلك الى من تكايس منهم ، ولا يروى بحال عنهم . على أنهم فى أصول عقائدهم مختلفون ، وفى ورطة الجهل مرتبكون . وسنبين لك ذلك كله — ان شاء الله تعالى —

ولمـــا تبين ذلك منك ، أعرض المسلمون عنجوابك ، ونزهوا أنفسهم عن خطابك ، اذ الاعراض عن الجاهلين ، شرعة رب العالمين ، على لسان سيد المرسلين . وأيضا فمن لم يعرف شروط النظر ، ولم يسلك مسالك البحث والعبر ، فالكلام معه ضرب فى حديد بارد ، وعمل ليس له جدوى ، ولا عايد .

ولمـــا أعرضوا عنك لجهالتك ، تبجحت بذلك عند عصابتك ، فظننت أن سكوتنا عنك ، انما هو لرهبة منك ، حتى لقد أبلغتنا عنك نكرا ، وقلته فى كتابك هذا فحشا وهجرا . فنحن واياك كما قال : —

سكت عن الســفيه فظن أنى   عييت عن الجواب . وما عييت

فعظم هذا الأمر حين نمى خبره الى . مع أنه رغب الى فى ذلك جماعة من الاخوان ، فصار ذلك على كأنه من فروض الأعيان ، فاغتنمتها

فرصة ، وسررت بها قصة ، لعلمى : أن النكاية فى العدو بالبرهان واللسان ، أوقع من نكاية السيف والسنان •

والرجا من مالك الدارين ، الجمع بين الأمرين ، واحراز أجر العملين • على أنى لا أتعرضهم بقزع السباب ، ولا أنزل معهم الى اعتذار وعتاب ، وانما هو اظهار جهلهم ، وتناقض مذهبهم وقولهم •

فأذكر كلام هذا السائل — كما بلغنى — وأبين من خطئه ، وتناقضه ما شاء الله أن يفهمنى ، فأناقشه فى لفظه ، وأظهر سوء نقله وحفظه • فتارة أسأله ، وأخرى أجاوبه • ليعلم أن الناقد بصير ، والباحث خبير ، وليتبين عيه وجهله للكبير والصغير • ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه ، أعطف بالمناظرة على أقسته ، ورهبانه • فأحكى مذاهبهم كما دونوها فى كتبهم • وعلى ما تلقفوها من أساقفتهم ، ثم أسبرها على محك العرض ، وأبين بعض ما فيها من الفساد ، والنقض • وما توفيقى الا بالله ، وهو حسبى ونعم الوكيل •

وقد استخرت الله تعالى فى أن أجعل هذا الكتاب على : صدر ، وأربعة أبواب •

الباب الأول : فى الكلام على الأقانيم •

الباب الثانى : فى الاتحاد والحلول •

الباب الثالث : فى الكلام على النبوات ، واثبات نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام •

الباب الرابع : فى جمل من فروع أحكامهم ، أبين فيها : أن ليس لهم فى أحكامهم مستند ، الا محض الهوى والتحكم واللدد •

وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصولا • وأنا أسأل الله تعالى أن يطلق ألسنتنا بالحق والحكمة ، ويخرسها عن الباطل والفتنة • انه ذو الفضل والنعمة ، والعفو والرحمة •

* * *

صدر الكتاب

نذكر فى هذا الصدر كلام هذا السائل فى خطبة كتابه ، والجواب عليها ان شاء الله تعالى •

فصـــل

فى حكاية كلام الســائل فى خطبة كتابه

قال : « كتاب : (تثليث الوحدانية) فى معرفة الله » ثم قال : « الحمد لله بالغ القوى التى فطرنا عليها ، وأمرنا بحمده ، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه بمثل تعارفنا فى الحمد والشكر والتعظيم لملوكنا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا ، فرضا له ، شاكرين حامدين معظمين ، غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشىء منه ، وانما نقع على أسماء أفعاله ، فى خليقته ، وتدبيره فى ربوبيته » اهـ •

الجواب عن ترجمته : أما قوله : « تثليث الوحـــدانية » فكلام متناقض لفظا ، وفاسد معنى • بيان ذلك : أن قوله : « تثليث الوحدانية » كلام مركب من مضاف ، ومضاف اليه ، ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف اليه • فأقول : لفظ الوحدانية مأخوذ من الوحدة ، ومعناها : راجع الى نفى التعدد والكثرة • فهى اذن من أسماء السلوب • فاذا وصفنا بها موجودا ، فقد نفينا عنه التعدد والكثرة • والتثليث معناه : تعدد وكثرة • فاذا أضاف هذا القائل التثليث للوحدة ، فكأنه قال : « تكثير مالا يتكثر » وتكثير مالا يتكثر باطل بالضرورة • فأول كلمة تكلم بها هذا السائل : متناقضة وباطلة بالضرورة •

وأما قوله « فى معرفة الله » فقول لم يحط بمعناه ، ولا فهم مسماه ، والا فما حد المعرفة ؟ وكم أقسامها ؟ وهل يصح أن تكون مكتسبة لنا ؟ وهل يجوز عقلا أن يكلفنا بها الأنبياء ؟ وان جاز ذلك فما طريق تحصيلها ؟

ثم هول بهذا اللفظ ، وأوهم أنه حصل منها على حظ • فان كان دليلك يا هذا على معرفة الله تعالى ما ضممته كتابك ، فابك على مصابك ، واقرع

أسفا على عقل نابك • فان الواقف على معناه ، المقتحم لفحواه ، علم على القطع والقط : أنك لم تعرف الله تعالى قط ، لأنك لم تذكر فيه دليلا صحيحا ، نعم • ولا قولا فصيحا ، وان كان لك دليل آخر على معرفة الله تعالى لم تذكره هنا ، فهذه ترجمة بلا معنى ، واسم يهول بلا مسمى •

كلامك يا هذا ، كفارع حمص خلى من المعنى ، ولكن يجعجع

ثم نظم هذه الترجمة على ما أبديناه من التناقض أن يقال : تكثير ما لا يتكثر فى معرفة الله ، وأى رابط بهذا الكلام ؟ وهل هذا الا مضحكة الخاص والعام ، وعار لم يصل اليه أحد من عقلاء الأنام •

ثم بعد ذلك شرع هذا القائل فى الخطابة ، وصنعة الكتابة ، فسحب على « سحبان » ثوب النسيان ، وأنسى « ابان » كل ما أبان ، وصير فصيح « وائـل » أعيا من « باقـل » فقال : « الحمد لله بالغ القوى ، التى فطرنا عليها » فيا للعجب ، ويا لضيعة الدين والأدب •

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتهـا واقعد فانك أنت الجائع العارى[1]

أما قوله « الحمد لله » فكلام حق • ومقال صدق ، عند من عرف معناه ، وفهم فحواه • وأما عندك فكلام سمعته ، وما وعيته • وكيف تعيه، أو تطمع فى أنك تدريه ؟ وأنت بمعزل عن اللسان ، عرى عن تحصيل شرائط البرهان •

دليل ذلك : أن « الحمد لله » يتوجه لأسئلة ، وأنت لا تهتدى لفهمها ، فكيف لحلها ؟ منها لفظية ، ومنها معنوية • فأولها حده ، والى ماذا يرجع ؟ وما الفرق بينه ، وبين الشكر ؟ وهل هو فى هذا الموضع عام ، أم لا ؟ وهل يصح أن يطلق على غير الله ؟ وان أطلق فهل بالحقيقة أم بالمجاز ؟ وعلى أى وجه يضافه الى الله تعالى ؟ أعلى جهة الملك ، أو على جهة الاستحقاق ، أو غيرهما من أنواع الاضافة ؟ ولأى شىء يوضع فى أوائل الكتب ، ولا يكتفى عنه بالتسمية ؟

وأما قولك « بالغ القوى » فكلام مختل صدر عمن لم يحصل تنزيل مفهومه على فائدة • لأن المتكلم به عمل (بالغ) موضع (مبلغ) ثم ذهب

---

(١) مشهور هذا البيت : فانك أنت الطاعم الكاسى •

بمبلغ الى معنى (خالق) والعرب الذين تكلم هذا السائل بكلامهم ، وتعاطى مفهوم خطابهم ، لا يتكلمون بالغ فى معنى الخـــالق ، لتباين اللفظين ، واختلاف المفهومين ، ومعنى (الخلق) المشهور عندهم : اختراع ما لم يكن ، والابلاغ هو أيضا ، له كائن ، الى غاية ما • فان أنكر هذا المتكلم أن يكون أراد هذا • فقد شهد على نفسه بالغلط ، واعترف بأن كلامه من أرذل ، أرذل السقط •

ثم أضاف بالغ الى القوى ، والقوى جمع قوة ، وهى : القدرة والشدة • فان كنت تريد هذا فأى فائدة للفظك ؟ وأى لطيفة لقولك التى فطرنـــا عليها ؟ وفى الثيران ، والأباعير ، والحمير ، من هو أشد منك وأقوى • فقد فضلها عليك ، حيث أبلغها من الشدة أكثر مما أبلغك •

ولقد كان ينبغى لك يا هذا : أن تذكر من نعم الله عليك ، النعمة الخاصة بالانسان ، وهو المعنى الذى به تميز عن أصناف الحيوان • ثم من عجيب أمر هذا السائل ، وأدل دليل على بلادته وجهله ، أن هذه الخطبة التى صدر بها كتابه ، على ما هى عليه ، من تشبيج النظم ، وعدم الفصاحة انما نقلها من رسالة « عبد الرحمن بن غصن » ختن (شبيب) التى كان أساقفة النصارى كتبوا بها الى الامام الزاهد « أبى مروان بن ميسرة » ونسبوها لعبد الرحمن • وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بطليطلة — أعادها الله — فلما كتبوها بعثوا بها الى القاضى « أبى مروان ابن ميسرة » فبعد أن بذلوا جدهم ، وأجهدوا جهدهم ، كتبوا له رسالة مفتتحها هذه الخطبة ، فى بطاقة صغيرة عدد أسطارها نحو ثلاثين ، لحنوا فيها ، وصحفوا فى تسعة وعشرين موضعا منها ، ومع ذلك • فأخلوا بالكلام ، ولم يتحصل لهم من سؤالهم مطلب ، ولا مرام ، فأجابهم الامام القاضى — رحمه الله — وأحسن فى الجواب ، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم فى ذلك الكتاب •

فلو كان هذا السائل عارفا بمصالحه ، مميزا بين محاسنه ومقابحه • لاكتفى بافحام أساقفته المتقدمة ، وعثرته الجاهلة المضممة ، ولكان يستر ظاهر خطاياهم ، وركيك كلامهم • ولكن أراد الله تجديد ما قدم لهم من الفضيحة بمقالة صابية صحيحة ، ثم ليته اذ نقل الى كتابه كلامهم ، لم يفسر المعنى ، ولم يغير اللفظ • بل غيره تغييرا يدل على عدم الهجاء ، وقلة الحفظ ، فقال : « الحمد لله بالغ القوى » وهى فى كتابهم المتقدم الذكر الذى نقل منه « الحمد لله بأبلغ القوى » وبين مفهوم كلامه ،

وكلامهم ، ما بين القرن والقدم ، وما بين فصاحة العرب ، ورطانة العجم •

وأما قولك « وأمرنا بحمده » فقول لا تعرف حقيقته ، ولا تسلك طريقته ، حتى تعرف ان كان الله آمرا ، أم لا • وان كان آمرا فما حقيقة أمره ؟ والى ماذا يرجع ؟ وهل هو قديم ، أو حادث ؟ الى أسئلة كثيرة لا تعرف أنك مأمون من جهة الله تعالى حتى تعرفها • فأعد للمسائل جوابا ، وللسائل خطابا •

وأما قوله : « فنحن نحمده ونشكره ونعظمه ، بمثل تعارفنا فى الحمد والشكر » فكلام يدور على اللسان ، ولم يستقر لك شىء منه بالجنان • وكيف يحمد الله من ينتقصه ؟ وكيف يشكره من يكفره ؟ وهل الحمد والنقصان ، والشكر والكفران ، الا أمران متناقضان •

بيان ذلك : أنكم تجعلون لله ، ما تكرهون لأنفسكم ، وتنتقصون به أبناء جنسكم ، ها أنتم تكرهون لرهبانكم ، وأقستكم اتخاذ الزوجة والولد ، لئلا يتلطخ برذيلة مجرى البول ، ودم الحيض • أو تتشبه نسبة الزوجة والولد • ثم انكم بجهالتكم تزعمون : أن اللاهوت تدرع بناسوت المسيح ، وسكن فى ظلمة الرحم مدة ، ثم خرج على مجرى البول ، ودم الحيض ، وتعلقت نسبة الولد والزوجة ، وأنتم تجعلون لله ما تكرهون ، وتصف ألسنتكم الكذب • لا جرم أن لكم النار ، وأنكم مفرطون • وكيف يعظمه من يعبد غيره ، ويعظم سواه ، ويخالفه فى أمره ، ويرتكب ما عصاه ؟ وها أنتم قد اتخذتم المسيح الهـا ، أو شطر اله • وعبدتم من دون الله غيره ، وعظمتم سواه ، وخالفتم فى ذلك قول المسيح عليه السلام ، وعصيتم أمر خالقه ومرسله ذى الجلال والاكرام ، وأنتم تقرأون فى كتابكم عن أشعياء عليه السلام ، أنه قال عن الله مبشرا بالمسيح عليه السلام : « هذا غلامى المصطفى ، وحبيبى الذى ارتضت به نفسى »(١) وكذلك تقرأون فى انجيل « ماركش »(٢) أن المسيح قال

---

(١) ترجمتها الحديثة « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى »(أشعياء ٤٢ : ١) •

وهذه النبوءة لا تشير الى عيسى عليه السلام • فليس فى التوراة ولا فى أسفار الأنبياء نبوءات عنه • بل النبوءة تشير الى « المسيح المنتظر » وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(٢) ماركش فى الترجمة الحديثة « مرقس » •

للعالم الذى سأله عن أول العهود : « ان السيد الهك ، اله واحد » وذكر كلاما . فقال له العالم « قلت الحق يا معلم . ان الله وحده ، ولا الـــه غيره »(١) فالله تعالى يقول عن المسيح : « هو غلامى » وأنتم تقولون : « هو ولدك » والمسيح يقول « لا اله الا الله » وأنتم تقولون « أنت اله آخر » فتعالى الله عما تقولون ، وسبحانه عما تصفون . — وسيأتى الكلام على هذا ان شاء الله تعالى — فها أنتم قد خالفتم أمر الله ، وعظمتم سوى الله ، وهذا انجيل « متاؤوش » يشهد عليكم بخلاف ما اليه صرتم . فان فيه أن المسيح قال لابليس حين رام خديعته : « قد صار مكتوبا أن تعبد السيد الهك ، وتخدمه وحده »(٢) وأنتم تعبدون غير الله ، وتسجدون لسواه ، تتحكمون فى ذلك بأهوائكم ، وتخالفون قول أنبيـــائكم « ومن أضـــل ممن اتبع هواه ، بغير هـــدى من الله »(٣) وتقول بالعظائم على الله .

وأما قولك « بمثل تعارفنا فى الحمد » فان كان وضع (تعارف) موضع (معرفة) فقد أخل بالمعنى ، وخالف اللغة ، ولو كان يشم رائحة من كلام الفصحاء ، لوبخ نفسه على القالة هذه الشنعاء . ولو نزلناه على أنه أراد ، ما تعارفه مخاطبوه فيما بينهم فى معنى حمد الله ، لكان كلامه أيضا متناقضا وفاسدا ، وعن الصواب حايدا . فان حمد الله عندهم : ذم ، وشكرهم له كفر — كما تقدم — ومن كان حمده لله ذما ،

---

(١) النص بتمامه فى الترجمة الحديثة : « فجاء واحد من الكتبة — عالم — وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا ، سأله : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد . وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى . وثانية مثلها : هى تحب قريبك كنفسك . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فقال له الكاتب : جيدا يا معلم ، بالحق قلت . لأنه : الله واحد ، وليس آخر سواه . ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة . ومحبة القريب كالنفس ، هى أفضل من جميع المحرقات والذبائح ، فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل . قال له : لست بعيدا عن ملكوت الله » (مرقس ١٢ : ٢٨ — ٣٤) .

(٢) متاؤوش فى التراجم الحديثة « متى » والنص فى الترجمة الحديثة بتمامه : « حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان . لأنه مكتوب : للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) .

(٣) القصص : ٥٠ .

وشكره له كفرا • وكان معرفته مثل شكره وحمده • فقد حصل من العلم على ضده ، وخرج من الشكر عن حده •

وأما قولك « والتعظيم للوكتا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا » فقول لا يدل على زهدك فى الدنيا ، واقتدائك بورع المسيح عيسى ، وبخشية المعمد يحيى ، عظمت الملوك لملكهم ، طمعا فى نيل سحت ملكهم ، وأعرضت عن القسيسين ، ونسكهم • ولو هديت السبيل ، لكان الأنبياء والحواريون أحق وأولى ، بالثناء والتبجيل • لكن استهواك الطمع ، واستفزك الجشع ، فآثرت الدنيا عن الآخرة ، فصفقتك اذن خاسرة ، وتجارتك بائرة •

وأما قولك : « فرضنا له شاكرين ، حامدين معظمين » فكلام غير منتظم ، وليس له مفهوم ملتئم • ذهب معناه ، لكثرة لحنه ، يمجه العاقل ببديهة ذهنه • أتلفت معناه ، رضانة العجم ، فكأنه تبقى فى نفس قائله مكتتم •

وأما قولك « غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشىء منه » فلعمرى • لقد صدقت ، وبما أنت عليه من الجهل بمعبودك نطقت • فأين هذا من قولك « كتاب : تثليث الوحدانية فى معرفة الله » ؟ فقد جعلت هذا الكتاب بزعمك موصلا الى معرفة الله ، ثم لم ترجع النفس حتى شهدت على نفسك بالجهل بالله • فظهر تناقض اعتقادك على لسانك ، وفى تقييدك • وكذلك يفعل الله بكل جاهل مهذار • وكيف يعرف الله من لم يقف على معرفة ذاته ، ولا علم شيئا من صفاته ؟ وهل ذاته تعالى الا عبارة عن وجوده ؟ فان الموجودات : الموجود من غير مزيد ، على ما يعرف فى موضعه بالبرهان • فمن لم يعرف ذاته تعالى لم يعرف وجوده ، ومن لم يعرف وجوده : فاما شاك ، واما جاهل •

وأما قوله : « وانما نقع على أسماء أفعاله ، فى خليقته ، وتدبيره فى ربوبيته » فكلام لم يورده فصيحا ، ولا فهمه صحيحا • دليل أنه لم يورده فصيحا : أنه أراد بقوله « نقع » : « نعرف » والا لم يستقم كلامه • فكأنه قال : « وانما نعرف أسماء أفعاله » وأين : نعرف من نقع ؟ وأى جامع بينهما عند من عقل وسمع ؟ فان مفهوم وقع وحقيقته : سقط الشىء من أعلى الى أسفل ، وليس لهذا المعنى فى كلامه مدخل • وأما أنه لم يفهمه صحيحا ، فيدل عليه : أنه لا يجيب اذا سئل عنه • فأصخ يا هذا

سمعك ، واستعن ملاك جمعك ، فانى أسألك ، واياهم عن : حد الاسم وحقيقته ؟ وهل هو المسمى أو غيره ؟ فان كان غيره . فما حد الاسم ؟ وما حد المسمى ؟ وما حد التسمية ؟ ثم هل ينقسم الاسم بالاضافة الى المسمى أم لا ينقسم ؟ فان انقسم فعلى كم قسم ؟ وانما أوردت عليه هذه الأسئلة : كيلا له بضاعة ، وليكون ذلك أبلغ فى دفعه ، وأقطع لنزاعه . ثم انه أضاف (أسماء) الى (أفعال الله) ولا يشك عاقل فاهم : فى أن أفعال الله تعالى ، انما يراد بها مخلوقاته ، ومخلوقاته وخليقته واحد فى المعنى . فكأنه قال — على ما يقتضيه ظاهر كلامه — : « وانما نقع على أسماء مخلوقاته فى مخلوقاته » فأبدل لفظ « مخلوقاته » بأفعاله . وهذا كلام قليل العائدة ، بل عديم الفائدة . ثم أسماء أفعاله : انما هى عبارة عن الألفاظ الدالة على أفعاله ، وأفعاله — كما قلنا — مخلوقاته ، كلفظ السماء والأرض ، وغير ذلك . فمن عرف الألفاظ الدالة على هذه المخلوقات . أى شىء يحصل له بسببها من معرفة الله تعالى ؟ وأى دلالة ؟ وأى نسبة ؟ بين معرفة اللفظ الذى يدل على « السماء » فى التخاطب مثلا ، وبين معرفة الله تعالى ؟ وهل قوله هذا : الا هذيان من القول ، وارتباك فى ورطة الجهل ؟

وأما قوله « وتدبيره فى ربوبيته » : فالظاهر من لفظ التدبير السابق منه الى الفهم : أنه عبارة عن التفكر النفسى ، والتقدير الذهنى ، والبارى سبحانه متعال عن التدبير الذى هو التفكر والتقدير ، فانه لا يتصور الا فى حق من جهل شيئا فأراد أن يستعمل فكره فى تحصيل العلم به ، والجهل على الله محال . فالتدبير بمعنى الفكر عليه محال . فان أراد السائل بكلامه غير هذا ، فلا بد من بيانه ، وايضاح برهانه .

وأما (الربوبية) فلفظ مشتق من لفظ (الرب) والرب فى مستعمل كلام العرب له معنيان مستعملان . أحدهما : السيد . والثانى : المالك . فان أراد به المعنى الأول الذى يرجع الى السؤدد والشرف فهو : خطأ ، من حيث أن سؤدده واجب له فلا يحتاج فى تحصيله الى سبب من تدبير ، ولا مقتضى تفكير . ومقتضى كلامه ومفهومه : أنه دبر فى ربوبيته ، وأوجدها عن تدبيره لنفسه . وهذا جهل بواح ، وكفر صراح . وان أراد به المعنى الثانى الذى يرجع معناه الى الملك فلا يستقيم أيضا على ظاهر كلامه ، فانه يكون معنى كلامه : أنه دبر فى ملكه ، وأوجده

عن التدبير ، الذى هو روية وتفكير ، ويتعالى عن ذلك الخالق القدير ،
المنزه عن خواطر النفس ، وهواجس الضمير .

ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء ، البديعة الانشاء ،
التى من وقف عليها علم أنه عن المعارف مصروف ، وأنه لا يفهم المعانى
ولا يحسن كتابة الحروف . شرع فى طريقة الجدال ، وكيفية الاستدلال .
فكأنه فى نظم معقولاته « الطوسى » وفى آداب جدله « البروى »
ولعمر الله لو كان هذا السائل عاقلا لستر عواره ، ولم يبد عارة ،
ولكنه جهل فقال . وحيث وجب أن يسكن جال .

ولقد كان ينبغى لهذا السائل ألا يتكلم فى شىء من علوم الاعتقاد ،
حتى يحسن شروط النظر ، ويحكم ما يحتاج اليه من المواد والفكر ، ولما
بادر الى الكلام فى ذلك من غير تحصيل شىء مما هنالك ، تشبح عليه كلامه ،
وصعب عليه مرامه ، فربما كان المعنى الذى يقصده قريبا فيبعده ، أو
مجتمعا فيبدده ، وسيتبين ذلك فى كلامه .

ولما كان ذلك رأيت أنى ان تتبعت كلامه ، كما تتبعت خطبته خرج
الأمر عن الاعتدال ، وأدى ذلك الى الكسل والملال ، وضياع الزمن فى
ضروب الهذيان ، هو غاية الخسران . فرأيت أن أعرض عن آحاد كلماته
وأناقشه فى معانيها ومفهوماتها . ثم انى ربما لا أتكلم معه حتى أحكى
مذهبه ، وأبين له ما أراده بكلام حسن وجيز ، ليكون ذلك أبلغ فى الفهم ،
وأمكن فى التمييز . والى الله عز وجل أرغب ، وعليه أتوكل فى أن يشرح
صدورنا ، وييسر علينا أمورنا ، ويستعملنا فيما يقربنا منه ، وينفعنا
عنده . انه : ولى ذلك القادر عليه .

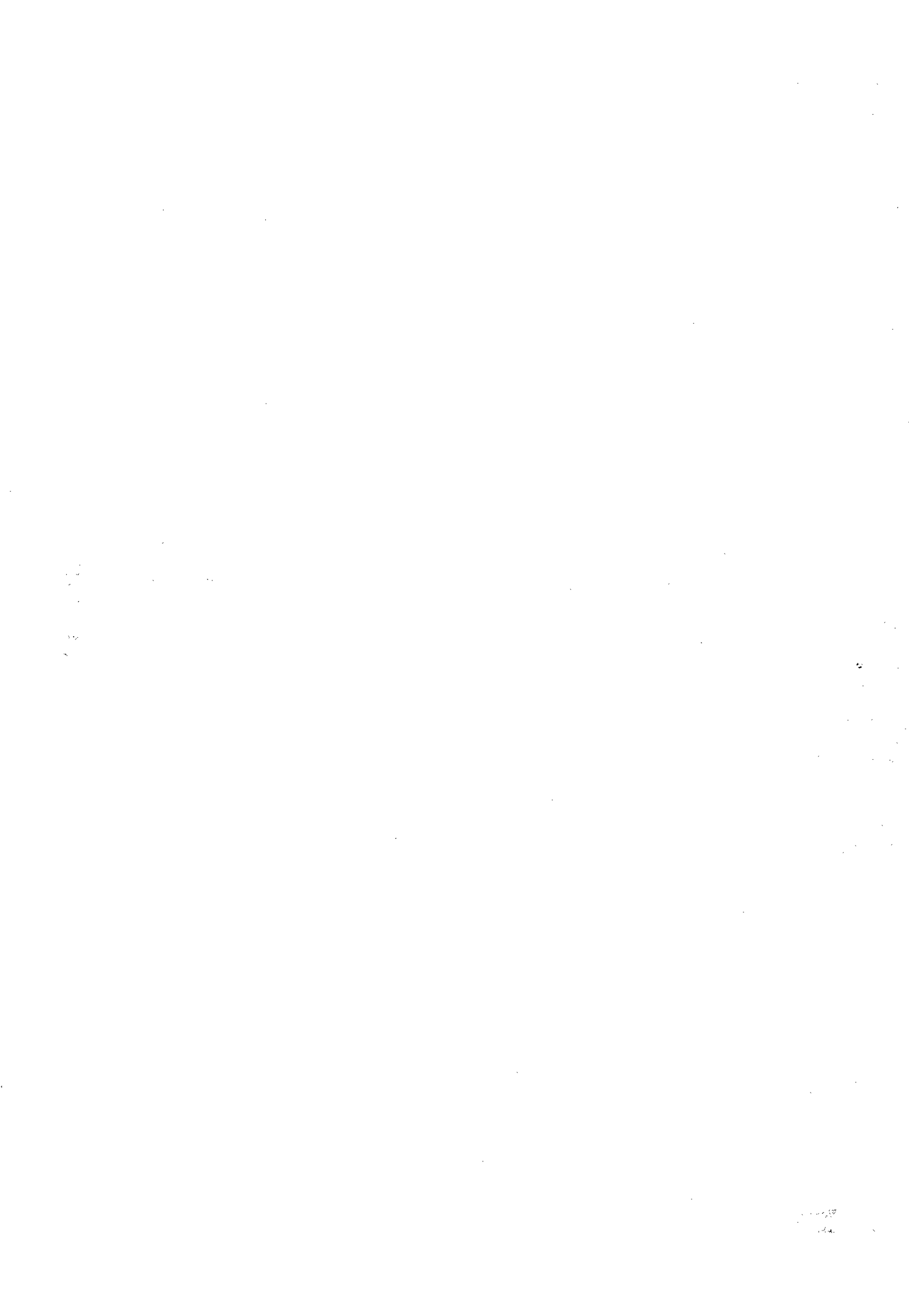
تم الصدر . والآن نشرع فى الأبواب .



الباب الأول

فى بيان مذاهبهم فى الأقانيم، وإبطال قولهم فيها

* الأقانيم أسماء وأفعال
* أقانيم : القدرة والعلم والحياة
* تعليل التثليث
* دليل التثليث
* فى بيان اختلافهم فى الأقانيم



الأقانيم أسماء أفعال

فى حكاية كلام السائل ، والجواب عنه

قال السائل : « الآن وجب على أن أسألك فى أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق . ان كان خلقهم بقدرة ، وعلم ، وارادة ، أم خلقهم بغير هذا ؟ فاذا اضطرتك المسألة ، الى القول بها . فانى أسألك : ان كانت أسماء لذاته ؟ أو أسماء لأفعاله ؟ فان قلت : هى أسماء لذاته . فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت فيما أنكرت من الجسم ، وان قلت : من أسماء أفعاله التى منها ، سمى : قادر ، عالم ، مريد .. فهو التثليث ، الذى أمرنا بالقول به » اهـ .

الجواب عنه : سألت يا هذا المقدام بعد اعجام ، واستبهام : هل خلق الله تعالى الخلق بقدرة ، وعلم وارادة أم بغيرهم ؟ وهذا السؤال كان ينبغى لك ألا تسأل عنه حتى تفرغ من معرفة المراتب التى قبله . وذلك أنك لا تصل الى ما سألت عنه ، حتى تعرف معنى (الخلق) وهل العالم مخلوق ؟ وان كان مخلوقا فهل يحتاج الى خالق أم لا ؟ فاذا بلغت الى هنا ، وقطعت هذه المفاوز التى لا تقطع بالمنى ، ولا يتخلص منها بالهوينى . ولا يكتفى فى تحصيل العلم بذلك ، بالتقليد . بل بالنظر الشديد ، والبرهان العتيد .

حينئذ كان ينبغى أن تسأل عما سألت عنه ، لكنك بجهلك بطريقة النظر قدمت وأخرت « **وفعلت فعلتك التى فعلت** »(١) ولو كنت ممن له فى النظر نصيب لضربت فيه بسهم مصيب ، ولاقتديت بمعلمكم الأزعم ، وأسقفكم الأعظم « أغشتين »(٢) فها هو يقول فى (مصحف العالم

---

(١) الشعراء : ١٩

(٢) ولد القديس «أوغسطين» (ST. AUGUSTINE) فى (طاجست) بالجزائر فى نوفمبر عام ثلثمائة وأربع وخمسين من الميلاد لأب وثنى ، وأم مسيحية هى القديسة « مونيكا » وقد أرسلته أمه فى السابعة عشر من عمره ليتم دراسته العليا فى « قرطاجنة » وقد اندفع فى الشهوات النسائية اندفاعا شديدا ، ثم =

الكائن) فى أول ورقة منه : « ينبغى أن يجعل الكلام فى النظريات على منازل ودرجات • ليكون من اجتمع معنا فى الدرجة الأولى ، تكلمنا معه فى الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا فى الدرجة الثانية • تكلمنا معه فى الدرجة الثالثة • ثم نمضى كذلك الى أقصى نهايات الكلام • فانما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص فى معرفة هذه الدرج ، لأنا متى ناظرنا فى الدرجة الثانية من لم يجتمع معنا فى الأولى ، لم يبلغ الكلام غاية ، ولم يقف على نهاية » اهـ •

وعلى منواله نسج « حفص بن البر » فى أقواله • ولقد كان لك فيهما أسوة ، لو كنت أهلا للقدوة ، فبينك وبين من سؤالك هذا : ثلاثة أدراج حارت فيها عقول كثير من النظار وفنيت أزمان ، ونفدت أعمار ، فكلامك يا هذا فاسد هجين ، بشهادة قسيسكم « أغشتين » •

وأما قولك : « فاذا اضطرتك المسألة الى القول بها » فقول غير صحيح ، والجهل على قائله يلوح ، وكيف تضطر المسألة مع نظر سقيم ، أخذت مقدماته بالتحكم والتسليم • وانما كان يلزم ذلك : لو نزلت فى

= استقر على اتخاذ خليلة وانقطع عن الاتصال الجنسى الطليق ، ووجد نفسه فى عام ثلثمائة واثنان وثمانين • وهو لا يزال فى الثامنة عشر : أبا ، لولد ذكر ، كان يسميه « ابن خطيئتى » تارة • و « عطية الله » تارة أخرى •

أما من حيث نموه العقلى فقد طاف بكثير من المذاهب الفلسفية كما فعل القديس « جوستين » من قبل • فاعتنق الأفلاطونية مرة ، والمانوية مرة أخرى، والأفلاطونية الجديدة مرة ثالثة •

وقد ظل « أوغسطين » حوالى تسع سنوات ، معتنقا الثنائية المانوية ، لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر ، فمن طبيعة الوجود عندهم أن توجد الظلمة الى جانب النور ، فالشر عنصر أساسى فى طبيعة الحياة الانسانية • وهكذا وجد « أوغسطين » ما يبرر وجود الشر فى العالم • لكنه فى الواقع ظل طوال هذه السنوات التسع « سماعا » والسماعون فى المانوية ، هم الأتباع الذين يؤمنون بالمذهب ، ولايعملون به • أما الأتباع الأوفياء فهم الصديقون أو المختارون • ومات « أوغسطين » فى سنة أربعمائة وثلاثين من الميلاد • (صفحة ١٢ و ٤٨ و ١٦١ من كتاب : روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ــ تأليف « اتين جلسون » عرض وتعليق : الدكتور امام عبد الفتاح امام ــ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤) •

انظر أيضا صفحة ١٢٦ من كتاب « فجر الاسلام » للدكتور أحمد أمين •

كلامك على شرط السبر والتقسيم ، ونهجت منهج النظر القويم •
والا فبم تنكر على الدهرى حيث يقول : « لا أسلم أن العالم مخلوق » ؟
وبم تنكر على الفلسفى ، حيث يقول : « أسلم أنه مخلوق ، لكن لا أسلم
أنه محتاج الى خالق ، مخترعه بعد العدم » ؟ وبم تنكر على الطبيعى
حيث يقول : « لا يحتاج عالم الطبائع الى خالق ذى قدرة ، وعلم ،
وارادة ، وحياة » ؟ ثم لأى شىء تحكمت ، وقلت : « انها ثلاثة » ؟
فلعلها أكثر ، أو أقل ، ولا بد لك من معرفة ابطال مذاهب هؤلاء
بالبرهان ، وحينئذ تحصل على مرتبة الايقان • وهذا ليس بعشك ،
فاضطجع على نمشك •

خلى الطريق ، لمن يبنى المنار به ❊ واقعد ببرزة حيث اضطرك القدر

وأما قولك : « فانى أسألك ان كانت أسماء لذاته ، أو أسماء لأفعاله •
فان قلت : هى أسماء لذاته فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت
فيما أنكرت من الجسم » فسؤال لا يستحق أن يسمع ، ولا لصاحبه
فى العقل مطمع ، قسمت ، وسبرت ، وبقيت عليك أقسام وما شعرت •
اذ لقائل أن يقول : « ليست هذه الأسماء من أسماء الذات ، ولا من
أسماء الأفعال ، بل هى قسم آخر ، وهو أسماء الصفات » والتقسيم :
متى لم يكن دائرا بين النفى والاثبات ، فهو معرض للنقوض والآفات ،
ثم أطرف من العنقاء : شرعه فى أول كلامه فى المسميات ، ثم أخذه فى
الكلام فى الأسماء ، ولم يفرق بين الاسم والمسمى ، فهو جاهل أعمى •

ثم انظر بله هذا السائل ، وعدم حسه ، فلقد خرج بجهله عن
أبناء جنسه • كيف قال : « فان قلت هى أسماء لذاته ، فقد نقضت ،
وجعلتها اسما للذات » وأى فرق بين قوله فى المقدم ، وبين قوله فى
التالى ؟ وهل هذا الا بمثابة من يقول : « ان قلت هذا اليوم نهارا ،
فقد نقضت ، وجعلته نهارا » ؟

فما أعرفك يا هذا بنتيجة الشرطى المتصل وحدوده ، وبحد النقيض
وشروطه • فلو استرزقت الله عقلا ، لكان الأحرى بك من الكلام فى
المعتقدات والأولى • ثم أعجب من ذلك كله : أنك لزمت من قال :
« ان العلم والقدرة والارادة أسماء للذات » : القول بالتجسيم •
وهذا نتيجة الجهل الصميم ، والفهم المستقيم • وهذا من أين يلزم ؟

أمن نقيض التالى أو عين المقدم ؟ فوالذى خص الأذكياء بالعقول . لقد أربيت فى جهلك على كل جهول ، وأتيت بما ليس بمفهوم ولا معقول .

وأما قولك : « وان قلت من أسماء أفعاله التى منها سمى قادر عالم مريد فهو التثليث الذى أمرنا بالقول به » . فيقتضى أن الأقانيم من أسماء الأفعال . فهذا قول لا يقول به المجانين ولا الأطفال فان معنى تسمية الله تعالى بأسماء الأفعال انما معناها عند العقلاء . أن يخلق الله فعلا يسمى ذلك الفعل باسم فيشتق لله تعالى من ذلك الفعل اسم . مثال ذلك : خالق ، ورازق . يقالان على الله تعالى ، باعتبار خلق الخلق ، ورزق الرزق . فان أردت هذا المعنى كان ذلك محالا على الصفات العلى ، فان صفاته سبحانه وتعالى ليست بمخلوقة ، على ما يعرف فى موضعه ، وأيضا فلو جاز أن يسمى بعلم يخلقه عالما ، وبارادة يخلقها مريدا ، وبقدرة يخلقها قادرا . جاز أن يسمى بحركة يخلقها متحركا ، وبصوت يخلقه مصوتا . وذلك مجرى الى جهالات ، لا يقول بها عاقل . فان أراد هذا السائل بأسماء الأفعال أمر آخر ، فهو انما اصطلح مع نفسه ، فكان ينبغى له أن يفسر ما يقول اذ لم يتكلم بما اصطلح عليه أرباب العقول .

وأما قولك : « فهو التثليث الذى أمرنا بالقول به » فنقول فيه كذبت ، وعلى الله ورسله افتريت . فان الرسل عليهم السلام لم تأمر باعتقاد التثليث لأحد من الأنام . بل قالت الانبياء عليهم السلام ، ما يعرفه الخاص والعام **« فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة »**(١) ولقد حصل للعقلاء بالتواتر ، وعلموا بالوراثة : أن الله تعالى قال : **« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة »**(٢) ثم قولك هذا تريد به : أنكم أمرتم باعتقاد آلهة ثلاثة . وانكم قيل لكم : اعتقدوا فى الله تعالى أنه آلهة ثلاثة ، اله واحد ، وقولوا به . وليس الأمر كذلك عند رهبانكم المتقدمين ، وأساقفتكم الماضين .

هذا « أغشتين » يقول بعد أن تكلم فى الأقانيم ، ما تثبت أنها صفات على ما يقتضيه كلامه . ذلك أنه قال : « وهذا قولنا فى الأقانيم الثلاثة التى لا يمكن جحدها منه ، ولا وصفه بغيرها » وهذا تصريح

(١) النساء : ١٧١ (٢) المائدة : ٧٣

منه : بأنها صفات • ثم قال بعد ذلك : « فهذا قولنا فى التثليث ، الذى وصفه الانجيل ، وأمرنا بالايمان به » وسيأتى نص كلامه • ولم يقل : أمرنا بأن نعتقد أن الله واحد ، ثلاثة • فان الواحـــد لا يكون ثلاثة والثلاثة لاتكون واحدا • كما قد تبين فساده ، بل مفهوم قوله : ان الانجيل وصف أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات • وأمرنا بالتصديق بذلك • ولو انكتم عن ألسنتكم أمر التثليث ، واعتقدتم أن الله تعالى واحد موصوف بصفات الكمال ، ونعوت الجـــلال ، لوفقتم فى هذه المسألة للصواب ، ولحصلتم منها على الحق بلا ارتياب • ولكن من حرم التوفيق ، استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق •

على أن ما ذكرته فى أمر التثليث لا يستقيم على رأى المتقدمين من أحباركم • هذا صاحب كتاب : « المسائل السبع والخمسين » يقول فيها : « لا نقول : ان التثليث ممتزج فى أقنوم واحد كقول « شباليش » ولا الهية متحدة ، أو متبعضة الذات ، كفرية « آريش » بل ان أقنوم الآب غير أقنوم الابن ، وأقنوم الابن غير الروح • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، فاذا لم تكن ممتزجة ، وكان كل أقنوم منها غير الآخر — والاقنوم معناه عندكم : الشىء المستغنى بذاته عن أصل جوهره فى اقامة خاصة جوهريته — فكيف يتسع عقل ، لأن يقول : ان هذه الثلاثة المتغايرة التى هى على ما ذكر : واحد ؟ وهل قائله الا معتوه ، أو معاند ؟

❋ ❋ ❋

الفصل الثانى

أقانيم : القدرة والعلم والحياة

فى حكاية كلامه أيضـا

قال : « فان قلت لم لا تقولون : بسم العالم القادر المريد ، اذا قلتم : باسم الآب والابن والروح القدس . فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ، ثالثا .

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس قال لهم : « من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب ، والابن ، والروح القدس »(1) وانما خاطبنا بمثل تعاقلنا . فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال ، ثم واسط ، ثم آخر .

فأول القضايا : خلق الله الجميع بيد ، سماها : أبا ، وأضافها الى القدرة . وأضاف قضية وعظ المسيح للناس الى العلم ، وسماه : ابنا ، لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما . وأضاف قضية فناء جميع الدنيا ، ومكافأة أهلها بأعمالهم الى الارادة ، وسماها : روح القدس ، الذى هو قادر ، عالم ، مريد ، اسما للواحد الذى لا يتكثر » اهـ .

والجواب عن قوله : اعـلم يا هذا . انك لم تحسن السـؤال ؛ ولا حصلت منه على صواب مقال ، بل حصل منه فى عنقك غل . وفى رجليك عقال . قلبت السؤال ، ولم تشعر ، وجهلت من حيث ظننت أنك تستبصر . أردت أن تقول فى الاعتراض الذى وجهته على نفسك . لم لا تكتفون باسم القادر ، العالم ، المريد . ولا تقولون : باسـم الآب ، والابن ، وروح القدس ؟ فقدمت وأخرت ، وباللفظ والمعنى أخللت ؛

---

(1) النص : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) وفى انجيل مرقس : « وقال لهم : اذهبوا الى العالم أجمع ، واكرزوا بالانجيل ، للخليقة كلها . من آمن واعتمد خلص . ومن لم يؤمن يدن » (مرقس ١٦ : ١٥) .

ثم أنتجت النتيجة ، قبل ذكر المقدمات ، فصار لذلك كلامك من أرك الترهات . فقلت فيها : « فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ثالثا » وهذا كلام مختل ناقص ، مشوب بالفساد غير خالص . وانما كان صوابه أن يقول : فيتبين أنه آب وابن . ثم قلت : « ثالثا » بالنصب ، بخطك ضبطه ، مشعرا بأنك أعربته ، بل بالاتفاق كتبته ، ولم تشعر بأنك قلبته . وأما قولك : « ان المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس » فكلاما نقلته مدعيا أنك رويته ، ونحن يجب علينا : أن نتوقف فى أخباركم ، ولا نقطع بتصديقكم ، ولا باكذابكم ، بل نقول ما أمرنا به الرسول ، وبلغنا على ألسنة النقلة العدول : « آمنا بالله ورسله »(١) فان صدقتم لم نكذبكم . وان كذبتم لم نصدقكم . ومع تسليم ذك جدلا ، فلا بد أن نباحثكم فيما نقلتم ، ونتفقه فيما حكيتم .

فنقول : ظاهر قولك هذا ، يفهم منه : أن رسالة عيسى كانت عامة لجميع الأجناس . وليس الأمر على ما زعمتم(٢) ، وسيأتى الكلام على هذا فى باب النبوات . وكذا الكلام على المعمودية ، وما يلزم عليها يأتى فى باب الكلام على أحكامهم ان شاء الله تعالى .

وأما استدلالاته على اعتقاد وجوب الآب والابن والروح القدس . واطلاق القول بذلك بما قاله عيسى للحواريين ، فلا حجة لك فيه . اذ ليس بنص قاطع . بل هو مما تقولون أنتم فيه متشابه . فانه يحتمل أن يكون مراده به : عمدوهم على تركهم هذا القول . كما يقول القائل : كل على اسم الله ، وامش على اسم الله . أى على بركة اسم الله ، ولم يعين الآب والابن ، من هما ؟ ولا ما المعنى المراد بهما ؟ فلعله أراد بالأب هنا : الملك الذى نفخ فى مريم أمه الروح . اذ نفخه سبب علوق أمه وحبلها به . وأراد بالابن : نفسه ، اذ خلقه الله تعالى من نفخة الملك ، فالنفخة له بمثابة النطفة فى حق غيره .

---

(١) فى صحيح البخارى « عن أبى هريرة قال : قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم « **وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم** » الآية (العنكبوت : ٤٦) .

باب « لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ » الجزء التاسع صفحة ١٣٦

(٢) سنعلق عليها فى باب النبوات .

ثم لا يبعد أيضا فى التأويل — ان صح ، عن عيسى عليه السلام ، أنه كان يطلق على الله لفظ الأب — أن يكون مراده به : أنه ذو حفظ له ، وذو رحمة وحنان عليه ، وعلى عباده الصالحين ، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم • وهم له فى القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار • ويحتمل أن يكون تجوز باطلاق هذا اللفظ على الله تعالى ، لأنه معلمه ، وهاديه ومرشده • كما يقال : « المعلم ، أبو المتعلم » ومن هذا قوله تعالى فى كتابنا : « **ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل** »[1] على أحد تأويلاته[2] •

ومن هذين التأويلين : يصح حل ، ما وقع فى أناجيلهم ، من هذا اللفظ • بل هذان التأويلان ظاهران ، وسائغان فيها ، ويشهد لهذين التأويلين : قول عيسى للحواريين ، على ما جاء فى (سورة الوصية) حيث قال لهم :

« اذا صليتم ، فقولوا : يا أبانا السماوى ، تقدس اسمك ، وقرب ملكك »[3] ثم قال بعد كلام ، ووصايا : « فاذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون اعطاء الخيرات أولادكم • فكيف أبوكم السماوى »[4] ؟

وكذلك وقع فى انجيل يوحنا (يحيى) : أن عيسى قال لليهود : « أنا عالم أنكم من نسل ابراهيم • ولكن تريدون قتلى • لأنكم

---

(١) الحج : ٧٨

(٢) فى تفسير الكشاف للامام الزمخشرى « فان قلت : لم يكن «ابراهيم» أبا للامة كلها • قلت : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته • لأن أمة الرسول فى حكم أولاده » اهـ •

فى تفسير « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى : « وابراهيم هو أبو العرب قاطبة • وقيل : الخطاب لجميع المسلمين • وان لم يكن الكل من ولده ، لأن حرمة ابراهيم على المسلمين ، كحرمة الوالد على الولد » أ• هـ

(٣) النص : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك » (متى ٦ : ٩ — ١٠ ، ولوقا ١١ : ٢) •

(٤) النص : « فان كنتم ، وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (متى ٧ : ١١) •

لا تعلق بكم وصيتى • فأعلمكم بما رأيت عند الآب • وأنتم انما تعملون ما رأيتم من أبيكم • فأجابوه • وقالوا : انما أبونا ابراهيم • فقال لهم : ان كنتم بنى ابراهيم ، فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلى • على أنى رجل ، وذنبى اليكم : الحق ، الذى سمعت عن الله • ولم يفعل ابراهيم غير هذا • انكم تقفون آثار أبيكم • فقالوا له : لسنا أولاد زنا • وانما نحن بنو الله • فقال لهم : لو كان الله أباكم لحفظتمونى • لأننى منــه »(١) •

ثم نقول : لأنه عليه السلام ، وان كان يطلق هذه الأسماء ، فانما كان يطلقها متمثلا بها • وهكذا أكثر كلامه الذى يحكون فى انجيلهم •

ثم قد نهى عن اطلاقها فى الانجيل : الحواريين : قال فى انجيل لوقا للحواريين : « ما تقولون أنتم ؟ فأجابه سمعون بيطر وقال له : أنت المسيح ابن الله • فنهاهم »(٢) وكذلك كان يقول : اذا كان يخرج الجنون عن المجانين ، فكانت تخرج ، وهى تقول : « أنت ابن الله » فكان ينتهرهم ويمنعهم من هذا القول(٣) •

---

(١) النص : « أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم • لكنكم تطلبون أن تقتلونى • لأن كلامى ، لا موضع له فيكم • أنا أتكلم بما رأيت عند أبى ، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم • أجابوا وقالوا له : أبونا هو ابراهيم • قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم • ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى • وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله ، هذا لم يعمله ابراهيم • أنتم تعملون أعمال أبيكم • فقالوا له : اننا لم نولد من زنا • لنا أب واحد ، وهو الله • فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله » (يوحنا ٨ : ٣٧ ـ ٤٢) •

(٢) النص : « قال لهم : وأنتم من تقولون : انى أنا ؟ فأجاب بطرس ، وقال مسيح الله ، فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد » (لوقا ٩ : ٢٠ ـ ٢١) •

(٣) فى انجيل لوقا : « وكانت شياطين أيضا تخرج من كثيرين ، وهى تصرخ وتقول : أنت المسيح ابن الله • فانتهرهم ، ولم يدعهم يتكلمون » (لوقا ٤ : ٤١) وجاء فى مرقس بدل « ابن الله » تعبير « قدوس الله » يقول : « وكان فى مجمعهم رجل به روح نجس • فصرخ قائلا : آه • ما لنا ولك يا يسوع الناصرى • أتيت لتهلكنا • أنا أعرفك • من أنت ؟ قدوس الله • فانتهره يسوع » (مرقس ١ : ٢٣ ـ ٢٥) وجاء فيه تعبير « ابن الله » هكذا : =

فهذا يدل دلالة بينة على : أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله تعالى ، بالمعنى الذى يطلق على ابراهيم عليه السلام أنه : أب • وذلك بمعنى : المعــلم الشفيق • وكذلك جاء اللفظ فى كتابنا : **« ملة أبيكم ابراهيم »**(١) وبذلك المعنى تقول اليهود ، والنصارى ، فى ابراهيم ، وليس على حقيقة الأبوة • ومع ذلك فــ **« ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين »**(٢) •

وكذلك فى الانجيل فى غير ما موضع : « قال لكم أبوكم ، وقلت لأبى »(٣) ويلزم على مساق هذا ألا يخص المسيح باسم الابن ، ولا الله تعالى باسم الأب •

وما بالنا نطول الأنفاس مع هؤلاء الجهال ، فانه اذا احتمل هذه التأويلات ، كان من المتشابهات ، ولا ينبغى أن يصير اليه فى الاحتجاجات ، وخصوصا فى الاعتقــادات • ثم نقول : لا يخلو المســتدل بذلك ، أو ما يقاربه على المعنى المتقدم : اما أن يريد به حقيقة الأب والابن ، أو لا يريد ذلك • فان أراد الحقيقة كان محالا وباطلا • فان حقيقة الأب عند العقلاء : حيوان ولد من نطفة حيوان هو من نوعه • وبهذه النسبة والصفة تفهم حقيقة الابن • وهذان الوصفان محالان على القدرة والعلم • فان العلم ليس بحيوان مولود من نطفة حيوان ، ولا القدرة حيوان يخرج منها نطفة يتولد منها حيوان • وهذا معلوم البطلان بالضرورة •

= « والأرواح النجسة حينما نظرته خرت له وصرخت قائلة : انك أنت ابن الله • وأوصاهم كثيرا أن لا يظهروه » (مرقس ٣ : ١١) وهذا يدل على أن « قدوس الله » تساوى « ابن الله » •

(١) الحج : ٧٨   (٢) آل عمران : ٦٧

(٣) فى الانجيل نصوص كثيرة بهذا المعنى منها : فى (يوحنا ١٢ : ٤٤ — ٤٩) « فنادى يسوع وقال : الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى • بل بالذى أرسلنى • والذى يرانى يرى الذى أرسلنى • أنا قد جئت نورا الى العالم ، حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة • وان سمع أحد كلامى ولم يؤمن • فأنا لا أدينه • لأنى لم آت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم • من رذلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه • الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الأخير • لأنى لم أتكلم من نفسى • لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول ؟ وبماذا أتكلم ؟ •• » الخ •

وان أراد بذلك المجاز فلا يصح له حمله على المجاز حتى يجتمع المجاز والحقيقة فى أمر ما • فانك اذا قلت : (زيد أسد) انما تجوزت بلفظ الأسـد ، وأطلقته على (زيد) لأجل الشجاعة الجامعـة بين (الأسد) و (زيد) ولولا ذلك لمـا صح المجاز فاذن لابد لهذا المتجوز من جامع بين الحقيقة والمجاز • فما الجامع الذى لأجله تجوز هذا المحتج ؟ فان قال : الأمر الجامع : أن القدرة أصل العلم — وقد قال ذلك فى داخل كتابه — منعنا ذلك ، ولم نسأله • وقلنا : المفهوم من القدرة ، والمعقول منها عند العقلاء : صفة بها يوجد ما لم يكن موجودا ، والمعقول من العلم أنه صفة كاشفة نفسها ومعلومها • يصدر عنهـا الاحكام والاتقان • وهما فى حق الله تعالى : أزليان عندنا وعندهم • واذا كانا كذلك فلا يتقدم أحدهما على الآخر فى الوجود • واذا لم يصح ذلك فلا يكون أحدهما أصلا للآخر • فان أراد هذا القائل : التقدم فى الذهن ، فالعلم هو المتقدم فى الذهن لأنه لا يصح فعل اختيارى من غير عالم • فان العلم شرط الايجاد ، والشرط متقدم فى الذهن على فعلم) ويتحقق هذا المعنى على القطع : عند من عرف الفرق بين العلم المشروط بالضرورة • وكذلك نقول : (علم زيد فقدر) ولا نقول (قدر الفعلى والانفعالى • ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العـلم : أبا • والقدرة : ابنا • لكان أحق بذلك وأولى •

ثم نقول : لأى شىء صرتم الى الجامع بين الحقيقة والمجاز ؟ هو : الذى ذكرتم ؟ وبم تنكرون على من يزعم : أن هنالك وجها آخر لم تطلعوا عليه ثم تحكمتم بتعيين هذا الوجه الذى ذكرتم ؟

ثم نقول : أنتم قاطعون بتعين هذا الوجه الذى أبديتم ، أو غير قاطعين ؟ فان زعموا : أنهم قاطعون ، فما مستند قطعهم ؟ فلا بد من ابدائه • ولا شك فى أنهم يجدون فى هذا المعنى نصا قاطعا ، فان زعموا : أنهم ليسوا بقاطعين ، فقد اعترفوا بأنهم شاكون فى اعتقادهم وقد كفونا مؤنة الكلام معهم ، فانهم أسندوا اعتقاداتهم الى الشك ، وكفى بذلك زورا وافكا • ثم يلزمهم على تسليم ما ذكروه من الجامع الذى أبدعوه : أن يكون البارى — تعالى وتنزه وتقدس — أبا لكل المخلوقات ، اذ هو أصل كل المحدثات ، أى موجدها ومخترعها •

وأما قولك : « فجعل هذه الأسماء ثلاثا » فيفهم منه : أن هذه الثلاثة الأقانيم الذى تقدم ذكرها ، مجعولة ، وأن الله تعالى هو الذى جعلها •

واذا كانت بجعل الله فهى بخلقه ، وما كان بخلقه فهو محدث فيلزمك على ظاهر قولك : أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعـالى ، وأنتم تقولون انها أزليات قديمة •

وأما قولك : « التى هى أسماء أفعاله » فقد أبطلناه فيما تقدم حيث بينا حقيقة أسماء الأفعال • ومن وقف على ذلك ، تبين بطلانه هنالك • وأما قولك : « مختلفة الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال ، ثم واسط ، ثم أخر » فكلام لا يروقك منظره ، ولا يعيد فائدة ، مخبره يشهد على قائله بالجنون ، ويضحك من عدم فائدته وارتباطه العاقلون • أراد هذا الجاهل أن يتكلم فخرس ، وكذلك يفعل الله بكل مبطل اذا نكس • وانما أراد هذا المبطل — ولم تطاوعه العبارة لمـا لم يحصل — : أن هذه الأقانيم الثلاثة انما سميت أبا ، وابنا ، وروح القدس باعتبار قضايا ثلاث • وذلك أن القدرة انما سميت أبا ، باعتبار أنها أصل الموجودات ، اذ بها وجدت • وانما سمى العلم ابنا باعتبار أنه اتحد بالابن ، الذى هو المسيح ، وصدر عنه • وانما سميت الارادة روح القدس باعتبار مكافأة الخلق فى الدار الآخرة بالنعيم •

فان زعمت أنك لم ترد هذا فكلامك غير معقول ، وقولك ليس بمقبول وهذا الذى أبديته فى هذا الكلام لم يقل به أحد — فيما علمت — من عقلاء نصارى الأنام ، وكفى بقولك عارا : مبين مخالفته لأسقفكم « أغشتين » فها هو يقول فى (مصحف العالم الكائن) : « انما سمى العلم ابنا باضافته الى القدرة • اذ القدرة أصله • وكما صار التعارف الأعجمى : أن تسمى القدرة التى هى الأصل : والدا • كذلك صار التعارف فى ذلك اللسان أن يسمى العلم المنسوب اليها ابنا » فقوله هذا مخالف لقولك ، ورأيه غير موافق لرأيك ، على أنه غلط فى قوله : ان القدرة أصل العلم • ويتبين غلطه عند من وقف على ما قدمته قبل • لكنه ، وان كان قد غلط • فالأمر عليه أقرب ، والخلاف معه أهون ، لأنه يرجع الخلاف معه الى اطلاق لفظ ، وليس وراء ذلك كثير حظ •

وأما قولك : « لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما » فكلام حطيط ينبىء عن جهل وتخليط • فان العلم لا يتولد كلاما • اذ لو جاز ذلك لانقلبت حقيقة العلم ، ولو جاز انقلاب حقيقة واحدة ، لجاز انقلاب كل حقيقة ، فيقلب القديم حادثا ، والحادث قديما • والجسم عرضا ،

والسواد بياضا الى غير ذلك من أنواع انقلاب الحقائق • ثم قولك فاسد وباطل بالضرورة فانا نعلم أمورا من غير كلام موصل الى ذلك ، فقولنا بوجود أنفسنا وبالهنا ، ولذاتنا ومحسوساتنا : بديهيات •

ثم قد صرحت بلفظ التولد ، وهو باطل من أصله ، فان المتولدات ممكنات ، وكل ممكن مقدور بقدرة الله تعالى ، فكل المولدات مقدورة بقدرة الله تعالى ، وانما ثبت أنها حدثت بقدرة الله تعالى ، فلا يقال : انها متولدات •

أقول هذا ، والكلام شجون ، والعلم فنون • على أنى أعرف أنك لا تفهم ما أقول • وانما أخاطب أهل الفهم والعقول •

وأما قولك : « الذى هو قادر ، عالم ، مريد ، اسما للواحد الذى لا يتكثر » فقول يدل على تخبطك ، وسوء تناولك • نقضت به ما تقدم من قولك ، حيث جعلت الأقانيم أسماء أفعال بزعمك • ثم قد صرحت ها هنا بأنها أسماء للواحد الذى لا يتكثر ، ولو حكى مثل هذا الكلام عن المستغرقين النوام ، لقيل : هذا أضغاث أحلام •

وبعد هذا • فلتعلم أنى تجاوزت عنك فى هـذا الفصل ، ولم أؤاخذك ، بكل ما فيه من خطل القول خشية طول الكلام ، وتبدد المطلب ، وبعد المرام • وأول ذلك : أنك لحنت ، وصحفت فى ثمانية مواضع تتبين للناشئين ، بل المراضع •



تعليل التثليث

فى حكاية كلامه أيضا

ثم قال : « فان قلت بالتثليث لأنها أسـماء أفعال الله ، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة ، فقولوا بها كقولكم بالتثليث ، لأن عزيز وقوى وغلوب وسميع وقاهر وبصير وغفور وراضى وساخط ومعاقب ، وغيرها من أسماء أفعاله ، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث . قلت لك : هذه التى ذركناها ، هى أصول جميع التسمية ، ومنها تنبثق ، وفيهـا تندغم . فعزيز وقوى وغلوب وقاهر ، وما أشبهها . أصلها القدرة ، ومنها تنبثق ، وفيها تندغم ، وغفور ورحيم وراضى وساخط ومعاقب أصلها الارادة ، منهـا تنبثق ، وفيها تندغم . فان قلت : فقديم ، وحى ليست منبثقة منها ، ولا مندغمة فيها . فقولوا بالتخميس . قلت لك : ان قديم وحى : أسماء ذات ، لا أسماء أفعال ، وكل اسم للذات انما يؤدى معنى واحدا لنفى ضده ، فقديم لنفى محدث ، وحى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى مألوه ، فكل اسم من هذه : القدرة والعلم والارادة التى هى أسماء أفعال : ثلاثة لذات واحدة ، لا يتكثر ، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان لا يقوم لها فعل الا عن ثلاثة . أن نقص منها واحد لم يتم له فعل . وان زاد فيها رابع لم يتفق . كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة . وذلك أن الانسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة . وذلك : القدرة والعلم والارادة ، ولا رابع منها فان عجزت منها واحدة لم يتم له بالاثنين فعل . لأنه ان علم وأراد ولم يقدر فقد عجز ، وان قدر وعلم ولم يريد ، فلا يتم له شىء الا بالارادة . وان قدر ولم يعلم ، لم يتم له فعل بالجهل . فقرب لنا الكتاب : معرفة الخالق بخلقه لهم ، بمثل تعارفنا فى أنفسنا ، أن القدرة والعلم والارادة خواص قائمة هى المتممة للفعل منا ، وانها لذات واحدة . وكذلك التثليث فى الله واحد » اهـ .

الجواب عن ما ذكر : اعلم يا هذا أنك اعترضت على نفسك بما يدل على كلال ذهنك ، وعدم حدسك . لأنك أخللت بالسؤال ، وتحكمت فى

الانفصال . أما اخلالك بالسؤال ، فأول ذلك : أنك لحنت فى هذا الفصل فى ثمانية عشر موضعا ، وذلك بين عند من تأمل مكتوبك ، وثانية : أنه كان ينبغى لك أن تقدم قبل هذا السؤال : النظر فى حد هذه الأقانيم ، وحقيقتها . ثم فى الدليل على وجودها . فان النظر فى كون الشىء واحدا أو كثيرا ، انما يصار اليه بعد معرفة حقيقته ، ومعرفة وجوده . فاذا فرغت من ذلك ، نظرت فيها ، هل وجودها زائد على الذات — أعنى ذات الفاعل — أم هو عين الذات ؟ فاذا عرفت هذه المطالب كلها . حينئذ كان يمكنك أن تنظر . هل هى واحدة أم كثيرة ؟ أو هل ترجع الى شىء ، أو يرجع اليها شىء ؟ ولا بد لكل ناظر ينظر فيها . نظرت أنت فيه : أن تعرف قبله ما ذكرته بالبراهين القاطعة . والا فكيف تتكلم فى فرع لم يثبت عندك أصله ؟ ولو كنت فى نظرك من المتفطنين ، لنظرت على الطريقة التى علمها لكم « أغشتين » ؟

وأما تحكمك فى الانفصال : فانما يتبين اذا حكيت كلامك ، وفهمت مرادك . وذلك أنك وجهت على نفسك ، كان قائلا قال لك : لم جعلت الأقانيم ثلاثة ، وأسماء الله تعالى أكثر من ذلك ؟ فانفصلت عن ذلك ، وقلت : أسماء الله تعالى ، وان كانت كثيرة فانما ترجع الى هذه الثلاثة ، فقاهر وقوى وغلوب وما أشبهها راجع الى القدرة ، وغفور ورحيم ، وما أشبههما راجع الى الارادة . هـذا مقتضى كلامك بعد التكرار والاكثار ، وهذا كله منك تحكم بما لم يقم لك عليه دليل ، ولا يشهد له من كلامك نظر ، ولا تعليل .

والا فما الذى يدلك على أن أسماء مختلفة المفهومات والحقائق ، راجعة الى معنى واحد ؟ وان جاز أن ترد الأسماء المختلفة المفهومات الى معنى واحد بالتحكم ، جاز أن تقضى بعكس ذلك ، وهو أن ترد الأسماء المترادفة على معنى واحد الى معان مختلفة ، وذلك لا يقوله الغبى الجاهل ، بله الكيس الفاضل . تقول على جهة السؤال ، وبه يظهر تحكمك فى الانفصال : بم تنكر على من يزعم أن جميع صفات الكمال مثل القدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام والحياة والقدم والبقاء ، وغير ذلك من صفات الكمال والاستغناء : هى أقانيم الموجودات وأصولها ؟ فان الممكنات انما يتبدل عدمها بوجودها بايجاد موجد متصف بصفات الكمال ، ومنزه عن صفات النقص والافتقار . وان اتصف بصفات النقص والافتقار ، كان محتاجا الى مزيل النقص

عنه ، ومن كان محتاجا كان ممكنا ، وكل ممكن فلابد أن يستند وجوبه الى سبب واجب الوجـود ، فحصل من هذا : أن صفـات الكمال والاستغناء كلها لا يصح ايجاد موجود محدث الا ممن اتصف بمجموعها ، وأن من لم يتصف بها فلا يصح منه ايجاد موجود . فاذن هى أصول الموجودات الممكنة ، فاذن هى أقانيم . على قولك .

وسيأتى مزيد كلام فى الأقانيم ، ثم نقول : ان قضيت برجوع هذه الأسماء بعضها الى بعض مع تباين مفهوماتها ، واختلاف معانيها ، فلم لا تقضى برجوع الارادة الى العلم ، وبرجوع العلم الى التجرد عن المـادة كما زعمت الفلاسفة ؟ ولم لا تقضى برجوع القدرة الى الوجود كما قد ذهب اليه طوائف من النصارى المتقدمين ؟ فقد كان طوائف منهم لا يعدون القدرة أقنوما ، وكانوا يردونها الى الوجود ، وكانوا يردون الارادة للحيـاة . فالأقانيم عندهم : الوجود والعلم والحيـاة ، وسيأتى حكاية مذهبهم ان شاء الله تعالى .

وهذا كله يدل على أنكم فى عقائدكم متحكمون ، لا ترجعون فيها الى أصل عليه تعولون .

وأما سؤالك الثانى الذى وجهت على نفسك ، فوارد عليك ، ولازم لك ، ولم تنفصل عنه . على أنك أخللت به . فان الذى يعترض به عليك : أكثر من قديم وحى . اذ قد يرد عليك الوجود ، فان أصل الأقانيم . والسمع والبصر ، فان لا يصح رجوعها بحال الى العلم ، فان العلم لا ينوب عن الادراك . فانا بالضرورة نعلم الفرق بين العلم بالصوت ، وسماع الصوت ، وبين العلم بالمرئى ، ورؤية المرئى . مثال ذلك : انا نعلم معلوما على غاية ما يمكن من العلم . ثم اذا رأيناه حصل لنا بالضرورة مزيد وضوح ، ومزيد بينة على العلم به . وكذلك فى المسموع ، فذلك المزيد ، وتلك المزيد . أما أن نقول : ان الله تبارك وتعالى مدرك لها ، أو ليس مدركا لها ؟ فان لم يدركها ، فقد فاته بعض المزايا ، ولم يحصل له ذلك الوضوح فيكون من يدركها ، وحصلت له : أكمل ممن لم تحصل له . فيؤدى الى أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أشرف وأتم من الصانع . وذلك محال . وان كان مدركا لها . فبذلك الادراك يسمى بصيرا سميعا ،وهو زائد على العلم ، فان العلم لا يغنى عنه كما تقدم . ولسنا نشترط فيها بنية مخصوصة ، ولا جارحة ولا

اتصال أشعة ، بل ننزه الله تعالى عن كل ما يوهم النقص والقصور في حقه . وهذا كما أنا لم نشترط فى كونه تعالى عالما : قلبا ، ولا دماغا ، ولا فى كونه ، قادرا : بنية ، ولا آلة ، بل السمع والبصر ادراكان ، أعنى صفتين متعلقتين بالمسموعات والمبصرات — على ما يعرف فى موضعه — فاذا تبين أنهما لا يرجعان الى العلم ، فعدوهما أقنومين زائدين على ما ذكرتم . وهذا ما لا محيص عنه ، ولا جواب عليه .

وأما قولك « وكل اسم للذات انما يؤدى معنى واحدا ، لنفى ضده » فكلام من لم يحنكه الاعتبار ، ولا عرف اصطلاح النظار . وذلك أنك أطلقت صفات الذات ، وصفات الأفعال على ما لم يطلقه عليه النظار ، ولا استعمله فى نظره أحد من علماء الأمصار .

ونحن نذكر اصطلاح النظار المعتبرين فى صفة النظر ، والأفكار . فى اطلاق هذه الأسماء ، ليتبين للواقف على هذا الكتاب ، أنك لم تعرف شيئا من اصطلاحاتهم ، ولاحطت على شىء من مفهوماتهم .

قالوا : انما تطلق الأسماء بحسب المسميات . والمسميات اما ذات ، أو أمر زائد على الذات . فالذى يدل من الأسماء على الذات : هو الذى يقال عليه : اسم ذات ، مثل قولنا : انسان وملك . ومن أسمائه تبارك وتعالى : (الله والحق) وأما الذى يدل على أمر زائد على الذات . فذلك الأمر اما أن يكون نفى شىء عن الذات ، أو ثبوت شىء للذات . فالذى يدل على نفى شىء عن الذات : هو الذى يقال عليه اسم سلب . مثال ذلك : (فقير ، وسالم) ومن أسمائه تبارك وتعالى : (القدوس والسلام) فانها تدل على البراءة من العيوب ، وعلى نفيها . وأما الذى يدل على ثبوت شىء للذات . فذلك الثابت اما أن يقوم بالذات ، أو لا يقوم بها . فالذى يقوم بالذات : هو الذى يقال عليه : اسم صفة . ومثال ذلك : (عالم ، وقادر ، وسميع ، وبصير) فان هذه صفات زائدة على الذات ، وأما الزائد على الذات ، الذى لا يقوم بها ، فهو الذى يقال عليه : اسم الفعل . وقد يقال عليه : اسم الاضافة . مثل خالق ، ورازق ، وما أشبه ذلك .

فحصل من التقسيم : أن الأسماء على أربعة أضرب : أسماء ذات ، وأسماء صفات ، وأسماء سلوب . وأسماء أفعال . وقد يقال عليها :

المعتبرين • فان كنت اصطلحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار ، فلست على شيء مما كان عليه العلماء والأحبار ، فتكلم باصطلاحك مع نفسك • ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك ، ولا يظن ظان ، أن هذا السائل ، أراد بأسماء الأفعال : الأسماء التى لا يوجد الفعل الا بها • مثل العلم ، والقـــدرة ، والارادة • فانه قد جعل من أسماء الأفعال مالا يوجد به فعل كسميع وبصير وغيرهما مما ذكر • وفيما أحسب : أنه أراد هذا المعنى ، ولم تساعده العبارة فعنى ، وعنى •

وأما قولك « حى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى مألوه » فكلام مجنون معتوه • فانه ان جاز أن يكون حيا من أسماء السلوب والنفى ، فما المـــانع من أن يكون العلم من أسماء السلوب ؟ فانه ممكن أن يقال : عالم لنفى جاهل ، ومريد لنفى كاره ، وقادر لنفى عاجز • وهكذا يجرى فى جميع الصفات والأسماء ، التى لها نقائض ، وذلك يؤدى الى جهالات ، وجحد المعقولات • وأيضـــا ، فان كانت الحياة سلبا ، فيستحيل أن تكون شرطا للعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وكونها شرطا لهذه الصفات ، معلوم بالضرورة ، والنفى لا يكون شرطا ، ولا مشروطا فى مثل ما نحن فيه •

ثم نقـــول : قولك هذا مخالف لمـــا تقوله (أقسستكم) هذا صاحب كتاب (الحروف) يقول : « البارى تعالى لم يزل حيا بروحه ، وناطقا بكلمته ، فمهما قلت : لم يزل حيـــا ، ولم يزل ناطقا ، أوجبت فى نطقك لحياته ، ونطقه : الأزلية » وهذا منه تصريح : بأن الحياة ليست ترجع الى نفى الموت • ثم قال بعد ذلك بكلام : « وروحه ــ أعنى حياته ــ أقنوم خاص كامل ، لم يزل » وسيأتى الكلام معه فى هذا ان شاء الله تعالى •

وأما قولك « رب لنفى مربوب » فقول مختلط عقله ، مغلوب • فان الرب معناه : الملك • فهو من أسماء الاضافة والأفعال • وأما الاله فهو من الآلهة ، وهى العبادة ، فهو مألوه ، أى معبود آلهة عبادة ، فهو من أسماء الأفعال والاضافة •

وأما قولك « وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان ، لا يقوم لها فعل الا عن ثلاثة » ••كذلك فهمنا عن خالقنا : أن تدبيره بنا عن ثلاثة» فقول يدل على سوء نظرك ، وقلة تثبتك • وذلك أن مفهوم ما ذكرته فى هذا

الفصل على تثبيجه وسوء ترتيبه ، هو أنك قلت : ان الانسان لا يتأتى منه فعل حتى يكون قادرا عالما مريدا ، فان نقصه منها واحد ، لم يصح ايجاد الفعل منه • فكذلك خالقنا سبحانه وتعالى هو قادر عالم مريد ، ولو نقصه منها واحد لم يصح منه ايجاد فعل كالانسان • هذا مفهوم كلامك على كثرته •

وهذا كلام فاسد ، لأنه قياس الغائب على الشاهد ، اذ هو قياس خال عن الجامع • وأيضا فلو كان هنالك جامع لكان باطلا فانه قياس جزئى على جزئى • وذلك انما هو صالح للظنيات ، لا للعمليات ، ولو جاز قياس البارى سبحانه على خلقه ، للزم ألا يكون قادرا ، حتى يكون ذا آلة ، وعصب ، ويد الجارحة • فان الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك • وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماغ الى غير ذلك من المحالات • ويلزمك على مساق قولك ، أن يكون البارى تعالى جسما • فانك كما لم تر موجدا ، ولا فاعلا لفعل ، الا قادرا عالما مريدا • كذلك لم تر فاعلا ، ولا موجدا الا جسما • وهذه جهالات لازمة على قولك ، ومنتجة عن صمم جهلك ، فلا تنتفع بهذا الكلام حتى تسبره على محك النظار الأعلام • ولو تتبعنا خطاك فى هذا الفصل ، لطال الكلام ، ولكثر عليك التوبيخ والملام • لكنا نكل الناظر فيه للوقوف على فساد معانيه •



الفصل الرابع

دليل التثليث

فى حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل من المخالفين • فقال : فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق • وكيف يمكن أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة ، مع ما ابتدأتم به من القول ، واثباتكم اياه فردا لم يزل ؟

قلنا لهم : اما أن تكون الثلاثة واحدا ، والواحد ثلاثة ، فلذلك لعمرى مالا يمكن كونه • ولكن نقول : ان جوهرا قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات ، جوهرات غير متباينات ، ولا متفرقات فى الجوهر القديم الأزلى ، الذى لا يتبعض ، ولا يتجزأ بعينه ، وكماله • فلا هو ثلاثة ، وجميع الثلاثة : خواص ، هى بمعنى ما هو واحد ، ولا هو واحد ، بمعنى ما هو ثلاثة ، أعنى ليس هو خاصة واحدة ، بل ثلاثة خواص • فهذا مذهبنا فى تثليث وحدانية الخالق » أ • هـ

الجواب عنه : هذا السؤال الذى وجهت على نفسك ، وارد عليك ، ولازم لك • وأما انفصالك عنه فمخرجك عن ملة النصرانية ، ولا يبقى عليك منها بقية • وذلك أن مرادك من هذا الجواب : أنك قلت كلاما معناه : أن كون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحدا ، غير جائز عقلا • ولكن معنى التثليث : أن الله تعالى جوهر قديم لم يزل موصوفا بثلاث خواص أوليات ، فهو واحد بمجموع الأقانيم ، وثلاثة بتفرق الأقانيم • وتلك الأقانيم لا تفارق وجوده ، ولا تباينه ، ولا يمكن أن يحمل كلامك الا على هذا • وان حمل على غيره فهو بعيد وغيره مفيد •

وهذا الذى ذكرته ، لا يسأله لك أكثر النصارى • بل يتبرأون عنه ، ولا يرضون بشىء منه • اذ نصارى قبلك ، أكثرهم متفقون على أن الأقانيم الثلاثة آلهة ، وأنها اله واحد • فأنت تقول : هى خواص ، وهم يقولون : آلهة • فأى شىء يجمع بين الخاصية والالهية ، وبينهما ما بين السماء

والأرض ، والرفع والخفض ؟ وسيتضح ذلك اذا نقلنا مذاهبهم فى ذلك ان شاء الله تعالى .

ثم نقول لهم : لأى شيء تحكمتم بتسمية خالقكم جوهرا ؟ وفى أى موضع كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك ؟ أو على لسان من بلغكم الامر به ، ولا تجدون لاثبات الأمر بذلك سبيلا غير التحكم ؟ ولو كنتم ممن يستحى من الله لما تحكمتم عليه بأن سميتموه بما لم يسم به نفسه ، ولو أن واحدا منكم سمى له ولد بغير أمره ، لأنف من ذلك ، وعظم عليه ، ولوبخ المسمى لأنه تصرف فيما لا ينبغى له . هذا اذا كان الاسم مما يفهم منه المدح .فما ظنك لو سمى بلقب يفهم منه النقص والعيب . ولفظ «الجوهر» فى المتعارف عند النظار وغيرهم يطلقونه على المتحيز ، وهو الجرم الشاغل قدرا من المساحة . ولا بد له من الحركة والسكون ، وهما دليلا تغيره ، وحدوثه ، فان أردت به معنى آخر فلا بد من بيانه اذ لم تتكلم بما تكلم به أرباب النظر ، المذللون سبل العبر .



الفصل الخامس

فى بيان اختلافهم فى الأقانيم

نبين فى هذا الفصل مذاهب أوائلهم ، ونتكلم معهم فيها ، ونوضح مسائلهم فيها ان شاء الله تعالى ، ونحكى مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها فى كتبهم • ولم أعـول فى ذلك على نقل علمائنا عنهم فقـط ، بل تتبعت ما أمكننى من كتبهم والله والموفق •

قالوا : « لمـا أفهمتنا الشواهد العقلية : أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا • قلنا : فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة ، كما يقال فى حد الانسان : انه حيوان ناطق مائت• اذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه : أقنوما واحدا ، شخصا واحدا ، ولا يسمى كل جزء ، وكل عرض منها أقنوما انسيا : وذلك لأن اسم الأقنوم واجب للشىء المستغنى بذاته ، القائم بشخصه • لا لذى الاضطرار كالأجزاء ، ولا لذى الاشتباك كالأعراض • فان الاجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها ، كما أن حر النار الذى هو جزء من قوى النـار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها • وكذلك الأعراض المشتبكة فى الجوهر كالسواد والبياض ، وما أشبههما ، لا تقوم أشخاصها مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها • فالأقنوم هو المستغنى بذاته عن أصل جوهريته كالانسان المستغنى بخاصية انسانه عن الناس والشجرة عن الأشجار والدينار عن الدنانير ، فامتناع أجزاء الانسان من القيام أشخاصا لاضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديدها انسانا دون جسمه ونطقه ، وكذلك نطقه وجسمه ، يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديده انسانا دون روحه ، وذلك لاضطرار كل جزء منها الى صاحبه فى القيام بانسانيته •

فاذا تقرر هذا • فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره ، كما هو من الانسان ، أو غير جوهره • فان قلنا : هما جزءان من جوهره ألزمناه ما يلزم الانسان من الاضطرار والتأليف ، لأنا وجدنا

أجزاء الانسان لاضطرار بعضها الى بعض تقصر عن احتمال أسماء الأقانيم ، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلى ، اذ هو متعالى عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض • فأوجبوا أن تكون خواصه لغنائه وكمالها ، تسمى أقانيم قائمة بخواصها ، ومستحقة الذى توصف به بجوهرية قديمة كقدمه ، لا جزأين مركبين ، ولا عرضين منفصلين ، لأنه لم يزل حيا ، وناطقا بكلمته •

ومن زعم أن الحياة من الله ، والنطق منه : محدثان • وصف الله تعالى فى أزليته بالموت والجهل • وان قلنا : حياته ونطقه غير جوهره أزليان • فقد أشركنا مع الله فى أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة ، فوجب أن يكون جوهر الخالق ، تعالى : أقنوما ، خاصا ، قائما كاملا بخاصية لم يزل • ونطقه الذى هو كلمته : أقنوما ، خاصا كاملا قائما بخاصية لم تزل • وروحه أعنى حياته : أقنوما ، خاصا ، كاملا قائما بخاصة لم يزل • فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها ، لا متفاصلة ، ولا متركبة ، ولا متشابكة ، جوهر واحد ، ذات واحدة » اهـ •

هذا كلام صاحب « الحروف » وهو عندهم القسيس المعروف • ولقد رام تحسين مذهبهم ، وتبيين مطلبهم • ولكن لا يستوى الظل ، والعود أعوج • ولا يصلح المذهب وقائله أهوج •

❋ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ❋

وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون ، وبالحيرة عمهون •

هذا صاحب كتاب « المسائل » يقول : « هذه الثلاثة الأقانيم متوحدة لأجل الآب ، متساوية لأجل الابن ، منتظمة لاجل الروح • فنؤمن : أن الآب : أب ، لأجل أنه ذو ابن • والابن : ابن • لأنه ذو أب • والروح القدس : منبثق لأنه من الآب والابن • فالأب أصلية الالهية لأنه كما لا يخلو قط أن يكون الها كذلك لم يخلو قط أن يكون أبا ، الذى الابن منه مولود ، والذى الروح القدس منه ليس مولودا ، لأنه ليس ابنا ، ولا غير مولود لأنه ليس مخلوقا ، لأنه ليس من شىء ، بل انه منبثق من الآب والابن اهـ •

وأقنوم الآب غير أقنوم الابن • وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، الهية واحدة • وهـذا تصريح بأن الأقانيم : آلهة • وان كان واحد منها غير الآخر •

وقد ذهب « شباليش » الى أن الثلاثة الأقانيم ، ممتزجة فى أقنوم واحـد ، وهو عند كثير منهم مكفرا ، وكالمكفر • وقـد ذهب « آريش » الى أن الهية الأقانيم منخزلة ومتبعضة الذات ، وهو عندهم مفتر خارجى » اهـ •

وقال صاحب كتاب « المسائل » : « لسنا نؤمن أن فى التثليث شيئا مخلوقا ، أو خادما كالذى أنشأه « دنونيشيش » أو غير معتزل كقول « أونوميش » ، أو ناقص الامتنان كقول « أوتفش » أو مقدما أو مؤخرا أو صغيرا كقول « آريش » ولا ذا جسد كقول « مالطه » و « ترتليان » ولا مصورا بالحيدية كقول « أربد » و « نمرشيش » أو محجوبا بعضه عن بعض كقول « أوريان » ولا مربيا من المخلوقات كقول « فرشاط » ولا متفرق الارادة والعوائد كقول « مرحيون » ولا منقلبا من ذات التثليث الى طبيعة المخلوقات كقول « فلاطون » و « ترتليان » ولا منفردا فى رتبة مشتركا فى أخرى كقول « أوريان » ولا ممتزجا كقول « شباليش » بدل كله كامل لأنه كله واحد • ومن واحد لا تعدد ، كزعم « شلبانش » اهـ •

واذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة ، والآراء السخيفة • لم تشك فى تخبطهم فى عقائدهم ، وحيرتهم فى مقاصدهم • قالوا فى الله تبارك وتعالى بآرائهم ، واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم ، فهم فى ريبهم يترددون ، ولجهالهم مقلدون ، وبضلالهم مقتدرون •

ولمـا رأينا هذه المذاهب الركيكة لا تستحق أن تحكى ، بل يضحك من ذهاب عقول أربابها ويبكى ، أعرضت عنها اعراض المطلع على عوره ، أمام من يخاف جوره ، فعزمت على نقل مذهب كبيرهم « أغشتين » فان مذهبه فى الأقانيم ، مقارب فى الصفات مذهب المسلمين •

وذلك أنه قال بعد مقدمة كلام يرجع حاصله الى ما نذكره :

« لما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شىء ، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرا غير حى ، ولا مستغن بنفسه ، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم الى الاقرار بأن تلك القدرة ذات علم وارادة » اهـ •

قال : « وقد رد علينا هذه المقالة « برفيريش » فقال : لا نقول انه شىء فيكون قد سميناه بالأشياء التى لا تسلم من عيب ، ولكنا نقول : « انه » • ولا نقول : « شىء » • ثم قال : « ألستم تقرأون : أن الذى قدر هو الذى علم ، وأن الذى علم ، هو الذى أراد ، فهو واحد فى جميع المعانى • وانما القدرة والعلم والارادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق ، وليست لا خالقة ، ولا مخلوقة • لأنه لو لم يكن الشىء المقدور ، لم يسم ذا قدرة ، ولو لم يكن الشىء المعلوم لم يسم ذا علم • وكذلك القول فى الارادة • فهذه الأسماء ، انما هى أعراض ، وأسماء فيما بينه ، وبين الخلق • مثل قولنا : ذو رحمة ، وذو حكم ، وذو عقاب • فلو لم يكن الخلق المرحوم لم يلزمه اسم الرحمة • وكذلك غيرها » اهـ •

قال « أغشتين » فى جوابه عن قوله : « لا نقول ان لكل شىء عقيب ، وما لم يكن له عقيب فليس بشىء • لأن عقيب شىء ، لا شىء • واذا كان انما ينفى عنه اسم شىء • لأن الأشياء كلها له • فمثل ذلك يجب عليه فى قوله : « ان » أو قوله : « كان » • مع أنا لا نعرف شيئا نقول فيه : « ان » الا بعد معرفتنا اياه « شيئا » ، وحسبنا فى هذا قولنا : شىء ليس كشىء • من جميع الأشياء » اهـ •

قال : « وأما قوله : ان القدرة والعلم انما هى أعراض لزمته فيما بينه وبين الخلق ، وانها مثل الرحمة والحكم • فانا نحتج عليه فى ذلك بأن نقول : لست تنكر أنه كان قبل الأشياء ، ودون الأشياء ، بلا ابتداء • فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبدا قادرا ؟ فاذا أقررت أنه لم يزل قادرا • فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية • فان قلت : انه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشىء المقدور عليه • وانما يسمى قادرا بعد كون الشىء المقدور علينا • قلنا : أفكان يقدر على أن يقدر • أم لا ؟ فلا بد لك من أن تقول : كان يقدر • فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال •

وكذلك قولنا فى العلم والارادة • وقولك : يرحم ، ويغفر ويحكم • ليس مثل قولنا : يقدر ويعلم ويريد ، لأنك لا تقول : كان أبدا يرحم • وكان أبدا يخلق • ولا بد من أن تقول : كان أبدا يقدر ، وكان أبدا يعلم ، وكان أبدا يريد » اهـ •

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة : « فنحن ما لم نصفه بالعلم والارادة ، لم نصفه بمدبر ، ولاحى » اهـ •

ثم قال : « ان قلنا عرفناه بوحدانيته ، وعلمناه بذاته من غير نظرنا الى فعله ، الدال على قدرته وعلمه وارادته ، فقد كذبنا • لأنه لا يقدر أحد أن يقول : انه وقع على معرفته الا بما نظر اليه من خلقه » ، وتفكر فيه من حكمه ، وبمعرفته بنفسه • وكل هذا اقرار بالثلاثة الأقانيم التى ذكرنا ، لأنا لما وجدنا الخلق الذى لم يقدر أن يكون بنفسه وجب الاقرار بالشىء الذى قدر أن يكون ، وهى القدرة التى سماها علماء المجوس : الهيول • ثم لما نظرنا الى تدبير الخلق وجب الاقرار بالعلم والارادة ، لأن التدبير لا يكون الا ممن يعلم ويريد ، فثلاثتها اسم لاله واحد ، ونعت لمدبر فرد ، ولا تجد هى غيره ، ولا يجد هو غيرها • فهذا قولنا فى التثليث الذى وصفه الانجيل ، وأمر بالايمان به ، وسماه باللسان العجمى : الآب والابن والروح القدس » اهـ •

فهذا كلام هذا القس • والنصارى يعترفون بأنه أعرفهم بدينهم وأعلمهم بشرعهم ، ويقينهم ينص على أن الأقانيم الثلاثة صفات ونعوت للواحد الفرد • ولا يقال فيها : انها هو • ولا هى غيره ، وهو لعمرى من المسددين فى هذا النظر اذ قد سلك مناهج البحث والعبر • ولقد قارب الحنيفية ، وتباعد عن الملة النصرانية • الا أننا ننازعه نزاعين أحدهما : فى تسمية هذه الصفات : الآب والابن والروح القدس ، على ما تقرر ، وهذا نزاع لفظى ليس بكبير ، ولا له حظ خطير • والنزاع الثانى : فى أنه قصر الأقانيم على هذه الثلاثة ، ولم يعد الحياة فيها كما فعل غيره منهم ، وكذلك الوجود الموصوف بهذه الصفات لم يعده أقنوما • وقد صرح بأنها صفات ، ولا بد للصفات من موصوف بها بالضرورة •

وسنعطف عليه بالرد اذا تكلمنا مع غيره ان شاء الله تعالى • ومع هذا فقد سلك هذا الرجل مسلك أرباب العقول ، وتبرأ من جهالة كل جهول • واذا كان كذلك فسبيلنا أن نتكلم مع الذى صدرنا هذا الفصل بذكر كلامه ، فانه كثير الفساد ، مضرب عن الرشاد ، ويتضمن الرد عليه ، الرد على غيره ممن يقول مثل قوله ، أو ما يقاربه ، مستعينين بالله ، متوكلين عليه •

الجواب عن ما ذكره المصدر كلامه :

لتعلم أيها الناظر فى كتابنا : أننا يمكننا أن نناقش هذا القائل ، كما ناقشنا السائل • فان كلامه كثير الغلط ، ظاهر التكلف والشطط • لكنا تركنا مناقشته اللفظية ، وصرفنا المناقشة للمباحثة المعنوية ، كراهة للاكثار وميلا للايجاز والاختصار • وأيضا • فان نفس الله فى العمر ، وصرف عنا عوائق الدهر ، فسنرد عليه فى كتاب مفرد ان شاء الله تعالى ، أبين فيه غلطاته ، وأوضح جهالاته ، وسقطاته • بحول الله وقــوته •

فنقول له : لا يشك عاقل سليم الفطرة : أن خالق العالم موجود ليس بمعدوم وقد اعترفتم بأنه حى عالم • ومن لم يعترف بذلك أقيمت عليه البراهين القاطعة • فاذا تقرر ذلك • قلنا : فمفهوم أنه حى ، هو عين مفهوم أنه عالم ، أو غيره • فان كان عينه فقولكم : حى ، عالم كقولكم : حى ، حى • أو عالم عالم • والفرق ما بينهما معلوم ضرورة ، ولو كان عينه ، لاختلطت الحقائق فثبت أنهما متغايران متعددان • فاذا ثبت ذلك • فاما أن يرجعا الى الخالق سبحانه وتعالى فى قولكم : انه حى عالم • أو لا يرجعان • فان لم يرجعا لم يصح الاخبار عنه بهما ، ولم يكونا وصفين له ، فثبت أنهما يرجعان اليه ، واذا ثبت ذلك فاما أن يكونا من أوصافه تعالى النفسية أعنى الذاتية فان كانا من أوصافه النفسية أدى ذلك الى أن يكون ذاته وماهيته متركبة متبعضة ، وذلك محال على ما قررتم فيما تقدم من كلامكم •

وأيضا لو عقل كون العلم والحياة من الأوصاف النفسية فى محل ، عقل ذلك فى كل محل • ويلزم من ذلك كون العلم والحياة من صفات أنفسنا ، وذلك معلوم البطلان بالضرورة •

وأيضا فلو جاز ذلك للزم أن يكون العلم والحياة قائمين بأنفسهما ، أعنى موصوفين ، لأن جزء القائم بنفسه ، قائم بنفسه • وقد ثبت بالأدلة القاطعة : أن البارى تعالى قائم بنفسه ، والمعقول من العلم والحياة أنهما صفتان ، لا موصوفان • فاذا تقرر ذلك ، وثبت • لزم منه أنهما زائدان على النفس • فاذا ثبت ذلك ، فاما أن يقوما به ، أو لا يقوما به • فان لم يقوما به لم يتصف بهما ، ولو جاز أن يتصف فيما لا يقوم به ، لجاز ذلك فى حقنا ، فكان يلزم عليه ، أن يكون علم زيد ، يتصف به عمرو • وذلك محال ضرورة • فدل ذلك على أنهما قائمان به • فاذا قاما به وهما وجودان زائدان على الذات حصل من ذلك كله : أن ذاته واحدة لا تركيب فيها ، ولا تعدد • وأن صفاته الزائدة هى المتعددة • وهذا لا احالة فيه ، بل هو الحق ، الذى لا غبار عليه ، ولا بد لكل ناظر من الرجوع ، وان تخبط اليه ، فهكذا ينبغى أن تفهم صفات البارى تبارك وتعالى ، وتقدس وتنزه عما يقول الجاحدون ، والكافرون علوا كبيرا •

وهذه الطريقة البرهانية تجرى فى كل صفة يدعى ثبوتها للبارى تعالى • وبعد الانتهاء الى هذا المحل ينظر • هل أوصافه أزلية ، أم ليست أزلية ؟ والحق أنها أزلية ، ولا محرز أن يكون شىء منهـا حادثا ، اذ لو كان شىء من صفاته حادثا للزم عليه أن يكون محلا للحوادث ، ويلزم على ذلك حدوثه تعالى ، وهو محال ، على ما يعرف فى موضعه •

فاذا تمهد هذا الأصل • قلنا بعده للمتكلم معه : الأقانيم عندكم لا تخلو من أن ترجع اما الى صفاته النفسية ، أو الى صفاته المعنوية ، أعنى الزائدة على النفس ، ولا واسطة بين القسمين • فان رددتموها الى القسم الأول ، لزمكم ما تقدم من المحالات ، حذو النعل بالنعل ، وان رددتموها الى القسم الآخر ، فلأى معنى قلتم فى حد الأقنوم : انه الشىء المستغنى بذاته عن أصل جوهره فى اقامة خاصة جوهريته ؟ وهل المفهوم من هذا الا أنه صفة نفس ؟ لأن المستغنى بذاته عن أصل جوهره هو الذى نعبر نحن عنه بالقائم بنفسه ، ويعبر عنه غيرنا من النظار بالموجود ، لا فى موضوع •

وأيضا • ان كان أراد هذا القائل أن الأقنوم هو الصفة الزائدة على الذات فيلزمه أن يجعل الأعراض أقانيم • فانها زائدة على الذات •

ومن عجيب أمره أنه ألزم من قال ان العلم والحياة غير الجوهر : الاشراك به . وأى اشراك يلزم من قال : ان صفات المعانى زائدة على ذات الموصوف بها ؟ وكيف يمكن أن يقول عاقل : ان الصفة الزائدة على الجوهر ، انها عين الجوهر ؟ وهل قائل هذا الا جاهل ، أو متجاهل ؟

فتحصل من هذا كله : أن الأقانيم لا يصح عندهم أن تقال على الصفات النفسية ولا على الصفات المعنوية . ولا يعقل هنالك أمر آخر متوسط بينهما . فقولهم فى الأقانيم غير معقول ، فكأنه قول مجنون مخبـــول .

ثم نقول لهذا القائل : لأى شىء لم تجعل القدرة من الأقانيم ، كما ذهب اليه مقدمكم الأقدم ، وأسقفكم الأزعم « أغشتين » فتكون الأقانيم أربعة ؟ فان قال : ان القدرة ترجع الى الوجود كما صرح بذلك بعضهم ، فنقول لمن يقول ذلك : ولم ذلك ؟ وهل لا يرجع العلم والحياة الى الوجود ؟ وما الفصل بينهما ؟ الا محض التحكم .

وكذلك القول فى الارادة ترجع الى الحياة .

قيل له : ان صح ذلك فليرجع اليها العلم . وان جاز شىء من ذلك فلترجع كل واحدة من هذه الصفات الى الأخرى ، ويرجع الكل الى الوجود ، والوجود هو نفس الذات ، فترجع الأقانيم الثلاثة الى واحد ، وهو محال على ما تقدم لكم ، وعليكم . ويكون هذا أيضا قولا بامتزاج الثلاثة الأقانيم فى أقنوم واحد كقول الخارجى الجاهل « شباليش » وأنتم لا ترضون شيئا من قوله ، ولا مذهبه .

ثم نقول : لأى شىء تحكمتم . بأن الأقانيم ثلاثة ؟ وهلا أضفتم اليها القدرة والعلم والسمع والبصر كما تقدم الكلام عليه ؟ أو لعلها اثنان ، وعدم انتصارهم يدل على ضعف أنصارهم ، ولا حجة لهم فى هذه المواطن كلها أكثر من التحكم . فينبغى اذن أن يتكلم معهم على جهة المناقضة والتهكم ، وغايتهم فى ذلك : أن يرجعوا الى الاستقراء والتمثيل . وهما فى المعتقدات : طريقا الخطأ ، والتضليل .

ثم نقول : هذه الأقانيم الثلاثة قد قلتم : ان كل واحد منها مستغن بذاته عن أصل جوهره . واذا كان ذلك . فاما أن يكون كل واحد منها

الها ، أو جزء اله ، أو يكون مجموعها : الها واحدا ، فان كان جزء اله ، لزم عليه : أن يكون الالهمتركبامتبعضا • ويلزمكم على ذلك : ابطال التثليث الذى تقولون به ، ويلزمكم على ذلك : الامتزاج الذى ذهب اليه « شباليش » وان كان كل واحد منها الها بانفراده ، لزمكم على ذلك أمور كثيرة مشينة باطلة • منها أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم حيا عالما مريدا قادرا موصوفا بصفات الكمال • اذ الاله هو الموصوف بصفات الكمال ، المتعالى عن صفات النقص • فاذا التزم ذلك ملتزم : لزم عليه أن تقوم الصفة بالصفة • وان جاز ذلك جاز أن يقوم العلم والقدرة بالارادة • والارادة والقدرة بالعلم • والقدرة والعلم بالحركة • والحركة والقدرة والعلم باللون الى غير ذلك من أنواع الجهالات التى لا يبوء بها عاقل ، ولا يرضى بسماعها فاضل • وان جاز قيام الصفة بالصفة جاز أن يقوم بالصفة صفة • وبتلك الصفة صفة ، ويتسلسل • وما يتسلسل لم يتحصل ، ويلزم عليه : أن تكون الأقانيم لا نهاية لها • اذ العلم يقوم به حياة ، وتلك الحياة حية بحياة ، الى غير آخر • ومنها : أن تكون القدرة قادرة بقدرة ، والعلم عالم بعلم ، والحياة حية بحياة ، الى غير ذلك من الصفات • وهذا غير معقول • فان العلم والقدرة ، وسائر صفات المعانى : انما توجب أحكامها للمحال التى تقوم بها ، لا لأنفسها • بالعلم لا يكون عالما ، ولا قادرا ، وكذلك القدرة لا تكون عالمة ولا قادرة ، وكذلك سائرها • وانما العالم والقادر والمريد والحى : هو الذات الذى تقوم به هذه الصفات • وهذا معلوم من غير أسباب ، ولا أطناب •

ومنها : أن يكون الاله صفة لموصوف • فان المفهوم المعقول من هذه الأقانيم أنها صفات لا موصوفات على ما تقدم الى أمور كثيرة يطول الكلام بذكرها •

تم نرجع الى بقية التقسيم فنقول : وان لم تكن هذه الأقانيم حية ، ولا عالمة ، ولا قادرة ، فلا تكون الهية • وقد أطبق النصارى على أنها آلهة • ويلزمهم ان لم تكن الأقانيم موصوفة بهذه الصفات وصفها بأضدادها أو بالانفكاك عنها ان لم يوصف بحياة وصفت بالانفكاك عنها • والمنفك عن الحياة ميت • فيلزم عليه : أن يقولوا بآلهة أموات • وكذلك يلزم فى سائر الصفات •

وقد كع المصدر بكلامه عن هذا الالزام ، وصعب عليه المرام ، فتكلم بما لا يعقل فليته سكت ، ولم يتقول ، وبعد الخبط والتأوه ، قال : هذا مالا يجوز لنا به التفوه • ومن أراد أن يقضى العجب العجاب ، فليقف على ذلك الكتاب •

وتلخيص ما ذكره فى الانفصال : أن قال : ان قلنا ان الأب ليس يحيا ، كذبنا • وان قلنا هو الحياة أبطلنا • فاذا كان ليس حيا ، وليس بحياة ، وجب أن يكون حيا بلا محالة • وكذلك قال فى العلم والحياة •

ومن أفضى به الى هذا الهذيان بحثه ونزاعه ، فقد تعين تركه وانقطاعه ، وحسبك فى شر سماعه • وذلك كله يدل على أنهم ليسوا من العقلاء ، ولا معدودين من جملة الفضلاء ، بل قد انخرطوا فى سلك الحمقاء ، الجهلة الأغبياء • فهم قد جعلوا الههم هواهم ، فأضلهم لذلك وأرداهم • فهم كما قال الله العظيم ، فى محكم كتابه الكريم : **« أرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا • أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »**(١) •

وأما حكاية صاحب كتاب « المسائل » : فكلام يدل على أن القوم ليس فيهم مستحى ، ولا عاقل • كابروا الضرورات ، وجحدوا المعقولات ، تارة يتناقضون ، وأخرى يتواقحون ، افتراء على الله ، واستهانة بحرم الله • وحسبك دليلا على ذلك : اختلافهم فى البديهيات هنالك • وقد وكلت الناظر فيه لظهور تناقضه ، وفساد معانيه • فان غاية الناظر فى كلامه : أن يلزمه من المحال والتناقض مثل ما صرح بالتزامه • ومن أنكر الضروريات ، وارتكب المحالات ، فدار المرضى والمجانين ، أولى به وأليق ، من اشتغاله بالمعقولات •



---

(١) الفرقان : ٤٣ — ٤٤

الباب الثانى

فى بيان مذاهبهم فى الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها

* اتحاد الكلمة
* معنى الاتحاد
* الواسطة بين الله وبين موسى
* تجسد الواسطة
* كلام المتقدمين
* مذهب « أغشتين » اذ هو زعيم القسيسين

الفصل الأول

اتحاد الكلمة

فى حكاية كلام هذا السائل

قال السائل : « ثم نبدأ بالقول فى الاتحاد . فان قلت : فاذا كان التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة ، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض . فلم بعضتموه دون الآب وروح القدس ؟ ولم سميتموه : أبا وروح القدس ؟

اعلم أنها لما تعارفت القضايا بالأفعال ، اختلفت أسماءها كما قدمنا ، فاختلفت قضية خلق الخليقة بيد ، الى القدرة ، وسميت أبا ، وأضفت قضية الموعظة الى العلم المتولد كلاما ، وسمى ابنا ، وانفردت قضية الوعظ باللحمة دون غيرها ، لأن المسيح انما اتخذ فى الدنيا للموعظة ، لا لخلق الخليقة . لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بيد ، يسمى الجسم : أبا . وأضفت اللحمة الى الأب ، ولكنه انما اتخذه لموعظة الخلق . والوعظ مضاف الى العلم المتولد كلاما ، فسمى : ابنا . فلذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا »[1] فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعظة بالأمر ، والنهى دون القدرة والارادة . فهذا أخصر شرح الاتحاد » اهـ .

الجواب عن كلامه : يا عجبا من بلادة صاحب هذا السؤال . كيف لم يحسن اذ تتبج عليه المقال ، وكثر عليه اللحن والاختلال ، حتى أخل بمفهومه ، وعدل عن السؤال . فصار كلامه لذلك كأنه كلام مجنون مخبول اذا تهذبن ، ولم يثبت فيما يقول . وذلك أنه وجد على نفسه فى كلامه هذا : أسئلة انفصل بزعمه عن واحد منها ، وتغافل عن سائرها ، جهلا منه بورودها ، وحيدا عن جوابها .

---

(١) النص فى الترجمة الحديثة « والكلمة صار جسدا وحل بيننا » . (يوحنا ١ : ١٤) .

أحد الأسئلة أنه أراد أن يقول : قد قلتم ان التثليث قد رددتموه الى ثلاثة خواص ، لواحد لا يتبعض • فلم بعضتم ما لم يتبعض ؟ وثانيها : لم اتحد الابن بالمسيح دون الآب ، وروح القدس ؟ وهذا تضمنه كلامه حيث قال : دون الآب ، وروح القدس • وثالثها : لم سميتم المسيح ابنا ؟ ورابعها : لم سميتم الله تعالى أبا ؟ وخامسها : لم سميتم ارادة الله تعالى روح القدس ؟

على أن ظاهر كلامه يدل على : أن السؤالين الأخيرين انما هما راجعان الى المسيح • ألا ترى أنه أعاد الضمير ، أعنى ضمير سميتموه عليه ، لكنه لم يرد هذا ، ويدل عليه • انه لم يسم أحد منهم المسيح أبا ، ولا روح القدس • وانما سموه ابنا ، فتارة يقولون عليه : « ابن الله » وتارة : « ابن الانسان » وأما روح القدس • فقد تقدم فى اصطلاح هذا السائل ، أنه أراد به الارادة • ومن اصطلاح غيره أنه أراد به الحياة ، ولم يقل قط أحد منهم : أن المسيح اتحدت به ارادة الله وحياته • فلما وجه على نفسه هذه الأسئلة التى لم يشعر بوجه لزومها ، ولم ينفصل عن شىء منها أخذ بعدذلك بزعمه يتفضل بكلام لا يلتئم ، ولا يتصل ، فأسهب فى التكرار والترداد ، فصار كلامه لذلك أبرد من حديث معاد •

ثم قال فى الجواب — ما كان قد فرغ منه ، ولقد كان يستغنى عنه — « قد قدمنا أن الأقانيم الثلاثة انما سميت بالابن والآب وروح القدس ، لاختلاف القضايا الثلاث ، فأضيف الخلق الى القدرة وسمى آبا ، وأضيفت الموعظة الى العلم وسمى ابنا » وهذا كلام مكرر مستغنى عنه فى جواب ما سأل عنه ، اذ لا تعلق له به • وانما الكلام الذى يمكن أن يكون جوابا لبعض ما سأل عنه هو قوله : « انفردت قضية الوعظ باللحمة ، دون غيرها لأن المسيح انما اتخذ فى الدنيا للموعظة ، وسكنت فينا ، لا لخلق الخليقة • ولذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا » هذا مقتضى كلامه فى الانفصال ، بعد تلفيق مبدد ، وتهذيب مثبج المقال • ومع هذا فكلام هذا السائل لا يقبل التلفيق من صانع ، فان الفتق اتسع على الراقع • وبعد تقرير هذا نقول :

قد تقدم جوابك عن أكثر هذا الفصل فيما تقدم حيث تكلمنا فى الأقانيم ، وعلى أسماء الأفعال وعلى التثليث ، وعلى القضايا الثلاث بما أغنى عن اعادته • فمن أراد أن يتحقق فساد هذا الكلام فليعد نظرا

فيما تقدم . وانما الكلام معك هنا على قولك : « انما اتحدت بالمسيح الكلمة التى هى العلم ، لأن المسيح اتخذ للموعظة » كيف يتمكن عاقل من أن يقول هذا الذى ذكرته وعيسى عليه السلام قد اتخذه الله تعالى لابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين . وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تقع الا بالقدرة والارادة . فقولوا : انهمـا اتحدتا به ولا فرق بينهما وبين العلم . لولا محض الجهل والتحكم ، لاسيما . وقد جاء فى بعض كتبهم أن عيسى عليه السلام قال : « قدرته قدرتى . ومشيئته مشيئتى » أو قولوا : انه عليه السلام كان يفعل هذه الأمور الخارقة للعادة بغير قدرة فيلزمكم أن يفعلها بغير علم ، ثم يلزمك على مساق كلامك أن يكون كل من اتخذ للموعظة من الأنبيـاء والعلماء أن يتحد بلحمة الابن .

وأما قولك : « ان الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق لسمى ذلك الجسم أبا » فهو الزام مالا يلزم . فان الله تعالى قد اتخذ الأرض والمـاء والهواء والنار ليخلق بهم المخلوقات ، ولا يلزم من ذلك أن يكون أبا ، ولا أن يسمى أبا وهى أجسام .

وأما قولك : « فلذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة وسكنت فينا » فلقد خالفت التنزيل ، وحرفت التأويل . فهلا عليك ، سترت على مكرك ، ولم تلبس على نفسك وخصمك ؟ ولأى شىء لم تذكر الكلام من أوله ، وتسوقه على منازله ؟ أتظن أن المسلمين ليسوا بكتبكم عارفين ، ولا لتحريفكم وتلبيسكم منتهين . تالله . لقد فيهم من تعرف منهـا الحق ، الذى لا تعرفون ، ويتحقق منهـا الحق الذى لا تعرفون ، ويتحقق منها ما أنتم فيه تشكون ، ويعلم منها ما أنتم به جاهلون .

ومن ذلك . أن هذا الكلام الذى حكيته عن الانجيل ، وسلكت به مسلك التجهيل ، هو فى انجيل (يوحنا بن سبداى) المصور بزعمكم بصورة عقاب ، يقول عن عيسى عليه السلام : « من يقبله منهم ، وآمن باسمه ، أعطاهم سلطانا ليكونوا أولاد الله ، وهم الذين لم يتولدوا من دم ولا شهوة لحوم ، ولا شهوة رجل ، لكن توالدوا من

الله ، فالتحمت الكلمة ، وسكنت فينا ، ورأينا عظمته كعظمة ولد الله الفرد ، المحشو رضوانا ، وصدقا »(١) .

هذا مساق كلامه فى الانجيل ، وهذا الكلام لا يستدل على ما ذكرت ، ولا على غيره ، حتى يعلم أن عيسى عليه السلام هو الذى قاله ، وليس هو فى الانجيل مرفوعا الى عيسى ، ولا مسندا اليه ، ولا مخبرا به عن الله تعالى وغايته — ان صح — أن يكون موقوفا على (يوحنا) ومن قوله ، وحاشا ، عن قول مثله ، ثم لو سلمنا ذلك فليس بمعصوم ، فان العصمة انما ثبتت للأنبياء ، أو لمن أخبر الأنبياء عنهم : أنهم معصومون . وهذا ليس بنبى ، ولا بلغ عن الأنبياء بطريق قاطع أنه معصوم ، وسيأتى الكلام على هذا فى باب النبوات ان شاء الله تعالى .

وبتقدير أنه معصوم . فكتابكم قابل للتحريف والتغيير ، فانه لم تكمل فيه شروط التواتر فانه راجع الى أخبار آحاد ، لا تفيد علما ، على ما نبينه ، وعلى التقريب : ان أناجيلكم انما هى أربعة عن أربعة(٢) ، كل واحد منهم لا يفيد خبره العلم بأنه خبر واحد ، ومع ذلك فلو أنهم تواردوا على نقل خبر واحد ، لكان نقلهم لا يفيد اليقين ، فان الخبر الذى يحصل به العلم اليقين انما هو المتواتر حقيقة ، الخبر المفيد للعلم بالمخبر عنه ، الذى تحيل العادة على ناقليه الغلط والتواطؤ على الكذب على ما يأتى ان شاء الله .

وعلى تسليم أنه لا يقبل التغيير ، ولا التحريف فهذا الكلام ليس بنص قاطع ، بل هو محتمل للتأويل ، وتأويله معضود بسياقة اللفظ . وذلك أن مساق هذا الكلام يقتضى أن كل من آمن بعيسى عليه السلام

---

(١) فى انجيل يوحنا بن زبدى هكذا : « وأما كل الذين قبلوه . فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون باسمه ، الذين ولدوا ليس من دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل . بل من الله . والكلمة صار جسدا . وحل بيننا . ورأينا مجده ، مجدا . كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا » (يوحنا ١ : ١٠ — ١٤) ويعنى بصورة عقاب ما جاء فى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى عنه .

(٢) متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

فانه توالد من الله ، والتحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • ولذلك قال : « ولكن توالدوا من الله ، فالتحمت بالكلمة وسكنت فينا » •

فان كنت تريد أن تستدل بهذا اللفظ على أن الكلمة اتحدت بالمسيح خاصة ، فليس لك فيه دليل ، بل يدل ظاهره على أن كل من آمن به التحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • وهذا شيء لا تقولون به ، ولا يذهب اليه أحد منكم ، فهلا عليكم ، فهمتم كتابه ، وتدبرتم خطابه ، ورددتم آخر الكلام على أوله ، حتى تعرفوا نصه من مؤوله • على أنه لو كان نصا قاطعا لا يحتمل التأويل لما كان ينبغي لعلقل أن يقول بمقتضاه • فان الاتحاد محال قطعا على ما يأتى ان شاء الله تعالى ، اذا تكلمنا على حقيقة الاتحاد والحلول •

وأما قوله : « فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعظة بالأمر والنهى » فقول لم يقله الانجيل ، ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل ، وغاية مافى الانجيل : أن الكلمة التحمت ، وليس فيه : لأنها الواعظة فمن عرفك أن الكلمة اتحدت لهذه العلة ، بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك • لعلها التحمت ، لا لعلة ، بل لنفسها • وانما نزلنا فى هذا المحل على تسليم الالتحام • وان كان باطلا بالبرهان • ليتبين : أن هذا المذهب هذيان •

وأما قوله : « لأنها الواعظة بالأمر والنهى » فقول من لا يعرف فرق ما بين الأمر والنهى والوعظ ، ولا حصل من الشرع ، ولا من العقل على حظ • فان الوعظ مخالف للأمر والنهى بحقيقته ومقصوده • اذ قد يعظ الواعظ من غير أمر ولا نهى • وينهى ويأمر ولا يعظ فهما أمران مفترقان ، غير متلازمين ، على ما يعرف فى موضعه •

وأما قوله : « فهذا أخصر شرح الاتحاد » فالسين موضع الصاد أليق ، اذ الخسران اليه أقرب ، وبه ألزق ، لأنك أوهمت أنك شرحت وأوضحت واختصرت وأوجزت ، بل أخللت وطولت وبفائدة ما أتيت • وكيف تصح لك هذه الدعوى • وقد قلت كلاما لا فائدة له ، ولا جدوى • دليل ذلك : أنك اعترضت على نفسك باعتراضات كثيرة • ثم انك حدت عن الجواب ، ولم تأت بفصل خطاب ، بل أتيت بكلام يشهد عليك عند العقلاء بالبلادة ، وقلة التحصيل ، وعدم الاجادة •

وقد كان ينبغى لك أن تبين حقيقة الاتحاد والحلول ، وتبين فرق ما بين مذهب (الروم) فيه ، وبين ما به تقول • وتبين الفرق بينه وبين الاختلاط والامتزاج • وبعد ذلك تستدل على صحة وقوعه ، وعلى اختصــاص عيسى عليه السلام به دون غيره من الأنبيــاء • فلو فعلت ذلك حينئذ كان ينبغى لك أن تدعى أنك شرحت وأوضحت • وأما الآن فقد جهلت وافتضحت •



الفصل الثاني

معنى الاتحاد

من حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل عن معنى الاتحاد . قلنا : نقول بذلك، تقليدا للانجيل ، والنبيين ، ورسل رب العالمين ، فيما نقلوا من ذلك ، وأعلموناه عن الله . وفيما نص لنا عنهم تصديق الأخبار الذى لا تكاذب فيها .

فان قلت : وكيف يجوز أن يتوحد القديم بالحادث ، والخالق بالمخلوق ؟ قلنا : على تقليد الكتاب وعلى الجائز فى العقول . وذلك أنا لا نقول : ان القديم فى الجوهر صار حادثا ولا الحادث فى الجوهر صار قديما . ولكنا نقول : صار الحادث الها ، ولا نقول : صار الاله حادثا . كما نقول : صارت الفحمة نارا . ولا نقول : صارت النار فحمة .

فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك : الارادة . وسائلك هذا ، كسائل يسأل فقال : لم خلق الله العالم ؟ فمن الجواب له أن يقال له : أراد ذلك . فان قلت : أفهذا الاتحاد قديم أو حادث ؟ قيل لك : قديم وحادث . فان قلت : فكيف يكون قديما وحادثا ؟ قيل لك : قديم بالقوة ، حادث بالفعل ، وكل عنده حاضر ، لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان ، ولا يعد الأشياء بالأعداد ، وكل عنده حاضر مقيم » اه .

الجواب عنه : هذا كلام تمجه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ، سأل فيه قائله عن حقيقة الاتحاد ومعناه ، فأجابه بالدليل عليه ، وما جرى مجراه . ومن حق الانفصال أن يكون مطابقا للسؤال . فكان يلزمك لما سئلت عن معنى الاتحاد ، أن تجيب بحده وحقيقته . ثم بعد ذلك تستدل على صحته ووجوده . ان صح ذلك ، وأمكن الاستدلال هنالك .

أما قولك فى جواب من سألك عن الاتحاد وحقيقته « نقول بذلك تقليدا للانجيل ، والنبيين ، ورسل رب العالمين » فكلام غير متين ، لا يصدر مثله عن عقل رصين •

لتعلم يا هذا : أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون ، والصادق ما يخبر بصحة ما يعلم بالعقول فساده ، واستحالته • فان الصادق لا يناقض قوله دليل العقل ، ولا يعارضه بل يصدقه ، ويشهد بصحته ، فلو فرضنا شخصا جاء بأمر معجز فيما يرى • وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا : أن الثلاثة واحد من حيث هى ثلاثة ، وأن الواحد ثلاثة من حيث انه واحد • وفهم ذلك منه بنص لا يقبل التأويل ، لبادر العقلاء الى تكذيبه ، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة انما هى حيلة ومخرقة • لأن المعجزة انما هى دليل الصدق ، ولا يقلب دليل الصدق دليل الكذب •

وكذلك لو قال : ان الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد • وكذلك لو أخبر أن الله تعالى يقلب جوهرا عرضا ، ولونا ، وطعما • الى غير ذلك من أنواع المحالات • ومن هذا القبيل : هو ما ادعيتم من الاتحاد • وسيتبين ان شاء الله •

وبعد هذا • فلو فرضنا نبيا علمنا صدقه على القطع تكلم بشىء من هذا فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالة قاطعة بل دلالة محتملة أو ظاهرة ، فسبيلنا أن نتـأول ان وجدنا وجها للتـأويل ، أو نتوقف على تأويله ان لم نجد له محملا فى التأويل • مع أن العقل يعلم استحالة الظاهر ، ويكل معرفة باطنه الى الله تعالى ، فان الشرائع وان لم تأت بما يخالف العقول ، فقد تأتى مما تقصر العقول عن دركه • وفرق بين يعلمه العقلاء : بين العلم بالاستحالة ، وبين عدم العلم بالاستحالة • فان عدم العلم بالاستحالة ، لا يلزم منه نفى الجواز ، ولا اثباته ، ولا نفى الوجوب ، ولا اثباته • وهذا مما لا خفاء به عند العقـلاء •

وأما قولك : « وعلى الجائز فى العقول » فينبغى لنا أن نسألك هنا أسئلة تبين أنك بما ادعيت جهول • فنقول لك : ما حد العقل أولا ؟ وما حد الجائز العقلى ؟ وما حقيقته ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد الواجب

العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد المحال العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ فاذا فرغت من جواب هذه المسائل . سألناك : هل أحكام العقل تنحصر فى هذه الثلاثة ، أم تزيد عليها ، أم تنقص عنها ؟ ولعمرى ما ينبغى أن تتكلم مع من لا يعرفها ، واعلم على القطع والثبات أنك لا تعرفها ، ولا قرأت على من يفهمها . والا فالجواب وان لم تجب ، والا فيظهر أنك من دينك على شك وارتياب ، ثم نقول : كيف يتجاسر عاقل أن يقول : ان علم الله تعالى الذى هو صفته ، ولازم له وقديم أزلى : حل فى جسد انسان حادث بعد أن لم يكن حالا فيه . ومع أنه حل فيه فهو لم يفارق الله تعالى ، ولولا الله تعالى سلبكم عقولكم وابتلاكم بظلمة التقليد الذى أفضى بكم الى مكابرة العقول ، وانكار البداية ، لما وجد مثل هذا المذهب مستقرا فى قلب مجنون ، فأجرى فى قلب غافل . ولكن لله تعالى سر فى ابعاد بعض العباد **« ومن يضلل الله فما له من هاد »**(١) .

وأما قولك : « انا لا نقول ان القديم فى الجوهر صار حادثا ، ولا الحادث فى الجوهر صار قديما . ولكنا نقول : صار الحادث الها » فهذا القول منك يدل على أنك تقول بحلول الحادث فى الجوهر واتحاده به . ولم يقل بهذا قط أحد من المخلوقات . وهذا أشنع وأقبح وأمحل ، من اتحاد القديم بالحادث وحلوله فيه . وهذا الذى ذكرت أنه يلزمك يدل عليه قولك « ولا الحادث فى الجوهر صار قديما » فنفيت عن الحادث القدم ، وأبقيت عليه الحلول فى الجواهر . وهذا بين بنفسه من كلامك . ثم هذا الذى فررت منه يلزمك . وذلك أنا نقول : هذا القديم الحال ، لا يخلو أن يكون حالا فى ناسوت المسيح ، قبل خلق المسيح ، أو لم يكن ؟ فان كان حالا فيه قبل خلقه كان محالا وباطلا بالضرورة . فانه قبل خلقه معدوم ، والموجود لا يحل فى المعدوم . وان كان حلوله فى ناسوته بعد خلقه ، فقبل خلقه لم يكن حالا . فقد حدث له حلول . وقد صار حالا بعد أن لم يكن حالا . ويلزم على هذا أن تقوم الحوادث بالقديم وهو محال . فانه يؤدى الى حدوثه على ما يعرفه أرباب النظر .

وأما قولك : « صار الحادث الها » فكلام تشمئز منه النفوس ،

---

(١) الرعد : ٣٣ ، الزمر : ٣٣

ويشهد لقائله بالويل والعكوس • وكيف لا يستحى العاقل من مثل هذا الكلام ، الذى والله هو عار ، على الأنام ؟ وكيف يتصور أن يعقل الالهية لمحدث مخلوق ، يحزن تارة ، ويفرح أخرى ، ويجوع تارة ، ويشبع أخرى ، ويتبول ويتغوط ، وتظفر به أعداؤه • ويعذبونه بالضرب والاهانة ، والشوك والصلب ، والقتل بزعمكم • وهو مع ذلك يقول : « **اعبدوا الله ربى وربكم** »[١] ويقول لكم : « اذا صليتم • فقولوا : يا أبانا السماوى ، تقدس اسمك ، وقرب ملكك »[٢] ويقول : « ان الله وحده ، ولا اله الا هو »[٣] ويقول لابليس : « انما أمرت أن تعبد السيد الهك وحده »[٤] ويقول حين قرب رفعه ، وأعلمه الله به : « سيلقى ابن الانسان ما كتب له »[٥] يعنى نفسه ، ثم تقدم ، وسجد على الأرض ، ودعى أن يزاح عنه ما هو فيه وقال : « يا أبتاه انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عنى هذه الكأس »[٦] وقال فى انجيل لوقا : « يا أبتاه ان كانت هذه الكأس ، لا تقدر تجاوزنى حتى أشربها • فلتكن ارادتك »[٧] •

---

(١) « **اعبدوا الله ربى وربكم** » (المائدة : ١١٧) ومن معناها فى انجيل يوحنا : « قال لها يسوع لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد الى أبى • ولكن اذهبى الى اخوتى • وقولى لهم : انى أصعد الى أبى وأبيكم ، والهى والهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧) •

(٢) النص : « متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك » (لوقا ١١ : ٢ ، ومتى ٦ : ٩ ـ ١٠) •

(٣) يشير الى ما فى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٤) يشير الى ما فى الاصحاح الرابع من انجيل متى وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٥) النص : « ان ابن الانسان ماض ، كما هو مكتوب عنه » (متى ٢٦ : ٢٤) •

(٦) نص الآية : « وكان يصلى قائلا : يا أبتاه • ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا ، بل كما تريد أنت » (متى ٢٦ : ٣٩) وفى رواية مرقس : « وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان أمكن • وقال : يا أبا الآب ، كل شيء مستطاع لك • فأجز عنى هذه الكأس ، ولكن ليكن لا ما أريد ، بل ما تريد أنت » (مرقس ١٤ : ٣٥ ـ ٣٦) •

(٧) النص : « يا أبتاه ان شئت أن تجيز عنى هذه الكأس • ولكن لتكن لا ارادتى بل ارادتك » (لوقا ٢٢ : ٤٢) •

ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام برىء مما تدعونه به ، وتنسبونه اليه ، وستلقونه بين يدى الله فى الوقت الذى يقول الله تبارك وتعالى : **« يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ، اتخذونى وأمى الهين من دون الله »**[1] فيتبرأ من ذلك القول . فيقول : **« سبحانك .. ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك . انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »**[2] .

وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه . أن الله تعالى اذا حشر الخلائق فى صعيد واحد — يعنى يوم القيامة . فيقال للنصارى : « ما كنتم تعبدون » ؟ فيقولون : « كنا نعبد المسيح ابن الله » فيقول لهم : « كذبتم . ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد » ثم يقال لهم : « ألا تردون » ؟ فيحشرون الى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضـــا » .

فالله . الله . أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك ، واستعمل سديد عقلك ، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك ، واتبع الدين القويم ، دين الأب ابراهيم ، فما كان **« يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين »**[3] .

فالله يعلم أنى أنظر اليك ، والى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وأسأله هـــداية من ضل من هذه الأمة . وأتأسف على الأباطيل التى ينتحلون . فانا لله ، وانا اليه راجعون ، وسيأتى ان شاء الله تعـــالى فى النبوات كلام على حقائق الملل ، وتبين الهداة والضالين من ذوى النحل ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وأما قولك : « كما نقول صارت الفحمة نارا ، ولا نقول صارت النار فحمة » فتمثيل ليس بمستقيم ، ولا جار على منهج قويم . وذلك

---

(١) المـائدة : ١١٦ (٢) المـائدة : ١١٦ ، ١١٧
(٣) آل عمران : ٦٧

أن الفحمة مهما صارت نارا ، فقد حدثت النارية ، وانعدمت الفحمية ، وليس هذا مساويا لقولك : صار الحادث الها . فان الشيء الذى صار به الحادث الها عندكم هو قديم ، فكيف تشبهه بالنارية الطارئة ، وهى حادثة ، وان ساويت بينهما لزمك أن يكون الحال فى الناسوت حادثا ، أو النارية قديمة ، فترتفع الفحمية ، وهو محال بالضرورة .

وأما قولك : « فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك : الارادة » فهذا قول فاسد . فان الارادة ، انما يصح تعلقها بالجائزات ، ولا يصح تعلقها بالمحالات . والاتحاد محال فلا تتعلق به الارادة . على ما نقرره ان شاء الله ، اذا نقلنا مذاهب (أقستكم) فى هذا المعنى ، وتكلمنا معهم عليها .

وأما قولك فى جواب سائلك عن الاتحاد « هل حادث أو قديم » ؟ حيث قلت : « انه قديم وحادث » فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث . فان الجمع بين القدم والحدوث مما يعلم فساده بضرورة العقل . فان معنى القديم الذى لا أول لوجوده ، والحادث هو الذى لوجوده أول . والجمع بين نفى الأولية ، واثبات الأولية محال .

وأما قولك : « قديم بالقوة ، حادث بالفعل » فكلام ليس له أصل . اذ لا يعقل العقلاء فى القدم قوة ولا فعلا . فان القدم من أسماء السلوب . والقوة والفعل فانما يتواردان عند القائلين بهما على الصفات الوجوديات ، وعلى عدمها مع امكان وجودها . ثم انا نسألك عن حد القوة وحقيقتها ؟ وما الفرق بينها وبين الامكان ؟ وهل هى موجودة ؟ وعن حد الفعل . وما حقيقته ؟

فانك تكلمت بما سمعته ، وما حصلته ولا وعيته .

وأما قولك : « وكل عنده حاضر مقيم » فكلام حق ، ومقال صدق . ان كنت أردت بحاضر أنه معلوم . وقد أخطأت بادخالك « مقيم » فى هذا المعنى . فان المقيم انما هو مأخوذ من أقام بالموضع اذا ثبت فيه ، فان أردت هذا المعنى لزمك أن تكون المعدومات الممكنة موجودة عنده فى حال عدمها ، وذلك محال . وان أردت غيره فكان ينبغى لك أن تبين مرادك فانك لم تتكلم به على مقتضى كلام القوم ، الذين تعاطيت التكلم بلسانهم .

ثم قولك : « لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان » ذكرته موهما أنك تستدل به على أنه تعالى عالم بجميع الأمور ، محيط بالكل ، ولا يدل ذلك على ما أردته ، والا فكونه قابلا للزمان أو غير قابل للزمان ، ما المناسبة بينه وبين كونه عالمـا بجميع المعلومات أو ببعضها . ولا بد أن يسأل عن الزمان : ما هو ؟ وهل هو موجود ، أو معدوم ؟ فان كان موجودا فهل هو جوهر أو عرض ؟ وان كان جوهرا أو عرضا ، فهل هو فى زمان ، أو ليس فى زمان ؟ فان لم يكن فى زمان فلتستغن الموجودات كلها عن زمان ، ويلزم عليه اثبات موجودات ليس بزمانية غير البارى تعالى وتقدس ، وذلك محال على ما تقرر . وان كان فى زمان . فهل ذلك الزمان فى زمان ، ويتسلسل . فلا بد لك من علم هذه المسائل ان أردت أن تلحق بالصنف العاقل . ومن أراد أن يعلم فليرحل على الرأس والقـــدم .

وأما قولك : « ولا يعد الأشياء بالأعداد » فيفهم منه أن المعلومات لا تتعدد عنده ، واذا لم تتعدد المعلومات عنده ، لا تتميز جزئياتها . واذا كان ذلك فانما يعلم الأمور على وجه كلى ، وهو ما تقوله الفلاسفة ، وأهل الشرائع ، كلهم مطبقون على أن الله تعالى يعلم جزئيات الأمور ، وان دقت على التفصيل . ومن لم يقل هذا يحكم عليه فى كل ملة بالتكفير والتضليل .

فأنت يا هذا فى أكثر كلامك بين أمرين : اما أن تنكر الضروريات ، أو تكفر بالشرعيات . فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا ، ويسدد أحوالنا وأمورنا وأن لا يجعل وبالا علينا أعمالنا ، وأقوالنا . انه سميع الدعاء . قريب مجيب .

***

الفصل الثالث

الواسطة بين الله وبين موسى

من حكاية كلام السائل

قال : « ثم نقول لمن ناظرني من باقية المسلمين : ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما . فكيف كان ذلك ، وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من ادراكه فى الدنيا والآخرة ، لأنه لا مفطور ، ولا مشبه بشىء مما يتصور فى الأوهام ؟

فان قلتم : انه كلمه بذاته . فقد أوجبتم له جارحة النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم . وان قلتم : ان الله خلق له كلاما فقد أثبتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه ، جوهرا فى نفسه اذ لم يكن عرضا فى الله . قال لموسى : « **أنا الله ، لا اله الا أنا ، فاعبدنى** »(١) وأثبتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى . وأن موسى أقر بالربوبية ، لقوله : « **رب أرنى أنظر اليك** »(٢) وقول الصدى ، الذى هو المتكلم له : « **لا اله الا أنا ، فاعبدنى** » .

فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه فى مسامع موسى : « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل فى مسامع موسى ، وهو المحرك له ، وعليه رد ، واياه أجاب .

والدليل على أنه كان فى غفلة : فما كان يريد الله من ارساله الى فرعون ، حتى خلق له نارا أبصرها ، فنزع اليها ، فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى . قال له : « **أنا الله** » و « **لا اله الا أنا . فاعبدنى** » الا أن تقولوا : ان موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من ارساله الى فرعون دون النار ، والكلام . فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما ، وخبرهما لم يفد شيئا .

---

(١) طه : ١٤ (٢) الأعراف : ١٤٣

وهذا من القول تشنيع الكذب . واذا لم يكن بد من أن موسى لم يدرك المرسل له الا بواسطة ، اتحد له ، يسمى باسمه ، فالواسط هو العامل فى موسى ، وعنه تحمل الرسالة ، حتى يأتى فرعون بمصر ، ويقول : ان الله تراءى لى بطور سيناء ، وبعثنى اليك ، لترسل معى بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، مجددا الموضع الذى أقبل منه من عند الله . وكان الله بمصر ، وفى كل مكان . ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهى الا بكلام محدود من جسم مفطور ، خلق الله له نارا ، أبصرها ، فنزع اليها ، ثم أحجب له فيها صدى ، سمعه منها ، قام عنده مقام خالق فسماه الها » اهـ .

الجواب عنه : أما قولك : « ثم نقــول لمن نأظـرنى من باقية المسلمين » فلتعلم يا هذا أنك غلطت فى نفسك ، وغفلت عن حسبك ، حيث ظننت أنك ممن يستحسن مناظرته أحد من المسلمين ، للذى أمروا به من الاعراض عن الجاهلين . وكيف . وأنت لا يمكنك النطق بكلام فصيح ، ولا تقدر على نظر صحيح . وأنى لك بمناظرتهم ، ولم تسلك شيئا من طريقتهم ؟ وكيف يمكنك النظر معهم ، وأنت لم تعرف طريقه ، ولا التزمت شروطه ؟

فوحق دين الاسلام الذى هو دين ابراهيم عليه السلام لقد وددت أن تكون من عقلاء الأنام ، لتعرف قدر ما يلقى من الأسئلة عليك ، وما يكتب به من الحكم اليك . فلعل مقلب القلوب ، يستنقذك من عبادة اله مصلوب ، ويبدلك بها اخلاص العبــادة لعلام الغيوب ولولا رجاء ذلك لمــا كان ينبغى لى أن أعطى الحكمة غير أهلها ، كما لا ينبغى أن أسمعها من هو من أهلها .

وأما قولك : « ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما » فكيف يسوغ لك أن تجنح بما أنت منكر لأصله ، ولا تعترف بأنه كلام الله ، وأنت منكر لتصديق من جاء به ، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب . وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم ، وعلى اليهود بالتوراة والانجيل ، لأنا نعتقد أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا ، وينسخا بغيرهما .

وأما اليوم بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشىء منهما على جهة انتزاع الأحكام . فان الله تعالى قد أخرجنا بالنور من الظلام ، وهدانا لما اختلفتم فيه من الحق بنبينا محمد عليه السلام . وسنبين ان شاء الله ما يدل على صدقه من المعجزات ، وواضح الدلالات .

ثم نقول : ان الله تعالى كلم موسى بكلامه الذى هو صفته وسمعه موسى بالادراك الذى خلقه الله له . وقولك : « كيف » ؟ ظلم ، وحيف . اذ سؤالك بكيف ؟ فى هذا المحل دليل على أنك جاهل بمطلبها ، فينبغى لك أن تعلم : أن صيغ المطالب كثيرة ، وهى مع كثرتها لا يتوجه شىء منها على الله تعالى ، وعلى صفاته . وذلك : أن من صيغ المطالب « ما » و « أى » و « لم » و « كيف » و « متى » و « أين » وغيرهما ، مما فى معناها ، ولا يتوجه على الله تعالى بشىء منها لاستحالة معانيها على الله تعالى ، فلا تسأل عنه بـ « ما » ولا بـ « أى » اذ لا جنس له ، ولا فصل .ولا بـ « لم » اذ لا علة له ، ولا أصل . ولا بـ « متى » اذ هو مقدر الزمان . ولا بـ « أين » اذ هو خالق المكان ، ولا بـ « هل » اذ لا نشك فى وجوده ، وهو خالقنا ، ولا بـ « كيف » اذ لا يناسب جوده ، ولا صفاته شيئا من أحوالنا وأوصافنا .

وجوده اثباته ، واثباته ذاته . وعلمه كل شىء صنعه . ولا علة لصنعه . لا يتوجه لمخلوق عليه حق . ولا يعجزه خلق « **ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير** »[1] .

ثم نقول : ومما يبين لك : أنه « يصح السؤال بكيف هنا . لأن المطلب بكيف انما هو سؤال عن حال موجود يناسب حال السائل بكيف . فاذا قلت : « كيف زيد » ؟ انما معناه على أى حال هو من الأحوال التى تناسب أحوالنا فى حال صحة ، أو فى حال مرض ، أو فى حال علم ، أو فى حال جهل . الى غير ذلك من أحواله المناسبة لأحوالنا . فاذا قلت : كيف سمع موسى كلام الله ؟ فكأنك قلت : على أى حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التى نكون نحن عليها ، حين يسمع بعضنا من بعض ، ونحن والعقلاء الذين يعرفون ما يجب لله ه

---

(١) الشورى : ١١

وما يجوز ، وما يستحيل فى حقه يعلمون بالبراهين القاطعة : أنه يستحيل أن يسمع موسى كلام الله على شىء من الأحوال التى يسمع عليها بعضنا من بعض على ما نبينه ان شاء الله •

فعلى هذا اذا سألنا سائل كما سألت أنت • قلنا له : السؤال عن الله تعالى وصفاته بـ « كيف » ؟ ظلم وحيف • فان الظلم وضع الشىء فى غير موضعه • وقد سألت بـ « كيف » فى موضع لا مدخل لها فيه • فتأدب مع الله قبل حلول عقاب الله • فان من لم يستعمل مع الله الأدب فقد استحق التعب ، وحرم الرتب • ومن لم يستنكر هذا الكلام لحق بالبهائم ، والهوام • فانه لو سألك عنين لم يذق قط لذة الجماع • وقال لك : كيف أدركت أنت لذة الجماع ؟ لكان الجواب يصعب عليك ، ولم يمكنك تفهيمه اذ لم يذق لذة الجماع • وكذلك كل من لم يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام فهو كالعنين بالاضافة الى ادراك الكلام القديم اذ لم يسمعه ، ولا اتصف بالادراك الذى اتصف به موسى عليه السلام • وكما لا يقال : كيف يسمع الله كلام الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يسمع كلامه أحد من الخلق ؟ وكما لا يقال : كيف يرى الله الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يراه الخلق ؟ فان الكيفية محال على الله تعالى ، وعلى صفاته من جميع الوجوه •

ولولا خوف الاكثار ، وأنا وضعنا هذا الكتاب على الاختصار لملأت صدرك من عظمة الله تعالى ، ان كنت عاقلا ، حتى يتبين لكم : أنكم لم تعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدرتموه حق قدره •

وأما قولك : « فان قلتم : انه كلمه بذاته • فقد أوجبتم له جارحة النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم » فلا يلزم من هذا كله شىء • وانما كان يلزمنا هذا : لو قلنا : ان الله تعالى كلمه بصوت وحرف يخرج من لهوات ويقطعه لسان • ونحن لا نقول بشىء من ذلك • بل نقول : أن الله تعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله ، ليس بحرف ولا صوت • وهذا معقول مفهوم • فانا نحس من أنفسنا كلاما قائما بذواتنا • فنتحدث به مع أنفسنا • ليس بحرف ولا صوت وهذا مما يجده الانسان من نفسه بالضرورة • ويكون الحرف والصوت دالين على ذلك المعنى الذى فى النفس • وهذا لاستحالته فى كلام بناسبه

من بعض الوجوه لله تعالى • لكن على القدر الذى يجوز فى حقه تعالى • وانما ذكرنا لك أنفسنا مثالا لذلك ، على جهة التأنيس ، كما أنا نقول : حقيقة العلم واحدة فى القديم والحادث • ونعنى بذلك انكشاف المعلوم ، لأن العلم القديم يشبه الحادث • فافهم • وهذا كله يتبين فى موضعه ، ويعرف بدليله •

فعلى هذا الأصل الذى قررناه • نقول : الكلام الذى سمعه موسى عليه السلام هو كلام الله القديم القائم بذات الله ، الذى ليس بحرف ولا صوت • فان قلتم : كيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت ؟ قلنا : الجواب عنه قد تقدم • اذ لا يصح السؤال عنه بـ « كيف » لاستحالة شرط السؤال بها •

ثم نقول : سلمنا جدلا أنه يصح السؤال • ثم يكون الجواب عنه أن تقول : يسمع ما ليس بصوت ، ولا حرف ، كما يعلم موجود ليس بجوهر ولا عرض • وكما يرى الله الخلق ، وليس بذى حدقة ولا عين ، وكما يسمع أصواتهم وليس بذى صماخ ولا أذن ، وكما يعلم وليس بذى قلب ، ولا دماغ • وكما يراه المؤمنون فى الدار الآخرة ، كرامة لهم ، وليس بذى جسم ولا لون • فكما تصح هذه الأمور كلها ، وان كانت مستبعدة بالاضافة الى أوهامنا فى حق الله تعالى فكذلك يصح أن يسمع موسى ما ليس بحرف ولا صوت •

ثم نقول : للذى لا تبقى معه حسيكة فى النفس ، ولا استبعاد فى الوهم : ان الله تعالى خلق لموسى ادراكا لكلامه القديم ، وصل به الى تحصيل مفهوم كلام الله تعالى ومراده منه • فسمى ذلك الادراك سماعا ، وعبر عنه بسمع • كما أنا نجوز أن يكرم الله من شاء من أصفياء خلقه بأن يطلعهم على بعض ما فى نفوس بعض الناس من غير تعبير عنه بصوت ولا حرف • وذلك كما فى بعض كتبكم أن عيسى عليه السلام أعلم بعض الحواريين عما فى نفسه • ولو عبر عن ذلك بأن يقال : سمع عيسى كلام ذلك الرجل لكان صدقا وحقا • وهذا كله جائز عقلا ، لا استحالة فيه •

فان قيل : كيف ينبغى لك أن تقول : ان الله تعالى متكلم بكلام ليس بصوت ولا حرف • وقد جاء فى التوراة : أن الله تكلم بصوت

لآدم وحواء . وذلك أنهما لما « طفقا يلفقان ورق التين ليسترا بهما عورتهما ، فسمعا صوت الله الرب يتمشى فى الفردوس » . الى أن قال : « فدعا الرب آدم . وقال : أين أنت يا آدم ؟ وقال آدم : سمعت صوتك فى الفردوس . فرأيت أنى عار . فاستترت واستخفيت »(١) وهذا يدل على أن لله تعالى صوتا ، وهو خلاف ما ذكرت . فيلزمك على هذا تكذيب التوراة . أو تقول بمقتضاها . فترجع عما قلته آنفا .

فنقول ما أمرنا به نبينا عليه السلام — عندما تحدثونا بشىء — : آمنا بالله وكتبه ورسله . وبعد ذلك نقول فى التوراة بمثل ما قلناه فى الانجيل ، أو قريبا منه . فجدد به عهدا ، وفيه نظرا .

ثم ان سلمنا صحتها فليس فى هذا الذى ذكرته ما يدل على أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت وانما الظاهر منه أن آدم سمع حس مشى الله فى الفردوس . ألا ترى قوله « فسمعا صوت الرب يتمشى فى الفردوس » هذا هو الظاهر من هذا اللفظ ، وأنتم لا تقولون به ولا نحن . وان كانت اليهود ، أو أكثرها قد قالت بمقتضى ظاهره فجسمت. وأنتم ان قلتم بظاهره يلزمكم ما لزمهم . فاذن هذا اللفظ مؤول عندكم ، وعندنا ، أعنى من المتشابهات التى يعلمها الراسخون فى العلم ، فلما لم يستقم جعله على ظاهره ، تأولتموه أنتم وصرفتموه عن ظاهره . وقلتم : ان هذا انما يراد به كلام الله تعالى الذى هو حرف وصوت عندكم ، وهو فعل من أفعال الله تعالى عندكم .

والى نحو من هذا صار « أغشتين » واذا تأولتم أنتم هذا اللفظ ، وأخرجتموه عن ظاهره فنحن نخرجه عن ظاهره بتأويل آخر أحسن من تأويلكم ، لا يلزم عليه شىء من المحالات التى تلزمكم وسنبينها ان شاء الله .

ولنا فى ذلك تأويلان :

(أحدهما) : أن الله تعالى خلق صوتا فى بعض طرق الفردوس

---

(١) النص : « فانفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان . فخاطا أوراق تين ، وصنعا لأنفسهما مآزر . وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الاله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك فى الجنة ، فخشيت لأنى عريان ، فاختبأت » (تكوين ٣ : ٧ — ١١) .

يشبه صوت الماشى ، وهو الذى يسمى بلسان العرب : الهمس والخشخشة • فلما سمع آدم ذلك الصوت تنبه لمخاطبة الله تعالى ولحضوره معه ، ثم أضاف الصوت الى الله تعالى لأنه هو الذى تنبه آدم عنده لمحاضرة الله ، وكأن آدم كان فى غفلة لشدة حزنه وعظيم ما حل به • وهذا كما يعترى الواحد منا اذا كان ملهوفا بأمر هائل فانه يشتغل بنفسه ، بل ويغفل عن حسه • ثم قد يتنبه عند سماع صوت شىء وحس انسان ، فيرجع عند ذلك لنفسه ويتنبه لمن معه • وعلى هذا التأويل يكون فى « يتمشى » ضمير يعود على الصوت فكأنه قال « يتمشى الصوت فى الفردوس » لا على الله •

اذ يستحيل على الله تعالى ظاهر المشى ، ومفهومه السابق منه • وهذا تأويل حسن سائغ عند المنصف •

(والتأويل الثانى) : أن الصوت يراد به الكلام القائم بذاته ، وان كان ليس بصوت فيجوز أن يسميه صوتا ، لأنه يمكن أن يدل عليه بالصوت ، كما نقول : ان موسى عليه السلام سمع كلام الله القائم بذاته ، بمعنى أدركه وفهمه بادراك خص به موسى ، ثم عبر موسى عنه لنا بصوت مقطع اذ ليس فى قوتنا ادراك ما ليس بصوت • وبقريب من ذلك : نقول نحن فى القرآن •

وهذا النوع من التأويل نوع جائز ، جار فى الكلام ، فانه تسمية الشىء بما يدل عليه كما تقول « سمعت علم فلان » وانما سمعت كلامه ، الذى دل على علمه ، والكلام ليس هو العلم • وعلى هذا التأويل يكون فى الفردوس معلقا بـ « سمعا » لا بـ « يتمشى » ويكون معنى يتمشى : (يبلغ) والبلوغ عبارة : عن الادراك ، الذى به أدرك كلام الله تعالى يعنى سمعه ، وكذلك قوله « سمعت صوتك فى الفردوس » أى ، وأنا فى الفردوس •

ولو كنت تعرف لسان القوم الذين ترجمت التوراة والانجيل بلغتهم لذكرت لك من هذا أمثلة كثيرة • وفى القليل المبصر غنية عن الكثير • فهكذا ينبغى لك ، ولكل عاقل أن يفهم تأويل الصوت الذى وقع فى التوراة • ولعمرى لا يبعد أن يتأول تأويلات أخر جاريات على السنن القويم ، والمنهج المستقيم • وفيما ذكرناه مقنع للعاقل ، فتدبر فهمك الله ما ذكرته ، ولا تعتقد فى الله تعالى أنه متكلم بصوت محدث • فان ذلك محال •

ونحن نبين استحالته مستعينين بالله ، ومتوكلين عليه • فنقول :

من المتقرر الثابت عند المشرعين كلهم : أن الله تعالى متكلم ، ومن لم يعول فى ذلك على ما أخبرت به الرسل ، ولا وافق على الشرائع ، أقيمت عليه القواطع ، التى لا يردها الا معاند ، وليس هذا موضع ذكرها • فاذا تقرر ذلك • فنقول :

اما أن يكون متكلما بصوت ، أو بغير صوت • فان كان متكلما بصوت فذلك الصوت اما أن يكون قائما به ، أو قائما بغيره ، أو لا قائما به ، ولا قائما بغيره •

محال أن يكون قائما به ، فان الصوت لا يكون مفيدا حتى يتقطع بالحروف ، وتلك التقطيعات لابد أن تكون حادثة ، فيلزم عليه أن يكون محلا للحوادث • واذا كان محلا للحوادث لم يخل عنها • واذا لم يخل عنها كان حادثا مثلها على ما تحقق فى موضعه ، وذلك كله محال على الله تعالى • وان قام بغيره فذلك الغير يكون المتكلم به • سواء كان ذلك المحل جمادا ، أوحيوانا • فان قلنا : انه يجوز قيامه بجسم جماد • وان جاز أن يقوم الصوت بمحل ويكون البارى تبارك وتعالى متكلما به جاز أن تقوم صفة بمحل ، وتوجب حكمها لمحل آخر فيلزم على ذلك : أن تقوم حركة بجسم ، يكون جسما آخر متحركا بها ، ويقوم بمحل لون • ويكون محل آخر متصــفا به وذلك كله محال بالضرورة ، ويلزم عليه : أن يكون البارى تعالى متكلما بما يقوم بنا من كلامنا ، الى غير ذلك من المحالات • وباطل أن يقال : لا يقوم به ، ولا بغيره ، لأنه يكون قائما بنفسه ، وخرج عن كونه صفة زائدة على النفس ، واذا بطلت هذه الثلاثة الأقسام ، وهو ما قدمنا ذكره ، ومن أراد مزيدا فليرحل • ويرتد للحق بعد أن يبحث ويسأل •

واذا ثبتت هذه القاعدة الوثيقة العظيمة الأنيقة ، التى لا يعرف قدرها ، ولا عظم خطرها الا من نور الله بنور اليقين بصيرته ، وأصلح بجزيل التوفيق سريرته ، بطل ما أملتموه ، ولم يلزم شىء مما ألزمتموه ، ولا تم لكم شىء مما أردتموه •

فان جملة ما نريد أن نقوله فى هذا الفصل : أن الله تعالى متكلم

بصوت ، وأن موسى سمع بذلك الصــوت ، وهو يقول : « **أنا الله ، لا اله الا أنا • فاعبدنى** » وذلك الصوت غير الله •

ومع ذلك خاطبه موسى بقوله : « **رب أرنى أنظر اليك** » وقد اعترف له موسى بالربوبية فكذلك المسيح فى قوله : « أنا الله » صادق • اذ قد اتخذه واسطة بينه وبين خلقه ، كما اتخذ جسم النار • والكلام واسطة بينه وبين موسى ، فينبغى لنـــا : أن نعترف بربوبيته ، كما اعترف موسى بربوبية الصوت • وهذا الهذيان كله ، الذى ذكرته ، وليتك ما أنحلته • الذى والله لا شرع يعضده ، ولا عقل يقبله ويريده • مبنى على أن الله تعالى متكلم بصوت وقد أبطلناه ، فبطل كل ذلك •

ومع ذلك فلنتكلم على أجزاء كلامك بعد أن بينا جملة مقصودك ، ومرامك ، حتى يتبين أنكم لستم على شىء مما ينتحله العقلاء ، بل يتبرأ منه الفضلاء • فنقول :

أما قولك « وان قلتم : ان الله خلق له كلاما ، فقد أثبتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه ، جوهرا فى نفسه » فنقول : ــ بعد أن أبطلنا الصوت الذى ترومون البناء عليه ــ نسلمه لكم جدلا ، ونبين بعد ذلك : أنه لا يلزم شىء مما ذكرته • اذ لا يلزم من تقدير صوت الله ــ تعالى عن ذلك ــ مخلوق أن يكون الصوت قائمــا بنفسه ، جوهرا فان الصــوت انما حقيقته أنه صفة لموصوف وعرض فى محل ، والعرض لا ينقلب جوهرا • فان قلت : فيلزمك أن يكون عرضا • قال لك المجيب : وما الذى يلزم منه ، ان كان عرضــا • فان قلت : يلزم منه أن يكون العرض هو الذى قال لموسى : « **أنا الله لا اله الا أنا • فاعبدنى** » والصوت لا يتكلم ، وانما يتكلم به • قلنا لك : جوابك أن الصوت لا يتكلم عن نفسه ، وانما يتكلم به كما قلت أنت • ثم يلزمك أنت ان جعلته جوهرا غير الله تعالى : أن يكون هو الذى قال عن نفسه : « **أنا الله ، لا اله الا أنا** » وله اعترف موسى بالربوبية • لا الله • وله سجد ، لا الله • واذا انتهى انسان الى هذه المخازى فقد كفر بموسى ، وباله موسى نعوذ بالله من أنظار تقود فى الدنيا الى الفضيحة والعار ، وفى الآخرة الى الخلود فى عذاب النار •

وعلى هذا الكفر الصريح يدل قولك : ان موسى أقر لها بالربوبية تريد للواسطة واذا أقر لها بالربوبية ــ ولم يعرف قط من موسى عليه

السلام أنه أقر بالربوبية لالهين — فقد اعترف بربوبية الواسطة ، وأنكر ربوبية الله ، وكذلك يفعل الله بكل مسرف مرتاب ، أعاذنا الله من الاختلال المفضى بصاحبه الى الضلال ، ثم هذه المخارق يلزم منهـا قلب الحقائق • فان الصوت لا يقوم بنفسه ، ولا بخلقه • والقائل بذلك يشهد العقلاء بحمقه • فان حقيقته صفة لموصوف يستدعى وجودها محلا ، كما سائر الصفات • اذ لا يعقل قيام صفة بنفسها ، بل بغيرها • وهذا ضرورى •

وأما قولك « فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه كان فى مسامع موسى « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل فى مسامع موسى ، وهو المحرك له • وعليه رد ، واياه أجاب ، فيلزمك على هذا الانفصال : أن يكون موسى رسول الصدى ، لا رسول الله ، وعليه يدل كلامك ، وعنه تحمل الرسالة ، لا عن الله • واذا كان كذلك فقد كذبت موسى عليه السلام ،على ما يلزمكم ، حيث قال لفرعون : أنا رسول الله • فان كان بزعمك رسول الصدى • فاذا كان الصدى يقول « أنا الله » ويعترف له موسى بالربوبية ، ويأمر لموسى بتبليغ رسالته فقولوا : ان الصدى اله • وأضيفوه الى آلهتكم المتقدمة ، فيكون عددهم (خمسة) وذلك أن الأقانيم الثلاثة عندكم آلهة ، وعيسى اله رابع • والصدى اله خامس ، ومنكم طائفة تدعى أن مريم اله • فتكون الآلهة عند هذه الطائفة (ستة)

واذا انتهى عقل انسان يقول هذه المخازى بلسانه ، ولا يشعر بها سقطت مكالمته ، ووجبت مجانبته •

ولا معنى لتطويل الكلام مع من يرتكب ذلك الهذيان ، فقد تم للشيطان فيهم أمله ، وأنجح معهم سعيه وعمله ، ومع هـذا فـ **« انمـا يستجيب الذين يسـمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه يرجعون »**(١) وينبغى أن يتعدى أكثر كلام هذا السائل مما هو ظاهر الفساد • ولعلنا نصل الى ما هو المهم والمراد • من نقل مذاهب المتقدمين ، أعنى (المطارق والقسيسين)(٢) اذ كلامهم يمكن أن يعقل ، أعنى ينفهم ويتحصل • ولابد مع ذلك من نقل كلام هذا السائل ، ليعلم الناظر فيه : أنه ليس تحته طائل • وأن المتكلم به ليس بعاقل •

---

(١) الأنعام : ٣٦

(٢) درجات الكهنوت عند النصارى هكذا : شماس ثم قسيس ثم أسقف ثم مطران ثم بطريرك ثم بابا •

الفصل الرابع

تجسد الواسطة

من حكاية كلامه

قال : « فاذا لم يكن بد من الصدى ، فقد قال « أنا الله » فأسألك : أن كنت تصدق الصدى أم تكذب ؟ فاذا لم يكن بد من تصديقه فى قول الربوبية . اذ قال : **« أنا الله ، لا اله الا أنا . فاعبدنى »**[1] قلنا لكم : وكذلك صدق المسيح فى قوله « أنا الله » وانا لنرى كذا : صدق الحواريون ، ومن اتبعه من غيرهم فى قوله فى الربوبية ، كتصديق موسى الكلام ، وألا يتمارى له برسالته الى أهل مصر . وقد أوجبتم أن جسم المسيح ، وكلامه لما خطب بالربوبية مثل جسم النار ، والكلام اذا خاطب موسى بالربوبية .

فان قلت : ان موسى لم يعبد النار ، كما تعبد النصارى المسيح . قيل لك : ان الكلام قال له : « اعبدنى » وسجد له موسى ، وقال **:« تبت اليك ، وأنا أول المؤمنين »**[2] فان قال المسلم عند الاضطرار : ان النار ، والصدى واسطة ، ولكنها خلاف المسيح وكلامه . لأن النار ليس من طبعها الكلام . وأما المسيح فانه كان انسانا معروفا بالكلام فلا آية فيه . قلنا لك : اذ قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء ، ويصير الواسطة لهم الها ، فقد جامعتموه على الاقرار بواسطة مخلوق بالربوبية للمسيح ، ووقعتم فيما أنكرتم ، وليس ينفعكم ملجؤكم الى القول بأن النار والمسيح ليس آية .

وانما أوجبتم علينا الشرك فى قولنا : بواسطة . فاذن العقل والحق لا يعيب الواسط ، فكلا الواسطين بين الله والخلق .

---

(١) طه : ١٤ (٢) الأعراف : ١٤٣

واذا ذهبتم الى أن النار صادقة ، لا يتخوف عليها الكذب ، وأن المسيح يتخوف عليه الكذب ، فان موسى قد أوجز فى النار والكلام • وانما قطع الشك باليقين بآية العصا ، واليد ، الذى أدخلها فى جيبه • وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم باقرار الموتى عند احيائه لهم بربوبيته • وان ذهبتم الى أن خلق النار فى ذاتها أشرف • فان كل مخلوق فى الدنيا هو منافع لولد آدم ، مسخرة لهم • وكفى بقولكم فى قرآنكم ان الله أمر الملائكة بالسجود لآدم • وأن ابليس مسخوط عليه فى الأبد ، لابائه بالسجود له ، وقوله **« أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين »**(١) •

فان قلتم : كذبتم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئا • قلنا : انما أنكرتم علينا القول بما وجدنا فى كتابنا • نحن لا نستدل بمثل هذا فى الأبد ، فاضررناكم من كتابكم الى القول بمثله • فلما أبينا • قلتم : كذبتم على المسيح • فلم تكذبونا ، وكتابنا على القول بمثل قولكم فى واسطة موسى وعبادته لها ، وأنتم لـما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة ، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها • ثم يقول قرآنكم : **« وجاء ربك والملك صفا صفا »**(٢) •

فما تنكرون أن يكون المسيح الذى كان واسطة للوعظ ، أن يكون هذا المقبل مع الملائكة ، كما قدمه فى الانجيل حيث قال : « يقعد ابن الانسان — يعنى الحجاب المتخذ من نسل آدم — فى مجلس عظمته ، وتتقدم جميع الأمم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الـراعى الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه ، والمجرمين عن شماله ، ثم يعاتبهم ، ويأمن كل طائفة بمثل ما قدموا فى دنياهم »(٣) •

واذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة • فقد وجب : أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس مع اقراركم أن ربكم قال « ترون

---

(١) الأعراف : ١٢ (٢) الفجر : ٢٢

(٣) النص : « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسى مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم من بعض •كما يميز الراعى الخراف من الجداء • فيقيم الخراف عن يمينه ، والجداء عن اليسار •• الخ » (متى ٢٥ : ٣١ — ٣٣) والمراد بابن الانسان فى هذا النص : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما سنتبين ، وكما بينا •

ربكم ، ولا تضامون فى رؤية القمر ليلة البدر » أو لم تتكرون أن يكون المسيح الذى كان واسطا للوعظ • أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم : « **هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر ، والى الله ترجع الأمور** »(١) اه •

الجواب عما ذكره : اعلم يا هذا المتكلف فى بغيته ، المتعسف فى تأويل دينه • أنك قلت فى هذا الفصل من الباطل والكفر مالا حجة له ، ولا أصل ، خالفت فيه دين النصارى المتقدمين ، ولم تعرج على مذاهب القسيسين • بل رغبت عن ملة أئمتك للـــ « مطارين » فوجب على أهل ملتك أن يعدوك فى الخارجين • ومن الجهال المبتدعين •

وذلك أنك زعمت أن الذى قال لموسى « **أنا الله • لا اله الا أنا • فاعبدنى** » انما كان الصدى ، ولم يكن الله تعالى ، وزعمت أن موسى اعترف للصدى بالربوبية وأنه هو الذى كلم موسى ، واياه حارب ، وعنه تحمل الرسالة حتى أتى فرعون • وأن ذلك الصدى قام عند موسى مقام خالقه ، فسماه الها ، وزعمت أن موسى سجد لذلك الصدى ، وأنه هو الذى سأل موسى رؤيته ، ولذلك زعمت أن موسى قال للصدى : « **تبت اليك • وأنا أول المؤمنين** »فاذا كان هذا كله للصدى ، فلا حاجة لموسى ، ولا لأحد الى الله تعالى • فانه لم يقل « **لا اله ، الا أنا** » وانما قالها الصدى • والصدى صادق بزعمك ، فقد بطلت الهية الله تعالى • وثبتت الهية الصدى •

واذا كان كذلك فلم لا تعبدون هذا الصدى ، الذى عبده موسى ، وسجد له ، وتاب له بعد أن اعترف بربوبيته • وما بال حبقوق النبى لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى ولم يذكره ، ولم يعترف بربوبيته • وكذلك ما بال حزقيال لم يعبد هذا الصدى ، كما عبده موسى ، ولم يذكره • ولم يعترف بربوبيته •

وكذلك أشعياء ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء • والحواريون ما بالهم لم يعبدوا ما عبد موسى ، وسجد له واعترف بربوبيته ، وأنه لا رب سواه ، فهؤلاء الأنبياء ، والأولياء • اما أن يكونوا علموا : أنه لا اله الا الصدى ، كما قال الصدى بزعمك ، أو جهلوا ذلك • فان كانوا

---

(١) البقرة : ٢١٠

علموا فلأى شىء لم يعترفوا بذلك ، وسكتوا عنه اذ لم يصح قط عن واحد منهم أنه قال : لا اله لكم الا الصدى ، فيلزمكم أن يكون سكوتهم عن ذلك . اما عن جحد أو تلبيس . فان كانوا علموا الحق فجحدوه فذلك كفر منهم ، وهم — صلى الله عليهم أجمعين — مبرأون عن ذلك ، منزهون . ولو كان ذلك لاستحال أن يظهر عليهم من الآيات شىء مما ظهر . وان كان سكوتهم عن تلبيس . فان جاز عليهم التلبيس فى مثل هذا جاز عليهم التلبيس فى كل ما أخبروا به من الشرائع . اذ كل الشرائع والأحكام تحتقره ،بالاضافة الى معرفة الربوبية . وان كانوا جهلوا ذلك . فكيف علمت أنت يا أحمق ما جهله الأنبياء والأولياء ؟

فان كانوا تكلموا بذلك ، وقالوا به . ففى أى سفر من أسفار التوراة هو أن موسى أخبر : أن : الله لا اله له ولا لكم الا الصدى . وأن الصدى أرسله الى فرعون ، وأنه اله . فان كان ما تدعيه حقا فائت بالتوراة فاتلها . ان كنت من الصادقين . وفى أى كتاب من كتب الأنبياء جاء مثل ذلك ؟ أفى كتاب حبقوق ؟ أو فى كتاب حزقيال ؟ أو فى كتاب أشعياء ؟ أو فى كتاب دانيال ؟ أو فى انجيل لوقا ؟ أو فى انجيل متاؤوش ؟ أو فى انجيل ماركش ؟ أو فى انجيل يوحنا ؟ أو فى مصحف الاعلان ؟ أو فى أى كتاب من رسائل الحواريين وجد مثل ذلك ؟

هل وقع شىء منه هنالك ؟ وهذه الكتب التى ترجعون اليها . وتعولون عليها ، اذا لم يوجد فيها شىء مما ذكرت ، علم من حالك أنك على الله ورسله كذبت ، وافتريت . **« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين »**[١] .

بل قد تواردت الرسل على الأخبار بالقواطع التى لا تجهل بأن الله اله واحد . وأنه ليس له فى ألوهيته ، شبيه ولا مضاد . واذا تبين بهذا أنك كفرت ، وأن الله ربك سببت ، وعلى رسله كذبت . وأنك من جميع الملل خرجت . تعين على اليهود والنصارى أن يشتوروا فى أمرك ، ويأتمروا فى حرقك ، أو نحرك **« ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق »**[٢] .

---

(١) الزمر : ٦٠

(٢) الرعد : ٣٤

ثم نقول : هذا الصدى الذى وصفت ، وهو اله عندك — كما زعمت — أهو الله تعالى رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ؟ أم اله غيره ؟ فان كان هو الله تعالى ، فلم سميته الصدى ؟ ولم جعلته واسطا بين نفسه وبين خلقه ؟ وهل هذا الا محال ، فانه لا يتصور فى العقل واسط ، لا بين اثنين ، ويكون الواسط ثالثا .

ثم يلزمك على هذا أن تجعل ذات البارى ، الرب تعالى صوتا حادثا . فان ذلك الصدى عندكم حادث ، وهذا كله محال بضرورة العقل . وان قلت : انه غيره . فيلزم أن يكون ذلك الصدى هو المتكلم عن نفسه ، والمخبر بحقيقته . فاذا سمعه موسى يقول : « أنا الله . لا اله الا أنا » فاما أن يخبر عن نفسه ، أو عن رب العالمين . فان أخبر عن نفسه فهو كاذب ، فان الرب تعالى يكون الها آخر وان أخبر عن الرب . فلأى شىء قلت : انه اله . وأن موسى اعترف له بالربوبية ، وسجد له . بل الاله الحق رب العالمين ، والصدى ليس باله ، ولا رب .

فقولك « اعترف موسى بربوبيته ، وعبده » باطل بالضرورة . ثم نقول : هب ان ذلك الصدى هو المتكلم عن الله ، وأنه اله . فهل يقدر الله تعالى على أن يتكلم ، ويخبر عن أرادته بغير ذلك الصدى . فان قلتم : لا . فذلك تعجيز لله تعالى ، وهو القادر على كل شىء ، ويلزم عليه أيضا : أن يكون محتاجا لذلك الصدى ، وكل من كان محتاجا فهو ناقص معيب . وليس بغنى ، والله تعالى هو الغنى عن كل الموجودات ، وليس لشىء من الموجودات عنه غنى . وان كان قادرا على أن يسمع كلامه بغير واسطة فلعل موسى سمعه بغير واسطة . واذا جاز أن تسقط الواسطة انهدم كل ما رمت بناءه ، على أنا قد كنا هدمناه أولا فى أوحى لحظة ، بأيسر نفخة . وانما أردنا أن نبين لك ، ولكل من وقف على كلامك بعض ما يلزمك ، وأنت لم تشعر بشىء من ذلك ، ولولا خشية التطويل ، لأوردت عليك من النقوض واللوازم ما يتعجب منه كل حبر نبيل .

ثم نقول : هب أنا نسلم جدلا : أن الله تعالى تكلم مع موسى بواسطة الصدى . فلم قلت ان عيسى مثل الصدى ؟ أعنى أنه واسطة ، كما أن ذلك الصدى واسطة . وما الذى دلك على ذلك ؟ ولأى شىء سويت بينهما ؟ والفرق بينهما ظاهر . وذلك أن الصدى الذى زعمت أن موسى سمعه انما سمعه موسى بعد أن احتجب له بالنار كما زعمت ، والنار جماد .

واذا قام بالجماد صوت يفهم منه « أنا الله ، لا اله الا أنا » فيمكن أن يعقل هنا غالط مثلك ، أن المتكلم بذلك الصوت اما غير الجماد لاستحالة الالهية عن الجماد • واما حيوان ممكن أن يتوهم فيه أنه اله ، كما توهمتم أنتم فى ذلك • ولا يصح ذلك فى الله ، لأنه اذا قال « لا اله الا أنا » فعن نفسه يخبر ، واليه يرجع حكم خبره ، بخلاف الجماد • فكيف قست أحد الواسطين على الآخر ، وليس فى معناه ، ولو أردنا تطويل الكلام لذكرنا فروقا أخر تمنع مقايسة النار بالبشر •

وأما قولك « ان عيسى عليه السـلام قال : « أنا الله » وأن الحواريين صدقوه فى ذلك » فكذب صراح ، وافك بواح • فانه لم يرووا عنه عليه السلام فى ذلك أقوال بوجه صحيح ، ولا بنص صريح ، بل الذى صح منه ، ونقل بالتواتر عنه أنه كان يقول : « اعبدوا الله ، الذى لا اله الا هو » وأناجيلكم تشهد بذلك عليكم •

ثم نقول : لو ثبت أن عيسى قال ذلك اللفظ بعينه ، فمن الممكن سوغ حمله على محمل قويم فى العقول غير مخالف للمنقول ، وهو أن عيسى عليه السلام كان محبا لله تعالى مشتهرا فى محبته ، ومن عادة المشغوف بشىء ، المشتهر به : أن يستحضر ذلك الشىء المشتهر فيه فى قلب ، ويجعله نصب عينيه ، حتى لا يلاحظ شيئا سواه ، بل ربما ينتهى ذلك به الى أن يذهل عن نفسه ، ويغيب عن حسه • ففى مثل تلك الحالة ، يظن المشتهر أن الشىء الذى شغف به : هو ، هو • حتى يقول :

أنا من أهـــوى ومن أهـــوى أنا

وكذلك قال الآخر :

فـــكل شـــىء رآه ظنـــه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وكذلك عيسى عليه السلام لـــا انكشف له من سلطان الحقيقة أمر ما غاب عن نفســـه ، وفنى عن حسه ، لـــا شاهد من جمـــال الربوبية ، والحضرة الالهية ، فذهل عن كل ما سوى الله • فقال « أنا الله » وهذه أمور عجيبة ، وأذواق غريبة ، لا يدركها الا من اختاره الله من خلقه ، واصطفاه بحضرته •

فـــ « ليس بعشك • فادرج » •

وأما قولك لنا : « قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق ، تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء » فقول باطل علينا ، فاسد لدينا ، فانا قد أحلنا تلك « الواسطة » فيما تقدم بوجوه متعددة ، وقد حكمنا بتكفير من أثبت واسطا ، على نحو ما زعمت ، ولا أعلم أن أحدا من المسلمين قال شيئا من ذلك ، بل ولا من أهل الملل غيرك .

ثم نقول : هذا الواسط الذى زعمت لا يخلو أن يدرك الله تعالى ، أعنى يعرفه ويسمع كلامه أو لا يدرك ؟ فان قلتم لا يدرك فقد شهدتم على أنفسكم : أن الواسط ليس باله اذ الاله لابد أن يكون دراكا ، ويلزمكم على ذلك أن يكون عيسى لا يعرف الله تعالى ، ولا يسمع كلامه ، وهو محال ..

وان قلتم انه يدرك الله تعالى . فهل يدركه بواســطة ، أو بغير واسطة ؟ فان أدركه بواسطة أخرى فالكلام فى تلك الواسطة كالكلام فى الأولى ، ويلزم التسلسل . وان أدركه بغير واسطة ، فيجوز لنا نحن أن ندركه بغير واسطة . وفى هذا ابطال ما ذكرت من اثبات الواسطة الذى ذكرت أن المسلم قد اضطر اليه .

وأما قولك « انما أوجبتم علينا الشرك فى قولنا بواسطة . فاذن الحق والعقل لا يعيب الواسط » فلنعلم أنا لم نوجب عليك الشرك من حيث الواسط فقط ، بل من حيث أثبت واسطا الهيا . وذلك أنك زعمت أن الصدى قال لموسى مخبرا عن نفسه : « أنا الله ، لا اله الا أنا . فاعبدنى » واعترف له موسى بالربوبية ، وتحمل عنه الرسالة وعبده وسجد له . فهذا اثبات اله غير الله . وكذلك قلتم فى المسيح أنه قال « أنا الله » واعترف الحواريون له بالربوبية ، فهذان الهان . ثم ان الأقانيم ثلاثة آلهة ، فصارت آلهتكم خمسة ، فيا ليت شعرى هذه الآلهة الخمسة هل اشتركوا فى ايجاد الموجودات ، واختراع الكائنات ، أو انفرد بها أحدهم ؟ فان كان قد انفرد بها أحدهم فهو الاله الحق الواحد الفرد ، وان كانوا قد اشتركوا وتعاونوا على خلق المخلوقات فلا معنى للشرك الا هذا ، ويلزم على تقدير اجتماعهم وتوافقهم على الخلق : أن يكون كل واحد منهم مضطرا الى مساعدة الآخر ، وكل مضطر ناقص ، والناقص ليس باله . وان قدرنا اختلافهم فى الخلق بحيث يريد أحدهم أن يخلق ، ويريد الآخر أن لا يخلق فيؤدى ذلك الى أن لا يخلق أحدهم

شيئا . فلا يوجد الخلق . وقد وجد الخلق فدل ذلك على أن الاله واحد لا شريك له . ولا اله غيره .

ثم نقول : عباد الأصنام والأوثان أشبه حالا منكم ، لانهم فى عباداتهم انما كانوا يعبدون أصنامهم ليقربوهم الى الله زلفى ، وأنتم انما تعبدون هذه الآلهة لأنها أرباب من دون الله متقربون منها ، وهذه جهالات بينة ، وضلالات ظاهرة ، عميت عنها بصائركم فأفطرت عليها قلوبكم ، وأعجب من ذلك كله قولك « العقل والحق لا يعيب الواسط » أما من قال هذا فقد خرج عن غريزة العقل وتارة وقع فى مفازة الجهل ، فان العقل الصريح يشهد بضرورته بابطال الواسطة . وأما الحق فهذه كتب الأنبياء بين أيدينا وأيديكم . ففى أى كتاب منها : أن الآلهة خمسة ؟ انها تدل كلها على أن الاله واحد ، ولا ولد له ، ولا والد **« وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا »**(١) وستقدم فتعلم ، وأنت قد اضطربت فى هذا الفصل ، ولم يثبت لك فيه فرع ولا أصل ، والكثير مع من لا يعقل عمل من لا يحصل .

وأما قولك «وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها » فقد كان ينبغى لك ألا تحتج بشىء لم يثبت عندك أصله ، ولا تصدق بنقله ، ثم لا حجة لك فى شىء مما ذكرته ، وذلك أن محاسبة الله تعالى للعباد فى الدار الآخرة مما يجب الايمان بها ،ومما قد تواردت عليه الشرائع، اما بالتصريح واما بالايماءات والتلويح .

وذلك يكون ولابد ، ولأجل مجازاة العباد بأعمالهم فى الدار الآخرة : خلق الله الخلق وبسط الرزق وأرسل الرسل وأنزل الكتب **« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا . وأنكم الينا لا ترجعون »**(٢) ومحاسبة الله للخلق تكون على وجوه جائزة فى العقل وارادة فى النقل ، لا تحتاج الى شىء مما تخيلته .

منها . أن العبد يوقف فى موضع الفصل والقضاء ، فيعطى كتابا أحصيت فيه أعماله ، ويقال له : **« اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك**

---

(١) مريم : ٩٢ ، ٩٣ (٢) المؤمنون : ١١٥

حسيبا »(١) فاذا وقف عليها ، علم أن المكتوب فيها هو أعماله • فان كان سعيدا • قال **« هاؤم اقرأوا كتابيه • انى ظننت أنى ملاق حسابيه • فهو فى عيشة راضية • فى جنة عالية • قطوفها دانية »** فعند ذلك يقال لهم : **« كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية »**(٢) وان كان شقيا فيقــول : **« يا ليتنى لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حسابيه • يا ليتها كانت القاضية • ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه »**(٣) •

فعند ذلك يقال للملائكة : **« خذوه فغلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه »**(٤) •

فهذا وجه من وجوه المحاسبة لا تحتاج معه الى اثبات « واسط » ويمكن أن يكون هنالك وجوه ممكنة فى المحاسبة ، ليس هذا موضع ذكرها ، ولا أنت أهل لفهمها ، لا تحتاج فى شىء منها الى ما رمت من الواسطة • فكأنى والله بك — ان مت على ما أنت عليه — يؤخذ بناصيتك وقدمك ، وتحيط بك ملائكة ربك **« ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »**(٥) •

فتنادى فتقول : « يا عيسى ، يا سيدى ، يا الهى ، يا ولد الله » •

فيقول لك : « كذبت ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، ولست بالله ، ولم أقل لك كذلك ولا أبلغتك ذلك • وانما بلغتك أن لا اله الا هو ، وحده لا شريك له » • فكيف ترى خجلتك بين يديه ، وحيرتك اذا طلبت فى نفسك جوابا ترده عليه ؟ فذلك المقام • لا ينفعك فيه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل، الا ما قدمت يداك ، من حسن ايمان ، وصالح عمل ، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل •

فان الملائكة والنبيين لا يشفعون الا لمن ارتضى رب العالمين •

فالله • الله • انظر فى خلاص نفسك لتجتنى ثمار غرسك •

وأما قولك « يقول قرآنكم : **« وجاء ربك والملك صفا صفا »**(٦)

---

(١) الاسراء : ١٤
(٢) الحاقة : ١٩ — ٢٤
(٣) الحاقة : ٢٥ — ٢٩
(٤) الحاقة : ٣٠ — ٣٢
(٥) التحريم : ٦
(٦) الفجر : ٢٢

فلست لها ، فما شأنك واياها ، أنت لا تعرف لسان من خوطب بهـا ، ولا تعرف مضمونها . فكيف يمكنك الاستدلال بها ، والتطواف حولها ؟ وأنت عرى عن الشرط الذى به يعرف معناها ، ويفهم فحواها ، وليس مفهومها عند من خوطب بها من العرب الفصحاء ، البلغاء على شىء مما ذكرت ، ولا يقرب مما توهمت ، بل معناها عندهم لا تخالفه العقول ، ولا يخرج عن أسلوب لسان العرب المنقول وانما أكره أن أشافهك به لأنك فاقد شرطه . فان كنت ممن ينور الله بصيرته ، ويحسن سريرته، شرعت فى أن تتعلم ، ويجب علينا أن نفهمك حتى ان شاء الله تفهم .

وأما قولك « فى الانجيل يقعد ابن الانسان فى مجلس عظمته ، وتقدم جميع الأمم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الراعى الغنم » فنقول : آمنا بالله ، وملائكته وكتبه ورسـله ، ومـع ذلك فنعلم على القطع والثبات أن كل أمـة تدعى يوم القيامة بامامها ، وتنادى بمعبودها ، وأنبيائها . فيتبع كل من كان يعبد الشمس ، الشمس ، ويتبع كل من كان يعبد الطواغيت : الطواغيت .

واذا كان ذلك فلا بد لعيسى أن يجمع له كلا من لزمه اتباع شرعه ، فحينئذ يميزهم كما يميز الراعى الغنم . فمن آمن به وانتبه على النحو الذى رسم له فهو من الفائزين ، ومن اعتقد فيه أنه اله ، أو ابن اله . فالنار مأواه بعد أن يتبرأ عيسى من دعواه .

وأما قولك « واذا أوجبتم أن الله لا مفطور ، ولا مدرك بحاسة ، فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس » فهذا لا يلزم منه شىء مما ذكرت . فانا اذا قلنا : ان الله تعالى ليس مدركا بالحواس فانما نريد به أن الله ليس مدركا بالحواس كما تدرك الأجسام والألوان فيكون محاطا به ، فيكون ذا حدود وأقطار وذلك محال .

واذا قلنا : ان الله تعالى يرى فى الدار الآخرة ، انما نريد به أن الله تعالى يخلق لنا ادراكا آخر لا تناسب حاله حالة ادراك الأجسام ، ولا الألوان . فان الادراكات مختلفة باختلاف متعلقاتها ، وذلك ادراك خاص . له حكم نفسه ، لم يذق منه ذوقا فى هذه الدار . فانه انما يكرم الله به أولياءه وأصفياءه يوم القيامة .

واذا أنعم الله تعالى على وليه بذلك الادراك المعبر عنه بالرؤية ، خلق له من اللذة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر • فان أنكرت أن يرى ما ليس بجسم ، ولا لون فلتنكر أن يعلم موجودا ليس بجسم ولا عرض • وان زعمت أن الرؤية غير جائزة عقلا • فقد جهلت موسى حيث سأل الله ما يستحيل عليه • فكيف جهل موسى من وصف الله ما علمه جاهل مثلك ؟

وأما استشهادك بحديث نبينا عليه السلام على رؤية ذى الجلال والاكرام • فأنت ممنوع منه لاعراضك عنه ، وهو من عمدنا على اثبات رؤية الله تعالى فى الدار الآخرة لكوننا عالمين بحقه ، ودليل صدقه •

ثم انك نقلت ذلك الحديث فأجحفت ، وبالمعنى أخللت ، وانما صوابه : « انكم ترون ربكم ، ولا تضاهون فى رؤيته ، الا كما تضاهون فى رؤية القمر ليلة البدر » وهذا لا حجة لك فيه • فانا نقول : ان الله تعالى هو المرئى لا غيره بالأبصار فى الدار الآخرة على ما تقدم • وأنتم تقولون : ان المرئى الواسطة • وهذا الحديث يعرف معانيه أهله ، وهم الذين يصدقون برسالة من هو قوله ، فلا تطمع فى معرفته ، فانك لست أهلا لداريته •

وأما قولك « لم تنكرون أن يكون المسيح الذى كان واسطا للوعظ ، أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم **« هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة »**(١) فكيف لا ننكر ذلك ولم يدل على وقوعه دليل عقل ، ولا صحيح نقل ؟ وليس معنى الاتيان فى هذه الآية الا كالمجىء فى الآية المتقدمة ، وكلاهما ليس المراد به : المجىء الذى هو نقل الأقدام • بل المجىء والاتيان لهما معان آخر يعرفها العرب المؤمنون •

وهذه الآية فيها محذوف تفسره آية أخرى • تقديره : هل ينظرون الا أن يأتيهم أمر الله • كما قال تعالى فى آية أخرى : **« هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتى أمر ربك »**(٢) فقد ذكر فى هذه الآية ما حذف هنالك • وهذا على المعروف فى لسان العرب من حذف المضاف ،

---

(١) البقرة : ٢١٠ (٢) النحل : ٣٣

واقامة المضاف اليه مقامه ، وكذلك الكلام على الآية الأولى . وهذا لا خفاء به عند البصير بلسان العرب ، فانها تستعمل الحذف والاضمار والمجاز والاختصار . ثم مالك ولكتابنا ، ولأى شىء تنشد ضالتنا . « دعها . معها حذاؤها ، وسقاؤها . ترد المـاء ، وتأكل الشـجر ، حتى يلقاها ربهـا » .

ألق السلاح فلست من أكفائنا　　　واقعدمكانك بالحضيض الأسفل

ثم نقول : من عجيب أمر هذا السائل : أنه لا يصلح أن ينسبه لمقلد . ولا ناقل . وذلك أن هذا المذهب الذى أبداه من اتخـاذ الله : واسطة « صوت الصدى » انما حمله عليه ، تقليده لكتاب «أغشتين» .

وذلك أنه أشار فى « مصحف العالم الكائن » الى نحو مما ذكره هذا السائل ، ولعله وقف عليه ، ولم يفهمه صحيحا ، ولا أورده فصيحا ، بل زاد عليه كلاما فاحشا قبيحا . وأنا ان شاء الله تعالى أذكر كلام « أغشتين » فى الفصل الذى بعد هذا وأبين فيه أنه ليس كما فهمـه هذا السائل ، ثم أعطف على « أغشتين » بتبيين فساد مذهبه ، وأوضح أنه غير مصيب فى مطلبه ، وأحقق فيه : أن « أغشتين » مخالف لغيره من القسيسين .



الفصل الخامس

فى حكاية كلام المتقدّمين

لتعلم أيها الناظر فى هذا الباب : أن النصارى قد كثر اختلافهم ، وعظم خبطهم وارتباكهم فلا هم يستقرون فيه على قدم ، ولا يمشون منه على طريق أمم ، فقليل منهم من نفى الاتحاد والحلول ، ولم يقل بشىء من ذلك ، وهم طائفة متقدمة يعرفون بـ (الأرؤسية) ولا يكاد مذهبهم يخالف مذهب المسلمين الا فى انكارهم نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وجمهورهم على القول به واثباته .

ثم المثبتون له . منهم من قال : لا يقال فيه بـ « كيف » ؟ ولا يسأل عنه بحرف ومنهم من شرع فى بيان كيفيته وتفسير ماهيته . فصارت اليعقوبية والنسطورية الى أن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته كما يمازج الخمر اللبن . والى نحو هذا ذهب الروم ، وزادوا عليهم . فقالوا : اختلطت الكلمة بالمسيح فصارا شيئا واحدا .

ولقد حكى من كلام اليعقوبية : ما يدل على توقحهم ، وجرأتهم على الله تعالى . وذلك أنهم قالوا : ان الله نزل فدخل فى بطن مريم ، فاتخذ من لحمها جسدا فصار الله مع الجسد نفسا واحدا .

وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ ذلك اللحم والدم فزاده فى نفسه ، فصار ذلك اللحم : الله . وصار معظم اليعاقبة : الى أن الكلمة انقلبت لحما ودما .

وأما النسطورية : فقالوا ليست تلك النفس هى الله . وانما هى بعضه . وهذا هو البهتان ، الذى يعلم بطلانه بالضرورة كل انسان .

وصارت طائفة من النصارى : الى أن الكلمة حلت جسد المسيح ، كما يحل العرض محله . وصار أخلاط من النصارى : الى أن المراد

بالاتحاد : ظهور اللاهوت على الناسوت • وربمـا عبروا له عن ذلك بالفيض •

ثم اختلفوا فى تمثيل ذلك على ثلاثة أوجه • فمنهم : من قال مثاله ما ينطبع فى الأجسام الصقلية من الأشياء التى تقابلها • ومنهم من قال مثاله : الطابع المنقوش اذا اتصل بشمع وما يضاهيه ، فيظهر نقش الطابع عليه ، وان لم يحـله شىء من الطابع • ومنهم من قال : معنى ظهور اللاهوت على المسيح ، كمعنى استواء الاله على العرش ، عنـد الاسلاميين ، مع مصيرهم الى استحالة المماسة •

وربما يعبرون عن الاتحاد بالتدرع • كأنهم أخذوا ذلك من لفظ الدرع يشيرون الى أن اللاهوت اتخذ ناسوت المسيح درعا •

هذه مذاهب المشتهرين من طوائفهم •

وأما اختلاف آحادهم فمما لا يكاد ينضبط ، ولا يرتبط • ومن أراد الوقوف على شىء من ذلك فليطالع كتاب « المسائل » لهم • ففيه يرى تحيرهم وخبطهم •

ونفرد بعد هذا ان شاء الله : بابا • نذكر فيه كلام « أغشتين » فان مذهبه فى الاتحـاد مخالف لمذهب من تقـدم ذكره من الفـرق ، والقسيسيين •

الجواب عن كلامهم . أما من حكى عنه : نفى الاتحاد • فقد قال بالحق • وأتى بالمراد •

وأما من أثبته ، وقال : ان الاتحاد لا يسـأل عنه • ولا يكيف • فنقول : معنى الاتحاد لا يخلو أن تعرفه أو لا تعرفه • فان لم يعرفه فقد اعترف بجهله ، وناقض متقدم قوله ، فانه اعترف بالاتحاد ، وادعى ثبوته للمسيح وحده ، ثم لمـا طولب بتثبيته • قال : لا أعرفه • وهـذا تناقض ، وقول باطل • وأما من قال : أعرفه ، الا أننى يقصر عن ادراك حقيقته عقلى ، ولا أقدر على العبارة عنه • وهذا كما قلتم أنتم فى جوابكم عن كيفية سماع موسى كلام الله تعالى ، حيث قلتم : انه لا يسأل عنه بكيف ، فانه ظلم وحيف • فنقول : أما قولك : أعرفه ، الا أنه يقصر عقلى

عن ادراك حقيقته ، فمتناقض أيضا ، لأن كل معروف ، لابد أن يرتسم فى العقل ، ويحصل فيه على الوجه الذى يكون معروفا منه • فاما على الجملة، واما على التفصيل ، وما لم يرتسم فى العقل ، لا جملة ولا تفصيلا، فليس بمعلوم • وأنت اذا ادعيت أنك عالم بالاتحاد • فلا بد أن تكون عالمـا به ، اما على الجملة ، أو على التفصيل • وكيفما كان فلابد لك من أن تعبر عن معلومك ، على أى وجه كان • والا فأنت جاهل بالاتحاد • ومن جهله كافر عندكم • وأما تشبيهك هذا بكيفية سـماع موسى ، فليس بصحيح • لأنا مهما قيل لنا : كيف سمع موسى كلام الله فانما نسأل عن أمر لم نعلمه : علم ذوق ، وعن تفصيل ما لم نعلمه : تفصيلا • بل علمناه على الجملة ••

ولذلك أجبنا بقولنا : ان الله تعالى خلق له ادراكا سمع به كلام الله تعالى الذى هو وصفه ، الذى ليس بحرف ولا صوت ، ففهمنا الادراك على الجملة ، ولم نفهمه على التفصيل ، وأنت لم تعرف الاتحاد جملة ولا تفصيلا ، بل جهلت وادعيت ، أنك علمت •

فـ « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »[1] •

وأما من قال : ان الكلمة خالطت جسم المسيح ، ومازجته ممازجة الخمر اللبن ، فكلام فاسد ، قائله للعقل فاقد • وذلك أن المفهوم من المخالطة والممازجة لا يتصور الا فى الجواهر المتحـدات • وذلك أن المخالطة انما يعبر بها عن تجاور الجواهر ، واجتماعها بحيث يكون كل واحد من الجواهر المتمازجة يحفظ حيزه ويشغله ، ويمنع منه غيره •

ولذلك اذا أفرغت اناء ماء ، على اناء لبن مثلا ، وتمازجا كثر اللبن ، وصار لا يسعه بعد الممازجة ما كان ، والعلم ليس بجوهر ، فاستحال عليه الاختلاط ، والامتزاج بالضرورة •

فان أرادوا بالامتزاج والاختلاط أمرا آخر ، فلا بد من بيانه ، وافادة تصوره ولا يتكلم على الشىء ردا وقبولا الا بعد كونه معقولا ، ولو سلمنا الممازجة جدلا ، للزم عليها ، أنواع من المحالات ، منهـا : قيام الصفة بنفسها ، وانتقالها ، وبقاء جوهر الله تعالى عريا عنها — على قولهم — والعرى عن العلم جاهل • والجهل على الله محال ، ويلزم على

---

(١) البقرة : ١١١ ، النمل : ٦٤

ذلك : أن لا يكون العلم أزليا ، بل حادثا مخلوقا ، وأن حاله تغيرت وبعد أن لم يكن مختلطا ممتزجا : مختلطا .

وهذان أمران حادثان ، ولا يخلو عن أحدهما . وما لا يخلو عن الحوادث حادث . على ما يعرف فى موضعه . وهذه أمور باطلة . فالمفضى اليها باطل ، وهو الاختلاط .

وأما من قال بالحلول . فليس له محصول ، ولا معقول . لأن حقيقة الحلول انما هى : أن يحصل جسم أو متحيز فى شىء ، أو على شىء ، فيسمى الحاصل : حالا . والمحصول فيه : يسمى محلا . وتسمى النسبة بينهما : حلولا — وهو الذى يسميه النحوى مصدرا — هذا هو المفهوم من حقيقة الحلول .

وقد يتوسع فيه فيقال : حل العرض فى محله . ومعناه : صار المحل متصفا به ، وصار العرض قائما به ، وموجودا فيه .

فان أردتم حقيقة الحلول كان محالا . فان العلم ليس بجسم ولا جوهر . على ما مر .

وان أردتم الثانى فهو محال أيضا لأنه يلزم عليه مفارقة العلم الجوهر ، وبقاؤه جاهلا . ويقوم عرض واحد بمحلين . فى زمان واحد ، ويلزم عليه انتقال الصفة من محل الى محل . وحدوثها الى أنواع من المحالات ، لا يبوء بها عاقل ، ومنتحلها أحمق جاهل .

وقد صرحوا بأنهم أرادوا بالحلول : حلول الجوهر فى العرض . وقد صرحنا نحن بما يلزمهم من المحالات على ذلك . وبيناه والحمد لله .

ثم نقول لهم بعد ذلك فى قولهم بالاختلاط ، وبأنهما صارا شيئا واحدا : لا يخلو أن حين اختلطا ، اما أن يبقى العلم موجودا بحاله ، والجوهر موجودا بحاله ، أم ينعدم أحدهما . أو ينعدما معا .

محال . أن يبقيا موجودين بحاليهما ، مع فرض الاختلاط ، وكونهما شيئا واحدا . فان الواحد لا يعود اثنين الا باضافة غيره اليه . واذا أضيف غيره اليه ، ارتفعت الوحدة بالضرورة ، على ما تقدم فى التثليث . وكذلك الاثنان لا يعودان واحدا الا اذا انعدم أحدهما ، فترتفع

الانثينية بالضرورة ، ومحال أن ينعدما ، فانه يؤدى الى عدم القديم ، والى عدم ما هو موجود فى حالة وجوده ، فلم يبق الا أن ينعدم أحدهما دون الآخر ، وذلك محال • فان الموجود لا يخالط المعدوم ولا يمازجه ، بل يبقى الواحد واحدا •

واذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط ، ومصير الاثنين واحدا على ما قالوه •

وأما من قال : ان الكلمة انقلبت لحما ودما ، فلقد ارتكب حماقة ، والتزم عمى ، يلزمه عليه جواز عكس مذهبه • وهو أن ينقلب اللحم والدم علما ، والقديم حادثا ، والحادث قديما الى غير ذلك من المحالات التى لا تصدر عن من شد : أطرافا من المعقولات ، ولولا الحمق والتقليدات ، لما وجد مثل هذه الفواقح فى كلام أحد من المخلوقات •

وأما من قال : ان الاتحاد هو ظهور وفيض ، ومثاله بانطباع الصورة فى المرآة فهذا المثال انما كان يصح ، لو كان العلم صورة محسوسة بالبصر ، ويكون جسد المسيح صقيلا تنطبع فيه صورة المقابلات • وكل ذلك معدوم فى مسألتنا بالضرورة • فتخيله فاسد ، وباطل بالضرورة ، فكما لا تتمثل ذات الحياة ، والادراكات فى المرآة كذلك لا تتمثل الكلمة فى جسد المسيح •

ثم ان جاز انطباع علم الله فى جسد البشرى ، فلينطبع فى كل ما يشبهه فى الجسدية ، وسيأتى لهذا مزيد بيان • وفيما تقدم ما يبين فساده واستحالته •

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا فى الشمع ، والمنحفر فى الخاتم يعود ناتئا فى الشمع ، فذلك لا يتصور الا فى الأجسام • وان جاز فى غير الأجسام فيلزم أن يكون كل واحد منهما ، أعنى اللاهوت والناسوت يؤثر فى الآخر ، ويحل فيه ، فيكون الناسوت حل فى اللاهوت • وذلك محال عند كل فريق • والأمر الثانى : أن النقش فى الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ، ثم تنطبع مستقيمة فى الشمع ، ولو وضعت فى الخاتم مستقيمة لانطبعت فى الشمع منعكسة • فيلزم على مساق هذا المثال : أن تنطبع الكلمة فى الناسوت • اما بالاستقامة

أو بالعكس • فان انطبعت فيه بالاستقامة فأقنوم الكلمة فى الجوهر بالانعكاس • وان انطبعت فيه بالانعكاس فلم تبق الكلمة فى الناسوت على حقيقتها فى اللاهوت • بل هى منعكسة فلا تبقى حقيقة العلم على ما كانت ، بل هى ليس بعلم • وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ، وتحكماتهم الباردة •

وأما من لبس منهم ، بأن مثل قولهم فى الاتحاد ، بقولنا فى استوائه تعالى على العرش • فذلك مما لا يقال عليه عندنا اتحاد ، ولا حلول ، ولا فيض ، ولا انطباع • لأنا نريد بقولنا هو على العرش مستو ، واستوى على العرش : أن العرش تحت قبضته ، ومسخر بقدرته ، والاستواء عليه ، انما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من كلامها • فانها تقول :

قد استوى « بشر » على العراق   بغـــير سيف ودم مهـــراق

فان أرادوا هذا المعنى فهو حق وصحيح ، لكنه لا يصح فى حق عيسى وحده ، فان الله تعالى مستول على عيسى ، وعلى غيره • وأما من أطلق منهم لفظ النزوع فيستحيل على الحقيقة ، والتوسع • وذلك أن هذا اللفظ يشعر بأن اللاهوت اتخذ الناسوت درعا ، أو كالدرع ، وهذا كله مستحيل على الاله تبارك وتعالى ، وعلى علمه • وكل ما تقدم من المحالات على هذا المذهب يلزم •

وعلى الجملة فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون ، وعن التوفيق معزولون • فهم عن المعقولات معرضون • وبهـــا مستهزءون ، لا يستحيون من خالقهم ، ولا يتأدبون مع مالكهم ورازقهم • فسبحان الله عما يقول الجاهلون ، وتعالى عما ينسبه اليه المبطلون • بل هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى **« لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »**(١) •

ولولا ضرورة الحال ، ورجاء قمع أهل الضلال ، لمـــا استجزت حكاية مثل هذا المقال وأنا أستغفر الله ذا العظمة والجلال • انه ذو العفو والافضـــال •

---

(١) الاخلاص : ٣ ، ٤

ولا بد مع ما تقدم : أن نطالبهم أجمعين ، بصحة الدليل الذى جعلهم على ذلك القول الغث الهجين ، حتى نتبين تحكماتهم ، وتظهر لكل أحد ترهاتهم •

فأقول لجميعهم : ما الذى حملكم على القول بالاتحاد ، والتورط فى الضلال والالحاد ؟ فلتعلم أنهم قد اختلفت مسالكهم فى ذلك • فمنهم من قال : انما قلنا بذلك تقليدا للانجيل ، وحذرا من المخالفة والتبديل كما قال هذا السائل • ومنهم من قال : انما قلنا بالاتحاد لأن عيسى ظهرت عليه أفعال لا تنبغى الا لاله ، من احياء الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، وهذه أفعال لا يقدر عليها الا اله ، وهو قد قدر عليها ، فهو اذن اله • ومنهم من قال : انما صرنا الى ذلك لكون عيسى لم يخلق من المـــاء الدافق ، الكائن عن أبوة ، ولا خرج عن شهوة آدمية ، بل خلق الله ناسوته من غير أب ليكون واسطا بينه وبين خلقه ، وليتخذه لكلمته • وربما قال بعضهم : ألستم تقرأون فى كتابكم : **« انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقـــاها الى مريم ، وروح منه »**(١) ؟ وهذا عين ما أنكرتم علينا من الاتحاد • فان عيسى رسول الله ، وكلمته • فناسوته : رسول الله ، ولاهوته : كلمة الله • على ما أخبر به كتابكم •

فنقـــول :

لمن قال بذلك تقليدا للانجيل • جوابك قد تبين ، فيما تقدم • اذ قد تقدم أن فهم الاتحاد منه بالمسيح باطل • وأن الصائر الى الاتحاد بعد الوقوف على ما تقدم : معاند جاهل •

وأما من استدل منهم على ذلك بما ظهـــر على يدى المسيح من خوارق العادات • فنقول له : لأى شىء قلت : انها تدل على ألوهيته ، ولم تقل انها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته ؟ فقال : « رب أعلم أنك تعطينى كل شىء • ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة ، ليؤمنوا به ، وليصدقوا أنك أرسلتنى »(٢) فهو قد استدل باحياء الموتى

---

(١) النساء : ١٧١

(٢) النص : « أيها الآب أشكرك لانك سمعت لى • وأنا علمت أنك فى كل

على رسالته ، وأنتم تستدلون بذلك على ألوهيته ، فيلزم من هذا الاستدلال : العدول عن شرع عيسى المنقول ، ومصادمة العقول .

ثم نقول لهم : كيف ينبغى لكم أن تقولوا هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه : لاهوت ، وأنتم تعزون فى كتبكم أن عيسى كان اذا أراد أن يفعل شيئا مما ذكر تضرع الى الله ، ورغب اليه بخضوع وتذلل حتى يقضى الله حاجته . وهذا موجود فى كتبكم . كثيرا فيها .

وكفى دليلا على نفى ما تنسبونه اليه قوله حين صلبه بزعمكم : « الهى . الهى . لم أسلمتنى »[1] ؟ وقوله قبل ذلك : « يا أبتاه . ان كانت هذه الكأس ، لا تقدرتجاوزنى ، حتى أشربها . فلتكن ارادتك » وهذا كله فى سجوده .

وفى هذا الموطن قال : « يا أبتاه . ان كان ممكنا فلتذهب عنى هذه الكأس »[2] .

وفى انجيل ماركوش أنه قال فى هذا المقام : « سيلقى ابن الانسان ما كتب له »[3] ثم قال بعد ذلك : « يا أبتاه . انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عنى هذه الكأس »[4] فهذا كله يدل دلالة لا شك فيها : أنه كان يفعل ما يفعل باذن الله . اذا أراده ، وأقدره عليه .

وأنه انما كان يتفق له ذلك : بعد أن يتضرع ويرغب لله تعالى . وربما كان يسأل أمورا لا يعطيها الله له ، لمــا سبق فى علم الله أنها لا تكون .

منها : ما تقدم . حيث سأل الله أن يدفع عنه أمر الصلب والقتل فلم يجب لذلك على زعمكم . ومنها : أن اليهود كانت تطالبه بمثل بعض

---

(١) النص : « الهى الهى . لمــاذا تركتنى » ؟ (متى ٢٧ : ٤٦) .

(٢) النص : « وكان يصلى قائلا : « يا أبتاه . ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (متى ٢٦ : ٣٩) .

(٣) النص : « ان ابن الانسان ماض كما هو مكتوب عنه » (مرقس ١٤ : ٢١) .

(٤) النص : « وقال يا أبا الآب . كل شىء مستطاع لك . فأجز عنى هذه الكأس » (مرقس ١٤ : ٣٦) .

معجزات موسى بن عمران ، فلا يجيبهم بشىء — وسيأتى لهذا مزيد — ودليل ذلك من الانجيل : أن عيسى قال لليهود : « « لست أفعل من ذاتى شيئا • لكننى أحكم بما أسمع ، لأنى لست أنفذ ارادتى ، بل ارادة الله الذى بعثنى »[١] الى ما فى كتبكم من هذا الذى قد عميتم عنه ، ولم تسمعوا حرفا منه • فتارة ينبهكم على وجه الاستدلال ، وأخرى يصرح بالمقال ، وتارة يسأل فيعطى ويجاب ، وأخرى يسأل فلا يرد عليه جواب • وحينما يتبرأ من مشيئته ويعترف بزلته وعبوديته ، ثم هؤلاء القوم مع ذلك يقولون هو : الهنا ، ومحيينا ، وخالقنا • فهؤلاء : يكونون بكم كالأنعام • وصم كالأصنام **« فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »**[٢] •

ثم نقول : ان كان احياء الأموات يدل على الألوهية ، فلأى شىء لا تقولون : ان « الياس » و « اليسع » كانا الهين ، وأنه حل بناسوتهما اللاهوت ؟ وشأنهما فى احيـاء الموتى ، لا يقدر أحـد على دفعه ، ولا يخفى[٣] •

ولملا تعتقدون ألوهية النبى « حزقيال » اذ فر قومه ، وهم ألوف حذر الوباء ، فأماتهم الله ، ثم جاءهم نبيهم • فقال لهم : لتحيوا باذن الله ، فحيوا ورجعوا الى قومهم ، سحنة الموت على وجوههم حتى ماتوا بآجالهم »[٤] • وهذا معروف عندهم ، ولا مدفع فيه •

وان أنكرتم وجود شىء من ذلك • نزلنا معكم الى ما فى الكتب القديمة ، من قصص الأنبيـاء وكتبهم • وهذا لازم لهؤلاء القوم ، لا ينفك عنه واحد منهم أبدا •

---

(١) النص : « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا ، كما أسمع أدين ، ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى » (يوحنا ٥ : ٣٠) •

(٢) النساء : ٧٨

(٣) الياس أحيا ابن الأرملة • انظر الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول واليسع أحيا ميتين انظر الاصحـاح الرابع من سـفر الملوك الثانى والاصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثانى •

(٤) انظر الاصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيال (ذو الكفل) •

ثم من عجيب أمر هؤلاء القوم : أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين باحياء الموتى ، وجعلهم رسلا الى الأجناس ، فأحيوا الموتى بزعمهم(١) . فما الذى أوجب أن يكون المسيح فى حال ألوهيته ، قد أيد بذلك بشرا ، وجعله رسولا الى الأجناس كما زعموا ؟ وما الذى منع أن يكون الله عز وجل يؤيد بذلك بشرا ، ويجعله رسولا الى الناس ؟ فان كان المسيح من أجل أنه أحيا ميتا : هو الله . فكل من أحيا ميتا من الحواريين وغيرهم : هو الله . ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته ، فانهم يعارضون بمثل ذلك فى حق غيره من الأنبياء عليهم السلام . ويدعى ألوهيته ، فلا يجدون فصلا بينهم ، وبين من يعارضهم .

وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب . فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية(٢) ، فانه لم يخلق من نطفة أب ، بل انما خلق من تربة أرض . ثم نفخ فيه من روحه . كما فعل بعيسى ، خلقه من نفخة الملك فعلقت بلحمة مريم ، فنشأ منها ، وفيها ، فتربه بمنزلة لحمه ، ونفخه بمثابة نفخه ، وهذا مالا مخلص منه ، ولا خروج عنه ، ثم أكرمه الله تعالى بأنواع من الكرامات ، لم يكرم بها غيره . منهـا أنه أسجد له ملائكته ، وأعلمه بما لم يعلمهم ، حتى جعله رسولا اليهم . وكفى بهذا شرفا . الى ما هنالك من خصائصه ، ومن فضائله .

بل لو أمكن لأحد أن يقول : ان بشرا يتصور أن يكون الها لكونه من غير أب . لكان آدم أولى بذلك من حيث انه لم تشتمل عليه أوضار الرحم . فقد شارك المسيح فى كونه من غير أب ، وزاد عليه أنه من غير أم ، لم يتكون فى ظلمة الرحم ، ولم يتلطخ بدم الطمث ولا خرج

---

(١) انظر الاصحاح العاشر من انجيل متى الآية الثامنة ، وانظر الاصحاح العاشر من انجيل لوقا .

(٢) وكذلك ملكى صادق ففى الرسالة العبرانية هكذا : « لأن ملكى صادق هذا . ملك ساليم ، كاهن الله العلى ، الذى استقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركه ، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شىء . المترجم أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم ، أى ملك السلام . بلا آب ، بلا أم ، بلا نسب . لا بداءة أيام له ،ولا نهاية حياة » (عب ٧ : ١ ــ ٣) وانظر التكوين .. الاصحاح الرابع عشر الآية الثامنة عشرة وما بعدها .

من مجرى البول • هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك ، ولم يختلف فى ذلك أحد ، أعنى فى أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين •

وقد خالفتكم اليهود لعنهم الله فى كون الهكم المسيح من غير أب ، وأطلقت القول على مريم البتول المبرأة عند الله مما قالوا ، بما قد علمتم فلعنهم الله ، وغضب عليهم • فلقد كذبوا •

وانما أسمعتكم هذا • لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله فى عيسى وأمه عليهما السلام • وانا ننزههما عما قال فيهما المبغضون لهما ، والمحبون القالون فيهما ، فما أجمل بكم — لو شاء الله توفيقكم — أن لو قلتم فيهما الحق ، الذى ينبغى لهما : أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس ، هو عبدا ورسولا ، وأمه صديقة مباركة •

ثم نقول للمستدل بما تقدم : يلزمك على استدلالك أن تكون حواء أم البشر الها فانها لم تخلق من أبوين ، ولا من نطفة ، وانما خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم • لم تتكون فى ظلمات الرحم ، ولا نشأت بين الأقذار ، والأوضار ، وخلقها من ضلع آدم كخلقه من تراب ، ولا فرق ، و **« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »**(١) •

وأما استدلالهم بما فى كتابنا من قوله تعالى : **« انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم وروح منه »**(٢) فلا حجة لهم فى ذلك • لوجوه :

أحدها : أنهم لا يصدقون بكتابنا ، فلا يستدلون به على شئ •

والثانى : أنهم ان استدلوا على غرضهم بشطر هذه الآية • فان صدرها يرد عليهم استدلالهم وكذلك الآيات التى بعدها ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز الذى **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »**(٣) مخاطبا لهم ، وردا عليهم : **« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق •**

---

(١) يس : ٨٢ — (٢) النساء : ١٧١

(٣) فصلت : ٤٢

انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم • وروح منه • فآمنوا بالله ، ورسـله ، ولا تقولوا : ثلاثة • انتهوا • خيراً لكم • انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا • لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون • ومن يستنكف عن عبـادته ، ويسـتكبر ، فسيحشرهم اليه جميعـا • فأما الذين آمنوا وعمـلوا الصـالحات ، فيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضـله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ، ولا نصيرا »[1] •

(ونورد بعد ذلك الزامات لهم) :

الزام لهم : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى — كيفما صار — هل بقى الرب تعالى كما كان قبل ذلك ، أو اختلفت حاله • فان كان كما كان قبل ، فلم يصر لعيسى منه شىء • وأيضا فلو صار اليه بعض أقانيمه لبقى ناقص الأقانيم ، وتبطل ألوهيته فان حقيقته عندهم واحد ثلاثة أقانيم • وأما ان اختلفت حاله فيلزم عليه أن يصير من العلم الى الجهل • ومن القدم للحدوث • وهذا كله على الله تعالى محال • ومرتكبه فى بحبوبة الضلال •

الزام آخر : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى • فهل بقى البارى تعالى عالما بذلك الأقنوم أم بغيره أو غير عالم ؟ باطل أن يقال غير عالم لاستحالة الجهل عليه • وباطل أن يقال : بقى عالمـا بذلك الأقنوم • اذ لو كان ذلك للزم منه ألا يصير الى عيسى ، ويلزم منه أيضا أن يكون علم واحد يقوم بمحلين ، ولو صح ذلك يصح أن يكون الواحد منا ، موصوفا بنصف علم وذلك محال • فان العلم الواحد لا يتبعض ولا ينقسم • اذ العلم للواحد انما يعقل فى محل واحد بمعلوم واحد فى زمان واحد ، فيما يقبل الزمان والتعدد • وباطل أيضا أن يقال : انه يكون عالمـا بعلم آخر ، فانه يؤدى الى حدوث الأقانيم ، بل الى حدوثه • وذلك كله محال •

الزام آخر يظهر تناقضهم : وذلك أنه قد تقدم من مذهبهم أنهم قالوا فى الأقانيم انها غير متباينة ، ولا مفترقة • ثم انهم قد قالوا هنا :

---

(١) النساء : ١٧١ — ١٧٣

ان أقنوم الابن اتحد بناسوت المسيح • دون أقنوم : الآب ، وروح القدس • فمهفوم هذا : أن الابن اتحد بناسوته ، وبقى جوهر الآب وروح القدس لم يتحدا به ، وهذا تصريح بالمباينة والمفارقة • فان بعض هذه الثلاثة وجب له أمر دون صاحبيه ، فلو لم يباينهما ، ولم يكن غيرهما ، لمـــا وجب له من الحكم ما لم يجب لهما ، ولا تناقض • فظهر من هذا تناقضهم ، وقد كنا أظهرنا اضطرابهم فى هذا فى باب الأقانيم •

ثم نقول تحقيقا لالزام الجميع : هذه الأقانيم اما أن تكون مباينة للجوهر ، مفارقة أو لا تكون كذلك •

فان كانت مباينة لزم أن تكون زائدة عليه ، وان كانت زائدة عليه لزم أن يكون الاله متركبا من أمور — كما مر — وقد أبيتم ذلك وهو محال • ويلزمكم أيضا : اخراجها عن كونها أقانيم • ويلزمكم رفع التوحيد الى محالات كثيرة عندكم • وان كانت غير مباينة لم يصح اتحاد بعضها دون بعض ، بل لو اتحد بعضها ، لاتحد جميعها فيلزم على هذا اتحاد العلم والقدرة والارادة والوجود • وهذا بين لا خفاء به •

الزام آخر وطلبه : نقول لهم : لأى شىء قلتم ان الذى اتحـــد بنـــاسوت المسيح انمـــا هو الابن فقط ؟ ولأى شى لم تقولوا انه اتحد به الآب وروح القدس ؟ ولو قلتم ذلك : لكان أجرى على ما أصلتم من أن الأقانيم ، لا متباينة ولا مفترقة •

فان قالوا : انما قلنا باتحاد الابن لأن عيسى انما أرسله الله ليعلم الناس شريعتهم ، ويخبرهم بالمغيبات عنهم ويعظهم • وذلك كله انما يصح بالعلم •

فنقول لهم : هذا الذى ذكرتم مسلم لكم جدلا • لكن لم قلتم : انه انما اتخذه الله لهذا فقط ؟ وانما هو اتخذه لهذا ، ولأمور أخر :

منها : ليعبده ، **ومنها** : ليبرىء مرضى ، كانوا قد أعيوا الأطباء ، وأراد الله تعالى شفاءهم على يديه ، **ومنها** : أنه أراد احيـــاء موتى على يديه •

فتحصل من هذا أمران : أحدهما : أن هذه معجزات تدل على صدقه • والثانى : أن من آبرأه أفاق من مرضه ، وجذامه ، وجنونه ،

وبرصه فانتفع بذلك • وكذلك يحصل للميت الذى حيى ، وزائدا على ذلك : أن الميت آمن به فأدخله الله الجنة بايمانه برسوله ، وهذه الأمور كلها ، لا يمكن انكار أن يكون كل واحد منها مقصودا لله تعالى • واذا أمكن أن يكون كل واحد من هذه الأمور مقصودا ، فلم اقتصرتم على مقصود واحد مع امكان هذه المقاصد ؟ واذا تقرر ذلك حصل منه : أن الله تعالى اتخذه لما لا يصح الا بالعلم والقدرة والارادة والحياة • فقولوا : ان هذه الأقانيم اتحدت به • وهذا لازم لا محيص عنه ، ولا جواب عليه • ثم يلزم على هذا : أن يكون كل نبى أرسله الله تعالى يتحد به العلم • فان هذا الذى استدللتم به فى حق عيسى موجود فى حق غيره من الرسل • اذ كل واحد منهم انما أرسل معرفا بشرع الله ، ومبلغا رسالة الله ، ومخبرا بوعد الله ووعيده ، فيلزم على هذا أن يتحد العلم بكل رسول •

الزام آخر : قد تقرر أن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ، ويبرىء الأكمه ، والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طائرا • فاذا قلنا هذا • فاما أن يكون عيسى هو الذى يفعل ذلك أو غيره • فان كان غيره فليس ذلك الا الله تعالى ، وغاية عيسى أن يكون عبدا يرغب لله تعالى فى قضاء حاجته • ثم ان الله تعالى يفعل ما يشاء عند تحديه بالنبوة تصديقا له فى دعواه • وعيسى ينظر الى ذلك ، ويتعجب عند ذلك من فعل الله ، ولطيف صنعه • وهكذا كان حال موسى عندما أيده الله بالعصا • فقل له : « **ألقها** » « **فألقاها فاذا هى حية تسعى** »[1] فلما رآها على حال لم يعرفه منها هاله ذلك • وولى مدبرا خائفا وذلك لما شاهد من قدرة الله تعالى • فلما فزع • قال الله تعالى له : « **خذها ، ولا تخف • سنعيدها سيرتها الأولى** »[2] •

واذا قلنا : ان عيسى هو الذى يفعل ذلك • فاما أن يفعله بقدرة وعلم وارادة أو لا يحتاج الى شىء من ذلك • باطل أن يقال : انه لا يحتاج الى شىء من ذلك • لأن الفعل الاختيارى لا بد له من هذه الأمور بالضرورة — على ما يعرف فى موضعه — فلم يبق الا أن يفعل ذلك بقدرة وعلم وارادة • وهذه الصفات هى شروط الفعل • ولا بد

---

(١) طه : ٢٠ (٢) طه : ٢١

وأن تكون منسوبة له ، ويكون هو موصوفا بها ، أو لا تكون منسوبة اليه ، ولا يكون هو موصوفا بها • فان لم يكن هو موصوفا بها ، ولا تنسب اليه ، فلا ينسب الفعل اليه ، وقد نسبتم الفعل اليه • فدل ذلك على أنه موصوف بها ، وتنسب اليه كلها • واذا ثبت ذلك فليس من يسلب عنه القدرة والارادة ، ويقول : هما صفتان لله تعالى ، وليستا بصفتين لعيسى فتبرؤوا حالا ممن يسلب عنه العلم ويقول هو علم الله تعالى ، وليس علم عيسى مع أنه صفة عيسى • فيلزم عن هذا البحث : أن هذا الفعل المنسوب الى عيسى موجود عن علم وقدرة وارادة • وأن هذه الثلاثة انما تنسب لواحد • فاما لله ، واما لعيسى ، ولا يجوز عقلا أن ننسب بعضها لله ، وبعضها لعيسى • فان هذه الثلاثة مشروط بعضها ببعض فالمحل أو الجوهر الذى يجب لأحد هذه ، يجب للباقى • وهذا مالا خفاء به عند العاقل الموفق •

الزام آخر : قد تقرر عند هؤلاء القوم : أن علم الله اتحد بعيسى ، ولا خلاف بين جمهورهم فى هذا المعنى • وان اختلفت عباراتهم عنه • فعيسى عالم ، والله تعالى عالم ، بعلم واحد • فقد اتحد أقنوم العلم وتعدد المحل • فاذا ثبت ذلك لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكل معلومات الله تعالى • ويكون الله تعالى عالما بكل معلومات عيسى • فانهما عالمان بعلم واحد • فاذا علم الله أنه هو نفسه خالق المخلوقات ينبغى لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه خالق المخلوقات كذلك • لأن علمهما واحد • وكذلك اذا علم الله أنه هو نفسه قديما باقيا موصوفا بصفات الكمال ينبغى لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه كذلك • واذا علم عيسى نفسه متغوطا بائلا ، ومصفوعا ومتوجا بالشوك ، ومصلوبا فى خشبة ، ومسمرة يداه ورجلاه فيها • فينبغى لله تعالى أن يعلم نفسه كذلك — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — وهذا كله لازم على هذا المذهب السخيف ، الفاسد الضعيف •

الزام آخر : اتفق النصارى القائلون بالاتحاد على أن عيسى لاهوت ، وناسوت • فبما هو لاهوت يحيى الموتى ، ويبرىء المرضى ، وغير ذلك • وبما هو ناسوت يجوع يعطش ويبول ويتغوط ، ويفرح ويألم ويحزن ويلتذ • ثم يعبدون ناسوته ، ويجعلونه الها • فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان جسده المتغوط البائل : اله • أو هو شطر اله • فان قالوا : ان جسده اله • فكفى شناعة وهجانة • اله بائل متغوط

مصلوب • وان قالوا : انه اله بما حل فيه من الاله ، فكان ينبغى لهم أن يقولوا : انه نصف اله ، ولا يعبدون جسمه ، ولا يسجدون لجسده • واذا قالوا : الهنا المسيح • قالوا مكان يا الهنـــا : يا نصف الهنا ، أو يا ثلث الهنا • فانه اتحد به أحد الأقانيم الثلاثة • والواحد من الثلاثة : ثلث • وهذا كله جهالات ، وتواقحات منهم •

الزام آخر : وذلك أنهم اتفقوا على أن المسيح صلب وقتل بالنخز ، ورفع فوق خشبة بعد أن أهين وصفع ، ووضع على رأسه الشوك ، وسمرت يداه ، ورجلاه فى الخشبة • وقد جاء كل هذا فى أناجيلهم — كما زعموا — فنقول لهم : ألوقت الذى أهين وصفع ورفع على الخشبة ، وسمرت يداه ، ونخز • هل كان متحدا به اللاهوت ، أو زال عنه ؟ فان كان متحدا به اللاهوت فى تلك المواطن • فلقد أدرك لاهوته من المذلة ، والاهانة والنخز ، والموت • ما أدرك ناسوته ، لاسيما • وقد التزمتم فيما تقدم أن أقنوم العلم حى • فيلزمكم على هذا أن تعبدوا الها ذليلا مهانا • ينخز • ويموت وكفى بهذا خزيا وفضيحة • وان قلتم : انه فارقه • فاذا جاز أن يفارقه فى موطن ، جاز أن يفارقه فى كل موطن • وهــذا مما يأبونه • ويلزم عليه : ان فارقه أن يكون جاهلا ، وألا يكون الها • فتعبدون ما ليس باله •

وقد خرجنا مع هؤلاء الجهال بخالقهم ، المستهزئين بأديانهم ، الى حد الاكثار ، وفارقنا شرط الاختصار • وقد أطنبنا فى هذا الفصل ، وان كان لا متمسك لصاحبه ولا أصل ، لكونهم متفقين عليه ، ومحتجين به ، ومتحومين نحوه •

ولا يظن الظان : أن هذا المذهب الذى ارتكبه هؤلاء القوم فى الأقانيم والاتحاد • محتاج فى ابطاله الى نظر واجتهاد • بل العقول بأوائلها تشهد بفساده ، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده • وهؤلاء معاندون ، وللضروريات جاحدون •

ومن كان حاله كذلك ، انما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك ، وتعديل الالزامات ، وتكثير المســالك ، ليتبين الافحام ، ويلقى يد الاستسلام • وقد قدمنا العذر عن ذلك كله فى أول الكتاب • والى الله أرغب فى الهداية للصواب ، وحسن المنقلب اليه ، والمــآب •

الفصل السادس

فى حكاية مذهب "اغشتين" إذ هو زعيم القسيسين

نذكر ان شاء الله تعالى فى هذا الفصل كلام هذا المذكور الواقع له فى « مصحف العالم الكائن » ونحكى ألفاظه من غير زيادة ولا نقصان • الا أنى اختصر من كلامه مالا تدعو ضرورة سياق الكلام اليه ، من غير اخلال بلفظه ولا تقصير فى معناه • وربما قدمت وأخرت ، وانما خصصته بالكلام معه فى فصل مفرد • لغرضين :

أحدهما : أن هذا السائل على مذهبه عول ، واياه قلد ، ومن كتابه نقل • الا أنه مع ذلك أخل بمفهوم كلامه ، وخالفه فى سياقه ونظامه ، فربما ترك مذهبه ، بسوء نظـره ، وهو يظن أنه يمشى على أثره ، وسيتبين ذلك •

والثانى : أن النصارى معولون على معرفته ، ومقلدون له فى قومته وقعدته ، على أنه أعرف بمسالك النظر ، وأجرأهم على مناهج العبر ، لكن نعوذ بالله من عين عوراء ، وفطنة بتراء •

قال (أغشتين) : « قد أجمعت الملة على أن الله تعالى قد كلم موسى تكليما ، واجتمعت على أن موسى سمع صوتا يقول له : « أنا ربك » فأخبرونا : أتؤمنون بأن الصوت الذى سمعه موسى هو ذات الرب • وأن الرب فى ذاته مسموع • أم تقولون : ان الرب أسمع موسى صوتا على ما يشاء من رفع وخفض وغلظة ورقة • وأنه ابتدأ الصوت متى شاء ، وقطعه متى شاء • وأنهى الى موسى من ارادته ما شاء ؟ فان قالوا : ان الصوت نفسه هو الرب • وأن الرب مدرك بالسمع ، فقد خرجوا عن مذهبهم فى نفى التشبيه • وان قالوا : ان الصوت من فعل الله وأن الله خلق الصوت على ما وافقه ، وأظهر فيه من ارادته ما شاء • وأن الصوت قد كان له مبتدأ ومنتهى • وأن الله الخالق له • لا مبتدأ له • ولا منتهى • قيل لهم : فقد ثبت أن الصوت الذى سمعه كان مخلوقا • فكيف جاز لموسى أن يقول : « سمعت الله » ؟ فان قالوا : مقام الصوت من الله ، مقام صوت الانسان من الانسان • وانا نسمع صوت انسان • فنقول :

سمعنا فلانا ، وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله أن يقول : « سمعت الله » قيل لهم : فقد أقررتم : أن الصوت من فعل الله • كما أن صوت الانسان من فعل الانسان ، ولستم تقدرون أن تقولوا اذا سمعتم صوت رجل : سمعنا صوت المريد ، كذلك الصوت الذى ابتدأه ، وخاطب به • ولكنكم تقولون : سمعنا صوت فلان ، وسمعنا فلانا ، اذ سمعتم صوته • وكذلك من سمع صوت الله ، وجب أن يقول : سمعنا الله • لأن الله خلق الصوت ، وجعله حجابا لارادته التى أظهرها فيه • فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب الا بصوت مخلوق على ما يشبهه تعارفهم ، يكون حجابا فيما بينه وبينهم •

والواجب عليهم : أن يخاطبوا الصوت باسم الذى الصوت له ، كما أن الصوت انما خاطبهم عن الله • ومثل ذلك يلزمهم فى كل ما يشبه التحديد ، مما وقع فى كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم ، ووصف نفسه بالعين والوجه والفم ، ولا يمكن جحده فقد رضى أن ينسب الى نفسه مثل كلامهم • وأن يخاطبهم فى مثل لغتهم • فقد ثبت أنه اتخذ التشبيه حجابا بينه ، وبين خلقه » اهـ •

ثم قال بعد ذلك كلاما ــ معناه ــ : « كما جاز أن يتخذ صوتا ، ويجعله حجابا لارادته ، حتى أظهرها فيه • كذلك يجوز أن يكون قادرا على اتخاذ أى صورة شاء ، وأن يظهر لعباده فى أى حلية وافقته ، وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء • لأنا ان قلنا انه لا يقدر أن يسمع عباده صوتا ، ولا أن يظهر لهم بصورة فقد أزلنا عنه القدرة على كل شىء » اهـ •

ثم قال بعد ذلك : « فعلمنا أن الحجاب مخلوق ، وعلمنا أن الله خالق كل شىء ، ووجب علينا انزاله من الاكرام بحيث أنزله الله المحتجب به ، لأنه متى لم ننزل كل شىء على ما أنزله عليه ، فقد عصينا ، لأنا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة مالا نكرم الشياطين ، ونكرم الصالحين ، مالا نكرم الفجار • وهكذا فلا بد أن يكون شىء أعز من شىء • وشىء أقرب الى الله من شىء ، حتى يكاد شىء فى العز أن يتصل بخالقه ، ويكون أعز الأشياء ، ويكاد شىء أيضا أن يكون فى الهوان بحيث لا يكون شىء تحته •

والواجب على العارف بالله : أن ينزل كل شىء بحيث أنزله الله ويسميه بما سماه الله • فان أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع ، أو ظهر فى صورة مرئية ، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت ، وتلك الصورة بما لم يخص به شيئا من المخلوقات • وأن الواجب على من سمع ذلك الصوت أن يقول : سمعت صوت الله • ومن رأى تلك الصورة يقول : رأيت صورة الله • ولهذا وجب على موسى اذ سمع صوت القائل : « أنا ربك » أن يجاوبه باسم الرب ، ويقول بأنه ربه ، ووجب على آدم اذ قال « يا آدم » : أن يستجيب • فيقول : هأنذا يا رب • وكذلك فى مخاطبته لجميع الأنبياء ، لأن الصوت لم يقل أنا صوت الله ، وأنا أخاطب عن الله • وانما الله خاطب به فقال : « أنا الله » فالواجب أن نخاطب بمثل ما خاطب به •

ومثل ذلك يجب فى الصورة ، ومن ظهر له الله فى صورته كما ظهر لأشعياء ، ولدانيال • فقد وجب عليه أن يسجد للصورة ، وأن يخاطبها باسم الله ، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتخاذ لها ، والاحتجاب بها ، ضام له الى عبادته فيها ، لأنه قد رضى أن يرى فيها ، ويعبد بها •

وقد علمنا أن الله خالق الصوت الذى أسمعه لموسى كما علمنا : أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت بالربوبية ما لم يجب لغيره • لعلمنا أن الله ولى المخاطبة بذلك • وكذلك يجب فى الصورة أن يخصها من الاكرام بما خصها الله به •

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله ، ولا أن يجاوب الصوت باسم الله فقد قال : انه لا يجوز أن يتخذ الله صورة ، ولا أن يسمع صوتا • واذا وجب اكرام الحجاب باكرام المحتجب به ، لم يبق علينا من الكلام شىء الا فى الحجاب ، الذى اتخذه منا • وهو المسيح ، والاستشهاد بالتوراة ، والانجيل فى أمره ، الا أنا نقدم القول فى ذلك بالقياس ، لئلا نستشهد بالكتاب الا فيما كان داخلا تحت الامكان » اهـ •

ثم قال : « هذا وان لم يوجبه القياس ايجاب الاضطرار فانه يجوزه تجويز الامكان ، لأن القياس الذى فضل به الانسان على جميع خلقه ، وخاطبهم بمثل لغتهم ، وتشبه بهم فى مخاطبتهم ، وخلق كل

شيء لهم ، ومن أجلهم . وأوجب لهم البقاء معه فى رضوانه وألا يكون دونهم أبدا . وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق ، فتشبه لهم بنعت محدد ، فغير ممتنع فيه ، ولا بعيد أن يكون حجابه فيما بينه وبلغهم منه ، ومما يشبههم ، ونزوله الى مخاطبتهم فى مثل لغتهم ، وهو : نزوله الى الظهـور لهم فى مثل صـورتهم ، لأن اتخاذ الصـورة مثل اتخاذ الصوت » اهـ .

ثم قال : « شواهده الواضحة كثيرة من ذلك قول ارمياء النبى حيث يقول مناجيا الله : « يا رجاء اسرائيل ، يا مخلصه من الغم . لم ستكون فى المستقبل كالغريب فى الأرض . أو كالمسافر يعدل الى المبيت ؟ لم ستكون فى المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص »(١) ؟ وقول (اشعياء) النبى حيث يقول : « ان العذراء ستحمل ، وتلد ولدا ، ويدعى ولدها عجيبا مدبرا الها قويا ، والدا ، مقبل الدهر العالم ، يكثر ملكه ، ولا يكون لسلطانه انقطاعا . ولا آخر »(٢) وقوله أيضا : « من ذا يقبل خبرنا ؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب » ؟ ثم وصف أنه ظهر ضعيفا محتقرا . وأنه هدى بنفسه الى القتل طوعا ، ووصف خبر المسيح ظاهرا كما كان(٣) . وقول يعقول لبنيه ، حيث يقول : « لا ينقضى

---

(١) النص « يا رجاء اسرائيل ، مخلصه فى زمان الضيق . لماذا تكون كغريب فى الأرض ، وكمسافر يميل ليبيت ؟ لماذا تكون كانسان قد تحير ؟ كجبار لا يستطيع أن يخلص » (ارمياء ١٤ : ٨ ـ ٩) .

(٢) النص : فى موضعين من أشعياء فى الاصحاح السابع والتاسع . ففى السابع « ها العذراء تحبل . وتلد ابنا . وتدعو اسمه عمانوئيل » (أشعياء ٧ : ١٤) « لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا . وتكون الرئاسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا . أبا أبديا . رئيس السلام . لنمو رياسته وللسلام لا نهاية » (أشعياء ٩ : ٩ ـ ٧) ونص الموضع الأول نبوءة تحققت فى زمان أشعياء ، ونص الموضع الثانى نبوءة عن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم سنوضحها فيما بعد .

(٣) النص : « من صدق خبرنـا ، ولمن استعنت ذراع الرب نبت قدامه كفرخ ، وكعرق من أرض يابسة ، لا صورة له ، ولا عجال . فننظر اليه ، ولا منظر فنشتهيه . محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ، وكمستر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به .

=

الملك من سبط يهوذا ، ولا يزال منهم أمير . حتى يأتى الذى هو مرسل ، وهو يكون رجاء الأجناس »(١) وتترجم كذلك باختصار : « لا ينقطع الملك منهم حتى يأتى المسيح » اهـ .

هذا ملخص كلامه ، وزبدته فى عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر ، من غير أن أخرج عن لفظه الا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ، ولا تغير المعنى .

وها نحن بعون الله نجاوبه ، مجاوزة على طريق البحث والمناظرة .

أما قوله : « اجتمعت الثلاث ملل على أن موسى سمع صوتا يقول : أنا ربك » فهذا قول كذب ينبىء عن غفلة أو جهل . وذلك أن الذى اتفقت الملل عليه : انما هو أن الله كلم موسى . وأن الله تعالى متكلم . وأما أنه متكلم بصوت ، أو سمع موسى صوتا من الله فهذا شىء اختلفت فيه الملل ، وتباينت فيه النحل ، وأكثر أهل الملة الحنيفية يأبى ذلك ، ويخطىء من صار الى ذلك . أعنى من صار الى أن يكون البارى تعالى متكلما بصوت . وأن موسى عليه السلام لم يكلمه الله بصوت وانما

= لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا . تأديب سلامنا عليه ، وبجبره شفينا . كلنا كغنم . ضللنا . ملنا كل واحد الى طريقه . والرب وضع عليه اثم جميعنا . ظلم . أما هو فتذلل ، ولم يفتح فاه ، كشاه تساق الى الذبح وكنعجة صامته أمام جازيها فلم يفتح فاه .

من الضغطة ومن الدينونة أخذ . وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . انه ضرب من أجل انب شعبى . وجعل مع الأشرار قبره . ومع غنى عند موته . على أنه لم يعمل ظلما ، ولم يكن فى فمه غش .

أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن . ان جعل نفسه ذبيحة اثم ، يرى نسلا تطول أيامه ، ومسرة الرب بيده تنجح . من تعب نفسه يرى ويشبع . وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين ، وآثامهم هو يحملها . لذلك أقسم له بين الأعزاء . ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصى مع أثمة ، وهو حمل الخطية كثيرين وشفع فى المذنبين » (أشعياء ٥٣ : ١ — ١٢) والتعبيرات فى هذا النص : مجازية كناية عن الآلام التى سيلقاها المسيح المنتظر فى الدعوة وأنه ستنجح دعوته فى النهاية .

(١) النص : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعب » (تكوين ٤٩ : ١٠) .

كلمه بكلامه الذى هو وصفه الذى ليس بصوت ولا حرف على ما تقرر بيانه فيما تقدم • فهذا الرجل الحاكى هذا القول اما أن يكون علم اختلاف الملل فيما ذكر فيه اجماعها • أو لم يعلم ، فان كان علم فقد كذب • واذا عرف من أحد من الناس الكذب ، فينبغى ألا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه •

فينبغى لكم ألا تعولوا على شىء من نقله ، لامكان أن يكون كذب فيه ، كما كذب فى هذا • وان كان ذلك القول منه عن جهل فهذا كثير فى حقه من جهتين :

أحدهما : أنه أقدم على الاخبار عما لم يتحقق من غير بصيرة ، وليس هذا فعل العلماء ، ولا الأكياس من الفضلاء ، وكفى بالمرء كذبا واثما أن يحدث بما لم يعلم صحته •

والجهة الثانية : أنه جهل أمرا معلوما على القطع صار اليه ، وعمل على مقتضاه : أمم ، لا يحصون كثرة منذ مضى السنين ولا محمل بمن تعاطى نصرة المذاهب ، والكلام مع أربابها • أن يجهل مثل هذا • واذا جهل هذا فهو بما هو أخفى من هذا أجهل ، فهو بين أمرين : اما أن يكذب متعمدا فلا يثقون بقوله • أو يجهل أمرا جليا يدرك بأدنى بحث ، وأيسر أمر • فلا ينبغى لكم أن تقلدوه فى عمله ونظره •

وانما ذكرت هذا لتعلموا أن عمدة النصارى على هذا الرجل فى مذاهبهم ، بقوله يحكون ، وبه يحتجون وله يقلدون ، وعليه يعولون ، فهو وهم كرجل أعمى ، ادعى أنه بصير فاستقاده عمى ، فقادهم فسقط فى حفرة فسقطوا لسقوطه « وأشد عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا • أو قتله نبى ، وامام ضلالة » وانما كان كذلك لأن عليه وزرها ، ووزر من عمل بها « فطوبى لمن مات ، وماتت معه ذنوبه » •

وأما قوله : « فان قالوا : ان الصوت نفسه هو الرب • وأن الرب مدرك بالسمع » فقد خرجوا عن مذهبهم فى نفى التشبيه • فهذا نص من كلام هذا الرجل : أن الصدى ليس بالرب •

وقد قال السائل الذى جاوبناه قبل هذا : « انه أقر له بالربوبية » وظاهر قوله مناقض لقول امامه • ثم نقول لهما : قد اتفقتما على أن

الصوت مخلوق • وأن الله تعالى ليس بمخلوق ، فهذا الصوت المخلوق اما أن يكون ربا غير الله • أو ليس رب • فان كان ربا غير الله فيلزمكم أن تعبدوه بعبادة خاصة غير عبادة الله ، بل هو أولى بالعبادة من ناسوت المسيح • اذ يتغوط ويبول ويصلب على قولكم • الى غير ذلك مما عددناه •

وذلك أن الصوت لا يليق به شيء من ذلك • وذلك كله جهل • وقد ألزمناهم على ذلك مناقضات لا محيص عنها فيما تقدم • وان كان هذا الصدى ليس برب فيلزمكم على قولكم أن يكون موسى خاطب بالربوبية من ليس برب • وذلك لا يليق به • وهذا على قوله ان المخاطب هو الصدى لازم ضرورة • ثم ما أعجب أمر هؤلاء القوم ينفون تشبيه الله تعالى بخلقه • ويجعلون نفسه قاعدة يرجعون اليها بزعمهم • ثم يلتزمون من التشبيه فى حق الله تعالى ما لم يقل به من المشبهة أحد • وذلك أنهم قالوا : ان الله تعالى متكلم بصوت هو من قبيل أصواتنا ، وهو مخلوق مقطع بالحروف • وهو مع ذلك مخاطب بالربوبية • وهذا هو التشبيه الذى فروا منه ، وزيادة عليه •

ولقد أوغل فى التشبيه كبيرهم « أغشتين » وان كان عن أصل التشبيه من المعرضين • وذلك أنه جوز عقله بزعمه : أن يتخذ البارى صورة يجعلها ، ويظهر فيها ويسجد لها • ومن رأى تلك الصورة ويقول : رأيت صورة الله • فانه قد رأى الله ، ولا تشبيه أعظم منها ، بل المشبهة أحسن حالا منه • وذلك أنهم — أعنى المشبهة — بنوا أمرهم على ظواهر الشرائع فأثبتوا ما أثبتت الشرائع • وما قالت الأنبياء ، وما جاء فى كتب الله مصدقين لها ، غير منحرفين عن ظواهرها ، ثم عزلوا عقولهم فلم ينظروا بها فبقوا على جمود التقليد ، وثبتوا على صميم الاعتقاد ، والتوحيد • ومع ذلك فانهم يعظمون الله ، ويقولون بأن لا اله الا الله •

ومما صرح فيه بالتزام التشبيه قوله « صوت الله من فعل الله ، كما أن صوت الانسان من فعل الانسان » ولا معنى للتشبيه الذى نفى : الا هذا • فهذا تناقض ظاهر ، فانه تارة نفى التشبيه ، وتارة أثبته ثم قوله يصرح بأن حقيقة المتكلم : من فعل الكلام • وهو خطأ • بل حقيقة المتكلم : من قام به الكلام والدليل على ذلك أن حقيقة المتكلم تفهم بكمالها مع فرض الغفلة والذهول عن كونه فاعلا للكلام • ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام لما فهمت حقيقة المتكلم حتى يفهم كونه

فاعلا للكلام على ما يعرف فى موضعه ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام ، لكان البارى تعالى متكلما بالكلام الذى يقوم بنا • فانه فاعل كلامنا وخالقه على ما يعرف فى موضعه ، وذلك محال •

ولتعلم أيها الناظر فى هذا الكتاب : أن كل ما ذكره هذا (القس) فى هذا الفصل : انما هو مبنى على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت • وقد أبطلنا ذلك فيما تقدم حيث قلنا : كلام البارى تبارك وتعالى ليس بصوت ولا حرف وانما هو وصف له قائم به ليس بحرف ولا صوت كما نبهنا عليه •

واذا بكل ذلك بطل كل ما انتحله فى هذا الفصل من الهذيان • وانما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا • وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ، ليتبين تناقض الخصم ، وتحكمه للعباد • وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل • بحول الله فنقول له :

لأى شىء قلت ان الله اتخذ الصوت حجابا لاظهار ارادته ، ولبست بلفظ الحجاب ؟ ولو قلت : ان الله جعل الصوت دليلا على ما أراد لارتفع التلبيس ، ولزال الابهام ، الذى أوهمت فانك أوهمت بلفظ الحجاب : أن الارادة احتجبت به ، واتحدت معه ، حتى ظهرت بواسطته ، فجعجعت أنت بلفظ الحجاب ، والظهور ، وأوهمت ، وأنت ما حصلت على فائدة ، ولا وجدت •

ومما يتبين أن هذا الذى ذكره انما هو جعجعة لفظية ، ليس وراءها معنى : أنا نبطل لفظ الحجاب بالدليل ، ولا نبقى مما توهمه شىء • فاننا يمكننا أن نقول : ان الصوت الذى خلقه الله تعالى ، وجعله دليلا على ارادته على قوله : انما هو بمثابة أن لو خلق خطوطا فى حجر يستدل بها المستدل على ارادته اذا قرأها ، فلا يتمكن لعاقل أن يقول : ان الارادة انحجبت بخطوط ذلك الحجر ، ولا اتحدت به • فان الارادة لا تقوم بجماد ، وهذا بين بنفسه •

وكذلك لو كتبنا لفظ النار فى ورقة لما تخيل عاقل ، بل غافل أن ذات النار حلت فى الورقة اذ لو حلت النار فى الورقة لاحترقت • وكذلك

الصوت المقطع حروفا انما هو دليل على ما فى النفس من غير أن يحل ما فى النفس فى الصوت ، ولا أن يتحد به . واذا فهم هذا ، ارتفع كل ما توهمه هذا المخدوع بالضرورة .

ثم نقول له : نسلم جدلا ما ذكرته من لفظ الحجاب والظهور . لكن لم قلت « انه اذا صح أن تظهر ارادته بحجاب الصوت جاز أن تظهر ذاته بحجاب الصورة » ؟ وما الدليل على ذلك ؟ وأى جامع بينهما ؟

فان قال : الدليل على ذلك : أن الله تعالى ، قادر على ذلك ، كما هو قادر على حجاب صوته . فانه ان لم يكن قادرا على اظهار ذاته بصورة ، فيكون عاجزا ، والعجز عليه محال . فهذا هو الدليل .وأما الجامع فان الصوت : مظهر للارادة ، والصورة : مظهرة للذات .

فيقال له : أما استدلالك بأن الله قادر على كل شىء فاستدلال فاسد . فان الأشياء التى يقدر البارى تعالى عليها . انما هى الممكنات ، لا المستحيلات . وهذا الذى ذكرت من ظهور الله فى صورة مستحيل لا يكون به مقدورا . فان المستحيل لا يوصف البارى تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه ، لاستحالة شرط تعلق القدرة . وهذا انما يعرفه من يعرف حقيقة : حقيقة الواجب والممكن والمستحيل .

ثم انا نقلب عليهم دليلهم . ونقول : هل يقدر الله تعالى أن يظهر نفسه من غير صورة ، أم لا ؟ فان قالوا : يقدر . قلنا لهم : لا يحتاج الى الصورة التى فرضتم . وان قالوا :لا يقدر . قلنا لهم : فيلزمه العجز . وبالذى ينفصلون عن هذا . به بعينه ننفصل نحن عما ألزمونا .

وقد بينا فيما تقدم : أن اتخاذ البارى سبحانه وتعالى صورة ليظهر فيها مستحيل ، حيث أبطلنا الحلول والاتحاد ، وما فى معناه

ونزيد الآن هنا نكته : وهى : أنا نقول : هذه الصورة التى يظهر فيها لابد أن تكون متحيزة محدودة ، والظاهر فيها : اما أن يكون داخلا فيها ، أو خارجا منها . أولا خارجا ، ولا داخلا . فان كان داخلا فيها كان محدودا ، محاطا به . وهذا هو التشبيه .

فانه يلزم منه أن يكون جسماً ، وهو باطل على الله تعالى ومحال •
وان كان خارجا عنها لزم تحديده أيضا • لأنه لا يكون خارج لا محدود متحيز • فيلزم أن يكون بجهة من الصورة واذا كان بجهة كان جسما • وهذا تشبيه

وأيضا • فاذا كان بجهة من الصورة التى ظهر فيها كان مفارقا لها •
واذا كان مفارقا لها ، لم يظهر فيها • وان ظهر فانما يظهر بنفسه ، لا بالصورة • واذا كان لا داخلا فيها ، ولا خارجا عنها استحال عليه أن يظهر بها أو فيها • لأن ما ليس بمتحيز ، ولا داخل ، ولا خارج • لا يظهر فى جسم متحيز ، لأنه من حيث كان ليس بداخل فيها • فقد فارقها ، واذا فارقها لم يكن فيها واذا لم يكن فيها لم يظهر فيها •

ولو جاز أن يظهر فى كل ماليس بداخل فيه ، ولا خارج عنه ، لجاز أن يظهر فى كل موجود واذا جاز ذلك فلعله قد اتخذ الأنبياء كلهم حجابا يظهر فيهم ، وهذا مما يأبونه ، وهو محال عندهم •

وأيضا • فان الله تعالى عندهم لا يرى بانفراد من غير صورة ، ولا يظهر دونها • فكذلك يلزمهم أن يبقى على حاله ، لا يظهر واذا وجد صورة • اذ ليس بداخل فيها ، ولا خارج عنها •

فان الصورة لا تكسبه أمرا أوجب له ظهورا الا لم يكن له •
وهذا بين الاستحالة • اذ يلزم على ذلك تغيره عند العاقل المنصف •

نكتة أخرى : وهى : أنا نقول : هل يجوز أن يرى البارى تعالى ، ويظهر من غير صورة أم لا يجوز ؟ فان جاز ذلك • فلم حتمتم اتخاذ الصورة عليه • وقلتم : انه لا يظهر ، ولا يرى الا بصورة • وان قلتم : لا يرى ولا يظهر الا باتخاذ صورة • فاذا وقع بصر الناظر فاما أن يقع على تلك الصورة أو على الله وعليهما •

فان قلتم وقع البصر على الصورة ، لا عليه • فالمرئى اذن هى الصورة المخلوقة ، لا الخالق • وان وقع البصر على الخالق وحده ، لا على الصورة فهو المرئى ولا ترى الصورة • فان الصورة ليست هى الخالق تعالى • والرائى لم ير الا الصوت • فاذن لم ير الخالق •
وان وقع البصر عليهما لزم عليه أن يرى الرائى شيئين : الخالق والصورة•

وهو انما رأى شيئا واحدا بالضرورة وهو الصورة لقول من يقول : انه ظهر بالصورة •

وأيضا فلو وقع بصر من رأى عيسى عليه السلام على ناسوته ، ولاهوته لمـا احتاجوا أن يستدلوا على ألوهيته باحياء الموتى وغير ذلك ، ولمـا كان يحتاج هو أن يدل على لاهوت نفسه بشيء من المعجزات ، وخوارق العادات اذ كان يدرك منه بالحس والعيان ذلك • والمعلوم بالعيان لا يطلب تحصيل علمه بالدليل والبرهان •

فحصل من هذا : أن الصورة المقدرة لا يظهر فيها البارى تعالى • وان ظهرت هى فان الرائى انما يراها وحدها • وهى الظاهرة له • وأما البارى سبحانه وتعالى فهو بعد ايجاد هذه الصورة على ما كان عليه قبل ايجادها لم تتبدل حاله — أعنى أنه ان كان قبل ايجاده هذه الصورة قابلا لأن يظهر فهو بعدها قابل لأن يظهر • وان كان ممتنعا عليه أن يظهر قبلها امتنع عليه ذلك بعدها ، لاستحالة التغير عليه • فانه لو تغير لكان محدثا •

وأما ما أدعاه من الجامع فلا نسلم أن الصوت مظهر للارادة الا بمعنى أنه يدل عليها ، لا بمعنى الاحتجاب والظهور كما زعم • واذا لم نسلم هذا فى الصوت فلا يصح له قياس الصورة على الصوت • ولو سلمنا قياس الصورة على الصوت من حيث الجامع فبأى دليل يحمل أحدهما على الآخر ؟ فان وجود الجامع لا يدل على أن حكم أحدهما حكم الآخر • اذ لا يبعد فى المتماثلات فى بعض الصفات اختلافها فى بعض الأحكام على ما يعرفه أهله ، ولو سلمنا وجود دليـل الالحاق لكان قياس جزء على جزء ، وذلك غير مقبول فى العقليات ، على ما يعرف فى موضعه • وعلى ما يقال مع أهله فظهر من كلام هذا الرجل عند العقلاء : أنه غير متمسك بدليل عقلى ، وسنبين أنه لم يستدل على صحة مذهبه بدليل نقلى • فاذا بطل له المعقول والمنقول : ثبت أنه بالتحكم والهوى يقول • وذلك دأب كل غبى جهول •

وأما قوله « فالواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذى الصوت له • وكذلك الصورة يجب أن تخاطب باسم الذى هى له »

فنقول له : قولك : واجب عليهم هذا الوجوب الذى ادعيته • أهو عقلى أو شرعى ؟ فان قال هو عقلى وشرعى ، فلابد من اقامة الدليل على ذلك •

فان قال : الدليل على ذلك : النقل والعقل أما النقل فهو أن العاقل اذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع ، أو ظهر فى صورة مرئية فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت • وتلك الصورة بما لم يخص به شيئا من المخلوقات اذ تجلى هو فيها • واذا ثبت ذلك فالعقل يشهد بأن ذلك الصوت ، وتلك الصورة شريف • والصوت لابد أن يعترف لشرفه ، وينزل منزلته ، ولا أشرف من الله تعالى ، وما ظهر فيه الله تعالى فينبغى أن يعظم بأقصى رتب التعظيم ، ويعبد بأجل العبادات ، فخرج من هذا : أنه يجب عقلا أن تعظم الصورة لتعظيم الحال فيها ، فتخاطب باسم الرب ، ويعترف لها بالربوبية والألوهية •

وأما الشرع فالذى دل عليه العقل جاءت به الشرائع • ألا ترى أن موسى خاطب الصوت باسم الربوبية ، وكذلك من رأى الصورة انما يرى صورة الله ، والله تعالى معظم بالشرع والعقل ، فتلك الصورة ينبغى أن تكون معظمة بالشرع والعقل • ألا ترى أن الشرائع قد أمرتنا بتعظيم الملائكة ، واهانة الشياطين ، وليس يخفى أن العرش أعظم من السماء • وأن المشرق أعظم من المغرب ، وأن الصالحين أعظم من الطالحين • وهذا كله يشهد له العقل والنقل كما سبق •

هذا انهاء تقرير حجته ، واليها أشار فى كلامه ، ولا مزيد فى التقرير عليها •

فنقول : قولك « العقل دل عليه » باطل • فان العقل لا يدل على التزام العبادات • فان معنى العبادات التى تفعل بحكم اللزوم انها تفعل ، والا فيعاقب الله التارك وذلك لا يتوصل العقل اليه • اذ العبادات لا تتعين عنده ، الا بتعيين معين الذى هو الشارع الذى ينص على ما يرضيه من العبادات ، وعلى ما لا يرضيه • وأما العقل فلا يستقل بشىء من ذلك ، فلعل العبادة التى يعينها العقل ويلتزمها • لعل الله تعالى لا يرضى بها • اذ يفعل الله ما يريد ولعل ما يظنه العقل عبادة هو معصية • فان هذا الله تعالى يفعل ما يشاء • فكما يجعل من شاء نبيا ، ووليا ،

يجعل من يشـــاء فاسقا وخبيثا • ويمد بأسباب ذلك • ولا حجر عليه فى ذلك • ولا حكم كذلك ، يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة ، وما يشاء معصية ، وان لم تقل بذلك لزمك أن تجعل الله تعالى محكوما عليه مغلوبا • وذلك كله على الله تعالى محال •

وأما ما ادعيت من النقل من الأنبياء فذلك شىء لا يصح عنهم • انهم عظموا الصوت والصورة بما عظموا به الله حتى عبدوهما — كما تزعمون أنتم —

وقولكم : ان موسى خاطب الصوت بالربوبية زعم وقاح ، وافك صراح • وانما المخاطب بالربوبية المتكلم بالصوت بزعمكم الذى قال عن نفسه بالصوت « أنا الله » والذى يعقله العقلاء الذين لا يلعبون بأديانهم ، ولا يجترؤون على ربهم والههم • ان الصوت موجود يتكلم به ، ولا يتكلم هو عن نفسه • فاذا سمع العاقل قائلا ، قال بصوت مقطع « مشيت الى (بيت المقدس) فرأيته » مثلا ، لا يشك عاقل فى أن المخبر عن نفسه انما هو الذى قام به الصوت ، لا الصوت • فانه لو كان الصوت هو الذى أخبر بذلك عن نفسه لمـــا صدق عليه ذلك • ولمـــا صح منه الخبر ، لأنه لا يتأتى منه المشى ، ولا الرؤية •

وكذلك • لو قال انسان مخبرا عن نفسه ، بقوله : « أكلت الخبز » وهذا بين بالضرورة • واذا تقرر هذا فالصوت الذى سلمناه جدلا الذى تكلم الله به على زعمهم لم يقل من نفسه شيئا مما ذكروه • انما الله هو الذى قاله مخبرا عن نفسه • وأما ما قاله موسى فانما قاله لله تعالى • فله اعترف بالربوبية ، واليه تاب ، وله سجد ، واياه عبد ، لا للصوت • وهذا معلوم على القطع والضرورة والمخالف فى ذلك جاهل متسامح ، أو معاند متواقح •

وقد كان تقدم من قول السائل ، الغبى الجاهل : أن موسى اعترف للصدى بالربوبية • وأنه الذى قال عن نفسه : « أنا الله • لا اله الا أنا • فاعبدنى » وأنه هو الذى سجد له موسى • وعن ذلك الصدى تحمل موسى الرسالة • وأنه هو الذى كلم موسى ، واياه جاوب ، وأنه قام عند موسى مقام خالق ، فسماه الها • وربما يظن ذلك الجاهل أن هذا

الذى قاله « أغشتين » هو الذى قاله هو • وهيهات أن بينهما ما بين الثرى والثريا •

وغاية كلام « أغشتين » وان كان فيه من المخطئين : أن يقول : « قد علمنا أن الله تعالى خلق الصوت الذى أسمعه لموسى كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت بالربوبية ما لم يجب لغيره ، لعلمنا أن الله تعالى ولى المخاطبة به » اه •

هذا نص ما فى كتابه على هذا المعنى •

ولا يفهم منه شىء مما انتحله ذلك السائل • وقد وكلت الناظر العاقل المنصف للوقوف على كلامهما ، وتفهم معانيهما • فانى قد نصصت على كلامهما فى هذا الكتاب ، وحكيته • كى يزول الارتياب • ويعلم الناظر المنصف : أن السائل ليس على شىء من الصواب • وانما نبهت هذا التنبيه ، حذرا من المغالطة والتمويه • فانى أخاف ان وبخ أحد (أقسة) النصارى هذا السائل على هذا المذهب الذى اخترعه ، والمحال لذى ابتدعه ، أن يحتج لنفسه بأن ينسبه الى « أغشتين » ويكون فى نسبته من الكاذبين •

فمن أراد الانصاف فليطرح عن نفسه التعصب والاعتساف ، ويقف على كلامهما متدبرا ، وفيه متفكرا ، ولقد كنت أتمنى أن يكون أولئك (الأقسة) بين يدى ، حتى يسمعوا منى ، وينظروا الى • فليس كل ما فى النفس تبرزه المكاتبة ، ثم ليس الخبر كالمشافهة •

وأما قوله « واذا وجب اكرام الحجاب ، باكرام المحتجب به لم يبق علينا ، من الكلام شىء الا فى الحجاب ، الذى اتخذه منا وهو المسيح» فنقول : المفهوم من لفظ الحجاب انما هو الساتر للشىء المانع له • فانك تقول « احتجب عنى فلان » اذا استتر عنك ، ، وامتنع من لقائك والخروج اليك ، ولا يصح هنا على مفهوم كلام هذا الرجل أن يكون الحجاب هو الساتر ، بل هو الكاشف المظهر على قوله ، وذلك أن ارادة الله وذاته قبل اتخاذ الصوت والصورة لم يكن شىء منهما ظاهرا • فلما اتخذهما ظهرت ارادته وذاته • هذا مفهوم مساق كلامه ، فتدبره •

وهذا يدلك على قلة التحصيل ، وقصد التخليط والتجهيل . واذا كان الناظر من قلة التحفظ بحيث يعبر عن المظهر بالساتر . فعلمه جهل ، ونظره قاصر .

وأما قوله فى الشواهد على اتخاذ الله المسيح حجابا . فتهويل . ليس وراءه تحصيل . وذلك أنه قال : « ان لم يوجبه القياس ايجاب اضطرارا ، فانه يجوزه تجويز الامكان » . ثم انه تكلم بأكثر ، وذكر القياس الفاسد الذى به كفر . ثم رجع حاصل كلامه الى أن قال : « لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت » وهذا كله قد بينا فساده فيما تقدم .

وأما ما ذكره من شواهد الأنبياء عليهم السلام على ما ادعاه من الهذيان والهذر والبهتان على المتعالى عن النقصان . فليس له فى شىء من ذلك شاهد ، وحاشا أنبياء الله وكتبه من مذهبه الفاسد ، وغاية تلك الشواهد : أن تدل على رسالة عيسى عليه السلام ، وليست دلالتها قاطعة على ذلك . فتدبرها بفهمك ، وخذها بقياس عقلك .

وسيأتى ذكر ذلك وأشباهه فى « باب النبوات » بعد هذا ان شاء الله تعالى . وقد أتينا على ما أردنا ذكره فى هذا الباب . والحمد لله على أنا أغفلنا كثيرا من ألفاظ « أغشتين » يمكن البحث فيها . تركناها لئلا يطول الكتاب ، ويخرج عن الضبط هذا الباب .

على أن هذا من كلامه هو اللب ، واللباب . هذا مع أن الأمل ان وافق القدر ، أن أرد على « القس أغشتين » كلامه . وأبطل من ذلك الكتاب قصده ومرامه .

وحسبنا الله . ولا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

كمل الباب الثانى ، وبكماله كمل الجزء الأول . والحمد لله حق حمده ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وسلم . يتلوه الثانى .

* * *

الباب الثالث

في النبوات وذكر كلامهم

هذا الباب ينقسم قسمين :

أحدهمـــا : نحكى فيه كلام السائل ، ونذكر الجواب عليه ٠

والثـــانى : نتكلم فيه على النبوات ، وعلى اثبات نبوة نبينا محمـــد عليه الصلاة والسلام ٠٠٠

القسـم الأول :

الفصـل الأول

احتجاج أصحاب الملل

فى حكاية كلامه

قال : « ابتداء احتجاج الثلاث ملك بعون الله .

اعلم : أن أهل الملل أجمعين متكافئون فى ادعاء الايمان ، حاكمون على كل قوم لأنفسهم بالايمان ، ولغيرهم بالكفر . قد غلبت عليهم فى ذلك الغواية ، وتأديب الصبا ، ووصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعا فيهم . لازما لهم ، فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم ، وطاب عندهم دينهم بالتهنية فى دنياهم ، عن معاد آخرتهم ، وصاروا فى تدبير دنياهم ومعايشهم ، على خلاف ذلك لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملل ألحف على كل طلب معايشهم ، وألطف فى استجلاب أرزاقهم .

وأحسب أن العلة فى ذلك : رغبتهم فى التكاثر من الدنيـا ، وهى التى تدخلهم الى التحاسد والمعايرة ، فيعجز كل قوم أنفسهم فى طلب معاشهم . وأن الآخرة عندهم مهملة ، لبعدها عن حواسهم .

فلذلك يزعم أهل كل ملة : أنهم أحق خيرا من غيرهم . فلذلك قل تناصفهم فيها ، وان طال عصرهم . لأن كل قوم قد قلدوا سلفهم ، وطاب عندهم خبرهم فى مدح دينهم ، وذم غيرهم فأسقط الرجل منهم كل حاسة ، وأمات خواطره ، وأذهب فهمه بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره ، واستعماله اياه ، بما هو مدبر عنه من دنيـاه .

ولتجدن الرجل من كل ملة ، يروم شراء خرقة يرقع بهـا ثوبه ، أو شركة لنعله ، فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة ، والغلط .

ثم اذا صار الى كشف دينه ومعاده اكتفى فيه بتقليد سلفه ، ثم لا يبالى بدليل من خالف ملته ، وينتقص كل خارج عن دينه .

فكل يقتحم المناظرة ، وان لم يحسنها • ويراها فريضة وهو لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات الا الفضول • معترف فيها للفضائل ، لا الجدال والمناظرة • وأن الجميع يدعون أمرا • لا يقدرون على التناصف فيه لبعد غايته وهو أنهم ليختلفون فى معرفة البارى تعالى لأنه لا يدركونه بالحواس ، فيختلفون فى معرفته • وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس ويتصورونه فى الأوهام ، فينقمع العقل السليم فى اجابة الحق اذا أدركه ، وانكشف له • فلذلك يجادل كل قوم عن دينهم ، ويفضلون أنفسهم على غيرهم ، ويدلك على ذلك : أنك تجد الصقلبى ، العبد الحبشى(١) ، يقع مرقوقا بيد رجل من أحد الثلاث ملل • فيرده الى ملته ، ويورد عليه أخبار سلفه ، فيتقبله منه ، كتقبل الأطفال المغذيين فيه • وعلته فى ذلك : أنه يجد صدره خاليا من الأخبار المدونة فى الكتب ، فيتعلق بما أورد عليه من أخبار من علمه • ويتمكن ذلك فى صدره ، حتى يصير واحدا من أهل الملة فى ادعاء الفضل لها • وانتقاص أهل غيرها والطعن عليهم ، ولو أن مجوسيا دخل بلدنا طارئا ، أو تاجرا ، فكبرت عليه مجوسيته ، ووحش لوحدته ، على البقاء عليها ، عازما على رفضها ، ثم طلب الخروج الى أفضل الثلاث الملل المفسدة عليه مجوسيته ، لتحير ، وعمى أية أفضل فيخرج اليها ؟ لأنه يجد كل قوم يدعون لأنفسهم الايمان ولغيرهم الكفر ، ثم تجدهم متكافئين فى ادعاء الآيات • لأن أهل كل دين يزعمون أن بينة دينهم على آيات قامت ، وبراهين ظهرت • وما تجد عند أحدهم آية من تلك الآيات التى زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى الى الدخول فى أديانهم •

ولكن الذى كان يضمه اليه ، حسن نظره: أن يتوقف حتى يسمع حجتهم ، ويستعمل عقله فى دعواهم ، ليفهم ما احتجاجهم من نبذ الحق ، فكان يجد فى دعواهم : أن النصرانى والمسلم مقران لليهودى بأن دينه أول • وأنبياؤه حق • ثم يقول النصرانى : ان كتابى جاء من بعد ، فنسخ طاعة دين اليهودى • ثم يقول المسلم : وكذلك جاء كتابى بعد ، فنسخ طاعة دين النصرانى ، كما نسخ دين اليهودى • فاذا كاشف المجوسى اليهودى عما ادعياه ، أنكرهما • وقال : لم يأت بعد كتابى

---

(١) كذا فى الأصل • مع أن الصقلبى غير العبد الحبشى •

من الله كتاب • ثم اذا سأل النصرانى عما ادعاه المسلم أنكر أيضا • وقال : لم يأت بعد كتابى من الله كتاب •

فوجب على النصرانى أن يأتى بالبينة على اليهودى من الكتب التى أقر له بها • فان لم يكن فيها مسيحا منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا معلق له اليه • وان كان فيها مسيحا منتظرا ، يرجى صلاح الحال من سببه ، ووافقت علاماته ، علامات الذى قد جاء وظهر • فاذا كان • فقد اختار النصرانى الرسالة الأولى ، والثانية لنفسه • وخرج اليهودى عن رضا المعبود بجحده الرسالة الثانية ، ودفعه بسنته فيما أعقب به فى عباده من الرسالة الثانية ، ثم يحمل المسلم البينة على النصرانى من الكتب التى أقر له بها • وجامعه عليها • فان لم يكن فيها محمد منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا مطعن له اليه •

وان كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت علاماته علامات الكتب • فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن رضا معبوده » أ • هـ •

الجواب عن كلامه : ياهذا أسهبت وأطنبت ، وبحبة خردل ما أتيت • كثر كلامك ، فكثر غلطك ، وقلت فائدته ، فظهر قصورك وسقطك ، ومن كثر كلامه ، كثر سقطه • ومن كثر سقطه ، كانت النار أولى به ، أعميت لجهلك بلحنه ، ولم تتفطن لتثبيجه ولحنه ، فلقد استسمنت ذا ورم ونفخت فى غير ضرم •

فأول خطابك قولك فى ترجمتك هذا الفصل : « احتجاج الثلاث ملل » ثم ضمنته ذكر ملة المجوس فكان ينبغى لك أن تقول : « احتجاج الأربع ملل » فان المجوس أمة تدعى : أنها أرسل اليها رسول ، وأنزل عليه كتاب • ثم ان مذهبهم فى التثنية • وان كان باطلا ، فهو أقل شناعة ، وأبعد عن جحد الضرورة ، وأدخل فى مسلك النظر • وان كان فاسدا من مذهبكم ، فانهم يقولون : ان الموجودات خير وشر ، ولا بد لكل واحد من موجد • فموجد الخير : خير ، والخير لا يفعل الشر ، لئلا يكون شريرا • وموجد الشر : شرير • لا يفعل الخير • اذ لو فعل الخير لما فعل الشر • قالوا : فلابد من الهين اثنين ، يفعل أحدهما الشر ، والآخر الخير •

وهذا كلام يشبه النظر العقلى • وبعد بحث شديد يتبين فساده ، فلهم شبهة فى التمسك بمذهبهم ، ولو أورد المجوسى شبهته عليكم ،

لصعب عليكم ابطالها ، لكونه يلزمكم من مذهبكم التزامات لا تنفصلون عنهـا .

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبين عجزكم وجهلكم هنالك :

أما مذهبكم فى الأقانيم ، فغير مقبول ، ولا معقول ، كما تقدم ، وكفى به فسادا قولكم : « آلهة ثلاثة ، اله واحد » وكذلك مذهبكم فى الاتحاد والحلول ، على ما مر . ومن العجب : أنكم تعتقدون مذهب المجوس ، ولا تشعرون . فانكم تنسبون الشرور والاضلال الى غير الله تعالى ، وتعيبون علينا . اذا نحن فوضنا كل الأمور الى الله تعالى . وقلنا : كل موجود فى العالم ، فانما هو موجود ايجاد موجد واحد . وهو الله تعالى . وهذا . والله هو التوحيد الحق الذى ارتضاه الله لخلقه ، وكلف به أنبياءه ورسله ، وأنزل به كتبه .

فعين مذهبكم فى هذه المسئلة هو مذهب المجوس ، فانكم تنسبون الشرور كلها الى الشيطان وهو عدو الله ، وهو لا يصدر عنه الا الشر . وليس الشر من ايجاد الرحمن عندكم . فانه ما يوجد الا الخير . فعلى مذهبكم هناك خالقان : أحدهما : خالق الخير ، وهو الله . والآخر : خالق الشر ، وهو الشيطان . وهذا عين المجوسية ، فصرحوا بهـا ، ولا تنكروها ، واجمعوا بينها وبين النصرانية . وتقلدوها ، ثم زعمت على مقتضى ترجمتك : أنك تذكر حجاج الملل الثلاث ، ولم تف بشىء من ذلك ، ولا ذكرت فى كلامك هذا حجة للمسلمين عليكم ، ولا لليهود ، بل ذكرت حجة النصارى الداحضة ، وسكت عن حجة خصومهم المسلمين الظاهرة . وهذا أثر التقليد . والجمود عليه حملك ، على الاعراض عن حجة خصمك ، لعلك لا تسمع ما يؤدى الى تبكيتك ، ولطمك . ولقد كان ينبغى لك — لو كنت من النظار والعارفين بأديانهم — أن تذكر حجج خصومك أحسن ، فتبحث عنها واحدة بعد واحدة ، حتى يتبين لك فيها الصحيح من الفاسد . ولكن مع هذا نقبل عذرك ، ونعلم جهلك . فانك واحد من عوام المسيحيين ، الذين تشبهوا بالقسيسين ، وفى مثلك ينشد :

فسد الزمان فســدت غير مسود
ومن الشـقاء تفردى بالســؤدد

ولكن لا عليك ، فانما هو جنا يديك . فانى لأرجو أن يقف على هذا

الكتاب جماعة (المطارين) ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين ، فيخرجوك من بين القسيسين ، ويلحقوك بالرياسين •

ثم قلت « اعلم أن أهل الملل أجمعين ، متكافئون فى ادعاء الايمان حاكمون على كل قوم لأنفسهم بالايمان ، ولغيرهم بالكفر » فنقول : أما التكافؤ فى الدعوى فنعم • لكن الفصل يقع بينهما من جهة البينات ، ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب والديانات • فان من الأديـــان ما يدرك فساده بغير نظر ، ولا برهان ، بل بالفطرة التى خص الله بها الانسان ، وكذلك دين النصارى ، الضلال الحيارى •

ولقد حكى أن بعض حكماء الهند ــ وكان من الملوك الذين يحكمون بالسياسة الدينية ، الذين لم يتقلدوا اتباع ملة دينية ــ ذكرت له الملل الثلاث • فقال : أما النصارى ، وان كان مناصبوهم من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعى • فقد أدت آراؤهم الى أن لا نرى بحكم عقولنا لهم عقولا • فاستثنى هؤلاء القوم ــ يريد النصارى ــ من جميع العوالم فانهم قصدوا مضادة العقل ، وناصبوه العداوة ، وتحلوا ببث الاستحالات ، مع أنهم حادوا عن المسلك الذى انتهجه غيرهم من أهل الشرائع • وقد كان لهم فيه كفاية • ولكنهم شذوا عن جميع مناهج العالم الشرعية الصالحة ، والعقلية الواضحة ، واعتقدوا كل شىء مستحيل ممكنـــا ، فلم يعزب عنهم شىء ، وبنوا من ذلك شرعا ، لا يؤدى البتة الى صلاح نوع ، من أنواع العالم الا أنه يصير العاقل اذا تشرع به أخرق ، والمرشد سفيها ، والمحسن مسيئا • لأن من كان فى أصل عقيدته التى جرى نشوؤه عليها : الاساءة الى الخالق ، والنيل منه بوصفه بغير صفاته الحسنى ، فاخلق به أن يقصد الاساءة الى مخلوق • ولذلك ما بلغنا عنهم مما فى خلقهم من الجهل ، وضعف العقل ، والطمع والبخل ، ومهانة النفس ، وخساسة الهمة ، والغدر ، وقلة الحياء ، الا قليلا منهم • فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم الا لعموم أضرارهم ، التى لا تحصى وجوهها ، لكفى • وكما يجب قتل الحيوان المؤذى بطبعه • فكيف ، وقد ثم من الموجبات ما تقدم ؟

فهذا ما بدا لهذا الحكيم فى أول نظرة من مذهبكم على أول وهلة ، وليس بمخاصمكم ولا مناوئكم ولا بمتهم باتباع الهوى فيكم • لكن قد تبين الصبح لذى عينين ، بحيث لا يشك فيه أحد من الثقلين وسترى ذلك واضحا ان كنت ذا بصر ، وبصيرة ، ان شاء الله تعالى •

ثم قلت : « قد غلبت عليهم فى ذلك الغواية ، وتأديب الصبا ووصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعا فيهم » هذا الذى ذكرته : لعمرى ، حكم الرعاع الغبر ، والغثاء الغثر • وأما من أمده الله بنور توفيقه ، وبين له سواء طريقه ، فقد تبين له الرشد من الغى • والميت من الحى ، فقد أخطأت فى اطلاقك هذا الحكم ، على جميع الملل ، ولم تشعر بما لزمك من الفساد والزلل • كلا بل الذى ذكرته وصف أهل ملتك ، وحلية عصبتك • اذ هم أهل تقليد ، ونظرهم غير سديد •

ثم قلت : « فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم ، وطاب عندهم دينهم بالتهنية فى دنياهم عن معاد آخرتهم » وعدلت فى هذا الحكم عن العدل فحاق عليك اللوم والعذل • بل فى الملل من لا ينتقص أحدا الا اذا ذمه الشرع ، واذا رأى ذو فضيلة محقا ، أحبه ، وشكره ، بالطبع والطوع وذو الفضيلة يهجر فى طلب الحق جميع لذاته ، ويزهد فى جميع متملكاته ، يبغى بذلك رضا سيده ومرضاته ، يضرب فى طلب الحق الأرض ضربا ، فيقطعها شرقا ، ويقطعها غربا •

يوما يمان اذا لاقيت ذا يمن
وان لقيت معدا ما : فعدنان

يفارق الأهل والوطن ، ويلازم الفقر والعطن ، فاذا ظفر بالبغية ليا وفطن • أما الدنيا فلا يلتفت اليها ، وأما الآخرة فهو مقبل بكليته عليها ، فهو فى كل حال ينشد ، وأحواله تشهد :

وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع
وأعجبنى من حبك السدر والضال

وأهوى لجوان ، السماوة والغضا
ولو أن صنفيه : وشاة وعذال

فأنت لم تحكم بالسوية ، ولا عدلت فى القضية ، حيث حكمت باعراض كل العقلاء عن الأديان ، وبالتكاثر من الدنيا على كل البرية • كلا • لو كان ذلك لما بقى منا أحد الا هالك • فراجع نفسك عن هذا الاطلاق وتب للواحد الخلاق • واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال والأخلاق • فان رب العالمين ، يبقى علينا ببركة الفضلاء والصالحين •

ثم قلت : « وأحسب أن العلة فى ذلك رغبتهم فى التكاثر من الدنيا »

وهى التى تدخلهم الى التحاسد والمعايرة • فيعجز كل قوم أنفسهم فى طلب معاشهم • وأن الآخرة عندهم مهملة » •

يا هذا • لقد كثر غلطك ، حتى يعجز الناظر فيه عن احصائه ، وعظم سقطك ، حتى لا أقدر على استقصائه •

تفرقت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

فتارة يتشبج عليك الكلام ، وأخرى تبدل المَدح بالملام • فربما تريد أن تمدح فتذم ، وتظن أنك تحل ربطا ، وأنت تزم ، وأنت فى هذا الكلام • قد لحنت فيه فى عدة مواضع • وأردت أن تقول شيئا ، فعبرت عنه بعبارة يفهم منها بحكم وضعها خلاف ما أردت أن تقول • وذلك يبن عند من تأمله ، من أهل العقول •

وبالجملة فأنت فى هذا الفصل أردت أن تتفصح وتتعرب • فاذا بك تبهم ولا تعرب • على أن كلامك فى هذا الفصل قليل الجدوى ، واهى الأصل • فينبغى أن تتعدى أكثر كلامك ، وتتنزه عقولا عن الأخذ فى كثير من هذيانك • فان الأخذ فى الخرافات ، والاشتغال بالترهات مخل بالعقول والمروآت •

ثم قلت بعد ذكر كلام حاكيت به فعل السفلة الطغام ، المعدودين فى رعاع الأعوام « لأن كل قوم قلدوا سلفهم ، وطاب عندهم ، خبرهم فى مدح دينهم ، وذم غيرهم » يا هذا جهلت كل الأنام ، اذ زعمت أن التقليد دأب كل الأقوام ، ولو أنصفت فى القضية ، وعدلت بالسوية ، لقلت : ان الناس قسمان • قسم ايمانهم : برهانى ، وقسم اعتقادهم تقليدى • هكذا ظهر من أمر أهل الأديان وأما من لم يتدين بدين ، فينبغى ألا يعد فى الموحدين •

وبعد هذا • ينبغى : أن تعلم أن أمور الاعتقاد والايمان ، لم يقنع فيها قط أحد من الفضلاء بالتقليد من غير برهان ، ولأجل هذا حرم الله علينا الركون الى التقليد ، وذم من عول فى اعتقاده على اتباع الآباء والجدود • فقال تعالى حكاية عن المقلد ، وذاما له ، وموبخا له على جهله « **بل قالوا : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون • وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون • قال : أو لو جئتكم بأهدى**

مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون »(١)

فهذا ذم من الله للتقليد وأهله . وقد أمر بالنظر الصحيح ، وحض على فعله . فقال تعالى : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيــات والنذر ، عن قوم لا يؤمنون** »(٢) وقال تعالى : « **فلينظر الانسان مم خلق** » ؟(٣) وقال تعالى : « **أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق** »(٤) وقال تعالى : « **أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها . أو آذان يسمعون بها . فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** »(٥) .

ومثل هذا كثير ، وكفى شرفا بهذا الدين ، ودليلا على صحته عند العقلاء العاقلين : أنه حرم التقليد ، الذى يجر الى الالباس والتجهيل والتفنيد ، واستنهض العقول للنظر ، وأوضح لها مسالك العبر ، وأوجب عليها النظر الصحيح ، المفضى الى العلم . ومن لم يفعل ذلك من العقلاء فقد تعرض للعقاب ، وألزم ذلك كله : ليتبين عن بصيرة ، الرشد من الغى ، ويعلم من هو على الحق ممن تحكم فى دينه بظلمات التقليد والرأى . وبعد هذا . فانى لا أشك فى أنك لا تعرف حقيقة التقليد ، ولا أقسامه ، ولا أحكامه ، ولا فى أى محل يجوز ؟ ولا فى أى محل يحرم ؟ ولا من الذى يقلد ؟ ولا من المقلد ؟

فان ادعيت أنك تعرف شيئا مما هنالك ، فعجل بالجواب على ذلك .

ثم قلت بعد ترديد وتطويل ، من غير افادة علم ، ولا شفاء غليل « فكل يقتحم المناظرة ، وان لم يحسنها ويراها فريضة عليه ، وهو لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات . الا الفضول » .

اعلم يا هذا : أن الله تعالى ، أنطقك بشرح حالك . فانك عبرت عن سوء مناظرتك ونظرت بركيك مقالك ، فجهلت حتى توهمت أنك من أهل النظر ، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر . كلا . فلقد ارتقيت مرتقا صعبا ، وسلكت مســلكا وعرا ، وادعيت دعوى

---

(١) الزخرف : ٢٢ ـ ٢٤ . (٢) يونس : ١٠١
(٣) الطارق : ٥ (٤) الروم : ٨
(٥) الحج : ٤٦

عريضة لتخدع بها قلبا ضعيفا ، ونفسا مريضة • ولا بد من سؤالك ، حتى يتبين حقك من محالك • فأقول لك : ما حد النظر وحقيقته ؟ وما أصوله ؟ وكم أقسامه ؟ وما أحكامه ؟ وما حقيقة المناظرة ؟ وما شروطها ؟ وكم هى ؟ وما الشيء الذى يطلب بالمناظرة ؟ وما حقيقة الدليل ؟ وكم أقسامه ؟ وكم شروطه ؟ وما وجه الدليل ؟ وما المدلول ؟ وكم أقسامه ؟ فان كنت تدعى المناظرة ، فأجبنا عن هذه الأسئلة محاورة •

ثم قلت : « وان الجميع يدعون أمرا لا يقدرون على التناصف فيه لبعد غايته » لتعلم يا هذا • أن حكمك على الجميع بأنهم لا يقدرون على التناصف : حكم خطأ • فان العاقل المشتغل بما يعنيه ، انما يطلب الحق ليصل اليه ، ويعرف الباطل ليتجنبه • ومن كانت هذه حاله ، أنصف وتناصف • وانما يمتنع التناصف على من غلب عليه التقليد • وجمد على ما ورثه من الآباء والجدود ، وهو يصمم على أنه على الحق فيمنعه ذلك التصميم عن البحث والنظر • ثم ان تنبه لنوع نظر كان كما قال :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها : الخشب

فهذا الذى يتعذر عليه التناصف ، وتبعد عليه الغاية المطلوبة • وأما من نور الله قلبه ، وأجزل من المعقولات حظه • فالتناصف مرغوبه ، اذ الحق مطلوبه ، وفى مثل هذا ينشد :

يعيد على الكسلان ، أو ذى ملالة وأما على المشتاق فهو قريب

فان قلت : ما ذكرته أنت قليل ، وما ذكرته أنا كثير • قلت لك :

وما ضرنا أنا قليل • وجارنا عزيز
وجـــــار الأكثرين ذليـــــل
تعيرنـــا • أنـــا قليـــل عديـــدنا
فقـــلت لهـــا : ان الكرام قليـــل

ثم ان وجد فى جميع الخلق واحد بهذه الصفة ، فقولك : فاسد • فانك حكمت على الجميع • بحكم قبيح شنيع ، وأطلقت القول ، ولم تخف فيه الزلل ، ولا العول •

ثم قلت : « ليختلفون فى معرفة البارى تعالى ، لأنه لا يدركونه بالحواس • وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس » اعلم : أن هذا الذى ذكرت ، لا يصح أن يقال على كل العقلاء ، وانما يصح ذلك على الجهلة الأغبياء بل نقول : ان الأغبيـــاء أهل الجهـــالات يختلفون فى الضروريات ، وقد بينا عليكم مواضع كثيرة من اعتقادكم ، خالفتم فيها الضروريات • وناكرتم المعقولات • وأما أهل العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، فلم يختلف منهم اثنان فى معرفة وجود الله تعالى • وانما تخالفوا فى أى وجود وجوده ، وهذا يعرف فى موضعه فلست من أهله •

وأما تمثيلك بالعبد الحبشى ، فتمثيل ، ليس وراءه تحصيل • وذلك أن العبد الحبشى اذا كان عاقلا سليم الفطرة ، اذا سمع كلاما ، لا يقبله عقله ، يرده • وأما اذا كان ناقص الفطرة ، مختل العقل ، فيقبل كل محال ، ولا يثبت على حال •

ثم قلت : « ولو أن مجوسيا ، دخل بلدنا فكبرت عليه(١) مجوسيته ، ثم طلب الخروج الى أفضل الثلاث الملل » أنت توهم بهذا القـــول : البراءة عن المجوسية ، والدعاء الى الملة النصرانية ، عساك يظن بك أنك تفحم الخصوم • أو أنك حصلت من دينك على أمر معلوم • كلا • بل لو ناظرك مجوسى لأفحمك ، ولو وزن دينه بدينك فى معيار العقل لرجحك • وقد تبين ذلك فيما تقدم •

ثم قلت : « فكان يجد — المجوسى — فى دعواهم : أن النصرانى والمسلم ، مقران لليهودى بأن دينه أول • وأنبياؤه حق • ثم يقول النصرانى : ان كتابى جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودى ، ثم يقول المسلم : وكذلك جاء كتابى فنسخ طاعة دين النصرانى » •

يا هذا البليد • أخطأت على المسلم ، حيث ظننت أن المسلم يسلم لليهودى دينه الذى بيده الآن ، ويعترف بأنه أول ، وليس الأمر كذلك ، بل الذى يقول به المسلم : ان الدين الذى جاء به موسى عليه السلام : هو حق • وأنه الأول بالزمان ، بالاضافة الينا ، واليكم • وأما اليهود اليوم فليسوا على دين عندنا ، وعندكم •

---

(١) من الممكن أن تقرأ فى المخطوطة : فكسرت •

فعندنا من جهتين ، وعندكم من جهة واحدة . احدى الجهتين عندنا : أنهم كفروا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد كان الله تعالى أخذ عليهم العهد بالايمان به ، وبلغهم ذلك على لسان موسى عليه السلام ، وغيره من أنبيائهم عليهم السلام على ما ننقله ان شاء الله تعالى . وكذلك نقول فى المسيح عليه السلام : انهم كفروا به بعد أن أنكروه ، وهذه هى الجهة الأخرى . فهاتان جهتان . وأنتم انما تكفرونهم من جهة واحدة ، وهى كفرهم بالمسيح . فقد اتفقنا نحن واياكم : على أن اليهود فى هذا الوقت ليسوا على دين ، وليسوا بمنتسبين الى شىء من دين موسى عليه السلام . واذا كان الأمر كذلك . فكيف جازفت فى لفظك ، وقلت على المسلمين والنصارى ما لا يرضون به ، ولا يعولون عليه ؟ وهل اطلاقك هذا الا نتيجة جهلك ، ومما يدل على نقص عقلك ؟

ثم انك ادعيت : « أن النصارى يقولون : ان كتابهم نسخ شرع اليهود . وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا ، وعيسى عليه السلام يقول فى الانجيل ، الذى بأيديكم : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى . انما جئت لأتممها » ؟ (١)

فاما أنت هو الكاذب ، أو كتابك هو المحرف الباطل . وسنبين ان شاء الله تعالى : ما أحدث فى الانجيل والتوراة من المناقضة والتحريف ما يدل على أنها ليست هى التى أنزل الله .

ومن عجيب أمرك . وأدل دليل على جهلك : أنك تدعى أن كتابك نسخ شرع اليهود ، وأنت بجهلك ترجع اليه فى أحكامك ، وهل هذا الا تناقض ظاهر ، وجهل فاحش ؟

ثم قلت : « فاذا كاشف المجوسى اليهودى عما ادعياه أنكرهما . وقال : لم يأت بعد كتابى من الله كتاب » يا هذا . لقد قولت اليهود ما لا يمكنهم قوله ، ولا يسعهم جهله ، فان اليهود يعترفون بأنه قد كان بعد موسى أنبياء كثيرون ، جاءوا بصحف ، وقرأوا على الناس كتبا كثيرة ، هى بين أيديهم وأيديكم اليوم ، تقرأونها وتحكمون بها . وها أنت قد استدللت بكثير منها فى كتابك هذا . على اثبات بنوة المسيح . فتلك الكتب التى نقلت منها . اما أن تكون من الله . أو لا تكون . فان كانت

---

(١) متى ٥ : ١٧ ، (وأتمم) فى الأصل اليونانى : لأصحح .

من الله فقد أفحمت نفسك ، وأكذبتها ، وصار كلامك ينقض أوله آخره • مع أن اليهود توافقك على أن تلك الكتب والصحف من الله • وعلى ألسنة رسل الله •

على هذا جمهورهم ، وأكثرهم • وان كانت تلك الكتب ليست من الله — ولا يساعدونك عليها — فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم بشيء ليس من كلام الله ، ولا يسلمونه ؟ فلقد مكنت من نفسك يا هذا : اليهود والمسلمين ، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين •

فمثلك مثل الباحث بظلفه على حتفه ، والجادع مارن أنفه بكفه • فلقد لحقت « **بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[1] •

وبعد هذا فلتعلم : أن الذى تتكره اليهود — لعنهم الله — من الكتب المنسوبة الى الله تعالى : كتابك ، وكتابنا ، لا غير ، وسنقيم واضح الأدلة ان شاء الله على من خالفنا •

ثم قلت : « ثم يحمل المسلم البينة على النصرانى من الكتب التى أقر له بهـا ، وجامعه عليها • فان لم يكن فيها محمد منتظرا فلا حجة له عليه ، ولا مطعن له اليه • وان كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن رضا معبوده » •

ظاهر كلامك ، أنك أنصفت ، وأنت فى اعتقادك ، عليه ما عولت • ولقد أعلم أنك اذا أتيت ذلك عليك من كتب ، عدلت وغدرت « شنشنة أعرفها من أخزم » واذا كان الغـدر فى النفوس الخبيثة طباعـا • فالثقة بكل أحد عجز • وما هى أول بركتكم •

وأنا أسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، وبحق آدم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم ، وممن بينهم من النبيين والمرسلين ، وبالملائكة المقربين ، وأهل طاعته أجمعين • أن يلعن من لا يرجع الى الحق اذا تبين له ، وأن يعجل عليه بنقمته فى الدنيـا ، تكون علامة على غضب الله عليه ، وعلى عذابه فى

---

(١) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

الآخرة ، العذاب الدائم • نسأل الله العظيم أن يفعــل ذلك بعزته وكرمه • آمين ، آمين • والصلاة على خيرته من خلقه •

ثم ينبغى لك أن تعلم أن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم تثبت لنا بطريق واحدة ، بل بطرق كثيرة ، فلو فرضنا • أن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يبشروا به ، لكانت نبوته ثابتة • ببراهين قاطعة كثيرة بها عرف نبوته العقلاء الذين لم يقرأوا قط كتابا • ولا انتسبوا الى شريعة •

وسنوضح هذه الطرق ان شاء الله تعالى ونبينها على ما لا يبقى معه ريب لعاقل بحول الله وقوته •



الفصل الثاني

المسيح المنتظر

فى حكاية كلامه أيضا

قال : « ومن بينة النصرانى على اليهودى : أن فى الكتب التى أقر له بهـا ، وجامعه عليها : مسيح منتظر • لا يقدرون على جحده • لأن انتظاره معروف فيهم ، وظاهر عليهم • ودل على زمان مجيئه : أنهم منتظرون له منذ سبيت اليهود ، وبددت الى اليوم • فاذ قد لزم اليهود بانتظاره من وقت تفريقهم فى الدنيـا • فقد وجب للنصارى أن يقولوا : انه قد جاء • والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من سببه فصارت فرقتين على الكفر والايمان به • فالفرقة الكافرة هم اليهود ، والفرقة المؤمنة هم النصارى ، فآمنت طائفة ، وكفرت طائفة • والكتب أجمع مع كلامهم ، يحتجون بها بعضهم على بعض يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ، ويختلفون فى تأويلها كفعلهم الى هذه المدة ؛ والذى يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن ننظر فى الكتب ؛ ونستدل بها على حالة بنى اسرائيل منذ كانت على الايمان والكفر ؛ فانهم ان كانوا على الكفر فانه يلزمهم الذلة ، اذ الذلة والأسرة والفرقة علامة الكافرين ، وموجود فى الكتب : أن الله لم يوعد بالثواب فى الآخرة لبنى اسرائيل على الطاعة والايمان • وانما وعدهم فى الدنيا[1] ، فوعدهم عند الطاعة والايمان بالملك والنعمة ، والنقمة من عدوهم • والتثمير لزرعهم ، وفواكههم ، وأوعدهم عند الكفر والعصيان بالتغلب عليهم ، والملك والقهرة لهم • من عـدوهم • فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة والايمان ، ومستعبدين عند الكفر والعصيان » أ • هـ •

---

(١) النص فى التوراة العبرانية يحتمل الجزاء فى الدنيا أو فى الآخرة والنص فى التوراة السامرية نص فى الجزاء الأخروى (تثنية ٣٢ : ٣٤ ــ ٣٦)

فافهم الجواب عنه : اعلم يا هذا : أنه لولا أننا نخاف أن نساعد اليهود على كفرهم وأن يحملهم ذلك على دوام الاصرار ، وزيادة العناد لنبهناهم على مواضع فى هذه الأدلة ، التى ذكرت يفسد عليك لأجل ذلك أكثرها ، ويبطل عليكم الاحتجاج بها ، ولو فعلنا ذلك لما كان مما يقدح فى صحة نبوة المسيح • فانها تثبت بطرق أخر •

وانما يكون ذلك دليلا على أنك لا تحسن الاستدلال ، ولا تعرف طرق المناظرة والجدال • ولكن حاشى لله أن أعين اليهود ، أولى اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة على من التزم شرعة المسيح ، وركب منها المنهج الصحيح • وكيف أفعل ذلك ؟ وقد أخبرنا الله على لسان نبيه ورسوله ، بأنه كان منهم عالمون بالله ، ومصدقون بما جاءهم على لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا • ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى • ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون • واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق • يقولون : ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين • وما لنا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** »(١) •

فهؤلاء الذين عرفوا شرعة المسيح عليه السلام ، وعلموا ما عهد اليهم من نعت محمد ، خير الأنام فبادروا لتصديقه ، ولم يمكنهم العدول عن طريقه ، ولولا حرمة هؤلاء الأولياء الذين كانوا منكم ، لما بقى ستر الله عليكم • لكن كما قال تعالى : « **انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار • مهطعين ، مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد اليهم طرفهم • وأفئدتهم هواء** »(٢) •

ومع هذا ، فلا نخلى هذا الباب من التنبيه على نكت تدل على سوء استدلال هذا السائل خاصة بعون الله •

قلت يا هذا : « والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من سببه ، فصارت فرقتين : على الكفر والايمان به ، فالفرقة الكافرة : هم اليهود • والفرقة المؤمنة هم النصارى • فآمنت طائفة ، وكفرت طائفة »

---

(١) المائدة : ٨٢ ــ ٨٤ (٢) ابراهيم : ٤٢ ، ٤٣

هذا دليل ليس له للدلالة على مجىء المسيح من سبيل • بل هو عين المذهب الذى تدعونه ويبقى عليك الاستدلال عليه • وان جاز أن يكون مثل هذا دليلا صحيحا على مجيئه ، جاز أن يكن نقيضه دليلا على انتفاء مجيئه ، ولا فرق بين ما قلت ، وبين ما يقوله اليهودى اذ كل واحد منكم تكلم بدعوى ، ولم يثبتها ، ولا بد لك من اقامة دليل فاذكره • فان كلامك الأول ليس بدليل ، فان أخذت تستدل بدليل آخر ، خلاف ما ذكرت • فقد اعترفت بأن كلامك الأول ليس بدليــل ، وانقطعت • وان رجعت تستدل بذلك تبين جهلك هنالك •

فانظر ما أحسن هذا الدليــل • فلعمرى ما للمستدل به من النظر العقلى : كثير ، ولا قليل •

ثم قلت : « والكتب أجمع مع كلامهم يحتجون بها بعضهم على بعض ، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ، ويختلفون فى تأويلها ، كفعلهم الى هذه المدة » •

تناقضت يا مخدوع ، ولم تشعر ، وظننت أنك تنتصر ، فاذا بك تستأسر • أفصحت هنا بأنكم يحتج بعضكم على بعض ، ويتضمن ذلك أنكم تحتجون بالتوراة عليهم • وكيف يصح لك هذا ، مع أنك قد ادعيت أنها منسوخة بكتابكم ؟ فان قلت : ان هذا عليهم فى معرض الالزام • قيل لك : فلا تأخذ من التوراة شيئا من الأحكام • ولا تحكم منها على شىء بحلال ولا حرام •

ثم ان كلامك هذا : يفهم منه أنهم يحتجون عليكم بكتبهم على أن المسيح لم يجىء • واذا اتفق أن يحتجوا عليكم بمثل هذا من كتبكم فقد أفحموكم •

هذا كله على ظاهر كلامك ، ولم ترو هذا المعنى • وانما أردت أن تقول : أن الجميع قد اتفقوا على ألفاظ الكتب ، واختلفوا فى تأويلها • ولم تساعدك العبارة • وهذا أكثر كلامك • تريد أن تقول شيئا ثم تعبر عنه بعبارة تدل على خلاف ما أردت ، وسبب ذلك : أنك أدخلت نفسك فى شىء لم تعرفه وتعاطيت ما لم تحسنه • فكنت بمثابة من أدخل نفسه فى سفط ، ثم جاء آخر فشد عليه وربط •

ثم قلت : « والذى يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن ننظر فى الكتب » الى أن قلت : « اذ الذلة ، والأسرة ، والفرقة • علامة الكافرين » •

وهذا الاطلاق ، لو علمت ما يلزمك عليه ، لاستغفرت الهك منه • لكنك جهلت ، فأطلقت وحيث وجب أن تمسك أرسلت • وذلك أنه ان صح ما ذكرت ، فلا ذلة ولا أسرة ، ولا تفرقة • أبلغ من ذلة من يصفع فى قفاه(١) ، ويجعل على رأسه شوك ، وفى يده قصبة ، ويساق للقتل ، وعلى عنقه خشبة ، ويصلب وتسمر يداه ورجلاه وينخز ، وهو يطلب ماء فيرفع اليه اناء خل • وهذا كله بزعمكم ، ولا رتبة فى المذلة أبلغ من هذه • فعلى قولك ، وسياق دليلك : يلزمك تكفير المصلوب ، ويحصل لليهودى منكم ، الغرض المطلوب • فان كنت عاقلا فتقل كلامك ، ولا يكن عارا عليك لسانك • وقد نصحتك يا فشكل • وما أظنك تقبل •

وانما أردت أن تقول — فلم تطاوعك العبارة يا جهول — : الدليل على مجىء المسيح المنتظر : أنه قد ثبت فى كتب الأنبياء عليهم السلام : أن الله قال لليهود : لا يزال ملككم قائما ، وخيركم دائما • ما دمتم مؤمنين ، حتى تكفروا • فاذا كفرتم أزلت ملككم ، وأبدلتكم منه ذلا ، وصغارا ، وغضبا ، ونقمة ، وعند ذلك أرسل اليكم المسيح • ولا يشك أحد فى زوال ملك اليهود وانقطاعه ، وفى نزول الذلة والمسكنة عليهم • فلا يشك فى كفرهم ، ولا يشك فى مجىء المسيح ، وأنهم كفروا به • ولو هكذا قلت • لما لزمك شىء مما ألزمت • وهذا الدليل الذى استدللته به على اليهود • اذا سيق على الطريقة التى ذكرناها ، وصح نقله عن الأنبياء بطريق القطع هو حجة على اليهود ، لا مخرج لهم منها ولا محيص عنهـا • على أنه بقى فيه مواضع للبحث اذا انفصلت تم الدليل • ووضح السبيل •



(١) يشير الى عيسى عليه السلام بحسب المكتوب فى الاناجيل عندهم •

الفصل الثالث

المسيح عيسى ابن مريم

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء • قال النبى هوشع بن بئيرى عليه السلام هكذا بكلام عبرانى : « كى يا ميم ربيم يا شابوا بانا اسرائيل ان ملخ وان صار » تفسيره : « ان أياما كثيرة يقيموا بنى اسرائيل دون ملك ، ودون مقدم »(١) فاذا سئل اليهودى الجاحد : ان كان لهم ملك أو مقدم ؟ فلا يكون جوابه ، الا أن يقول : ليس عندنا ملك ، ولا مقدم • فيقال لهم : اذ ليس عندكم ملك ، ولا مقدم • فاسمع ما قال يعقوب ، الذى كان له اثنى عشر ولدا ، الذى منهم يوسف الصديق رضى الله عنهم أجمعين الى يوم الدين • قال الفاضل يعقوب بكلام عبرانى : « لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك مبين رعلاف عاد • كى يا بو شيلو ولوا اقاهث عميم » وهذا تفسيره : « لا ينتقض الملك من يهودا ، وراسم من بين رجليه ، حتى يأتى المسيح ، وله تطوع الأمم »(٢)

فيقال لهم : اذ ليس لكم ملك ، ولا مقدم • فقد جاء المسيح ، كقول يعقوب النبى • اذ ليس لهم ملك •

وقال ارمياء النبى عليه السلام فى الطائفة الكافرة به ، بكلام عبرانى هكذا : « ام يا عمود موشا ، وشموال لقاناى ان نقسى الها عم

(١) النص فى ترجمة ١٩٧٠ « لأن بنى اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس » (هوشع ٣ : ٤) والنص العبرى كامل •

(٢) النص العبرى كامل وتفسيره من ترجمة ١٩٧٠ بمصر : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعنى شيلون نبى الأمان أو السلام •

هذا شلاح معال فاناى ويا ساوها ياكى يمروا أناه ناسا وامرتا لاهيم هى لما باث ، لما باث امى تشانى أمى لا راعاب ، لا راعاب ، وخلاقى جاماتى بام » أ • هـ •

اسمع كلام الله على لسان ارمياء النبى • تفسيره : « ان وقف الى موسى وشموال لا نرضى عن هذه الأمة ، أرميهم من قدامى ، يخرجوا • فان قالوا : أين يخرجوا ؟ فتقل لهم : من الموت الى الموت ، ومن الغنى الى الغنى ، ومن الجوع الى الجوع ، ويكمل غضبى فيهم »(١) أ • هـ •

فهم فى غضب الله بكفرهم بالمسيح الذى قد جاء •

ثم قال الله تعالى على لسان يعقوب النبى الفاضل بلسان سريانى هكذا : « ألا يا عصا عات غلطان مد أفات يهودا ، وصفوا متانا بانوهى عاض على ما عات ذا ياتا ماشيحا دات لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عاما مايا » وهذا تفسيره كما قاله الله على لسان نبيه يعقوب : « لا ينتقض قضيب الملك من يهودا ، وراسم من أبنائه ، حتى أن يأتى ما شيحا — الذى هو المسيح ، الذى له الملك — وله تطوع الأمم » •

وقال الله تعالى على لسان ارمياء النبى فى انقطاع ملكهم بكلام غبرانى هكذا : « فأضاع أدوناى ياحور أف كل مكان ان اسرائيل » وهذا تفسيره « قطع الله بشدة غضبه : جميع دولة اسرائيل »(٢) فافهم فقد جاء المسيح ، وانقطع ملكهم •

وقد قال الله على لسان ارمياء النبى فى اثبات شريعة المسيح ، وايمان الحواريين قائلا بلسان عبرانى : « هنا ياميم بايم نوم يهوه واخارتى ات بت اسرائيل • وايت بت يهودا بريت حارشاه ، لواخبريت اشير بريت ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم مى ارس

---

(١) النص العبرى مختصر • والترجمة العربية الكاملة للنص هكذا : « وان وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب • أطرحهم من أمامى فيخرجوا • ويكون انما قالوا لك : الى أين نخرج ؟ انك تقول لهم : هكذا قال الرب : الذين للموت فالى الموت ، والذين للسيف فالى السيف ، والذين للجوع فالى الجوع ، والذين للسبى فالى السبى » (ارمياء ١٥ : ١ — ٢) •

(٢) ورد هذا المعنى فى آيات كثيرة من سفر ارمياء ، خاصة فى الاصحاح التاسع عشر •

مصريم امير همه هفرو ات بريت وانبى بعلتى بم نام يهوه»(١) تفسيره : « يقول الله : وأثبت لبيت اسرائيل ويهودا ، عهدا جديدا ليس كالعهد الذى قلت لآبائهم فى اليوم الذى أخرجتهم من أرض مصر ، من بيت العبودية » •

فبين الله بهذا الكلام ايمان الحواريين ، والتابعين لهم ، كما قال الله فى موضع آخر على لسان ارمياء النبى بلسان عبرانى ، عن ايمان الحواريين • قال : « شوبوا بانيم شوبابيم نوم ادوناى(٢) كى انوخى با علتى با خيم والا كحتى اتخيم أحاد معير وشنايم مشتبان وهاباتى اتخيم سيون » •

تفسيره : « ارجعوا يا أولاد اللجاجة فانى سدت عليكم ، وآخذكم واحدا من مدينة ، واثنين من عشيرة ، وأدخلكم الى صهيون وكذلك آخذ الحواريين ، واحدا من مدينة واثنان من عشيرة »(٣) ثم قال لضيق الآية « وناتى لاخيم روعيم كلبى » تفسيره : « ونعطيكم رعاة كقلبى » •

ثم قال : « وأراع أتخيم رعاه واهسكال » تفسيره : « ويرعوكم بالمعرفة والفهم »(٤) وكذلك جعل من الحواريين أئمة ، ورعاة • يعلموا الناس المعرفة والفهم • ثم قال لضيق الآية فى ألا يعمل بالعهد البالى : « واها ياكى تربوا افريتم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناى(٥) لو يمروا غر دارون بريث ادوناى ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا

---

(١) نقلنا النص كاملا • وترجمته العربية هكذا : « ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا • ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر ، حين نقضوا عهدى فرفضتهم يقول الرب » (ارمياء ٣١ : ٣١ ـ ٣٢) •

(٢) فى التوراة العبرانية الحديثة « يهوه » بدل « أدوناى » ويهوه : الله • وأدوناى : الله أو السيد • والنص العبرى كامل •

(٣) النص العربى من ترجمة ١٩٧٠ هكذا : « ارجعوا أيها البنون العصاة يقول الرب ، لأنى سدت عليكم ، فآخذكم واحدا من المدينة ، واثنين من العشيرة » (ارمياء ٣ : ١٤) •

(٤) نص الآية : « وأعطيكم رعاة حسب قلبى ، فيرعونكم بالمعرفة والفهم » (ارمياء ٣ : ١٥) •

(٥) فى الترجمة العبرية بدل « أدوناى » اسم « اهوه » •

يبقوا ذوا ولو ياعا ساعود » تفسيره : « ويكون اذا كثرتم ، وتنمو فى الأرض فى تلك الأيام يقول الله : لا تقولوا أبدا بتابوت عهد الله ، ولا يصعد على قلب ، ولا يذكر به ، ولا يعتقده ، ولا يعمل به أبدا »[١] .

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم .

ثم قال سليمان الفاضل : « لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين »[٢] .

فافهم أيها الانسان ، ما هى معرفة المقدسين ، الذى لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا ، الا أن عرفها ، وآمن بها ؟

وفى حقيقة الايمان قال : « من صعد الى السماء وهبط ؟ من قبض الأرواح فى كفيه ؟ من جمع الماء فى ثوب » ؟ [٣] ثم قال بكلام عبرانى : « مى هاكيم كل افس آريس ماشموا وماشم بنوا » .

فافهم . فسره . وكن عاقلا مدبرا ترشد .

قال سليمان : « مى هاكيم كل افس أريس ماشموا وما شم بنوا » تفسيره : « من أقام جميع أقطار الأرض ؟ ما اسمه ؟ واسم ابنه » ؟ ثم قال لضيق الآية بالعبرانى : « كل أمراث ألواه صروفا ماغين هو لاات سيم بو » تفسيره : « جميع كلام الله ترس ، منير هو لجميع الواثقين به »[٤] فافهم .

ثم قال الله على لسان ارمياء النبى بكلام عبرانى : « هنا ياميم بايم نوم ادوناى[٥] واكراتى ات بت اسرائيل ، وات بت يهودا بريت هارشاه ... زيرع آدلم ، وزيرع مهيما » تفسيره : « هذا يوم يأتى

---

(١) ارمياء ٣ : ١٦ .

(٢) النص فى ترجمة ١٩٧٠ : « لم أتعلم الحكمة ، ولم أعرف معرفة القدوس » (أمثال ٣٠ : ٣) .

(٣) فى سفر الأمثال ترجمة ١٩٧٠ : « من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع الريح فى حفنتيه ؟ من صر المياه فى ثوب ؟ من ثبت جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ان عرفته ؟ » (أمثال ٣٠ : ٤) .

(٤) « كل كلمة من الله نقية . ترس هو للمحتمين به » (أمثال ٣٠ : ٥)

(٥) بدل أدوناى ، يهوه ، والنص مختصر ، وليس فيه : زيرع آدام وزيرع مهيما . أى نسل آدمى وبهيمى .

يقول الله ، ونزرع فى بيت اسرائيل ، وبيت يهوذا نسل آدمى ، ونسل بهيمى »(١) •

فكان النسل الآدمى : الحواريون المؤمنون بالمسيح عند اقباله ، والتابعين لهم • وكان النسل البهيمى اليهود الجاحدين للمسيح • وكذلك الحوارى يوحنا ، الذى اسمه (جوانش) قال : « من لم يؤمن ، ولم يتمادى فى تعليم المسيح فلا اله له »(٢) • فافهم ترشد •

اعلم أنى كتبت لك بالعبرانى ، والسريانى من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التى بأيديهم • وأن اليهود لا يقدرون على انكار حرف منها اذا احتج معهم بها بالعبرانى والسريانى ، كما نطقت به الأنبياء ، رضى الله عنهم فى اثبات اقبال المسيح ، وايمان الحواريين ، والتابعين لهم • وفى اطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا • فافهم » أ هـ

الجواب عما ذكر : يا هذا المخدوع • ظننت السراب ماء ، والأرض سماء ، فاستسمنت ذا ورم ، ونفخت فى غير ضرم • اعلم يا هذا أنه لا يقبل منك فى هذا المقام الاستدلال بالظنون والأوهام • اذ المطلوب فيه تحصيل العلم القطعى ، واليقين البرهانى ، فلا يحصل لك شىء من ذلك حتى تعلم صحة ما استدللت به هنالك ، ولا تعلم صحة شىء مما ادعيته دليلا قاطعا ، مفيدا للعلم الا بعد معرفتك ، أن هذه الكتب التى استدللت بها : أهى من عند الله ، وأنها بلغتك عن الله على ألسنة الصادقين ؟ ولا يتوصل الى معرفة شىء من ذلك الا بعد معرفتك بالنبوات وحقيقتها ، ودلائل صحتها العقلية •

ولا تتوصل الى ذلك حتى تعلم حدوث العالم ، وأنه موجود بعد عدم ، وتعلم أن له محدثا ، وأن محدثه موجود حى عالم قادر مريد موصوف بصفات الكمال حتى يصح منه ارسال الرسل وتأييدهم بالأدلة • وكل ذلك انما يعرف بأدلة قطعية ، ولا يصح أن تعرف بأدلة سمعية ،

---

(١) النص العربى مختصر وتمامه هكذا : « ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ، ومع بيت يهوذا ، عهدا جديدا ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم • بل هو ذا هو العهد الجديد الذى قطعته مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب • أجعل شريعتى فى داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم •• لأنى أصفح عن اثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد » (ارمياء ٣١ : ٣١ ـ ٣٤) •

(٢) رسالة يوحنا الثانية : ٩ •

فان السمع لا يثبت الا بعد ثبوت هذه الأصول ، فاذا وصلت الى هذا المحل ، وسلمت من التعثر بأذيال الزلل •

وكم دونها من مهمه ، ومفازة وكم أرض جدب دونها ولصوص

فحينئذ يجب عليك أن تنظر فيما ألقى الصادقون اليك • فان كنت ممن تسمع منهم كلامهم ، وتشافه بنفسك خطابهم ، فقد سقطت عنك معرفة طرق النقل ، وشروط التحمل والحمل ، ولزمتك معرفة اللغة التى يتكلم بهـا الصادقون ، فتعرف مقاطع الكلمات وكيفية النطق من اختلاف بسكون أو حركات وتعرف فرق ما بين الحقيقة والمجاز ، والنص والظاهر ، والمجمل والمؤول ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ • الى أمور كثيرة تعرف فى علم الأصول • وان كنت ممن لم يسمع من الصادقين ، فلا بد لك من أن تنظر فى الذى بلغك ذلك الدليل على يديه ، ان كان يجوز عادة عليه : الغلط والسهو أو لا • فان كان ممن يجوز عليه الغلط والسهو عادة ، فلا يلتفت الى خبره فى هذا المقام • وهذا النوع هو الذى يسمى عندنا أخبار الآحاد ، ولها محل تقبل فيه بعد مراعاة شروط • ويعرف كل ذلك فى موضعه •

وأما مثل هذا الذى تصديت له ، فلا يتوصل اليه بهذا الطريق ، فان المطلوب هنا حصول العلم • ولا يحصل العلم بقول من يتجوز الخطأ والسهو عليه فى خبره • وان كان مما لا يجوز عليه شىء مما ذكرناه عادة ، فهو الذى يحصل العلم بقوله ، وهو العدد الكثير الذين تحيل العادة عليهم الكذب • وهذا الخبر هو الذى يسمى المتواتر ، والتواتر له شروط وأحكام تعرف فى موضعه •

فاذا تقررت هذه المقدمة • فأنا أسألك سؤال منصف ، لا مصنف • وأقسم عليك بدينك قسم متلطف ، لا متعجرف : هل توفرت لديك هذه الشروط أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط ؟ فان أنصفت واعترفت علمت أنك على العلم بها ما حصلت • فينبغى لك أن تطلب حصول العلم من بابه ، وأن تجتهد فى تحصيل أسبابه • وان ادعيت علم ذلك ، علم أنك مغالط معاند ، جائر عن الحق وحائد •

وكفى بكلامك فى كتابك هذا على كذبك شاهد ثم على قرب تفتضح اذا خرست عن جواب ما عنه سئلت • تعجل بالجواب ، ولا تتأن فى الكتاب • وان أبيت الا تماديا فى غيك ، واستمرارا على جهلك وبغيك •

أريناك اختلال هذه الشروط عندكم عيانا ، وأقمنا على فساد كتبك حجة وبرهانا .

وذلك أنا نقول : ان من أعظم كتبكم التى ترجعون اليها ، وتعولون فى أحكامكم عليها : التوراة والانجيل ، وكفى بهما شرفا وشهرة انهما عندكم كلام الملك الجليل ، وأنتم تدعون أنكم تناقلتموهما جيلا بعد جيل . وأنا أبين ان شاء الله : أن نقلهما انما كان بطريق الآحاد ، وأن الغلط والسهو يجوز على ناقليهما ، وسآتى منهما ببطلان المراد .

أذكر ان شاء الله بعض ما وقع فيهما من التناقض والتحريف ، والقلب والتصحيف وأنبه على قبيح ما تنسبونه فيهما الى الله من القول السفساف السخيف ، وما تنتقصون به الأنبياء أولى الفضل والتشريف بحول الله تعالى وحسن عونه .

وأبدأ بالتوراة لكونها مقدمة فى الرتبة والزمان ، ومعترفا بها عند أولى الأديان . وبالله المستعان .



فصـــل

فى بيان بعض ما طرأ فى التوراة من الخلل
وأنها لم تنقل نقلا متواترا فتسلم لأجله
من الخطأ والزلل

فأول دليل : أنها لم تترك على ما كانت فى الألواح التى كتبها الله تعالى لموسى ، ولا على ما انتسخها لهم موسى ، بل زيد فيها ، ولا بد ، ما ليس منها ، ولا كان فى الألواح التى كتبها الله لموسى • ويدل على ذلك : أن فى آخر السفر الخامس أن « موسى توفى فى أرض موآب بازاء بيت فغور ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم • وكان قد أتى على موسى اذ توفى مائة وعشرون سنة ، ولم يضعف، بصره ، ولم يتشيخ وجهه • وبكى بنو اسرائيل على موسى ثلاثون يوما فى عريب موآب • فلما تمت أيام حزنهم على موسى ، امتلأ يشوع بن نون من روح الحكمة ، لأن موسى كان وضع يده على رأسه فى حياته • وكان بنو اسرائيل يطيعونه ، ويعملون كما أمر الرب موسى »(١) أ • هـ

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ ، وهذه الوفاة : أنها ليست مما أنزل الله على موسى ، ولا مما كتبها موسى عن نفسه • وانما هى من اثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان • ويدلك على ذلك قوله : « ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم »(٢) يريد به : اليوم الذى كتب فيه هذا • وهذا بين عند المنصف • ومع بيانه ، فليس أحد من اليهود والنصارى فيما أعلم يقول : ان التوراة زيد فيها شىء بعد موسى ، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره ، بل هى كلها عندهم كلام الله ، وهذا جهل عظيم ، وخطب جسيم • فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى ، وأخبر به موسى • أو يقولوا : انه ليس مما أخبر الله به موسى ، ولم يخبر به موسى • فان قالوا : الأول • كذبهم مساق الكلام ، فان المفهوم منه على القطع : أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان • وان قالوا : بالقول الآخر • قيل لهم : فلأى شىء خلطتم

---

(١) هذا النص فى الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية •

(٢) تثنية ٣٤ : ٦

كلام الله بكلام غيره ، وأجريتموها فى نسق واحد ، وزدتم على كلام الله ، ولم تشعروا بذلك ، بل نسبتم كل ذلك الى أن الله أنزله ؟

واذا جاز زيادة مثل هذا ، ولم يتحرز منه ، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا يصح نسبتها الى الله زائدة ، ولا سيما الحكايات الركيكة التى تحكى فيها عن الأنبياء التى لا يليق ذكرها بسفلة الناس ، وغالب الظن ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى : أن السفر الأول الذى هو سفر البدء والأنساب مما زيد على كلام الله تعالى ، ولم يشعروا بزيادته •

ومما يدل أيضا على هذا المعنى : أن كثيرا مما يجىء فيها : « وكلم الرب موسى وقال له : اقبض حساب بنى جرشون »(١) و « وكلم الرب موسى ، وقال له : كلم بنى اسرائيل »(٢) ومثل هذا كثير •

وهذا يدلك : أنه ليس مما قاله الرب جل ذكره لموسى ، ولا مما قاله موسى لهم ، أعنى لفظ « وكلم الرب موسى ، وقال له »(٣) وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه • وانما هو شىء حكى عنه بعد انقراضه ، وأضيف الى كلام الله •

ثم لا يعرفون : من الحاكى ؟ واذا جاز مثل هذا ، ولا يشعرون به ، جاز أن يكون أكثرهـــا مغيرا ومبدلا ، وليس من كلام الله ، ولا من كلام موسى ، ولا يشعرون به • ومن وقف عليها متتبعا لهذا المعنى • قطع بأنها زيد فيها ، ما ليس منها •

وعند انكشاف الغبار ، تتبين : أفرس تحتك ، أم حمار ؟ ماء ولا كصدى ، ومرعى ولا كالسعدان •

ولقد حفظ الله القرآن العظيم • فقال تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »(٤) ولذلك كره علماؤنا رضى الله عنهم : كتب التفاسير ، وأسماء السور فى المصحف ، وان كانت بخط آخر ، ولون آخر • وقد اتفقوا فيما أحسب على أنه : لا يجوز كتب فواتح السور ، يعنى : أسماءها ، بخط المصحف ، وبلون مداده ، لئلا يختلط به ما ليس منه فالحمد لله ، الذى هدانا لهذا الدين القويم ، والمنهج المستقيم •

---

(١) عدد ٤ : ٢١

(٢) عدد ١٥ : ١ ـ ٢

(٣) عدد ١٨ : ٢٥

(٤) الحجر : ٩

وأما بيان أنها ليست متواترة : فهو أن اليهود على بكرة أبيهم يعرفون ، ولا ينكرون أن التوراة انما كانت طور مدة ملك بنى اسرائيل عند الكوهان الأكبر الهاروني وحده ، وعنه تلقيت ، ولا ينكر ذلك منهم ، ولا منكم : الا مجاهر بالباطل ..

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بنى اسرائيل ، واحراقه كتب التوراة ، حيث وجدت ، واتلاف ما كان بأيديهم حتى لم يترك منهم الا عددا يسيرا ، لا يحصل بخبرهم العلم . وكان قد أجلاهم الى بابل ، وهدم البيت ، أو لعله كان الباقى منهم عددا كثيرا الا أنهم لم يكونوا كلهم يحفظونها ، بل كانوا عددا يسيرا ، لا يحصل العلم بقولهم . وكان هذا كله قبل المسيح بخمس مائة سنة تقريبا .

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان(١) ، التى كانت بعد المسيح الى أربعين سنة ، اذ فرقوا التفرقة التى هى اليوم عليها . وهذا أيضا من المعروف عند الجميع بحيث لا ينكره الا مكابر مجاهر . وهذه الأمور كلها مما تقدح فى النقل الذى يدعونه متواترا .

ثم نقول : هذه الأمور المذكورة ان وافقوا على وقوعها ، فقد اعترفوا بعدم التواتر فان من شرط خبر التواتر : أن ينقله العدد الكثير الذى تحيل العادة عليهم التواطؤ على الكذب والغلط عن عدد مثله هكذا ، ولا ينقطع .

فان رجع الخبر الى عدد لا تحيل العادة عليهم الكذب ، لم يحصل بذلك الخبر : العلم . اذ لا يكون متواترا وان لم يوافقوا على وقوع هذه الوقائع هكذا ، لم يقدروا على جحد أصلها ، واذا اعترفوا بأصلها ، لم يقدروا أن ينكروا امكان وقوع ما يعترفون بأصله ، وتجويز وقوع ذلك كتحقيق وقوع ذلك فى عدم حصول العلم بالخبر الذى يدعون أنه متواتر .

وأما بيان التحريف فيها : فهو أن اليهود تعترف بأن السبعين كوهانا ، اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة . وذلك قبل المسيح(٢) فى زمان القياصرة . ومن اجترأ على تبديل حرف من كتاب

---

(١) طيطوس بن سبسان ، وواقعته كانت سنة ٧٠ م .

(٢) انظر فى كل ما يتعلق بالتوراة كتابنا : التوراة أسفار موسى الخمسة . ومقدمتنا للتوراة السامرية .

الله وتحريفه ، فلا يوثق بالذى فى يده ، مما يدعى أنه كتاب الله ، لعدم الثقة به ، ولقلة مبالاته بالدين •

وأيضا : فلعله قد حرفه كله ، أو أكثره •

وكذلك يقرون ولا ينكرون : أن طائفة منهم يقال لهم : السامرية • حرفوا التوراة ، تحريفا بينا كثيرا • والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف •

وكذلك النصارى أيضـــا يدعون على اليهود : أنهم حرفوا فى التوراة : التاريخ • ويزعمون أنهم نقصوا من تاريخ آدم صلى الله عليه وسلم : ألف سنة ، ونحو المـــائتين •

وهذه احتمالات توجب على العاقل : التوقف ، فلا يدعى حصول العلم بنقل التوراة مع انقداح هذه الممكنات ، الا مجاهر متعسف •

فان قيل : كيف يصح أن يقال هذا • وقد كان الأنبياء بعد موسى عليه السلام يحكمون بالتوراة ويرجعون اليها واحدا بعد واحد • الى زمن يحيى وعيسى •

ثم بعد ذلك تناقلها النصارى ، كما تناقلها اليهود ، خلفا عن سلف الى اليوم • وان جاز تطرق التحريف الى ما هذا سبيله ، فليلزم عليه : أن يحكم الأنبياء بالباطل •

ويلزم عليه أيضا : أن يقروا على الباطل غيرهم • وهذا كله باطل على الأنبياء ، ويلزم عليه أيضا : أن لا يحصل العلم بخبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب يدعى أنه جاء عن نبى ؟

فنقول ــ وبالله التوفيق ــ :

انا لم نعين لوقوع التحريف فيها زمانا(١) ، ولا عينا من حرف منها شيئا ، ولا من ألحق بها شيئا ، فيحتمل أن يقع التحريف فيها قبلهم أو بعدهم • وانما أبدينا تلك الاحتمالات ليعلم أن الذى فى نفوسكم من الثقة بها : انما هو اعتقاد جزم • وليس بعلم •

وممـــا يدل على قبول تلك الاحتمالات وأنها قادحة فى دعوى العلم

---

(١) عينا زمن التحريف فى بابل سنة ٥٨٦ ق • م والمحرف لها : عزرا

بسلامتها : أنها لم تقر على ما تلقيت من موسى ، بل زيد فيها ما لم يتلق عن موسى • مثل الذى حكيناه من ذكر وفاته ، وحزن بنى اسرائيل ، وحكاية قول « كلم الله موسى » وهذا يعلم منه على القطع : أن الله لم يقله لموسى ، ولا موسى قاله عن نفسه • يعلم ذلك من وقف عليه ، وتتبعه بضرورة مساق الكلام ، ولا بد •

فالذى زاد ذلك ، لعله الذى وقع الخلل من جهته •

وأما ما ذكرتم من حكم الأنبياء بها ، فليس فيه حجة لامكان أن تنازعوا فى قولكم : كانوا يحكمون بها ، بل لعلهم كانوا يحكمون بما كان الله يعلمهم بما يوافق شريعة موسى ، ولا يخالفها •

ولو سلمنا أنهم كانوا يحكمون بها • فنقول : كل شىء حكم به الأنبياء من التوراة فليس بمحرف ، وأما ما لم يحكموا به منها ، فلعله الذى حرف ، مثل الأخبار التى حكيناها ، ونحكيها ان شاء الله تعالى •

فان قيل : فيلزم منه : أن يقر الأنبياء على الخطأ ، ويتحدثوا بالكذب • فانهم كانوا يتحدثون بها • قلنا : ليس بكاذب من حكى شيئا يعتقد صحته ، لا يتعلق به حكم الله تعالى • وان كان ذلك الخبر فى نفسه مخالفا لمـا فى الوجود • فانه انما يحكى عن اعتقاده ، وهو حق • وانما الكاذب الذى يخبر عن الشىء بخلاف ما هو عليه من العلم بذلك • وهذا حد الكذب عندنا ، وحقيقته •

وهذا • انما يجوز فى حكاية الأخبار التى لا يتعلق بها حكم • وأما ما تعلق به حكم منها فلا يجوز ذلك • اذ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه من الأحكام عن الله تعالى • وانما قلنا هذا ، حذرا من أن ننسب الى الله تعالى ما لا يليق بجلاله أن ينزله فى كتابه ، ولا أن يناجى به صفوة أحبابه من الفواحش والفجور التى حكوها فى التوراة وادعوا أنه فيها مسطور ، مع أنه ليس فى ذكرها فائدة ، بل هى بكل ضلالة عائدة •

وكذلك تنزه موسى والأنبياء بعده صلوات الله عليهم عن ذلك الكلام الغث الركيك ، الذى لو حكى مثله عن بعض السفلة لأنف منه ، واستحى منه ، ولمـا كان ينبغى لعاقل أن يلتفت ويصغى اليه ، ولكان يجب عليه أن يعرض عنه وينكره اذا سمعه • هذا اذا كان محكيا عن

السفلة فكيف اذا حكاه الله عن نفسه • أو عن خيرته من خلقه • الذين برأهم الله عن الكبائر والنقائص التى تناقض نبوتهم ، فهم أكرم الخلق عليه ، وأحظاهم لديه •

وأيضا • فان الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن ، والغيبة والبهتان والاحن ثم يتعامل بها مع أكرم الخلق عليه : فى نفوسهم ، وذراريهم ، وبناتهم ، وينسبها اليهم ، ويشيعها • أبد الآبدين عليهم •

هذا مما لا يليق بجلال الله تعالى ، والقائل بوقوع هذا مستهزىء مفتر على الله •

وسننقل عن بعض ما حكوا فى التوراة من هذه القبائح اثر هذا ان شاء الله تعالى •

ثم نقول : لو سلمنا أنها لم تحرف فى زمان الأنبياء ، لأمكن أن نقول : فلعله حرف بعدهم وذلك بعد وقعة (طيطش) حيث أفناهم ، والذين تنصروا منهم عدد يسير لا تقوم الحجة بقولهم •

وان قلنا : انهم كانوا عددا كثيرا فلم يكن كل واحد منهم ممن يحفظها ولا يضبطها •

ثم نقول للنصارى : ان أنكرتم أن يكون شىء من التوراة حرف • فلأى شىء تقولون : ان اليهود حرفوا فى التوراة فى نسب آدم • ونقصوا منه • واذا جاز ذلك فى نسب آدم ، جاز فى غيره ، وهذا بين • وأما قولهم : يلزم أن لا نقبل خبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب نبى ، فلا يلزم شىء من ذلك • فان الخبر اذا تطرقت اليه أمثال تلك الاحتمالات فلا يوثق بنقله ، ولا يعول عليه ، لامكان تلك الآفات •

أو لعل أشرافكم تتخلب نحو كتابنا • فيقولون : فكتابكم لا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه • فنقول : هيهات انما قلنا : كل كتاب تطرق اليه شىء من تلك الاحتمالات • وكتابنا منزه عن أمثال تلك الآفات • فان الله تعالى تولى حفظه ، وأجزل من كل صيانة حظه ، فصانه • بنظمه الذى لا يقدر الجن والانس على آية منه ، فلا يختلط به كلام متكلم ، ولا يقبل وهم متوهم • اذ ليس من جنس كلام البشر ، وهو معدود الآى والسور ، ثم صانه بأن يسره للحفظ والاستظهار ، فيستوى فى نقله

الكبار والصغار ، لا يختص بحفظه أحد ، والوالد اذ نقص منه حرفا واحدا ، أو غير حركة منه ، رده وأصلحها عليه الولد .

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره فى الدواوين معددة ، وأشكال كتبه ، حروفه فيها مقيدة . ومع هذا . فنقل الأمم التى لا تحصى عن الأمم التى لا تحصى ، حتى يصل ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم المصطفى مع قرب العهد والتشمير فى صيانته والجد ، واستعمال القانون النحوى ، وتثقيف اللسان العربى . فيهما كمل الله له الصون . وحصل له بهما على فهمه أكبر العون . فلله الحمد على ما أولى ، والشكر له على نعمه التى لا تحصى ، فأين اللؤلؤ من الخزف ، والياقوت من الصدف .

وبعد هذا .. فالآن . حان أن نذكر بعض ما وقع فى التوراة مما تطرق اليها التهم .

من ذلك . ما ذكروه فيها فى المصحف الأول منها :

« ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين فى الأرض ، فندم على خلقهم . وقال : سأذهب الآدمى الذى خلقت على الأرض والخشاش ، وطيور السماء ، لأنى نادم على خلقتها جدا »(١) .

وهذا فى حق الله تعالى محال . اذ الندم انما يلحق من لا يعلم مصير المندوم عليه ، ومآله . واعتقاد هذا فى حق الله كفر . اذ ينبىء عن أن الله تعالى جاهل ، وأنه متغير ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . ولفظ « الندم »(٢) هنا نص ، لا يقبل التأويل ، فهو كذب وباطل قطعا .

ومن ذلك . ما ظهر فى الوجود خلافه . وذلك أنهم حكوا فيها : أن بنى اسرائيل يسكنون تلك الأرض الى الانقراض(٣) ، ثم لم يلبثوا أن رأيناهم أخرجوا منها رأى العين .

فقد ظهر أن ذلك باطل وكذب .

ومن ذلك أيضا . أنه حكى فيها : أن الله تعالى كالانسان ، شخص

---

(١) التكوين ٦ : ٦ — ٧

(٢) فى ترجمة ١٩٧٠ « فحزن الرب » بدل « فندم ... » .

(٣) يشير الى وعد الله لابراهيم عن فلسطين « لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد » (تكوين ١٣ : ١٥) واليهود خرجوا من فلسطين .

ذو جوارح(١) ، وهذا على الله بالضرورة محال • ولا للتأويل فى هذا اللفظ مجال • ثم أنى هذا من قوله : « **ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير** »(٢) •

ومن ذلك أيضا • أن الله تعالى حين أمر بنى اسرائيل الى التوجه الى الشام ، وعدهم أن يتوجه معهم وأمرهم أن يعملوا قبة على صفة كذا • ينزل فيها فى سيره معهم •

ثم ان موسى قال له : يارب • ان هذه الأمة القاسية رقابها ، لا تمضى اليك الى الشام ، حتى تمضى معها كما وعدتها • فقال الله : نعم • اعملوا لى القبة • فعمل موسى القبة ، وسماها : قبة العهد ، ونزل الله من عرشه ، وسار معهم فى داخل القبة ينزل بنزولهم ، ويرحل برحيلهم • هذا نص التوراة(٣) •

ومما يذكرونه من بقية هذا ، وليس فى التوراة : أنهم حين جمعوا المـال لعمل هذه القبة أجروا الاتفاق على يد موسى عليه السلام • فلما كمل عملها ، ادعوا عليه : أنه قد نقصهم من المـال ألف رطل ، وسبع مائة رطل وخمسة وسبعون رطلا • وقالوا لموسى تهكما به : أين نقص هذا المـال وانما جرى الاتفاق على يديك ؟ فسمعوا صوتا من السماء يقول لهم : ان هذا العدد دخل فى رؤوس الأعمدة ، وفى التغشية ، فحينئذ كفوا عنه(٤) ، فهؤلاء لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره « **فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون** »(٥) •

ومن ذلك أيضا • أنهم ذكروا فيها : أن الله قال لهم : أن يضربوا القرن فى عسكرهم قليلا قليلا ، حتى يلقوا عدوهم ، فحينئذ يضربونه بأشد ما يقدرون عليه ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم(٦) ، فكأنه سبحانه وتعالى لا يسمع الا الأصوات العالية • فأين هذا من وصف الله تعالى نفسه فى كتابه على لسان نبيه ورسوله حيث قال : « **وان تجهر**

---

(١) أمثلة هذا فى التوراة كثير ولليهود تأويل فى تلك الأمثلة نقلناه عنهم فى كتابنا : الله وصفاته فى اليهودية والنصرانية والاسلام •

(٢) الشورى : ١١ (٣) خروج ٢٥ الى الآخر •

(٤) هذا الخبر ليس فى التوراة • (٥) البقرة : ٧٩

(٦) الاصحاح العاشر من سفر العدد •

بالقـــول . فانه يعلم السر وأخفى . الله لا اله الا هو ، له الأســـماء الحسنى »(١) .

وفيها من هذا النوع كثير ، لو ذهبت أنقله لطال الكتاب ، ولخرجنا من مقصود الباب .

وينبغى أن نذكر الآن ما جاء فيها مما ينزه عنه الأنبيـــاء عليهم السلام :

من ذلك .. ما حكوا فى السفر الأول عن لوط أنه طلع من صاغار ، فسكن الجبل هو وابنتاه معه ، فجلس فى مغار هو وابنتـــاه ، فقالت الكبرى للصغرى : قد شاخ أبونا ، وليس على الأرض رجل يدخل علينا ، نسقى أبانا الخمر ، ونضطجع معه فى مضطجعه ، ففعلتا وحملتا منه بولدين : موآب ، وعمون(٢) .

هذا لوط من رسل الله الأكرمين ، أوقعه الله فى فاحشة ، كما يوقع الأرذلين ، ثم خلد ذكرها فى الآخرين . وهل هذا الا عين الاهانة . وأى نسبة بين هذا وبين النبوة والكرامة ؟

وكذلك أيضا . حكوا فيها : أن اسحق لمـــا شاخ ، وعمى بصره ، دعا بعيسو ابنه الأكبر ليبارك عليه ، وليدعوا له بالنبوة ، فتحيـــل يعقوب عليه . فقال له اسحق أبوه : من أنت ؟ فقال له : بكرك عيسو . فقال له : ادن منى حتى أجسك . فدنا منه ، وقد كان وضع على رأسه شعرا بمكيدة أمه ، فقال له : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو ، فبارك عليه ، ودعا له بالنبوة ، وبشره بها ، وهو على غلط فيه ، ثم بعد ذلك جاء عيسو وقال له : باركنى أيضا يا أبى . فقال له : دخل أخوك بمكر ، فقبل بركاتك . فقال عيسو ، بعد بكاء وحزن : أما تركت من البركات شيئا ؟ أبركة واحدة لك يا أبتى ؟ (٣) .

فما أعظم هذه الآية ، التى تشبه حديث خرافة .

ومن ذلك ما ذكروه فيها أيضا : أن يعقوب بينما هو يصلح خيمته

---

(١) طه : ٧ ، ٨ .

(٢) التكوين ١٩ : ٣٠ ـ ٣٨

(٣) التكوين الأصحاح السابع والعشرون .

ويبسطها ، مشى ابنه رأوبين وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه(١) : بلهة • ولما علم بذلك يعقوب • قال لابنه رأوبين : « فضل العز • فائرا كالماء • فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشى »(٢)

وتفسير هذا : أن سنة الميراث كانت عندهم : أن يرث الولد الأكبر سهمين(٣) • وسائر الولد سهما واحدا ، فعاتب يعقوب ابنه رأوبين على فعله بسريته بأن لم يفضله بالميراث على أنه كان أكبر ولده •

وفى بعض التراجم : أن يعقوب قال : « يا رأوبين •• أنت بكرى وقوتى ، ورأس حراتى ، وعونى ، طائفة الحمولة ، وطائقة العز والمنعة ، عديت مثل الماء ، فلا تمكث ، اذ صعدت الى مضطجع أبيك • حقا لقد نجست مضطجعى ، وتناولته » •

ومن ذلك • ما ذكروه فيها أيضا : أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنته ثامار امرأة ولديه ولقد كانا هلكا عنها واحدا بعد واحد فردها يهوذا الى بيت أبيها ووعدها بتزويج ولده الثالث المسمى بشيلا اذا كبر • ثم انها قعدت ليهوذا فى طريق غنمه ، وتسترت جهدها فظنها بغيا ، فعدل اليها ، ودعاها الى نفسه ، فسألته أجرا ، فوعدها بجدى من غنمه ، فطلبت منه رهنا • فأعطاها خاتمه ومنديله وعصاه وواقعها بزعمهم فحملت منه • ثم ان يهوذا أرسل بالجدى ليطلب رهنه ، فلم توجد المرأة فجاء بنفسه الى أهل القرية ، وقال لهم : أين قحباكم المتبلطة على الطريق ؟ فقالوا : ما كان منا على الطريق قحبا • ثم قيل له بعد حين : ان كنتك ثامار حبلى • فقال : تحرق بالنار(٤) • فأخرجت لتحرق بالنار • فقالت : انما أنا حامل منه ، وهذه رهنه بيدى ، حين زنى بى ، ليفكها بجدى من غنمه ، فعرف ذلك يهوذا ، وقال : هى أصدق منى •

وفى بقية هذا الخبر خرافة : وذلك أن ثامار • لما جاءها المخاض كان فى بطنها توأمان ، فتناولت القابلة خيط عهن ، فربطته على يده • وقالت : هذا يخرج بديا • فلما مد يده خرج أخوه • فقالت : لقد انحزمت فيك ثلمة عظيمة(٥) •

---

(١) تكوين ٣٥ : ٢١ ــ ٢٢ (٢) تكوين ٤٩ : ٣ ــ ٤

(٣) تثنية ٢١ : ١٧ (٤) لاويين ٢١ : ٩

(٥) قصة زنى يهوذا بثامار فى الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين •

وحكى فيها أيضا : أن دينة بنت يعقوب خرجت لبعض شأنها فنظر اليهـا شخيم بن حمورا الزناتى(١) ، فعشقها واحتملها ، فواقعها ، وافتضها • ثم ان شخيم قال لأبيه حمورا : اخطب لى هذه الجارية لتكون لى امرأة • فبلغ ذلك يعقوب ، وأنهم قد نجسوا دينة ابنته فصمت يعقوب ، وأطرق حتى أتاه بنوه • فلما بلغهم ذلك اغتموا ، وساءهم ذلك واشتد عليهم ذلك جـدا ، لأنهم ارتكبوا النجاسة فى اسرائيل ، ثم ان بنى يعقوب عاقدوا شخيم ، وحمورا أباه ، وقومه : أنهم اذا اختتنوا أنكحوه أختهم دينة • فانهم قالوا لشخيم : لا نقدر أن نزوج أختنا من رجل له غرلة • ولكن اذا اختتنتم زوجناكم أختنا وبناتنا ، ونتزوج بناتكم •

ففعل القوم ذلك • فلمـا اشتدت بهم أوجاعهم تناول شمعون ولاوى • كل واحد منهما حربة ، ودخلا على القرية بغتة ، فقتلا كل ذكر فيها(٢) •

ومثل هذا كثير مما يخرج استقصاؤه الى التطويل •

وكذلك حكوا فيهـا أيضا من وعيد الله لبنى اسرائيل بالفاحشة والقبيح ، ما لا يقبله ذو عقل صحيح •

مثل ما حكوا أن موسى قال لبنى اسرائيل فى الوصية التى وصاهم بها حيث قال لهم : « ان كفرت بربك ، وحدت عن سبيله ، وعبدت الآلهة الأجنبية يضربك الرب بقرحة مصر ، وبالبواسير والجرب والحكة ، حتى لا تستطيع الشفاء • تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها »(٣) •

وهذا الكلام تضمن : أن الله تعالى توعد بنى اسرائيل ، من عبد غير الله منهم بثلاثة أنواع من الفواحش ، لا ينبغى لذوى المروءات أن يتلفظوا بها ، ولو أسقطوا مروءتهم فتلفظوا بها ، لمـا كان ينبغى لهم أن يتوعدوا بها ، ولا أن ينفذوا ذلك الوعيد لفحشه ، ثم انهم يلزمهم على هذا أحد ثلاث أمور : أحدها : أن يكون هذا الكلام باطلا أو كذبا على الله تعـالى عن ذلك — أو يكون بنى اسرائيل كل من أشرك منهم

---

(١) فى ترجمة ١٩٧٠ « شكيم بن حمور الحوى » •

(٢) هذه القصة فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين •

(٣) النص فى الاصحاح الثامن والعشرين من التثنية •

وعبد غير الله أن يبتلى بهذه الأدواء الثلاثة ، وأن يكونوا بنى زنى •
ولا يقدرون على أن ينكروا : أنهم قد أشركوا بالله ، وأنهم عبدوا
الأوثان بعد موسى • فيلزم من ذلك — ان لم يكن ذلك الكلام محرفا —
أن يكونوا كلهم بنى زنى ، وقرحانين ، وموصوفين بالفاحشة الكبرى •

وحكوا فى سفر(١) صموئيل الثانى : أن داوود عليه السلام اطلع
من قصره ، فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل فى دارها فعشقها ،
وبعث فيها ، فحبسها أياما حتى حبلت — تعالى الله أن يجرى ذلك
على رسله — ثم ردها ، وكان زوجها يسمى أوريا ، غائبا فى العسكر ،
ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به الى داوود فبعث داوود الى
يوآب بن صوريا ، قائده على العسكر يأمره أن يبعث اليه بأوريا زوج
المرأة فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر ، وأمره بالانصراف الى
أهله ليواقعها فينسب الحمل اليه ، ففهم الأمر أوريا وتخابث ، فلم يمش
الى أهله • وقال : حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله ، وأمشى أنا
الى أهلى • فلما يئس داوود منه ، رده الى العسكر ، وكتب الى القائد أن
يصدر به فى القتال مستقتلا له • فقفل أوريا ، وقتل معه من المؤمنين :
سبعة آلاف ، وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين •
وقال للرسول : اذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل الناس ورأيته قد
غضب • قل له سريعا : ان أوريا قتل فيهم • ففعل الرسول ، وسكن
داوود من بعد الغضب ، وسر بموت أوريا ، وهانت عليه من أجل موته
دماء المؤمنين •

فاعتبر • هذه الفواحش المنكرة ، وهذه الصفات المذمومة
المستقذرة • هل تليق بأولى الديانات ؟ فكيف بمعدن النبوات ؟ وهل
يحمد ذكرها عند ذوى المروءات ؟ فكيف عند الحى الكريم اله المخلوقات ؟
تبا لهم ، ولمصدقهم • وخسرا براحنة وجذعا وعقرا • فوالله لقد افتروا
على رسل الله ، وكذبوا على كتب الله « **افتراء على الله ، قد ضلوا
وما كانوا مهتدين** »(٢) •

---

(١) عبارة المخطوطة : سفر ملاخيم • وفى ترجمة الكاثوليك اسمه سفر
الملوك الثانى • وقصة زنى داوود التى ذكرها المؤلف فى الاصحاح الحادى
عشر •

(٢) الأنعام : ١٤٠

وكتبوا فى هذا المصحف(١) : أن أمنون بن داوود عشق أخته تامار بنت داوود ، وتمارض فعاده أبوه ، فتمنى عليه طعاما تطعمه تامار أخته ، فبعث بها داوود اليه ، فلما قربت اليه الطعام وضع يده فيها ، وافتضها . فخرجت باكية فلقيها أخوها الآخر ، شقيقها أبشالوم ، فأخبرته ، فهون عليها . ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك .

وكتبوا فى هذا المصحف(٢) : أن أبشالوم بن داوود . نافق على أبيه ، وأخرجه عن قصره ودخل على نسـائه ، فوطئهن كلهن على أعين بنى اسرائيل استبلاغا فى الانتقام من أبيه .

ومن أفضح ما كتبوا فى هذا المصحف(٣) عن سليمان بن داوود : أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر ، وسبيت نساؤه دينه . كذبوا . « **قاتلهم الله ، أنى يؤفكون** »(٤) اذ بالأباطل والفواحش يتقولـون ويتخرصون . فلقد صدق الله العظيم ورسوله الكريم حيث قال سبحانه وتعـالى فى محكم كتابه الحكيم : « **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفـر سليمان ولكن الشياطين كفروا** »(٥) فغضب الله عليهم وعلى من يصدقهم الى يوم الدين ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فهذه الحكايات الوخيمة ، والأقوال غير المستقيمة : تضمنت الأخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه وأنهما حملتا منه من الزنى . وأن نبوة يعقوب انما حصلت له بأن خدع اسحق ومكر به . وانما كانت لعيسو . وأن داوود زنى بامرأة مؤمنة ، زوجة مؤمن . وأن داوود تحيل على زوجها حتى قتل ، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين ، فسر بذلك . وأن رأوبين زنى بسرية أبيه يعقوب ، وكذلك يهوذا زنى بكنته ثامار ، وولدت له من الزنى توأمين . وأن ابنة يعقوب زنى بها شخيم بن حمورا . وأن

---

(١) الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثانى .
(٢) الاصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثانى .
(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح الحادى عشر — واسمه سفر الملوك الثالث فى ترجمة الكاثوليك (الآباء اليسوعيين)
(٤) التوبة : ٣٠ (٥) البقرة : ١٠٢

أولاد يعقوب بعد أن أمنوه وعقدوا معه ، غدروا به • وقتلوه وأباه ، وأهل القرية • وأن أمنون بن داوود زنى بأخته تامار بنت داوود • وأن أخاها أبشالوم قتله غيلة وغدرا • وأن أبشالوم زنى بنساء داوود أبيه ، وأن سليمان ارتد عن نبوته ، وعبد الأصنام •

فان ثبت هذا الذى ذكروه فى كتبهم — تعالى الله والأنبياء عن قولهم — فهذا الشعب الذى ذكروا فيه هذه الفواحش ، ليس هو شعب النبى اسحق • بل هو شعب : غدر ونفاق وزنى وكفر • وكيف يصح أن تكون هذه الأفعال القبيحة أفعال أهل نبوة صحيحة ؟ بل كل ذلك ناقض للنبوات ، لا سيما مع دعاء ابراهيم واسحق لذريتهما بالبر ، والبركات • فان كان هذا شعبهما الذى دعـوا له بالبر ، والبركة • فدعاؤهما غير مسموع ، وقولهما مردود مدفوع •

ثم هذه الحكايات الوخيمة ، الفاحشة غير المستقيمة فى التوراة • لهـا أمور أخر تعارضها • بل وأدلة العقل تناقضها •

من ذلك : ما حكى فيها من مدح لوط على لسان ابراهيم ، وشهادته له بالبر • وذلك أن الله تعالى لـمـا أعلم ابراهيم بأنه يريد أن يهلك سدوم وعمورا • وهما مسكن قوم لوط • قال : « يا رب أتهلك الأبرار مع الفجـار » ؟(١) يعنى بالأبرار : لوطا وبنتيه • فسماهم : أبرارا • وشهد له بذلك بين يدى الله تعالى • وكيف يصح أن يكون ابنتا لوط من الأبرار ، ويوقعان أنفسهما فى أن يزنى بهما أبوهما نبى الله ؟ ثم لم يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة • ثم ان الله شـهد عنه هذه الفضيحة التى يتحدث بها على مد الدهر ، مع أنه لم يسمع قط من المتشرعين من أجاز نكاح البنات • وهل هذا من ناقله وناسبه الى الله ، الا جرأة وتواقح على الله •

وكذلك ما كتبوه فيها من الحكايات التى ذكرناها فى ذرية اسحق ، يعارضه ما حكوا فيها عن الله أنه قال لابراهيم ، فى غير موضع ما منها : « لأباركك بركة تامة ، ولأكثر نسلك ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتنى »(٢) •

---

(١) تكوين الاصحاح الثامن عشر : ٢٣
(٢) تكوين ٢٢ : ١٧ — ١٨

وكذلك قال الله لاسحق بعد موت ابراهيم : « أنا معك أكون ، وأباركك • لأنى أعطيك ونسلك ، جميع هذه المتملكات ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب »(١) •

وكذلك قال اسحق ليعقوب حيث مكر به يعقوب بزعمهم قاتلهم الله • قال : « به يؤتيك الله من ظل السماء ، وخصب الأرض ، تعبدك الأمم ، وتسجد لك الشعوب • كن رئيسا لاخوتك • تسجد لك بنو أمك ، مباركوك مباركون ، ولاعنوك ملعونون »(٢) •

تأمل بعقلك هذه المخازى البادية ، وما نسبوا فى كتبهم الى أكرم الخلق من المناكر الفاشية •

فاذا أنت أمعنت النظر ، واشتدت منك العبر • علمت أن هذه الحكايات بواطل • وأن ملحقها فى التوراة وناسبها الى الله متزندق جاهل • وانما ألحقها عدو للأديان • أراد أن يقول فى صفوة الله : البهتان ، فحصل له مراده ، حيث أفسد على المتشرعين الايمان •

ثم نقول للنصارى بعد ذلك : العجب منكم ، ومن جهلكم حيث صدقتم بوقوع هذه الفواحش من الأنبياء ، واعترفتم مع ذلك بنبوتهم • ثم لم تجوزوا على الحواريين وقوع الغلط منهم فيما حكوا لكم ان صحت الحكايات عنهم من اتحاد العلم باللحمة ، فان العقل يدل بضرورته على أن ظاهر ذلك فاسد محال • فهلا عليكم تأولتم ذلك ، أو قلتم : انه يجوز عليهم الغلط ، ولا يدل ذلك على نقضهم كما قلتم فى الأنبياء الذين حكيت عنهم تلك الفواحش ، ولو فعلتم ذلك لكان الأولى عند العقلاء •



(١) تكوين ٢٦ : ٣ ــ ٤

(٢) تكوين ٢٧ : ٢٨ ــ ٢٩

فصل فى بيان أن الانجيـــل ليس بمتواتر وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل

فنقول وبالله التوفيق :

ان هذا الكتاب الذى بيد النصارى اليوم الذى يسمونه بالانجيل • ليس هو الانجيل الذى قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : « **وأنزل التوراة والانجيل • من قبل هدى للناس** »(١) •

وانما قلنا هذا فى الانجيل ، دون التوراة ، لأن التوراة قد ثبت عندنا وعندهم أن الله تعالى كتبها فى الألواح لموسى عليه السلام • وتدعى اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح • فحصل من هذا : أن التوراة بلغت بجملتها عن موسى عليه السلام • ثم انه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره •

وأما هذا الكتاب الذى يدعى النصارى أنه الانجيل : فقد توافق هؤلاء النصارى على أنه انما تلقى عن اثنين من الحواريين وهما : متاؤوش(٢) ويوحنا • وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما : ماركش ولوقا • وأن عيسى عليه السلام لم يشافههم بكتاب مكتوب عن الله كما فعل موسى • ولكن لمــا رفع الله عيسى عليه الســلام اليه • تفرق الحواريون فى البلاد والأقاليم ، كما أمرهم عيسى فكان منهم من كتب بعض سيرة عيسى ، وبعض معجزاته ، وبعض أحواله ، حسب ما تذكر • وما يسر الله عليه فيه • فربما توارد الأربعة على شىء واحد فحدثوا به ، وربما انفرد بعضهم بزيادة معنى • وكذلك كثيرا ما يوجد بينهم من اختلاف مساق وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان ، وسترى بعض ذلك ان شاء الله تعــالى • فعلى هذا لا يسمى الانجيل كتاب الله المنزل حقيقة • فان حقيقة الكتاب المنزل بحكم العرف انما هو : عبارة عن جملة من كلام الله المبلغة على لسان رسول من رسله يحكيها ذلك الرسول عن الله تعالى •

---

(١) آل عمران : ٣ ، ٤ •

(٢) متاؤوش هو : متى فى التراجم الحديثة • وماركش هو : مرقس •

وليس شىء من هذا موجودا فى الانجيل فان سماه مسم كتابا منزلا ، ولم يرد هذا المعنى فلا بد من أن نسأله عن المعنى الذى يريده بذلك الاطلاق • فلا شك أنه يقول : انما سميته كتابا منزلا ، لأن عيسى جاء من عند الله ، وبلغنا شرع الله • وفى ذلك الكتاب وصف سيرته ، وحكايات وأخبار عن الله • فكيف لا يقال عليه : هو كتاب الله ، ومنزل من الله • فنقول له : نسميه هذا كتاب الله بالمجاز ، أو بالحقيقة ؟ فان قال : بالحقيقة • فكلامه باطل • فان حقيقة كتاب الله المنزل ، هو ما قدمناه • وان قال : بالمجاز • قنعنا بهذا • ثم ألزمناه عليه : أن يكون كل كتاب يحكى عن نبى من أنبياء الله • فان ألفه أى مؤلف كان كتاب الله ، ولا فرق •

واذ انتهينا الى هذا ، فقد حصل غرضنا • وهو : أن هذا الانجيل الذى بأيديهم ليس منزلا • ولا يقال عليه : كتاب الله المنزل ، كما يقال على التوراة والانجيل ، والقرآن • وذلك ما كنا نبغى •

فقد حصل من هذا الكلام : أنه ليس منزلا من الله حقيقة ، وأن نقله ليس متواترا فانه راجع الى الأربعة الذين ذكرناهم • والعادة تجوز عليهم الغلط ، والسهو ، والكذب • فان قالوا : هم معصومون فيما نقلوه عن عيسى عليه السلام • قلنا : ما دليل عصمتهم ؟ فان قالوا : دليل عصمتهم أنهم كانوا أنبياء ، ودليل نبوتهم : ما ظهر على أيديهم من خوارق العادات • وشهادة عيسى عليه السلام لهم حيث قال لهم : « كل ما سألتموه ، اذا حسن ايمانكم ستجابون »(١) وقال لهم : « ستوقفون على الملوك • ويسألونكم ، فلا تفكروا فيما تقولون • فانكم ستهدون ذلك الوقت ، لما تقولونه ، ولستم تنطقون أنتم • لكن روح القدس ينطق على ألسنتكم »(٢) وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه دعا الاثنى عشر حواريا ، وأعطاهم من القدرة والسلطان • ما ينفون به جميع الجن • ويبرءون به الأسقام(٣) • وكذلك قال لبطرس : « ما عقدته أنت فى الأرض ، فمعقود فى السماء ، وما حللته فى الأرض

---

(١) متى الاصحاح السابع عشر والحادى والعشرين •

(٢) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

فمحلول فى السماء »[١] وأما خوارق العادات • فقد كانوا يحيون الموتى ، ويبرءون المرضى ، كما كان يفعله عيسى عليه السلام وذلك معروف من حالهم[٢] •

قلنا : ما ذكرتموه عن عيسى عليه السلام من الشهادة • فلا يصح لكم الاستدلال بشىء مما ذكرتموه • لوجوه :

أحدها : أنكم أسندتم ذلك الى الانجيل ، واستدللتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه ، وما جاء عنهم فيه ، لا يثبت حتى تثبت عصمتهم ، فلا يثبت بما ذكرتموه ، لا الانجيل ، ولا عصمتهم •

الوجه الثانى : أنا لو سلمنا ذلك لكم • لما كان فيما ذكرتموه حجة ، لأنه ليس شىء منها ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الاطلاق ، وغاية ما ذكرتموه : أن يدل على أنهم يعانون ويؤيدون مما يبلغون عن عيسى فى بعض الأوقات ، أو فى بعض الأخبار والاحوال •

والوجه الثالث : أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا • وذلك أنهم نقلوا فى الانجيل أنه قال للحواريين : « يا نسل التشكيك والكفر • الى متى أكون معكم ؟ والى متى أحتملكم ؟ »[٣] وأما ما قال لبطرس فهو أيضا معارض بما حكيتم عنه أنه قال له : « تأخر يا شيطان • فانك جاهل بمرضات الله »[٤] •

وأما ما ادعوه من معجزاتهم فلم ينقل منها شىء على التواتر • وانما هى أخبار آحاد غير صحيحة • ولو سلمنا أنها صحت لما دلته على صدقهم فى كل الأحوال • وعلى أنهم أنبياء • فان القوم لم يدعوا النبوة لأنفسهم ، وانما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام • فظهر من هذا البحث : أن الانجيل المدعى لم ينقل تواترا ، ولم يقم دليل على عصمة ناقليه • فاذن يجوز الغلط والسهو على ناقليه ، فلا يحصل العلم بشىء منه • بل ولا غلبة الظن • فلا يلتفت اليه • ولا يعول فى الاحتجاج عليهم •

---

(١) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

(٢) لوقا : الاصحاح التاسع •

(٣) الاصحاح التاسع من انجيل لوقا •

(٤) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

وهذا كاف فى رده ، وبيان قبول تحريفه ، وعدم الثقة بمضمنه • ولكنا مع ذلك نعمد منه الى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته ووقوع الغلط فى نقله بحول الله تعالى •

فأول ذلك : أنهم ذكروا فى أول ورقة من انجيل يوحنا حيث ذكر المسيح ، فقال : « : ولد(١) المسيح الذى هو بادىء الأشياء وعلتها الأولى علة جميع الأشياء ، وكل زمان • ورأس كل نظام ، وأولية جميع المراتب » ثم قال بعد ذلك فى معرض مدحـــه : « المكلوم فى لحمه ، المعلق فى الخشبة » •

كيف يجترىء عاقل : أن يتحدث بمثل هذا العار ؟ أو كيف تصح نسبة هذا التناقض البين الى أحد من الأخيار ؟

وذكروا فيه أيضا : أن عيسى عليه السلام قال : « أنا الباب • فمن دخل على يسلم • ويجد مرعى أبدا » ثم عرض بمن قبله من الأنبياء فجعلهم لصوصا وسراقا • فقال « آمين ، آمين • أقول لكم : انى باب الضأن ، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسراقا ، ولا يقبل اللص الا ليسرق شيئا ويقتل • وأنا قدمت لتحيوا ، وتزدادوا خيرا »(٢) •

وفى الانجيل أيضا أنه قال : « ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى غير مقبولة ، ولكن غيرى يشهد »(٣) ثم فى موضع آخر من الانجيل أنه قال : « ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق • لأنى أعلم من حيث جئت والى أين أذهب »(٤) •

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا ، ومقبولة وغير مقبولة ؟ وكيف يجمع بين هذين فى كتاب ينسب الى الله ؟

وفى الانجيل أيضا : أنه حين استشعر بوثوب يهوذا عليه • قال : « قـــد جزعت نفسى الآن • فماذا أقول يا أبتـــاه ؟ فسلمنى فى هذا الوقت »(٥) وأنه حين رفع فى الخشبة صاح صياحا عظيما وقال :

---

(١) يشير الى بدء انجيل يوحنا : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ••••• » •

(٢) الاصحاح العاشر من يوحنا •
(٣) يوحنا ٥ : ٣١
(٤) يوحنا ٨ : ١٤
(٥) متى ٢٦ : ٣٨

« آلى • آلى • لم عد بتـــاى » ؟ وترجـــمته : « الهى • الهى • لم أسلمتنى »[١] ؟

ثم فى أول ورقة منه : « انما أسلم نفسه لتظهر قدرته بسلطانه على الموت ، وظفرته على جميع الآلام والمهن التى تستقبحها أوهام الآدميين »[٢] •

فكيف يصيح ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته ؟ وهل سمع قط أسخف من هذا القول ؟ أو أظهر تناقضا منه ؟

ثم فى موضع آخر منه : أنه قال قبل ذلك : « من أحب أن يقفوا أثرى ، فليذهب نفسه »[٣] فحرض على اتلاف النفوس • فكيف يجزع مما يحرض عليه قبل ؟ أم كيف يكون الها ويجزع نفسه ؟ أم كيف يكون « ابن الله » ؟ ثم يدعوه أن يخلصه فى ذلك الوقت فلم يستجب له ؟

ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه : أن فى انجيل متاؤوش الحوارى حين ذكر نسب عيسى عليه السلام حيث نزل خطيب مريم أبا لعيسى • فقال : « ابن يوسف بن يعقوب بن مثان بن أليعازر بن أليود ابن أخيم »[٤] وعد الى ابراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا ، ثم فى انجيل لوقا يقول : « يوسف بن هالى بن متثات بن لاوى بن ملكى • بن ينا »[٥] وعد الى ابراهيم نيفا وخمسين أبا •

فياليت شعرى • كيف يجوز مثل هذا على الله ؟ أو كيف ينقل هذا فى كتاب معلوم عن الله ؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الخرق المتسع بأن قال : أحد النسبين طبيعى ، نسب التوليد ، والآخر نسبه شرعى ، نسب الولاء والكفالة • والتناقض باق عليه بعد اختراع هذا الهذيان •

---

(١) « ايلى • ايلى • لمـا شبقتنى أى الهى الهى لمـاذا تركتنى ؟ » (متى ٢٧ : ٤٦)

(٢) الآية بالمعنى فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا والاصحاح الثانى من سفر أعمال الرسل •

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

(٤) الاصحاح الأول من انجيل متى •

(٥) الاصحاح الثالث من انجيل لوقا •

ثم انظر هذه الشناعة التى ارتكبوها • حيث نسبوا عيسى عليه السلام الى رجل زعموا أنه خطب أمه مريم وأى نسبة تثبت بينهما ، بأن أراد أن يتزوج انسان أمه ؟ ثم انهم يبلغون نسب يوسف الى آدم • ثم يقولون : الى الله •

فهلا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب فى عيسى ، ويقولون فى عيسى : ما يقولون فى آدم ؟ لولا الجهل والتحكم •

وفى الانجيل عنه : أنه كان يوما قد نهاهم عن التجارة فى بيت المقدس • وأن اليهود قالت له حينئذ : « أى علامة تظهر لنا ؟ قال : تهدمون هذا البيت وأبنيه لكم فى ثلاثة أيام ، فقالت اليهود : بيت بنى فى ستة وأربعين سنة تبنيه أنت فى ثلاثة أيام »[١] ؟

ثم فى موضع آخر منه : أنه لما ظفرت به اليهود — بظنكم — وحمل الى بلاط قيصر ، واستوعيت عليه بينة • أن شاهدى زور ، جاءا اليه • وقالا : سمعنا هذا يقول : أنا قادر على بنيان البيت فى ثلاثة[٢] •

وهذه شهادة موافقة لما قال عيسى لليهود • فهذا الشاهد قال عليه الحق لما يقتضيه كلامه • ومن شهد بما سمع • كيف يقال عليه : شاهد الزور ؟ أو كيف يسميه الله شاهد زور ؟ ومن أعجب الأشياء : أن اليهود لا تعرف شيئا من هذا • ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس ولا سوى ذلك مما تصفون من خرافات كتبكم •

وفى الانجيل أيضا للوقا : أن عيسى قال لرجلين من تلاميذه : « اذهبا الى الحصن الذى يقابلكما ، فاذا دخلتماه فستجدان فلوا مربوطا لم يركبه أحد • فحلاه واقبلا به الى »[٣] وفى الانجيل لمتاؤوش[٤] يصف هذا الخبر بعينه ، ويذكر أنها كانت « حمارة » فحسبك بهذا خللا وتناقضا •

---

(١) الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا •
(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى •
(٣) الاصحاح التاسع عشر من انجيل لوقا •
(٤) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى •

وفى الانجيل أيضا للوقا(١) : يخبر عن المرأة التى صبت الطيب على رجلى المسيح ، وشق ذلك على التلاميذ ، وقالوا لها : هلا تصدقت به ؟ وفى الانجيل لمتاؤوش(٢) : أنهـا انما صبت الطيب على رأس المسيح • فما أبعد اليقين عن خبر فيه مثل هذا الاختلاف المبين •

وفى الانجيل(٣) أيضـا : أن أم ابنى زبدى جاءت الى عيسى ، ومعها ابناها • فقال : ما تريدين ؟ فقالت : أريد أن تجلس ولداى أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، اذا جلست فى ملكك • فقال : تجهلين السؤال • أيصبران على الكأس التى أشرب بها ؟ فقالا : نصبر • فقال : ستشربان بكأسى ، وليس الى تجليسكما عن يمينى ، ولا عن شمالى ، الا لمن وهب ذلك •

فقد أخبر هنا : أنه لا يقدر على تجليسهما عن يمينه ، ولا عن شماله •

وفى أول ورقة(٤) منه : أنه بادىء الأشياء وعلتها ، وعلة كل زمان • فكيف يصح أن يكون بادىء الأشياء كلها وعلتها ، ولا يقدر أن يجلسهما عن يمينه ، ولا عن يساره • ثم يتبرأ عن ذلك بقوله : « الا لمن وهب ذلك لى » ولا مزيد فى التناقض والفساد على هذا •

وفى الانجيل أيضا أنه قال : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض • لم آت لصلاحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم • انما قدمت لأفرق بين المرء وابنه والمرأة وابنتها ، حتى يصيروا أعداء المرء أهل بيته »(٥) •

وفيه أيضا عنه : « انما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا ، وأصلح بين الناس »(٦) وأنه قال : « من لطم خدك اليمنى ، فانصب اليسرى »(٧) ولا مزيد فى التناقض والفساد على هذا •

---

(١) الاصحاح السابع من انجيل لوقا •
(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى •
(٣) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى •
(٤) يشير الى انجيل يوحنا الاصحاح الأول •
(٥) متى ١٠ : ٣٤ ـ ٣٦
(٦) متى ٢٠ : ٢٨ (٧) متى ٥ : ٣٩

وفى الانجيل أيضا أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى ، انما جئت لأتمم »[1] وكلاما من معناه • ثم فيه بعد أحرف قليلة : كلام آخر ينقض فيه شريعة من قبله وذلك أنه قال : « انما علمتم أنه قيل للقدماء : لا تقتلوا • ومن قتل فقد استوجب النفى من الجماعة » ثم قال بعد ذلك : « أما علمتم أنه قيل للقدماء : من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق • وأنا أقول لكم : من فارق امرأته منكم • فقد جعل لها سبيلا الى الزنى • ومن زوج مطلقة فهو فاسق » ثم قال : « أما بلغكم أنه قيل للقدماء : العين بالعين ، والسن بالسن • وأنا أقول لكم : لا تكافئوا أحدا بسيئة ولكن من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى • ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك »[2] •

كيف يصح أن يقول : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى » ثم ينقضها حكما حكما ؟ ثم قوله « جئت متمما » لا يصح أيضا • فان شريعة موسى كانت تامة كاملة • والتام لا يتمم ، والكامل لا يكمل • فهذا تناقض وفساد •

وعيسى عليه السلام منزه مبرأ عن كل تناقض وفساد • وليس هذا ولا شىء منه من قبله ، بل هو منزه عن ذلك كله •

وفى الانجيل أيضا لمتاؤوش : أن المسيح قال لبطرس : « طوبى لك يا شمعون بن الحمامة • وأنا أقول انك الحجر ، وعلى هذا الحجر أبتنى بيتى • فكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماء ، وما عقدته على الأرض يكون معقودا فى السماء »[3] ثم بعد أحرف يسيرة قال بعينه : « اذهب يا شيطان ، ولا تعارض ، فانك جاهل بكونى »[4] •

فكيف يكون شيطان جاهل يطيعه صاحب السماء ؟ وهذا غاية التناقض •

وفى الانجيل أيضا لمتاؤوش : أن عيسى قال : « لم تلد النساء

---

(١) متى ٥ : ١٧

(٢) متى ٥ : الى ٤١

(٣) متى ١٦ : ١٨ ــ ١٩

(٤) متى ١٦ : ٢٣

مثل يحيى »(١) ثم فى انجيل يوحنا أن يحيى بعثت اليه اليهود من يكشف لهم أمره فسألوه : « من هو ؟ أهو المسيح ؟ قال : لا • قالوا : أتراك الياس(٢) ؟ قال : لا • قالوا : أنت نبى ؟ (٣) قال : لا • قالوا : أخبرنا من أنت ؟ قال : أنا صوت مناد ، فى المفاز » •

فنفى عن نفسه كونه « نبيا » ولا يجوز لنبى أن ينكر نبوته ، فانه يكون كاذبا والنبى الصادق لا يكذب •

فليزمهم أحد أمرين : اما أن يكون يحيى ليس بنبى ، وهو باطل أو يكون انجيلهم محرفا وهو حق •

ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل لاحتاج ذلك الى التكثير والتطويل • وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل : أن كتابهم قابل للتحريف والتغيير • فكيف بالتزيد والتكثير ؟

فقد حصل من هذا البحث الصحيح :

أن التوراة والانجيل لا تحصل الثقة بهما ، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير •

وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك • واذا جاز مثل ذلك فى هذين الكتابين مع كونهما أشهر ما عندهم ، وأعظم عمدهم ومستند ديانتهم • فما ظنك بغير ذينك من سائر كتبهم التى يستدلون بها مما ليس مشهورا مثلهما ، ولا منسوبا الى الله نسبتهما ؟

---

(١) متى ١١ : ١١

(٢) الياس فى التراجم الحديثة : ايلياء •

(٣) المؤلف قرأ النص « أنت نبى » والصحيح كما فى جميع التراجم « أنت النبى ؟ » لأنهم يسألون عن نبى معهود تحدث عنه موسى فى الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية فنفى يحيى أنه النبى المسئول عنه ، لا أنه ينفى نبوته كما فهم المؤلف • وهذا النبى المسئول عنه هو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا النص فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا •

فعلى هذا • هما أولى بعدم التواتر ، وبقبول التحريف فيهما • فاذا ادعوا تواتر شيء من ذلك فلينظر • هل كملت فيه شروط التواتر أم لا ؟ فان كملت قبلنا وآمنا • وان لم تكمل توقفنا وطالبناهم بالطريق الموصل الى العلم •

فاذا ثبتت هذه المقدمة • قلنا بعدها للمستدل على اثبات نبوة عيسى بالأدلة المتقدمة : لا تظن أننا نرد نبوة عيسى ، أو أنا نشك فيها • حاشى لله • بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم • فانكم قلتم فيه ما لا ينبغي له ، ونسبتموه الى ما يتبرأ هو منه • بل أنتم لعمري والله أبعد منه ، وأبغض اليه ممن أنكر نبوته • وكفر به • فان من أنكر نبوته ، وكفر به • لم يشرك بالله كما فعلتم أنتم حيث جعلتموه الهـا آخر ، ولم يعرض بعيسى عليه السلام للموقف المخجل الذى يسأله الله فيه عن غلوكم فيه وعبادتكم له • حيث يقول الله له :

« يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى : الهين من دون الله » ؟ فيقول خجلا ، فزعا ، متبرأ من قبيح ما نسبتموه اليه : **« سبحانك • ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته »**(١) •

وأما نحن • فانما نقـول فيه ، ما قاله الله على لسان رسـوله المصطفى : **« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام »**(٢) وما قاله الله أيضـا فيه على لسان أشعياء حيث بشر به ، وأخبر بقدومه : « هذا غلامى المصطفى وحبيبى الذى ارتضت به نفسى »(٣) •

وما قاله هو عن نفسه حين تكلم فى مهده : **« انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت • وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا »**(٤) •

فنحن نعرفه حق معرفته ، ونؤمن بنبوته وشريعته ، ونحيل عليه الالهية ، اذ ليست من صفته **« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم**

---

(١) المـائدة : ١١٦ (٢) المـائدة : ٧٥

(٣) الاصحاح الثانى والأربعين من سفر أشعياء •

(٤) مريم : ٣٠ ، ٣١

والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين ، بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون »(١) .

ثم انا نعرف ما ذكرناه من وصفه بأدلة كثيرة قاطعة ، وبراهين صادقة تخضع لها رقاب الجاحدين ، وتستضىء بنورها بصائر المبصرين .

واذا كان كذلك . فما استدللت به أنت على نبوة عيسى من كلام النبيين ان صح فهو زيادة فى أنواع الأدلة ، لا فى نفس اليقين . فلذلك لا نباحثك فيها ، ولا نبالى بك . أتجهلها أم تدريها ؟ على أنا لو ناقشناك فى تلك الأدلة لأظهرنا لك فيها الفساد والعلة . ولكن ما لا يخالف غرضنا ولا يقتضيه . فما بالنا نطول أنفاسنا فيه .



(١) آل عمران : ٧٩

الفصل السابع

هاجر أم اسماعيل الذبيح

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنت أيها الانسان ، تجدوا فى كتابكم ، فى آل عمران :
« وأنزل التوراة والانجيل . من قبل هدى للناس »(١) .

فأنت مقر بالتوراة والانجيل ، فاثبتوا دينكم من التوراة ، كما اثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء . واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم شيئا . فان قلت : من كتابك شيئا . قلت لك : كما قال رسولك : (البينة لمن ادعى ، واليمين على من أنكر) . فوجب عليك أن تثبت دينك من التوراة والانجيل التى أنت مقر بهم ، وأنت مدعى : أن كتابكم من الله فاثبتوه من التوراة بالعبرانى ، ومن الانجيل بالعجمى ، كما أنتم مقرون .

وقولكم : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »**(٢) .
فانى أطلبك من الكتب التى جاءت به الرسل ، كما قلتم . فائت بما ادعيت ، والا « يمينى » لأنى أنكر لك ، ولا نقبل لك من النبوات والروايات المرويات عن مسلم فى كتابه الذى قال : « حدثنا سفيان عن الزهرى ، عن قتادة ، عن عائشة ، قالت : جاءت امرأة رفاعة الى الرسول . فقالت له : كنت لرفاعة ، فطلقنى ، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، فتبسم الرسول ضاحكا . وقال : (أتريدين أن ترجعى الى رفاعة ؟ لا . حتى تذوقى عسيلته ، ويذوق عبد الرحمن بن الزبير عسيلتك) . وفى رواية أخرى عن عائشة قالت : « طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل ، ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، وأراد زوجها الأول أن يتزوجها . فسئل الرسول عن ذلك . قال : (لا . حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول) .

---

(١) آل عمران : ٣ ، ٤

(٢) آل عمران : ١٤٤

فافهم • فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول : « لا ينبغى لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى • وان زنت فلا يحل له مراجعتها • ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا الى الزنى ، أعنى من طلقها دون سبب • ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها »(١) •

وأنتم تقولوا : لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى • بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنى • وهو عندكم فريضة التياس •

وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله فى ذقنه ، ليلوح استه لمعرة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب •

وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك • ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه(٢) • فافهم •

ثم قلت فى شعرك :

أراد النصارى ينصرون محالهم •••

فانصر أنت محالك • لأنك قلت بالسفه ، والطعن فى ديننا • وقلت الكذب علىمسيحنا • كيف قلت ما لم تعلم ؟ وكيف تجرأت أن تتكلم ؟ واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم فانى أبعث الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التى لا تقدرون على انكارها •

فافهم • لأنك قلت فى المسيح : غث وأوطار ، وأنك سببت الحاكم عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة • لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب عليك بينة • فان أرسلت بعد هذا بالشتم ، فانى أعرفك بشجرتك ما هى ؟ حتى تعلــم من أنت ؟ واعلم أنى لم أريد فى الأول شتم أحد • لكن لمــا بعث الى أول كتاب بالسفه والسب • رددت له الجواب بأمه هاجر ، ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها فى التوراة • وعن ابنها فاسمع قول الله عنها ، وعن ابنها :

---

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس والاصحاح التاسع عشر •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** » (الشورى : ٤١) •

« رأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدت لابراهيم ، وهو يلعب . فقالت لابراهيم : ارمى هذه الأمة ، وابنها ، اذ ليس يرث هذه الأمة وابنها ، مع ابنى اسحق . فصعب على ابراهيم ما قالت له عن ابنه . فقال الله لابراهيم : لا يصعب عليك بكلام سارة عن الصبى ، وعن أمتك . وجميع ما تقول لك سارة اسمع من قولها . فقال ابراهيم : هذا كلام الله الى قائلا : لا يرثك هذا .

ان الذى يخرج من صلبك هو يرثك .

ثم قال الله لابراهيم : باسحق يتسمى نسلك »(١) .

فافهم ترشد . واعلم . كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » ثم قال عن اسحق : « الذى يخرج من صلبك » وكيف قال الله لابراهيم : « باسحق يتسمى نسلك » ولم يقل : « باسماعيل يتسمى نسلك » .

فأخذ ابراهيم خبزاً ، وجرة ماء ، وجعل على أكتاف الأمة ، وجعل اسماعيل على عنقها بالليل ، وأخرجها بولدها عن العمران . فتناسلت منه الأمة ، الذى قال فيها قرآنكم : **« أشد كفرا ونفاقا »**(٢) .

فافهم . والسلام على من اتبع الهدى ، وآمن بشريعة المسيح . حقيقة الايمان ، ورحمة الله وبركاته » ... كمل كلامه .

الجواب عما ذكر : اعلم يا هذا المخدوع ، المصروف عن المعارف ، الممنوع . الشاهد عليه جهله ، بأنه ليس بتابع ، ولا متبوع : انا نؤمن بالله وكتبه ، ولا نفرق بين أحد من رسله . فنؤمن بالتوراة والانجيل ، اللذين أنزلهما على رسوليه ، الملك الجليل . ولكن قبل أن يعتريهما التغيير والتبديل . وقد نبهنا على أن الكتاب الذى بأيديكم المسمى : بالانجيل عندكم ، لا يقال عليه : منزل بالحقيقة ، كما تقدم من تلك الطريقة . ثم انا نسلم جدلا صحة ما تدعونه من تلك النبوة ، ونبين صحة نبوة نبينا منها عن كثب .

---

(١) تكوين الأصحاح الحادى والعشرون . والقسيس ذكر النص الى اسحق ولم يذكر بقية النص عن اسماعيل وهو « وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » (تك ٢١ : ١٣) .

(٢) الأشد كفرا ونفاقا هم الأعراب (التوبة ٩٧) .

فأما قولك « واعلم أنا لا نقبل من كتبكم شيئا » فليس ذلك بأول عنادكم ، فكم لكم منها • وكم « شنشنة أعرفها فى أخزم » •

لكنكم • لستم عند العقلاء أهلا لقبول حق ، ولا لرد باطل • فليس ردكم بأولى من قبولكم • وهكذا فعل الرعاع الغثر ، الغثاء الغبر • يقبلون بغير دليل ، ويردون بغير حجة ، ولا سبيل •

والا فما الدليل الذى أوجب عندكم • ألا تقبلوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع وضوح معجزاته ، وعدالة بيناته • على ما نبينه ان شاء الله تعالى ؟

فظهر من هذا أن ردكم لديننا ليس بدليل • وانما هو لأجل اتباع قول كل جهول دخيل • يحكم على عقله هواه ، ويطيح معه حيثما رماه •

ولأجل ذلك صار دينكم ضحكة العقلاء ، مشتملا على كل مقالة شنعاء • ومن كان هذا منهج سبيله ، فرده لغير معنى ، بمثابة قبوله •

ولقد كان ينبغى لك ، لو كنت على سنن النظار ، أهل البحث عن الحق والاعتبار أن تحكى ديننا ، وتستدل بزعمك على فساده ، كما قد فعلنا نحن بدينكم • اذ بينا تناقضه ، وعدم سداده • على أنه قد تبين الصبح لذى عينين • ووضحت الشمس لسليم الحاستين •

ما ضر شمس الضحى فى الجو مشرقة
ألا يرى ضوءهـــا من ليس ذا بصر

ثم قلت متواقحا فى قولك ، مستهزئا برسول ربك « فان قلت من كتابك شيئا قلت لك كما قال رسولك : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » أما قولك « رسولك » فنعم هو رسول الينا واليك ، فآمنا وكفرت ، وصدقنا وكذبت **« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »**(١) • فنحن نقول : « رضينا بالله ربا • وبمحمد رسول الله : رسولا • وبالاسلام دينا » وأما أنت • فان مت مصرا على تكذيبك فليدخلنك الله النار ، وليدخلنك فى دار البوار ، فلا تنتفع بشفاعة ملك مقرب ، ولا بنبى مختار • وأما طلبك البينة على صدقه ، فكفاك شهادة

---

(١) الشعراء : ٢٢٧

الأنبياء العارفين بحقه ، المخبر عنه بلزوم تصديقه وصدقه ، وسنبين ذلك بأبلغ بيان • وأوضحه بأوضح برهان •

وعلى سبيل الاستعجال يكفيك بينة عدله ما وقع فى صحف النبى دانيال حيث وصف الكذابين ، وقال : « لا تمتد دعوتهم ، ولا يتم قربانهم • وأقسم الرب بساعده أن لا يظهر الباطل • ولا تقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة »[1] •

وهذا دين محمد رسولنا صلى الله عليه وسلم قائم منذ ستمائة سنة ونيف • فكيف ترى هذه البينة المصححة ؟ أمعدلة عندك أم مجرحة ؟

وكذلك فى صحف النبى حبقوق ، وهو الشاهد المعظم الموثوق • قال : « جاء الله من التيمن ، وتقدس من جبال فاران ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد[2] ، وتقديسه ، وملك الأرض بهيبته » • وقال أيضا : « تضىء له الأرض ، وستنزع فى قسيك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك • يا محمد »[3] •

فهذا النبى الصادق المصدق قد أفصح بنعته ، وصرح باسم بلده ، وشهد بصدقه ومن كان الأنبياء شهوده ، فقد استحق مكذبه عذاب النار وخلوده • فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من تبين له الحق ، ثم صار عنه من المعرضين ، وسنعقد فى النبوات فصلا مفردا ، ونأتى فيه بالعجائب حتى يتبين فيه تواقح كل طاعن عائب •

وأما قولك « وأنت تدعى أن كتابكم من الله » فان كنت تنكر ذلك فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران ، المتكلمين بلغة القرآن ، ليعارض بسورة من مثله • فان فعلوا ذلك دحضت حجته ، وانقطع عظيم قوله • لكنهم لما سمعوا منه القرآن تحققوا على القطع : أنه ليس يقدر عليه أحد من الانس والجان • وعلموا أنه كلام الملك الديان • فآمنوا وصدقوا لما عرفوا وحققوا ، فحصلوا على فضل الملتين ، وآتاهم الله أجرهم مرتين •

---

(١) ليس فى سفر دانيال بل فى الزبور بما معناه •

(٢) « وامتلأت الأرض من تسبيحه » فى ترجمة ١٩٧٠

(٣) بدل يا محمد : مسيحك فى ترجمة ١٩٧٠ (انظر تقديمنا لهذا الكتاب)

وأما قولك « فاثبتوه من التوراة بالعبرانى ، ومن الانجيل بالعجمى » فلتعلم أنا لولا كره منا أن نتكلم برضانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شىء يلتزم • ولكنا ان شاء الله تعالى نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم مثل « يرونم » و « حفص ابن البر » وغيرهما من المترجمين ، الذين تثقون بقولهم ، وتعولون على نقلهم ، ولست أفعل مثل ما أنت فعلت ، ولا أصنع شيئا مما صنعت حيث نقلت كلام الأنبياء بالعبرانى والعجمى ، ثـم انك شرعت فى ترجمته ، وفى تفسيره من غير أن تنسب التفسير الى أحد المترجمين العالمين بالمعانى ، وباللغات ، ومواقع الألفاظ • وأما أنت فلست بموثوق بنقلك ، ولا مصدق فى قولك لجهلك بالشروط التى يحتاج اليها المترجمون • واذا ادعيت أنك لست جاهلا • فما حد الترجمة ؟ وحقيقتها ؟ وما شروطها ؟ وكم أقسامها ؟ وما المحل الذى تجوز فيه من الذى لا تجوز ؟ وبهذا السؤال يظهر جهلك وتبلدك وحصرك وتوددك •

ثم قلت « فائت بما ادعيت ، والا يمينى لأنى أنكر » ها أنا قد أقمت البينات العدول الذين ليس لقائل فى عدالتهم ما يقول • ولقد أعلم مع ذلك أنك تبادر باليمين ، وتباهت المسلمين • اذ قد تقولت بالكذب والزور ، على رب العالمين ، ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتنقيص والازدراء والتخريص ، حديث امرأة رفاعة لتقبح بذلك ديننا ، وتنسب اليه شناعة ، وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ، ولا فهمت فحواه •

ثم قلت بعد أن أخللت بمساقه ، ولم تقمه على ساقه : « فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول : « لا ينبغى لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى » فلتعلم أن هذا كلام جاهـل بأحكام الأنبياء ، ظان أن أحكام الشرع صفات لأعيان الأشياء • ثم تستمد من انكار الناسخ والمنسوخ ، وكلام كل جاهل مردود مفسوخ •

فنقول لهذا المنكر الجاهل ، الذى ليس بمتشرع ولا عاقل : منعك طلاق الرجل زوجته ورده اياها بعد طلاقها • لا يخلو اما أن يكون منعا من جهة العقل أو من جهة الشرع • فاذا ادعيت أنه من جهة العقل كانت دعواك باطلة بالضرورة • فان صور هذه المسائل ووجودها معلوم بالضرورة ، فاذا بطل أن يكون امتناعهـا من جهة العقل فيجوز أن توجد واذا جاز أن توجد فكيف ينبغى لمن ينتسب الى العقل أن ينكر

نبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث أنه حكم بشيء يصح في العقل أن يوجد .

ثم من العجب العجاب الذى يستعظمه أولو الألباب : أنكم التزمتم في شرعكم بما يشهد العقل الأول بفساده مثل قولكم في الأقانيم : « انها آلهة ثلاثة . اله واحد » وقلتم في الاتحاد والحلول ما يعلم فساده بضرورة العقول ، ثم لم ينفركم ذلك عن اتباع شرعكم . بل يقول من يميز استحالة ذلك القول منكم : هذا مما ليس يدرك بالعقول ، بل يتبع فيه الكتاب المنقول . ثم بعد التزام هذه المحالات والمدافعة عنها بالترهات والخرافات تنكرون علينا فعل شيء تجوزه العقول ، ولم تصر اليه الا بعد ثبوت الشرع المنقول الذى دل على صحته البرهان المعقول . فأنتم من الجهل والزلل ، كما جرى من كلام النبوة مجرى المثل : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عينه »(١) وانما كان ذلك كله للمعنى الذى نبه الشاعر عليه هنالك :

عيون الرضـــا ، عن كل عيب كليلة
ولكن عين الســـخط تبدى المساويا

فلو وفقتم لطريق الانصاف ، لتركتم طريق التعصب والاعتساف . ولو كنتم تطلبون الحق بدليله ، لأوشك أن يرشدكم الى سبيله ، ولكن من حرم التوفيق استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق .

وان ادعيت أن ذلك ممنوع من جهة الشرع . فنقول لك : اما أن يكون ممنوعا من جهة الشرائع كلها ، أو من بعضها . فان قلت : انه ممنوع من جهة الشرائع كلها . كان ذلك باطلا . اذ الشرائع في ذلك مختلفة . فان المعلوم من شرع التوراة في ذلك خلاف شرعكم . وكفى دليلا على أن التوراة تخالفكم في ذلك أول الكلام الذى حكيته عن المسيح أنه قال : « أما علمتم أنه قيل للقدماء من طلق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق . وأنا أقول من طلق امرأته . فقد جعل لها سبيلا الى الزنا » فهذا تصريح بين ما أنكرته علينا ، وتنقصت به شرعنا . وكما جاز أن يخالف عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة ، ولا يدل ذلك على كذبه ، ولا على فساد شرعه كذلك يجوز أن يخالف شرعنا

---

(١) متى الاصحاح السابع

شرع عيسى وموسى فى بعض الأحكام ، ولا يدل ذلك على فساده • اذ كل واحد منهم انما يبلغ حكم الله ، وليس مخترعا حكما من قبله • ثم قد تختلف الأحكام والأوضاع بحسب ما يريده الله تعالى ، وبحسبه ما يعلمه من اختلاف الأحوال ، والمصالح •

والأصل فى ذلك : أن الله تعالى لا حجر عليه فى أفعاله • ولا راد لشيء من أحكامه ، فيحل لعباده ما شاء ، ويحرم عليهم ما شاء ، « **لا يسئل عما يفعل ، وهم يسئلون** »(١) • وهذا بين بنفسه ، لا يجهله الا من كان عديم حسه(٢) •

ثم قلت « وأنتم تقولون لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنا » اسكت • فض الله فاك • فما أكذبك وما أجفاك • تتقول علينا بما لا نقول • وتتصرف فى شرائع الأنبياء تصرف متواقح جهول ، كما فعل أشياعكم من قبل •

اسمع يا لكع ، على أنك لا تحسن أن تسمع • اعلم أن هذا الذى ظننته بجهلك زنا ليس بزنا • لأن الزنا حقيقته : ايلاج فرج فى فرج محرم شرعا ، مشتهى طبعا • وهذه الحقيقة معدومة فى الذى توهمت أنه زنا • فان قلت : ان كانت هذه الحقيقة معدومة عندكم ، فليست معدومة عندنا • فان هذا الايلاج محرم عندنا ، فهو زنا • قلنا لك : ان كان قد ثبت تحريم ذلك عندكم فقد ثبت تحليله عندنا • فان الله تعالى يحل لعبيده ما يشاء ويحرم عليهم ما يشاء •

وهذا كما أحل الله لموسى من الطلاق ما حرمه على عيسى(٣) • ثم كيف يمكن لعاقل أن ينكر مثل ذلك وقد ثبت أنه أحلت فى بعض الشرائع فروج ، وحرمت فى شرع آخر • فقد ثبت : أن البطن الأول من أولاد آدم أحلت لهم نكاح الأخوات ، ثم حرمت على من بعدهم من الشرائع • وقد جاء فى التوراة أن يعقوب نكح أختين : « راحيل » و « ليئة » وجمع بينهما ، وحرمهما على غيره • والجمع بينهما فى

---

(١) الأنبياء : ٢٣

(٢) لم يفطن المؤلف الى أن كلام المسيح للارشاد وليس للالزام بدليل انه قال فى نهاية الحديث : « من استطاع أن يقبل فليقبل » (متى : ١٩/١٠) •

(٣) بحسب المكتوب والا فان دين عيسى هو دين موسى لأنه ما جاء للنسخ بل للاصلاح •

النكاح محرم عندكم وقد فعل الله ذلك فى أحكام أخر على ما يعرف من أحوال الشرائع واختلافها فى بعض الأحكام وانما يتحقق هذا المعنى على اليقين من يعلم أن حقيقة الحكم الشرعى هى : خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير • فعلى هذا لا معنى للحكم الا قول الشارع : افعلوا • أو : لا تفعلوا • أو : ان شئتم فافعلوا • وان شئتم فاتركوا • على ما يعرف فى موضعه •

ثم هذا الذى عبته علينا — أيها الجهول — له معنى صحيح فى العقول ، جار على منهاج المصالح المعقول • وذلك أن الله تعالى انما شرع الطلاق ليتخلص الرجل من نكد المرأة وأسوها ، رفقا بنا ، ورحمة منه علينا • فقد تكون غلا قملا ، تضر بالرجل ضررا حقبا ، لا يمكن أن يطلع عليه أحد ، فلا تجبر على ازالته ، لكونه لا يتحقق من جهتها ، فجعل للرجل أنه متى شاء أن يتخلص منها ، ومن ضررها فعل •

وأيضا • فلكون النساء فى الغالب ناقصات عقل • فلو علمت أن الرجل لم يجعل له سبيل الى مفارقتها ، لما كانت تحترمه ، وبادرت الى ضرره • فأراد الشارع أن يجعل للرجل سببا يحترم لأجله وهو الطلاق • فان المرأة اذا علمت أنها ان بالغت فى ضرر زوجها • طلقها امتنعت من ضرره فى الأكثر •

فان عورضنا وقيل لنا : فيلزم على ذلك : أن تطلق المرأة نفسها متى شاءت ، فان الرجل قد يضر بها ضررا لا يطلع عليه أحد • فان راعيتم وجود الضرر ، وتوقعه فى حق الزوج فلم لم تراعوه فى حق الزوجة كذلك ؟ فنقول : انما لم نراعه فى حق المرأة ، لأنا لو جعلنا للمرأة أن تطلق نفسها متى شاءت ، لما استقرت امرأة عند زوجها فى غالب الأمر • لأنهن ناقصات عقل ، فلا يؤمن عليهن غلبة شهواتهن على عقولهن[1] •

وان فتح هذا الباب طرأ منه من الضرر ما لا ينسد ، ولا يتدارك • فسد هذا الباب فى حق النساء لهذه الحكمة ، وفتح فى حق الرجال ليزول عن أعناقهم غل الضرر والنقمة • والله أعلم •

---

(١) قد جعل الله للنساء الخلع • وبعض الفقهاء يرى أن المرأة تطلق الرجل اذا اشترطت العصمة بيدها وقت العقد عليها •

وأما ما عابه أيضا : من أن المطلقة ثلاثا لا تحل الا بعد زوج فذاك أيضا له معنى معقول مناسب • وذلك أن الطلاق — وان كان الله قد أباحه لنا — فهو من قبيل المكروه من غير سبب ، من حيث التقاطع والتدابر المنهى عنهما • ولأجل هذا قال نبينا عليه السلام : (أبغض الحلال الى الله الطلاق) فأطلق عليه لفظ « البغض » مشعرا بالكراهة ، وأطلق لفظ « الحلال » مشعرا بجوازه • فحصل لنا من مفهومه : أنه يجوز على كراهة •

فاذا تقرر أنه مكروه من الوجه الذى ذكرناه ، فينبغى ألا يفعل • ثم ان فعل — ولا بد منه — فلا يكثر منه • ثم ان كثر منه فلا يزاد على المرتين • فان تعداهما ، عوقب بأنه لا تحل له الا بعد زوج فكانت الحكمة فى ذلك : أن الزوج اذا علم أنه اذا أكثر من هذا المكروه الذى هو الطلاق عوقب بتفويت زوجته عليه ،وتملكها غيره ، امتنع من تكثير المكروه الذى هو الطلاق ، ثم لا يظن الجاهل بنا : أننا نجبر الزوج الثانى على طلاقها ، حتى يرجع اليها الأول ، حاشى لله • وانما الزوج الثانى يملك منها ما يملكه الأول ، فان شاء طلقها ، وان شاء أمسكها •

ثم ان طلقها اعتدت منه ، وجاز للأول أن يتزوجها تزويجا مستأنفا ان شاء ، ولا يجوز عندنا أن يتزوجها الثانى ليحللها للزوج الأول • فان فعل كان نكاحه فاسدا ، وهو الذى نسميه المحلل ، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : (لعن الله المحلل ، والمحلل له) •

فان سماه مسم « تيسا » فعلى جهة الذم لفعله •

فاذا تقرر هذا المعنى ، الذى لا يمنعه العقل ، ولا تنافيه مكارم الأخلاق ، بل هو على منهاجها وعلى سننها • فكيف ينبغى لعاقل منصف غير متواقح ، ولا متعسف أن يتقول علينا : انا نقول : لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى ، ولو كنت يا هذا من أهل العقل الذين تبرأوا عن السفه والجهل ، لما كنت تشبه نكاحا على وفق شريعة صحيحة ، بحسب دلالة أدلتها القاطعة مع أن هذا النكاح ، وقع بولى ومهر وشهود واعلان : بنكاح الزنا الذى ليس فيه ولى ، ولا مهر ، ولا شهود ، ولا اعلان • وانما يقع الزنا مخالفا للشرائع ، عريا عن الشهود والولى ، مستورا • فهذا تشبيه • يدل على عناد وتمويه •

ثم قلت « بدل أن تنهوا عن الزنا تأمروا به ، وهو عندكم فريضة التياس » هذا التشنيع باطل ، وقول غبى جاهل ، وتهويل ليس وراءه حاصل . وقول الزور والأباطل ، قصد به قائله ، استزلال العوام ، وليكره لهم دين الاسلام « **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون** »(١) ولقد صدق الله عبده ، وأنجز وعده ، « **ومن أوفى بعهده من الله** »(٢) .

اعلم يا هذا المفترى الكذاب ، والمشنع المرتاب : أن العقلاء لا يرضون بما فعلت ، ولا يأتون بمثل ما به أتيت . وذلك أنك جهلت شرعنا ، وكذبت عليه ، وعميت عليك مقاصده فنسبت الزور والفحش اليه . وانما كان ينبغى لك — لو كنت على سنن العقلاء ، أهل السياسة الفضلاء — أن تبحث عن أدلة صحة هذه الشريعة ، وعن صدق الذى جاء به . فان كانت أدلتها صحيحة وجب عليك أن تقبلها جملة ولا ترد منها شىء ، وتكون واحدا ، ممن التزمها ، وان لم تظهر لك صحة أدلتها فناظر أهلها فى تلك الأدلة ، ولا تتعداها الى غيرها وباحثهم فيها مشافهة . فان المخبر ليس كالمعاين ، فلو لم يقدروا على أن يحتجوا لدينهم ولا أن يقيموا دليلا على صحة شرعهم وجب عليك رد تلك الشريعة من أولها . وهذا دأب الموفقين ، لا الكذابين المشنعين .

ثم قلت « وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله فى ذقنه ليلوح استه ، لمعرة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب » .

يا هذا التيس . وأى ذنب ساتر للتيس ؟ أتظن أنك تتفصح وتستعير ، وأنت لا فى العير ، ولا فى النفير ؟ وكيف تظن السلامة من الحمق والبؤس ، بمن يجهل كيفية أذناب التيوس ؟ أم كيف يبالى بتفصحه وجعاجعه ؟ وهل هو فى ذلك الا بمنزلة من جهل عدد أصابعه ؟ ولولا أن شرعنا منع من السباب ، ولا يليق ذلك بأولى المروءات والآداب ، لأقذعتك سبا . ولأوجعتك عتبا . ومع هذا :

* نجا بك لـومك منجى الذبـاب
حمتـه مقـاديره أن ينـالا

---

(١) الصف : ٨ (٢) التوبة : ١١١

* لا أسبنكم • فلســتم بسبى
ان ســبى من الرجــال : الكريم

ثم قلت « وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك • ومن انتصف من بعد ظلمه ، فلا جناح عليه » •

يا هذا شأنك يحار فيه النحرير ، وجهلك يتعجب منك الصغير ، والكبير • كيف لا • وكلامك هذا يشهد عليك بجهلك بانجيلك ، وبمخالفتك حكمه ، وشرع رسولك • كيف يحل لك فى شرعك ، أن تنتصف ممن ظلمك ، وتشتم من شتمك • وانجيلك يقول لك : « لا تكافئوا أحدا بسيئة ، ولكن من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى • ومن أراد مغالبتك ، وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك » ؟ (١) فهذا انجيلك يشهد عليك بأنك لست على شرعه ، بل رددت حكمه • وعملت على رفضه •

واذا كان شأنك هذا مع كتابك • فكيف يرتجى فلاحك ، من ليس من أحبابك ؟ ثم العجب العجاب • تركت كتابك ، والعمل به ، ثم أخذت تعمل بكتاب لا تصدق بأصله • فهذا يعلم من حالك أنك لست تريد أن تتبع الحق ، ولا أن تبحث عنه • ولكنك اتبعت هواك فأضلك • وأطعت الشيطان فأزلك • ثم من أدل دليل على جهلك ومغالطتك : أنك أوهمت أنك تعرف القرآن ، وأنك تحتج علينا به • ثم ذكرت ما ليس بقرآن حيث قلت : « ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه » وهذا ليس بقرآن • وان كان يشهد بمعناه القرآن •

وليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط • بل بلفظه المخصوص ، ومعناه وأسلوبه الذى أعجز الأولين والآخرين ، فعلى هذا المعنى ان تترجم بلســان آخر ، أو عبر عن معناه بغير لفظه وأسلوبه خرج عن كونه قرآنا • فافهم ، وما أدراك تحسن •

ثم قلت « فانصر أنت محالك ، لأنك قلت بالسفه والطعن فى ديننا ، وقلت الكذب على مسيحنا » •

انظر هذا الكلام الفصيح • الجهالة على قائله تلوح • فلقد عدم هذا الكلام : الانتظام والارتباط فوجب له لأجل ذلك الالغاء والاسقاط •

---

(١) الاصحاح الخامس من انجيل متى •

وأما ما ذكرت من تسفيه دينك ، والطعن عليه • فذلك واجب على العقلاء • اذ قد تبين بدليل العقل الذى لا يشك فيه : أنكم قد تمذهبتم بكل مقالة شنعاء • وقد بينا ذلك فيما تقدم •

ثم ان الطعن على دينكم ليس طعنا على دين المسيح • فانكم لم تتدينوا بدينه ، ولا عرفتم حقيقة يقينه • بل تخرصتم عليه بالأباطيل وقبلتم عليه قول كل متواقح جاهل • فما لكم وللانتساب للمسيح ، وهو مبرأ عن كل قبيح ، بل هو ساخط عليكم ، وبراء الى الله منكم • وقد بينا ذلك فيما تقدم ، وسيأتى ان شاء الله تعالى بمزيد يبطل قولكم فيه ويهدم •

وأما ما نسبت الينا من الكذب على المسيح ، والسب له • فذلك والله شىء لا نفعله ، ولا يرضى بذلك متدين ولا عاقل • وكيف يجوز هذا علينا ونحن نكفر من سبه ، أو سب أمه عليهما الصلاة والسلام • وهذا عندنا أصل من أصول عقائدنا ؟ وذلك أن الله تعالى أخذ علينا من الميثاق : أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا نفرق بين أحد منهم ، وهو عندنا من أكرم الرسل • فكيف نسبه أو نكذب عليه ؟ وفى فعل ذلك خروج عن دين الاسلام ، وتمسك بفعل الجهال الطغام • بل أنتم الذين كذبتم عليه ، ونسبتم ما تحيله العقول اليه • وهو يتبرأ من ذلك • ويتنصل مما افتريتم عليه هنالك • ثم أضفتم مع ذلك من العيب والتنقيص على الله تعالى ما يعلم على الضرورة والقطع أنه محال • فنحن واياك على المثل السائر : « رمتنى بدائها ، وانسلت » •

ثم قلت « واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم • فانى أبعث الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم وبكل ما نعرف من الأقاويل التى لا تقدرون على انكارها » •

لولا أن السب منهى عنه على الاطلاق ، وليس من مكارم الأخلاق ، لأكثرت من سبك ، ولأوغلت فى لومك وعتبك ، ولو كان ذلك لما كذبت ، ولا افتريت • وانما كنت أفعل ذلك لأظهر بذلك باطل تمويهك ، ومغالطة تهويلك • ومن أين لك أن تعرف ديننا ؟ وأى طريق يوصلك اليه ؟ وبأى لسان تتمكن منه ؟ وبأى فهم تتوصل الى معناه ؟

ها أنت لا تعرف دينك ، الذى نشأت عليه • فكيف بك أن تعرف ما لم تفهم منه حرفا ، ولا سمعته على وجهه • اللهم الا أن تتقولت

فيما ليس لك به علم ، كما قد فعلت فى فريضة « التياس » فلا يعدم أحمق مخرق ما يقول .

وأما ان ذكر شريعتنا من يعرفها ، فالعقول السليمة تقبلها بنفس ما تسمعها ، لشدة ارتباطها وحسن نظامها ، وليست كشريعة من يعتقد الها آخر مع الله ، ويعتقد فى الله ما يستحيل عليه وينسب الى الأنبياء ما يتبرأون منه ، ويحكمون بأهواء جهالهم فى دين الله . وسنعقد اثر هذا ان شاء الله بابا نبين فيه : جملا من أحكامهم ، وفيها يتبين أنكم لا تستندون فيها الى مستند . وأنكم اخترعتم فيها من الجهالات ما لم يقل به أحد .

ثم قلت « لأنك قلت فى المسيح غث وأوطار ، وأنك سببت الحاكم عليك ، وعلى جميع الأمم يوم القيامة ، لكن سوف تلقاه حاكما ، ليس يطلب عليك بينة » .

وكـــم من عائب قـــولا صـــحيحا
وآفتـــه : من الفهـــم الســـقيم

لتعلـــم يا هذا . أنى وقفت على الكتاب ، الذى جاوبك بعض أصحابنا ، وتأملت هذا الموضع الذى لم تفهمه ، فعلمت أن الخطأ من قبل فهمك ، لا من قبل الكاتب . وذلك أن لفظ ما كتب به اليك فى هذا الموضع : « شجرتنا نبوية ، فروعها قرشية ، ثمرتها هاشمية ، شجرتك غثاء ، وأوضـــار **« اجتثت من فوق الأرض ، ما لهـــا من قرار »**(١) ... هذا نصه .

وكان ينبغى لك أن تفهمه لو كنت منصفا . فان هذا الكلام انما جرى مجرى المثل . وانما أراد بشجرتنا نبوية : أن أصل اعتقادنا : أن محمدا نبى ورسول ، ليس باله ، وأصل اعتقادكم أنتم : أن عيسى اله ، وليس بنبى . وهذا قول باطل ، واعتقاد فاسد . ولذلك عبر عن أصل هذا الاعتقاد بالشجرة . ثم قال : انها غثاء وأوضار . فالمسبوب المذموم ، انما هو اعتقادكم فى عيسى ، لا عيسى . حاشى وكلا . فهكذا ينبغى أن تفهم الكلام ، ولا تبادر لأجل الجهل بالملام . فاللوم على كل حال هو الجاهل . الذى ليس يفهم ، ولا عاقل . وحين وقفت على

---

(١) ابراهيم : ٢٦

كلامك هذا . هممت أن لا أكاتبك ، لكونك قليل الانصاف كثير الجهل والانحراف .

ولقد أعرف أنك اذا وقفت على كتابى هذا : لا تفهمه . ومع ذلك فتبادر الى رده ، مكابرة ومجاهرة . وتتناوله بالرد والقبيح ، وبكل قول ليس بصحيح . وقد حكمت بينى وبينك العقلاء المتدينين للفضلاء ، الذين يعترفون بالحق حيث كان ، ولا يعرجون فى قبوله على انسان .

وأما قولك « الحاكم عليك ، وعلى جميع الأمم » فقول ليس بصحيح ، ولا أمم . وانما الحاكم على كل الأمم ، وكل المخلوقات الذى أوجدها بعد أن لم تكن ، ثم يعدمها ، كأن لم تكن ثم يعيدهـا . كأنهاما برحت **« قل فمن يملك من الله شيئا . ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ، ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما »**[1] ... الآية .

وأما قولك : « ستلقاه حاكما ، ليس يطلب عليك بينة » فقد نسبتموه الى الجور . فانه اذا لم تقم بينة على المحكوم عليه عندنا وعندكم ، ونفذ الحاكم الحكم نسب الى الجور . فاذا قامت البينة زال عنه توهم الجور . وظهر معيار العدل . وعند سماع هذا يتحقق معنى المثل المعروف « عدو عاقل ، خير من صديق جاهل » .

فان العدو العاقل يذعه عنك عقله ، والصديق الجاهل يريد نفعك فيضرك . وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح ، فنقصته ، وأن تمدحه فذممته ، فعل السفيه الأحمق الجاهل .

وأنا أقول : ستلقونه بين يدى الله تعـالى . فان اعترفتم بقولكم فيه ، جوزيتم على ذلك بجزاء سترونه عيانا . وان أنكرتم قولكم فيه . يقول الله لجوارحكم : انطقى . فتشهد عليكم بأقوالكم وأفعالكم . فهكذا يظهر العدل ، ويعلم كل مكلف أنه محاسب بما عمـل من خير أو شر ومجزى عليه .

ومما يدل على أن الله تعـالى انما يأخذ بالبينات يوم القيامة : أنه قد ثبت على لسان من دلت المعجزة على صدقه : أن الله وكل بنا

---

(١) المـائدة : ١٧.

كراما كاتبين ، يكتبون ما نفعل ، فهم الشهود العدول الذين ليس لطاعن عليهم ما يقول . وستتقدم . فتعلم .

ثم العجب من جرأتك أنك سببت خليل ربك حيث قلت « رشح الجلد المدبوغ فى قصرية هاجر »(١) هذا لابراهيم ذم صريح ، صدر من جاهل وقبيح . هنا يرد عليك قولك : كيف قلت ما لا تعلم ؟ وكيف تجرمت فى خليل الرحمن أن تتكلم ؟ وستلقاه . يناضل عنه الله .

ثم من ركيك الاستعارة : أن الذى ذممت به اسماعيل . يلزم منه ذم اسحق ، والذى ذممت به هاجر ، يلزم منه ذم سارة . فان الجلد الذى رشح فى قصرية هاجر ، هو الذى رشح فى قصرية سارة . وأصل النطفة التى كان منهــا اسماعيل ، هو بعينه الذى كانت منه نطفة اسحق . وهذا كله ذم لابراهيم ولعن . فقد حاق بك ، وبمن قال بقولك « لعنة الله » التى قــال فيهــا لابراهيم فى التوراة « وألعن لاعنيك »(٢) ثم أعجب من ذلك كله اعتذارك عن قبيح ما أتيت ، حيث قلت : « لمــا بعث الى أولا كتاب بالسفه والسب رددت له الجواب بأمه هاجر » .

فكأنك قلت : لمــا سببتنى أنت ، أسب أنا هاجر ، التى اذا سبت ، تعدى سبها الى سيدها ابراهيم . ثم انك صرحت بسب ابراهيم ، فلزمك على ذلك : سب اسحق ، وأمه سارة فأنت فى هذه الفعلة بمنزلة من سبه رجل فى وجهه ، فأخذ المسبوب ينكل الساب بأن يسب أبا نفسه ، أعنى نفس المسبوب . وهذا ما لا يرضى به عاقل ، ولا متدين جاهل .

ثم قلت بعد ذلك عهدا لغدرك القبيح ما قلت هنالك « ولم تقل فيها عشر ما قال الله فى التوراة ، وعن ابنها » وهذا القول منك يوهم أن الله تعــالى ذمها وابنها فى التوراة ، وهذا على الله ، وعلى كتابه : كذب صراح وكفر براح ، ثم ذكرت بعض قصه هاجر مع ابراهيم ، ولم تسقهابكمالها لئلا تفتضح وتظهر كذبك وخزيك .

---

(١) قوله هذا : لم يذكر فى صدر الفصل .
(٢) التكوين ١٢ : ٣

وها أنا أذكر قصة هاجر مع سارة كما حكاها كتاب التوراة حتى يتبين للواقف على هذا الكتاب : أن الله تعـالى أثنى على هاجر وابنها ومدحها وما ذمهـا ، بل أخبر بنبوتها أو صديقتها ونبوة ابنها اسماعيل بحول الله ٠

قال فى التوراة(١) : « ان سارة امرأة ابراهيم لم تكن تلد له ٠ وكانت له أمة مصرية يقال اسمها هاجر فقالت سارة لابراهيم : ان الرب قد حرمنى الولد ، فادخل على أمتى ، وابن بها ، لعلى أرزق بولد منها ، فسمع ابراهيم قول سارة وأطاعها ٠ فانطلقت سارة امرأة ابراهيم بهاجر أمتها المصرية وذلك بعدما سكن ابراهيم أرض كنعان عشر سنين ، فأدخلتها على ابراهيم زوجها فدخل ابراهيم على هاجر فحبلت ، فلما رأت أنها قد حبلت ، استسفهت وزرت بسيدها ، وهانت فى عينها فقالت سارة : يا ابراهيم : أنت صاحب ظلامتى ٠ أنا وضعت أمتى فى حضنك ، فلما حملت هنت عليها ، يحكم الرب بينى وبينك ٠ فقال ابراهيم لسارة امرأته : هذه أمتك فى يديك فاصنعى فيها ما أحببت ، وحسن فى عينيك ، وسرك ، ووافقك ٠

فأهانتها سارة سيدتها ، فهربت منها ، فلقيها ملاك الرب على عين ماء ، فى البرية ، فى طريق جرار ، فقال لها يا هاجر أمة سارة : من أين أقبلت ؟ وأين تريدين ؟ فقالت : أنا هاربة من سارة سيدتى ٠ فقال لها ملاك الرب : انطلقى الى سيدتك ، ، وتعبدى لها ٠ ثم قال لها ملاك الرب عن قول الرب : أنا مكثر زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من كثرتهم ٠ ثم قال لك الرب : انك حبلى ، وستلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ، لأن الرب قد عرف ذلتك وخضوعك ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس ٠ يده على كل ٠ ويد كل به ٠ وسيحل على جميع حدود اخوته ٠ فدعت اسم الرب الذى كلمها ٠ فقالت : أنت الله ذو الوحى والرؤيا » أ ٠ هـ

هذا ذكر الله لهاجر وابنها فى السفر الأول فى التوراة فى الاصحاح السادس عشر(٢) منها وذكرها أيضا فى الاصحاح الحادى والعشرين(٣) ٠

---

(١) أول الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ٠

(٢) المخطوطة : التاسع ٠

(٣) فى المخطوطة : الثالث عشر ٠

وقالت التوراة : « أبصرت سارة ابن هاجر المصرية المولود لابراهيم يستهزىء • فقالت لابراهيم : أخرج هذه الأمة وابنها • لأن هذا ابن الأمة لا يرث مع ابنى اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لمكان ابنه • فقال الله لابراهيم : لا تشفقن لحال الصبى وأمتك • أطع سارة فى جميع ما تقول لك • لأن نسلك انما يذكر باسحق • وابن الأمة أجعله أبا لشعب كثير • لأنه ذريتك • فغدا ابراهيم باكرا • فأخذ خبزا واداوة فأعطاها هاجر وحملها الصبى والطعام • وأرسلها ، فانطلقت وتاهت فى برية بير شبع ، ونفد المـــاء من الأداوة ، فألقت الصبى تحت شجرة من شجر الشيح ، وانطلقت فجلست قبالته ، تباعدت عنه كرمية سهم • لأنها قالت : لا أعاين موت الصبى ، فجلست ازاه ، ورفعت صوتها وبكت • فسمع الرب صوت الصبى • فدعا ملاك الرب من السماء هاجر ، وقال لها : مالك يا هاجر • لا تخافى • لأن الرب قد سمع صوت الصبى حيث هو • قومى ، فاحملى الصبى وشدى به يديك • لأنى أجعله رئيسا لشعب عظيم • فأجلى الله عن بصرها ، فرأت بير ماء • فانطلقت فملأت الاداوة ، وأسقت الغلام • فكان الله مع الغلام ، فشب الغلام ، وسكن برية فاران » أ • هـ

فأخبرنا يا أيها الكاذب على كتاب الله ، المفترى على رسل الله : من أين استجزت سب الأنبياء والكذب على الله ، ذى الآلاء ؟

أفى انجيلك قرأته ؟ أم عن الحواريين بلغته ؟ حاشا • وكلا • بل بتواقحك اختلقته • ثـــم من أعظم مباهتتك ، وأفحش جرأتك ، ومغالطتك أنك أوهمت بقولك ، ولم تقل فيها ، تعنى فى هاجر عشر ما قال الله فيهـــا فى التوراة ، وفى ابنها • تشعر بأن الله ذمهـــا وابنها فى التوراة ، فى عدة مواضع •

وهذه التوراة قد تلوتها عليك ، وأنهيتها اليك • فاذا بالتوراة تخبر بأن هاجر نبية[١] ، أو صديقة مباركة ، أوحى الله اليها ، وكلمها وبشرها بنبوة ولدها اسماعيل • بل قد مدح الله اسماعيل وأخبر عنه بما لم يخبر به عن اسحق حيث قال فيه : « يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » •

---

(١) لانبوة فى النساء • والأصح : أنها صديقة •

وهذا الكلام يبشر ، بل يفصح ويخبر بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم • فان اسماعيل لم يقل الله تعالى فيه « يده على كل يد ، ويد كل به ، وسيحل على جميع حدود اخوته » الا لأجل حفيده محمد صلى الله عليه وسلم • فان الله تعـالى قد بعثه بدعوة جميع الخلق الى الله : بنى اسرائيل ، ومن دونهم ، ومن فوقهم • فكل من بلغته دعوته • وجب عليه الدخول فى دينه •

ثم ان الله تعـالى قد أظهره على الدين كله ، ولو كره الكافرون • وهذا كله وفاء بوعد الله تعـالى ، لنبيه ابراهيم حيث قال فى التوراة : « وقد استجبت لك فى اسماعيل ، وباركته • وكثرته ، وأنميته جدا جدا ، يولد له اثنى عشر عظيما ، وأجعله رئيسا عظيما ، بشعب عظيم » •

فانظر • أيها العاقل • كيف قال الله فى اسماعيل : « يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » ولم يقل مثل هذا فى اسحق • وانما قال فيه : « يكون رئيسا على شعوب كثيرة ، وملوك الشعوب من نسله » وبين الكلامين فرق ظاهر عند العاقل ، الفهم المنصف ، وكذلك قال فى اسماعيل : « باركته ، وكثرته ، وأنميته ، جدا جدا ، ولم يقل مثل هذا القول فى اسحق • وان كان قد قال فيه : « أباركه ، وأثبت عهدى له » وهذا الذى وعد الله به اسحق ، وعد به اسماعيل ، وزاد زيادة عظيمة ، يعرفها من مساق كلام التوراة : من كان عارفا بمجارى كلام الله تعـالى فيهـا • وكان مع ذلك عاقلا منصفا •

وسننبه على سر ، تحت قوله « جدا جدا » فى القسم الثانى من هذا الباب •

فأما هاجر ، فقد جاء فى التوراة فى حقها ، ما لم يجىء فى حق سارة • وذلك أن ملاك الرب كلمها عن الله ، وأبلغها أمره : مرتين • أو أكثر ، فاذن هى نبية ، أو صديقة • وفى أى موضع من التوراة جاء أن سارة نبية ، وأن الله أرسل اليهـا ملكا ليبلغها أمره ونهيه ، كما فعل بهاجر ؟

ولا شك أن من آتاه الله النبوة هو أفضل ممن لم يؤته اياها • ولا يظن الجاهل : أن هذا الكلام غض من منصب سارة رضى الله عنها ، بل هى صديقة مباركة • وكل له مقام معلوم • والحق أحق أن يتبع •

ثم الذى يفضى منه العجب : أنكم تعتقدون النبوة لمريم عليها السلام ، وليس لنبوتها فى التوراة ، ولا فى الانجيل ذكر ، يدل على نبوتها ، ولا فى كتب الأنبياء المتقدمين على زمان المسيح • ثم تنكرون نبوة هاجر وتذمونها ، مع أنه قد جاءت نبوتها ومدحها فى التوراة صريحا • وهذا كله مما يدل على جهلكم ، وقلة توفيقكم ، وأنكم تتحكمون فى الشرائع الالهيـــة بأوهامكم •

وأما قولك : « واعلم كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » اسكت يا جهول • فلست تعرف ما تقول • فما كان أجمل بك أن لو سترت عارك ، ولم تبد عوارك • كيف تتحكم بما لا تعرف ، ولا تفهم ؟ ها أنت قد حرفت لفظ التوراة وغيرته ، وليس كما ذكرته • « كذبتك من أم الحويرث قبلها » •

وانما لفظ التوراة : أن سارة قالت لابراهيم « أخرج هذه الأمة وابنها ، لأن هذا ابن الأمة ، لا يرث مع ابنى اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لمكان ابنه » فأين هذا من النص الذى ذكرت ؟ فيظهر لى أنك له اختلقت •

وهذا الذى ذكره الله فى التوراة بزعمكم انما هو حكاية عن قول سارة ، وليس حكاية عن الله • ولو سلمنا أنه حكاية عن الله ، لمـــا كان فيه دليل على ما زعمت ، وهو : أن الله تعـــالى لم يجعل النبوة فى نسل اسماعيل ، وأن الله قطعها عنه • بل مفهومه وظاهره : أن الذى منعه الله لاسماعيل انما هو ميراث فى ابراهيم ، وهو حظه فى ماله ، وأعطاه اسحق • وهذا السر نجيب ، يعز من يتنبه لأمثاله ، ولو كنت له محلا ، وأهلا ، لذكرناه لك ، فلسنا ممن يعلق الدر فى أعناق الخنازير(١) • وكذلك فى كون اسماعيل مخلوقا من نطفة ابراهيم فى رحم هاجر مع كونها أمة • وقد كان الله تعـــالى قـــادرا على أن يخلقه فى رحم حرة •

وكذلك لأى معنى أخرجت هاجر على تلك الحال حتى استقرت هاجر مع اسماعيل بمكة ؟ وهذه كلها أسرار معلومة عند من نور الله بصيرته ، وحسن سريرته ، وأصلح عقيدته ونيته • فان كنت تريد

---

(١) يقول عيسى عليه السلام : « لا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » (متى ٧ : ٦) •

أن تظفر بأمثال هذه الأسرار ، فعجل الى الله الفرار ، ولا تلهينك الدعة والقرار ، والا فأنت أسوأ حالا من الثور والحمار . ومع ذلك فأجل الله آت . وكل ما هو آت قريب . **« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »**(١) .

وأما قولك حاكيا عن الله : أنه قال لابراهيم « باسحق يتسمى نسلك » ولم يقل باسماعيل يتسمى ، فلم يقل فى التوراة « يتسمى » وانما قال « يذكر »(٢) ثم قطعت الكلام عنا ، وسكت عما بعده . ولو ذكرته لتبين أنك مبطل فى كلامك . وذلك أنه ذكر بعد هذا الكلام « وابن الأمة فانى أجعله أبا لشعب كثير ، لأنه ذريتك » وقد تقدم ما قال الله فيه ، وأنه مفضل على اسحق . وان كانت أمه : أمة . وانما قال الله لابراهيم « لأن نسلك انما يذكر باسحق » بقرب زمان الأنبياء المنتسبين اليه ، ولكثرة عددهم . والله أعلم .

ثم لو سلمنا أنه جاء فى التوراة « يتسمى » كما ذكرت . لكان معنى ذلك : أن الله يسمى ذرية اسحق باسم ابنه يعقوب ، الذى سماه الله اسرائيل . ثم غلب عرف الاستعمال على ذرية اسحق ، فقيل عليهم « بنو اسرائيل » وغاية ما فى هذا : اعلام الله تعالى بأنهم يسمون باسمه ، أو باسم ولده . وهذا أمر قريب ، وخطب يسير . وانما كان يكون لك فى هذا متمسك لغرضك الفاسد . لو قال : النبوة فى ولد اسحق ، وليست فى ولد اسماعيل . ولم يقل هكذا . وانما قال : ما قد أسمعتك ، والذى به أخبرتك .

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادى

وأما قولك : « فتنسلت منه الأمة الذى قال فيها قرآنكم **« أشد كفرا ونفاقا »**(٣) .

يا هذا . قد أغييت فى جهلك ، وسخفت فى قولك ، حيث تركت ما قالته التوراة فى نسله ، وعظيم حرمته وطوله ، وذكرت ما يدل على

---

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

(٢) فى ترجمة ١٩٧٠ « باسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » (تكوين ٢١ : ١٢ — ١٣) .

(٣) التوبة : ٩٧

جهلك ، وكثرة تواقحك ، وقلة فضلك . ولأى شىء لم تذكر فى نسله . ما قال الله فيه فى كتاب التوراة حيث قال فيه وفى نسله : « باركته ، وكثرته ، وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثنى عشر عظيما ، وأجعله رئيسا عظيما لشعب عظيم » فأنت يا جاهل قد صغرت ما عظم الله ، وذممت ما مدح الله ، فحاق عليك لذلك غضب الله . فبادر لانقاذ نفسك قبل حلول رمسك وندمك على ما فرط لك فى أمسك . فها أنا قد نصحتك ، ورسولنا يقول لك (قد أبلغتك) .

ثم الذين قال فيهم قرآننا : **« الأعراب أشد كفرا ونفاقا »**[1] انما أراد بهم قوما معينين ، وطائفة مخصوصين من أعراب البادية ، أهل جفاء وغلظة ، ردوا الحق بعد ظهوره ، وعاندوه حين وضوحه ، كما فعل أشياعكم من قبل .

ثم لا تظن أن قول الله تعـــالى : **« الأعراب أشد كفرا ونفاقا »** أنه أراد « منكم » لأنكم أشد الناس كفرا وأعظم العقلاء عنادا . وقد بينا ذلك فيما تقدم وانما أراد الله لهذا المعنى — وهو أعلم — : أن أعراب البادية أشد كفرا ممن كفر من عرب الحاضرة ، فلا تدخلون أنتم معهم تحت « أفعل » الا كما يقال « العسل أحلى من الخل » .

ثم ان جاز ذم شعب أو قبيلة ، لأن بعضهم كفر أو فسق . فأشد الناس كفرا ونفاقا : بنو اسرائيل ، لكونهم عبدوا العجل والأصنام على ما هو المعروف من أحوالهم . فالكافرون من أجدادكم على الحقيقة أشد الكافرين كفرا ، وأسوأهم طريقة .

وأما قولك : « والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح » حقيقة الايمان : نحن — والحمد لله — أهل الهداية والهدى ، المؤمنين بشريعة المسيح المصطفى ، المحققون أنكم لستم على شىء منها ، بل على الضلالة والردى . وقد بينا ذلك فيما تقدم بالبراهين القاطعة ، وبعد هذا . نعقبها بالدلالات الصادعة ، بحول الله وقوته . وقد نجز ما أردنا تتبعه على هذا السائل الجاهل بدينه الغافل . ولو ذكرنا كل ما فيه من الفساد لخرج الكلام عن الضبط .

وبعد الفراغ منه . نتكلم على ما وعدنا به من الكلام فى النبوات . ونذكر ما فيها من المباحثات بعون الله وتوفيقه .

* * *

---

(١) التوبة : ٩٧

القسم الثانى :

فى النبوات واثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

المقدمة الأولى

غرض هذه المقدمة : أن نبين فيها معنى النبوة والرسالة ، والمعجزة وشروطها ، ووجه دلالتها • فنقول : لفظ « النبى » و « النبوة » وما تصرف منه ، راجع الى « النبأ » وهو : « الخبر » • تقول « نبأت » و « أنبأت » بمعنى « أخبرت » و « خبرت » وهذا مع لفظ « نبىء » بين •

وكذلك هو مع تسهيله على أصح الأقوال • فانه قد يكون أصل شىء من الألفاظ : الهمز • ثم يخفف الاسم منه ، كما قالوا : « خابية » وهو من « خبأت » هذا أصح ما قيل فى اشتقاق هذا اللفظ • فاذا تقرر هذا ، فنبىء • على أصل الوضع وزنه « فعيل » وفعيل يأتى فى الكلام بمعنيين : أحدهما : فعيل بمعنى فاعل ، كما قيل : رحيم ، بمعنى راحم ، وسميع بمعنى سامع • والثانى : فعيل بمعنى مفعول ، كما قيل رجيم ، بمعنى مرجوم ، وخصيب بمعنى مخصوب فعلى هذا يصح فى « نبى » أن يكون بمعنى « مخبر » وبمعنى « مخبر »(1) •

فعلى أصل الاشتقاق ، ووضع العرب : كل من أخبر بشىء ، أو أخبر بشىء فهو « نبى » •

وعلى المتعارف بين المتشرعين : انما يطلقون اسم النبى على من كان مخبرا عن الله • فاما أن يكلمه الله مشافهة ، واما بواسطة ملاك •

هذا هو عرف المتشرعين فى النبوة • والى هذا يرجع معناها • فالنبىء عند عقلاء أهل الشرائع : انما هو « حيوان ناطق مائت ، كامل فى نوعه ، مخبر عن الله تعالى بحكم أو مشافهة ، اما بواسطة ملك • أو ما تنزل منزلته » •

---

(1) الأولى بكسر الباء ، والثانية بفتحها •

فقولنا « حيوان ناطق » أردنا به أن انسانا باق على أصل انسانيته ، لا يمتاز عن غيره من نوع الانسان بوصف حقيقى • وان امتاز بأوصاف عرضية عن غيره كالعلوم الخاصة بهم ، وصفات الكمال التى خصهم الله بها • فذلك لا يخرجه عن كونه انسانا • ولأجل هذا المعنى كانت الرسل تقول لقومها **« ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده »**(١) وكذلك قال الصادق المصدوق : **« انما أنا بشر مثلكم ، يوحى الى »**(٢) فجعل الفصل بينه وبين نوعه ما خص به من الوحى •

وقولنا « مائت » تنبيه على مآله ، لئلا يغلوا فى بعضهم جاهلون ، كما فعلت النصارى فينسبونهم الى ما لا يليق بمن يموت •

وقولنا « كامل » أعنى بذلك : أن الأنبياء مجبولون على أتم صفات نوع الانسان • وذلك معلوم من أوصافهم • وان كانوا متفاوتين فى ذلك •

وقولنا « مخبر عن الله » هذا القيد ، هو خاصته التى تفصله عن غيره من نوعه • فان لم يكن كذلك لم يقل عليه : انه نبى •

وقولنا « اما مشافهة ، واما بواسطة ملاك » تحرز ممن يبلغه خبر الله تعالى على ألسنة رسله • فانه ليس بنبى ، ولا يقال عليه بحكم العرف : انه نبى • ولو جاز ذلك ، لجاز أن يقال « نبى » على كل متشرع ، سمع من رسوله خبرا عن الله • وهذا لم يقله أحد •

وقولنا « أو ما تنزل منزلته » نريد به : أن الأنبياء ، قد يتلقون الوحى على وجوه • منها : أن يكلمه الله مشافهة • ومنها : أن يرسل اليه ملكا ، يخبره عن الله • ومنها : أنه يلقى اليه الوحى فى النوم • ومنها : أن الله تعالى يقذف فى روعه ، ويلهمه الهاما ، حتى لا يشك أن الأمر كذلك ، ويقطع به •

فاذا تقرر أن حقيقة النبوة ما ذكرناه ، وأن فضله الخاص به : هو ما تحصل له من الاخبار عن الله فذلك الخبر : ان أمر النبى بتبليغه لغيره ، فذلك النبىء ، هو الذى يقال عليه : رسول • والرسالة : هو الكلام المبلغ عن الله • فلأجل هذا يصح أن يقال : كل رسول نبى • وليس كل نبى رسولا •

---

(١) ابراهيم : ١١ (٢) الكهف : ١١٠

اذ الرسالة نبوة وزيادة • وهذا بين بنفسه • فاذا تقرر ذلك • فهذا البشرى ، الذى يدعى : أن الله أرسله الينا ، لا بد أن يكون صادقا • وذلك لا نعرفه بغير دليل ، فلا بد من دليل •

والدليل المتحدى به : هو المعجزات • ولا بد من النظر فى حقيقتها ، وفى شروطها ، وفى وجه دلالتها •

فأما المعجزة : فلفظ مأخوذ من الاعجاز • وذلك أنك تقول : عجز فلان عن كذا • عجزا • اذا لم يقدر عليه ، ولم يقم به • وأعجزته اعجازا اذا جعلته يعجز ، وتقول : أعجزنى الشىء اذا فاتك ، ولم تقدر عليه •

وكلها راجعة الى أن العاجز عن الشىء هو الذى لا يتمكن من الشىء ، ولا يقدر عليه ، ثم فى تسمية هذه الأدلة التى تدل على صدق الأنبياء : معجزات : تجوز • وذلك أن المعجز على التحقيق : انما هو خالق العجز ، وهذه الأسباب التى يقع العجز عندها تسمى : معجزة • بالتوسع • وذلك من تسمية الشىء باسم غيره اذا جاوزه ، أو كان منه بسبب •

هذا شرح لفظ المعجزة •

فأما حقيقتها : فهو أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة •

انما قلنا « أمر » ولم نقل « فعل » ليشتمل بذلك على الفعل الخارق للعادة ، والمنع من الفعل المعتاد • فلو قال « نبى » : آيتى أنه لا يقدر أحد أن يتكلم اليوم ، فكان ذلك • لكان ذلك دليلا على صدقه ، ويكون ذلك معجزة له مع أنه ليس اتيانا بفعل عرفى • وانما هو منع من فعل معتاد • وانما قلنا « مقرون بالتحدى » لئلا يتخذ الكاذب معجزة من تقدمه ، حجة لنفسه ، ولتتميز عن الكرامة ، وما فى معناها • وانما قلنا « مع عدم المعارضة » لتتميز عن السحر والشعبذة •

واذا حققت النظر فيما ذكرناه فى حد المعجزة علمت شروطها • لكن ينبغى لك أن تعرف : أن المعجزة لا تكون دليلا الا فى حق من علم وجود البارى تعالى • وأنه قادر عالم مريد موصوف بصفات الكمال ، حتى يتأتى منه الارسال ، والتصديق والتكليف ، واذا لم يعرف الناظر

هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ، ولم يفده العلم بالتصديق للنبي .

وأما وجه دلالتها : فهو أن المشاهد للمعجزة المتحدى بها اذا علمها ،وعلم شروطها علم على الضرورة : أن الله تعالى قصد بذلك المعجز : تصديق المدعى ، ويتبين هذا بمثال . وذلك أنه : لو فرضنا(١) ملكا عظيما ، اجتمع له أهل مملكته فى مجلسه وأهل المملكة مصغون لما يأمرهم به ، ذلك الملك .

فقام رجل من بين يديه ، وقال : انى رسول هذا الملك الحكيم . وقد أمرنى أن أبلغكم أمره ونهيه . وأنا صادق فى قولى هذا . ثم يقول : يا أيها الملك : ان كنت صادقا فيما أقوله عنك فخالف عادتك . وقم عن سريرك قياما ، تخالف به المعتاد من فعلك ، فاذا فعل الملك ذلك عند تحدى المدعى . فان أهل المجلس يضطرون الى العلم بأن الملك قصد بذلك الفعل تصديقه ، ولا يعتريهم فى ذلك ريب ، ولا توقف ، فتنزلت اذن تلك الأفعال بتلك الشروط منزلة قوله « صدقت أنا أرسلتك » وهذا بين بنفسه عند كل موفق منصف ، معلوم على القطع .

فاذا تقرر ذلك . فمهما ادعى شخص الرسالة ، واستدل عليها بمثل ما ذكرناه ، كان محقا فى دعواه ، صادقا فى قوله ، لا يجوز لعاقل أن يتخلف عن متابعته ، سواء ادعى عموم رسالته ، أو خصوصها ، ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد ادعى عموم رسالته ، واستدل على صدقه بالمعجزات على الشروط التى ذكرناها . فهو صادق ، ولا يجوز لعاقل بلغه أمره ، أن يتخلف عن متابعته ، وتصديقه .

وسنذكر ان شاء الله بعض ما أمكن ذكره من معجزاته ، فانه صلى الله عليه وسلم قد أيد بمعجزات كثيرة ، حتى اذا جمعت وتتبعت علم منها : أن الله تعالى ، قد جمع له أكثر معجزات الأنبياء قبله وخصه بمعجزات لم يشاركه فيها غيره منهم ، وستقف ان شاء الله على أكثر ذلك .

فهذه المقدمة الأولى .

***

---

(١) هذا قد اقتبسه المؤلف من كتاب « العقيدة النظامية » للجوينى عبد الملك امام الحرمين .

المقدمة الثانية

وأما المقدمة الثانية :

فالغرض منها : أن تتبين فيها : أن عيسى عليه السلام ظهرت المعجزات على يديه ، وتحدى بهـا الخلق ليؤمنوا أنه رسول الله • لا ليؤمنوا بأنه : اله • وأن النصارى غير عالمين بمعجزات عيسى عليه السلام • اذ لم تتوافر عندهم • فنقول ـ وبالله التوفيق ـ :

ان النصارى غايتهم أن يسندوا معجزات عيسى عليه السلام ، لمـا فى أيديهم من الانجيل ، وهو لم يتواتر نقله ، ولا أمن التحريف ، والغلط فيه ، على ما تقرر قبل • واذا كان هذا ، فكل ما فى أيديهم من الأخبار عنه فى الانجيل لا تفيد العلم القطعى • وغاية ذلك : أن تفيد غلبة ظن •

والظن فى الاعتقاد : بمنزلة الشك ، بل هو شك • فاذن هم من معجزات عيسى فى شك ، وهم لا يشعرون بذلك الافك •

ومما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم : ما استفاض فى كتب التواريخ(١) عندنا وعندهم • وذلك أن عيسى عليه السلام لمـا بعثه الله تعـالى ، دعا بنى اسرائيل للايمان ، فأجابه من شاء الله منهم ، فلما رفعه الله تعـالى استحلى الناس كلامه بعد ذلك حتى بلغ عدد بنى اسرائيل : سبع مـائة رجل ، فكانوا يجاهدون فى بنى اسرائيل ويدعون الى الايمان ، فقام « بولش اليهودى » وكان هو الملك فى بنى اسرائيل فحشد عليهم الأجناد ، وخرج عليهم ، وقاتلهم ، فهزمهم وأخرجهم من بلاد الشام ، حتى انتهى فلهم ، الى الدروب • فأعجزوه • فقال « بولش » الملك لجنوده : ان كلام هؤلاء لمستحلى • وقد قدموا على عدوكم ، وسيرجعونهم فى ملتهم ، فيكثرون علينا ، فيخرجون الينا ، ويخرجوننا من بلاد الشام • ولكنى أرى لكم رأيا • قالوا : وما هو ؟ قال : تعاهدونى على كل شىء ، كان خيرا ، أو شرا • ففعلوا • فترك ملكه ، ثم لبس لباسهم ، وخرج اليهم ليضلهم ، حتى

---

(١) سيذكر المؤلف من سفر أعمال الرسل باختصار • وسيذكر عبارات اقتبست فيه •• بعض معانيها فى رسائل بولس والبعض حكاية حال •

انتهى الى عسكرهم ، فأخذوه • وقالوا : الحمد لله الذى أخزاك ، وأمكن منك • فقال لهم : اجمعوا رؤوسكم ، فانه لم يبلغ منى حمقى أن آتيكم الا ومعى برهان • فأبلغوه رؤوسهم •

فقالوا : مالك • فقال : انى لقينى المسيح منصرفى عنكم ، فأخذ سمعى ، وبصرى ، وعقلى • فلم أسمع ، ولم أبصر ، ولم أعقل ، ثم كشف عنى • فأعطيت الله عهدا : أن أدخل فى أمركم • فأتيت لأقيم فيكم ، وأعلمكم التوراة وأحكامها ، فصدقوه • فأمرهم أن يبنوا له بيتا ، ويفرشوه رمادا ، ليعبد الله فيه بزعمه ، ويعلمهم التوراة •

ففعلوا ، وعلمهم ما شاء الله ، ثم أغلق الباب دونه ، فأطافوا به • وقالوا : نخشى أن يكون رأى شيئا يكرهه • ثم فتحه بعد يوم • فقالوا : أرأيت شيئا تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأيا ، وأعرضه عليكم • فان كان صوابا فخذوه ، وان كان خطأ • فردونى عنه • قالوا : هات • قال : هل رأيتم سارحة تسرح الا من عند ربها ، وتخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قالوا : لا • قال : فانى رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج ، انما تجىء من ها هنا • وما أوجب ذلك الا وهو أحق الوجوه أن يصل اليه • قالوا : صدقت • فردهم عن قبلتهم •

ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين ، ففزعوا أشر من الأول • وأطافوا به ، ففتحه • فقالوا : أرأيت شيئا تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأيا • قالوا : هات • قال : ألستم تزعمون : أن الرجل اذا أهدى الى الرجل الهدية ، وأكرمه بالكرامة ، فردها • شق ذلك عليه ، وأن الله تعالى : سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل ما فى السماء لكم كرامة • فالله أحق أن لا ترد عليه كرامته •

فما بال بعض الأشياء حلال ، وبعضها حرام • ما بين البقة الى الفيل : حلال • قالوا : صدقت •

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثا • ففزعوا أمثل من الثانية ، فلما فتح لهم • قال لهم : انى رأيت رأيا • قالوا : هات • قال : لنخرج كل من فى البيت الا « يعقوب » و « نسطور » و « ملكون » و « المؤمن » •

ففعلوا • فقال : هل علمتم أحدا من الانس خلق من الطين خلقا • فجعله ، فصار نفسا ؟ قالوا : لا • قال : فهل علمتم أن أحدا من الانس

أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ؟ قالوا : لا . قال : هل علمتم أن أحدا من الانس ينبىء الناس بما يأكلون ، وما يدخرون فى بيوتهم ؟ قالوا : لا . قال : « فانى أزعم أن الله تعالى تجلى لنا ، ثم احتجب »(١)

فقال بعضهم : صدقت ، وقال بعضهم : لا . ولكنه ثلاثة : والد ، وولد . وروح القدس . وقال بعضهم : الله وولده . وقال بعضهم : هو الله تجسم(٢) لنا .

فافترقوا على أربع فرق . فأما يعقوب : فأخذ بقول « بولش » : ان الله هو المسيح . وأنه كان ثم تجسم . وبه أخذت شيعته . وهم اليعقوبية(٣) . وأما نسطور(٤) فقال : المسيح ابن الله على جهة الرحمة ، وبه أخذت شيعته ، وهم النسطورية ، الا أن شيعته لم تعتقد أنه سمى ابنا على جهة الرحمة ، بل على ما تقدم . وأما ملكون : فقال : ان الله ثلاثة . وبه أخذت شيعته . وهم : الملكية(٥) . الذين قالوا : ان الله ثلاثة أقانيم . فقام المؤمن(٦) : وقال لهم : عليكم لعنة الله . والله ما حاول هذا الا افسادكم ، ونحن أصحاب المسيح قبله . وقد رأينا عيسى وسمعنا منه ، ونقلنا عنه . والله ما حاول هذا الا ضلالتكم وفسادكم .

فقال بولش للذين اتبعوه : قوموا بنا نقاتل هذا المؤمن ونقتله هو وأصحابه ، والا أفسد عليكم دينكم . فخرج المؤمن الى قومه . وقال : أليس تعلمون أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكذا قال لكم ؟ قالوا : بلى . قال : فان هذا الملعون ، قد أضل هؤلاء القوم . فركبوا فى أثرهم .

فقاتلوهم . فهزم المؤمن وأصحابه . وكان أقلهم تبعا . فخرج مع قومه الى الشام ، فأسرتهم اليهود فأخبروهم الخبر . وقالوا : انما

---

(١) فى الأصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الى تيموثاوس : « وبالاجماع عظيم هو سر التقوى : الله ظهر فى الجسد » .

(٢) رأى هذا البعض هو رأى البعض الذين قالوا : صدقت .

(٣) هم فى عصرنا هذا يسمون « الأرثوذكس » .

(٤) نسطور قال : عيسى انسان واله .

(٥) هم فى عصرنا هذا يسمون « الكاثوليك » .

(٦) يقصد بالمؤمن : الذين ثبتوا على الحق .

خرجنا اليكم لنأمن فى بلادكم ، ومالنا فى الدنيا من حاجة . انما نلزم الكهوف والصوامع ونسيح فى الأرض . فخلوا عنهم .

ثم ان قوما من أولئك الذين كفروا ، فعلوا مثل ما فعل قوم المؤمن ، اتخذوا الصوامع ، وساحوا ، وأظهروا البدعة ، فهو قول الله عز وجل : **« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها »**[1] يعنى التوحيد[2] . اختلفوا فيه ، الا فرقة « المؤمن » وفيهم نزلت : **« فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين »**[3] بالجهة ، وظهور محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان هرب المؤمنين منهم الى جزيرة العرب ، فأدرك النبى صلى الله عليه وسلم منهم : ثلاثون راهبا . فآمنوا به ، وصدقوه ، وتوفاهم الله على الاسلام .

كان هذا — والله أعلم — بعد المسيح بأربعين سنة ، أو نحوها . ثم لم يزل أمر « المؤمن » وأصحابه خفيا ، وغيرهم من الفرق مختلفون ، ويتهارجون ، ولم يستقر لهم قدم الى مدة « قسطنطين » قيصر الملك ابن « هيلانة » وذلك بعد رفع المسيح بمائتين وثلاثة وثلاثين سنة[4] .

وذلك أنه كثر عدوه ، وكاد ملكه يذهب باختلاف رعاياه عليه ، وضعفهم ، وكسلهم عن نصرته . فرام حملهم على شريعة ينظم بها سلكهم ، ويؤلف بها متفرقهم ، فاستشار من لديه من أهل النظر فوقع اختيارهم على أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون ذلك أقوى لارتباطهم معه ، وأوكد لجدهم فى نصره ، فوجدوا اليهود يزعمون أن فى بعض تواريخهم خبرا عن رجل منهم هم أن ينسخ حكم التوراة . وينفرد بالتأويل فيها . فعمدوا اليه وهو فى نفر ممن اتبعه ، وظفروا بواحد

---

(١) الحديد : ٢٧

(٢) يعنى — والله أعلم — ابتداعهم الرهبانية ، وهى غير منصوص عليها فى التوراة التى جاء المسيح مصدقا لها .

(٣) الصف : ١٤

(٤) هذا يعنى أن رفع المسيح كان فى سنة ثمانين من الميلاد لأن قسطنطين اعترف بالنصرانية سنة ثلثمائة وثلاثة عشر من الميلاد وكان مجمع نيقية سنة خمس وعشرين وثلثمائة من الميلاد .

منهم ، وشهد لديهم رجل واحد : أنه ذلك المطلوب ، فصلبوه ، وما عندهم تحقيق ، لكونه ذلك المطلوب بعينه ، الا فقدهم اياه من حينئذ .

فعند ذلك عمد « قسطنطين » الى من ينسب الى دين المسيح ، فوجدهم ، قد اختلفت آراؤهم ومزجت أديانهم ، فاستخرج ما بقى من رسم الشريعة المنسوبة للمسيح وجمع عليها وزراءه ، فأثبت ما شاء منها ، وتحكم فيها باختياره ، حسب ما رآه موافقا له بالصلوبية لتعبد قومه بطلب دم ، والقول بترك الختان ، لأنه شأن قومه . ثم أكد ذلك وشده بمنامة اختلقها وادعى أنه أوحى اليه فيها .

وذلك أول شيء أظهره من هذا الأمر ، فجمع أنصاره ، ورعاياه من الروم . وذلك على رأس سبع سنين من مدة ملكه . وقال لهم : انه كان يرى فى منامه آتيا أتاه . فقال له : بهذا « الرسم »(١) تغلب ، وعرض عليه هيئة « الصليب » فأعظمت ذلك العامة ، وانفعلت لما سمعت منه ، ثم بعث الى امرأة فى ذلك الزمان يقال لها « الأنه » كاهنة ، وكانت ذات جأش وقوة ، فشهدت له أنها رأت مثل ما رأى . فقوى تصديق العامة لذلك .

وفى هذا كله ، لا يعلمـون لذلك الرسـم تأويـلا . ولا كان « قسطنطين » كشف لهم شيئا من أمره . فخرج بهم الى عدوه ، ووعظ قومه ، وهول عليهم أمر الرسم . فحصل له كل ما أراده من جد القوم واجتهادهم معه . فلما عادوا الى أوطانهم بعد الظفر بعدوهم . سألوه عن تأويل ذلك « الرسم » وألحوا عليه فيه . فقال لهم : قد أوحى الى فى نومى ، أنه كأن الله تبارك وتعالى هبط من السماء الى الأرض فصلبته اليهود . فهالهم ذلك كثيرا ، مع ما حصل عندهم من تصديقه ، وعظم عليهم الخطب فيه ، فانقادوا الى « قسطنطين » انقيادا حسنا ، وصح له منهم ما أراده ، وشرع لهم هذه الشرائع التى بأيديهم اليوم ، أو أكثرها (٢) .

---

(١) فى المخطوطة : الرشم بالشين المعجمة بدل السين المهملة وفى كثير من الكتب الرسم بالسين .

(٢) قد ذكرنا فى تحقيقنا لكتاب « منظومة الامام الأبوصيرى فى الرد على النصارى واليهود » : السبب الحقيقى لتحريف النصرانية وهو : أن أهل الروم كانوا يحتلون بلاد اليهود . وكان اليهود يزعمون لهم أن نبيا منهم =

وقد ظهر لجماعة من أهل العلم بأحوال الأمم وبنوازل الأزمان : أن هذا الشخص الذى تعظمه النصارى ، وتصفه بالالهية ، لم يكن له وجود فى العالم • ولكن « قسطنطين » ابتدع ذلك كله واتفق مع نفر من اليهود من أحبارهم • على أن يبذل لهم من متاع الدنيا ما شاءوا ، ويشهدون له عند قومه بأن ذلك الشخص كان عند اليهود فصلبته • ففعلوا • وكتبوا من أخباره شيئا • فتلقت ذلك النصارى وقبلوه ودانوا به • ولعله أكثر الانجيل الذى بأيديهم اليوم •

ولتعلم • أن هذه الأخبار التى ذكرناها • لا يمكنهم انكار جملتها ، وان أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم • فانهم لا يقدرون على جحد محاربة « بولش » اليهودى واجلاؤهم من الشام • ودخول « بولش » فى دينهم • وكذلك ملك « قسطنطين » مما لا ينكرون اشهاره لكتبهم • ثم لو قدرنا : أن هذه الوقائع لم تعلم صحتها ، ولا كذبها ، فشرعهم قابل لأمثالها فان معظم معتمدهم فى أمور دياناتهم انما هو الانجيل ، ونقله غير متواتر لا سيما • والأحداث عندهــم فى أكثر الأحيان بمنامات[1] يدعونها ، يجعلونهــا أصولا يعولون عليها ، وبمحافل يجتمعون فيها ، فيتحكمون بآرائهم ،

= سيظهر ، ومع ظهوره سيخضعون للروم ولن يمسوهم بأدنى أذى • ولما ظهر عيسى عليه السلام وضح لليهود ولأهل الروم أن النبى الذى سيظهر سيكون من العرب بنى اسماعيل • وأنه سيحارب أهل الروم وسيطردهم من فلسطين ، فاغتاظ اليهود منه لأنه تحدث على غير مرادهم فى النبى المنتظر ، واغتاظ الروم منه لأنه أخبرهم بقرب زوال مملكتهم • فلذلك تحالف اليهود والروم على القضاء على المسيح عيسى وأتباعه • فاضطهدهم الروم اضطهادا شديدا • ونفث علماء اليهود سمومهم فى المسيح وأمه • واقتبسوا عقائد الرومان وعاداتهم ، وضللوا بالعقائد والعادات فى شأن المسيح وأمه ، فجعلوا مملكة الروم أحزابا وشيعا ، ولما اختل نظامهم ، وتعب النصارى من الاضطهاد ، وظهر فى نفوس الناس ميل الى المسالمة ، ورضى النصارى بالمصالحة مع الروم ، ورضى الروم بالمصالحة مع النصارى ، اتفق الطرفان على صوغ العقائد النصرانية على مثال عقائد الروم ، وعلى أن لا يقول النصارى أن النبى المنتظر سوف يأتى من العرب ويقضى على مملكة الروم ، ومن أجل ذلك طبق النصارى كل نبوءات التوراة عن النبى المنتظر على المسيح عيسى عليه السلام ، وجعلوه خاتم النبيين •

(١) اقرأ كتاب : المستكشار •

ولا يستندون لشيء من كتبهم ، ولا لشيء من كلام أنبيائهم . وان شئت أن ترى هذا عيانا . فانظر كتب اجتماعاتهم ومحافلهم ، فانهم ينحشدون لمواضع مخصوصة فى أحيان مخصوصة ، ويخترعون فيها أحكاما ، وأمورا ، لا مستند لهم ، ولا أصل الا التحريم على المآكل ، والتحكم فى العامة بفارغ الأقاويل . وسنبين ذلك اذا ذكرنا جملا من أحكامهم . واذا كان هذا مبنى شريعتهم ، فكيف يوثق بشيء من ترهاتهم ؟

فاذا تقرر ذلك فلتعلم أن اتخاذهم المسيح : الها . انما سببه ، ما سبق ذكره ، ولا يقدرون على أن ينسبوا شيئا من ذلك الى عيسى عليه السلام . بل قد نقلوا عنه فى انجيلهم : ما يدل دلالة قاطعة من حيث اللفظ على أنه انما ادعى النبوة ، وعليها استدل بمعجزاته . وفى دعواه النبوة كذبته اليهود .

ونحن الآن نسرد بعض ما وقع فى انجيلهم من دعواه الرسالة بحول الله سبحانه .

من ذلك : ما جاء فى الانجيل عنه أنه قال حين خرج من السامرية ، ولحق بجلجال(١) : « انه لم يكرم أحدا من الأنبياء فى وطنه »(٢) .

وفى انجيل لوقا : « أنه لم يقبل أحد من الأنبياء فى وطنه ، فكيف تقبلوننى ؟ »(٣) وهذا نص لا يقبل التأويل فى أنه انما ادعى النبوة المعلومة .

وفى انجيل ماركش أن رجلا أقبل الى المسيح . وقال له : « أيها المعلم الصالح : أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال له المسيح : لم قلت لى صالحا ؟ انما الصالح : الله وحده وقد عرفت الشروط . وذلك : ألا تسرق ولا تزنى ، ولا تشهد بالزور ، ولا تخون . وأكرم أباك وأمك »(٤) .

---

(١) فى التراجم الحديثة : ولحق بالجليل .

(٢) الاصحاح الرابع من انجيل يوحنا ـ الآية ٤٤

(٣) انجيل لوقا ٤ : ٢٤

(٤) انجيل مرقس الاصحاح العاشر ـ الآية السابعة عشر وما بعدها .

وفى انجيل يوحنا أن اليهود لما أرادت القبض عليه ، وعلم بذلك رفع بصره الى السماء وقال : « قد دنا الوقت يا الهى ، فشرفنى لديك ، واجعل لى سبيلا الى أن أملك كل من ملكتنى : الحياة الباقية . وانما الحياة الباقية : أن يؤمنوا بك الها واحدا . وبالمسيح الذى بعثت . فقد عظمتك على أهل الأرض ، واحتملت ما أمرتنى به ، فشرفنى لديك »(١) .

وفى انجيل متى أنه قال لتلاميذه : « لا تنسبوا أباكم على الأرض . فان أباكم الذى فى السماء وحده ، ولا تدعوا معلمين ، فان معلمكم : المسيح وحده »(٢) .

فقوله « لا تنسبوا أباكم على الأرض » أى : لا تقولوا : انه على الأرض ، ولكنه فى السماء ، ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال : « ولا تدعوا معلمين . فان معلمكم المسيح وحده »(٣) فها هو قد سمى نفسه : معلما فى الأرض . وشهد أن الههم فى السماء واحد ، ونهاهم أن ينسبوه لالهية .

وفى انجيل لوقا أنه حين أحيا الميت بباب مدينة « نايين » حين أشفق لأمه ، لشدة حزنها عليه . قالوا : « ان هذا النبى لعظيم ، وان الله قد تفقد أمته »(٤) ولم يقولوا : ان هذا اله عظيم .

وفى انجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا . لكنى أحكم بما أسمع ، لأنى لست أنفذ ارادتى ، بل ارادة الذى بعثنى »(٥) .

وفى انجيله أيضا أنه « أعلن صوته فى البيت ، وقال لليهود : قد عرفتمونى موضعى ، فلم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق ، وأنتم تجهلونه . فلن قلت : انى أجهله كنت كاذبا مثلكم . وأنا أعلم أنى منه ، وهو بعثنى »(٦) .

---

(١) الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا ـ الآية الأولى وما بعدها .
(٢) متى ٢٣ : ٩ ـ ١٠ ونص العبارة : « لا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات ... الخ » .
(٣) اقرأ تقديمنا لهذا الكتاب .
(٤) انجيل لوقا الاصحاح السابع .
(٥) انجيل يوحنا ٥ : ٣٠
(٦) الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا

فانظر . كيف أخبر عن نفسه ، أنه معلوم عند اليهود . وأخبر عن الله : أن اليهود لا تعرفه وقال : « انه لم يأت من ذاته ، ولكن الله بعثه » وهكذا كانت دعوة من قبله من الأنبياء عليهم السلام . وحاشاهم أن ينتسبوا الى ما ينفرد به ذو الجلال والاكرام .

وفى الانجيل أيضا أنه قال لليهود بعد خطاب طويل مذكور فى الانجيل ، حين قالوا له : « انما أبونا ابراهيم . فقال : ان كنتم بنى ابراهيم فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلى .

على أنى رجل أديت اليكم الحق ، الذى سمعه من الله . غير أنكم تقفون أثر آبائكم . قالوا : لسنا أولاد زنا . انما نحن أبناء الله . فقال : لو كان الله أباكم لحفظتمونى ، لأنى رسول . منه خرجت مقبلا ، ولم أقبل من ذاتى . وهو بعثنى لكنكم لا تقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى . انما أنتم أبناء الشيطان ، وتريدون اتمام شهواته »(١) الى كلام كثير .

وفيه أيضا : أنه كان يمشى يوما فأحاطت به اليهود . وقالوا : « الى متى تخفى أمرك ؟ ان كنت المسيح المنتظر فأعلمنا بذلك »(٢) .

ولم تقل له : ان كنت الها ، لأنه لم تعلم من دعواه ذلك . ولا اختلاف عند اليهود : أن الذى ينتظرونه انما هو انسان نبى ، ليس بانسان اله كما تزعمون .

وفى الانجيل أيضا عنه : أن اليهود أرادوا القبض عليه ، فبعثوا لذلك الأعوان . وأن الأعوان رجعوا الى قوادهم . فقالوا لهم : « لم لم تأخذوه ؟ قالوا : ما سمعنا آدميا أنصف منه . فقالت اليهود : وأنتم أيضا مخدوعون . أترون : أنه آمن به أحد من القواد ، أو من رؤساء أهل الكتاب ؟ انما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب . فقال لهم نيقوديموس : أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه ؟ فقالوا له : اكشف الكتب ترى أنه لا يجىء نبى من جلجال »(٣) .

---

(١) الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا .   (٢) يوحنا ١٠ : ٢٤

(٣) جلجال فى التراجم الحديثة : الجليل والنص فى الاصحاح السابع من انجيل يوحنا .

فما قالت اليهود ذلك الا وقد أنزل لهم نفسه منزلة « نبى » فقط ، ولو علمت من دعواه الالهية لقاتلته يومئذ •

ومثل هذا كثير فى انجيلهم ، لو ذهبت أذكره لطال أمره •

وقد تقدم من كلام أشعياء أن الله تعالى قال فى المسيح : « هذا غلامى المصطفى ، وحبيبى الذى ارتضت به نفسى »(١) •

ومن كلام عاموس النبى أن الله قال على لسانه : « ثلاثة ذنوب أقيل لبنى اسرائيل والرابعة لا أقيلها : بيعهم الرجل الصالح »(٢) •

ولم يقل بيعهم اياى • ولا قال : بيعهم الها متساويا معى • فهذا المبيع لا يخلو اما أن يكون هو المسيح كما تزعمون • فقولوا فيه ، كما قال الله : انه رجل صالح ، ولا تقولوا : انه اله معبود • واما أن يكون المبيع غيره ، فهو الذى شبه لليهود ، فابتاعوه وصلبوه • ويلزمكم انكار صلوبية المسيح ، وهو كفر عندكم • وقد كررنا هذا المعنى فى هذا الكتاب مرارا لكون النصارى على اختلاف فرقهم يعتقدون له الالهية على اختلاف فى كيفية ذلك • كما تقدم •

وحتى لقد ذهبت طائفة منهم الى مقالة لم يسمع قط فى أكناف العالم وأطرافه من اجترأ على التفوه بهـا • ونحن نستغفر الله قبل حكايتهـا ، ونتبرأ الى الله من مذاهبهم الفاسدة ، ومن القائل بهـا ، وذلك أنى وقفت على رسالة بعض « الأقسة » كان بطليطلة ، نسبه من « القوط » قال فيها : « هبط الله بذاته من السـماء ، والتحم ببطن مريم » •

ثم قال : « وهو الاله التام • والانسان التام • ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عليهم فى خشبة الصليب ، فمكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليتم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه وغار دمه فى اصبعه ، لأنه لو وقع منه شىء فى الأرض ليبست الا شىء وقع فيها ، فيبست فى موضعه النوار •

---

(١) الاصحاح الثانى والأربعون من سفر أشعياء ـ الآية الأولى •

(٢) هذا النص ليس نبوءة عن عيسى عليه السلام •

لأنه لم يمكن فى الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصى : آدم ، الذى ظلمه ، واستهان بقدره ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء منزلة « السيد » وسقوط منزلة « العبد » أراد أن ينتصف من الانسان الذى هو اله مثله ، فانتصف من خطيئة آدم ، بصلب عيسى المسيح الذى هو اله ، مساو معه » .

فانظر تواقح هذا القائل ، واستخفافه بحق الله تعالى وجهله ، وتناقضه وحمقه . فوالله لو حكى مثل هذا القول السخيف عن مجنون أو موسوس لما كان يعذر بقوله ، ولبودر بضربه ، وقتله ، حتى لا يجترىء على مثله . ونحن نربأ بأكثر المجانين ، والموسوسين أن يتقولوا بهذا المذهب الغث الهجين ، أو ينتحلوا ركاكة هذا الدين السقيم ، الا أن يكون مستغرقا فى الوسوسة والجنون . فالحمق أنواع ، والجنون فنون .

وعند الوقوف على هذه المذاهب القبيحة ، والأوهام . يتبين فضل دين الاسلام ، ويتحقق معنى قول النبى عليه السلام : (اذا أراد الله انفاذ قضائه ، وقدره : سلب ذوى العقول عقولهم ، حتى ينفذه فيهم) .

وفى مثل هذا الضرب : المثل : « اذا جاء البين ، صم الأذن ، وعمى العين » والحمد لله الذى أعاذنا من هذه الرذائل ، وتفضل علينا بدين الحنيفية الذى خص بكل الفضائل ، التى يقبلها بفطرته الأولى كل عاقل ، ويستحسنها كل ذكى فاضل .

فقد تحصل من هاتين المقدمتين : معنى النبوة ، وبيان شروطها . وأن عيسى عليه السلام نبى ورسول . اذ قد كملت فيه شروط الرسالة ، وأنه ليس باله . وأن النصارى ليسوا عالمين بشىء من أحوال المسيح ، ولا من معجزاته على اليقين والتفصيل .

وغايتهم أن يعلموا أمورا جملية لكثرة تكرار هذا المعنى عليهم .

ثم تلك الأخبار التى يتحدثون بها عن المسيح ، وتتكرر عليهم ، لو كلفوا أن يسندوا شيئا منها لغير الانجيل كما ينقل متواترا لما استطاعوا شيئا من ذلك ، ولا وجدوا اليه سبيلا .

ومما يؤيد هذا المعنى ويوضحه : أن اليهود كانوا رهطه وكفلته ،

وعندهم نشأ ، وهم يخالفونكم فى كثير مما تنسبون اليه ، ولا يوافقونكم على نقلها •

من ذلك : أن اليهود تزعم أنهم حين أخذوه حبسوه فى السجن أربعين يوما • وقالوا : ما كان ينبغى لنا أن نحبسه أكثر من ثلاثة أيام • الا أنه كان يعضده أحد قواد « الروم » لأنه كان يداخله بصناعة الطب •

وفى انجيلكم : أنه أخذ صبح يوم الجمعة ، وصلب فى الساعة التاسعة من اليوم بعينه(١) •

وكذلك تزعم اليهود كلهم : أنه لم يظهر له معجزة ، ولا بدت لهم منه آية ، غير أنه طار يوما ، وقد هموا بأخذه ، فطار على أثره أحد منهم فعلاه فى طيرانه ، وتوله ، فسقط الى الأرض بزعمهم •

ومواضع كثيرة من انجيلكم تدل على ما قالته اليهود • من أنه لم يأت بآية •

فمن ذلك(٢) : « أن اليهود قالت له : ما آيتك التى ترينا ، ونؤمن بك • وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى فى المفاز ؟ فقال : ان كان أطعمكم موسى خبزا بالمفاز • فأنا أطعمكم خبزا سماويا » يريد نعيم الآخرة(٣) • فلو عرفت اليهود له : معجزة ، لما قالت ذلك • ثم لم يجبهم على قولهم بمعجزة ، ولا آية •

وفى انجيلكم : « أن اليهود جاءوا يسألونه آية ، فقذفهم • وقال : ان القبيلة الفاجرة الخبيثة تطلب آية ، ولا تعطى ذلك »(٤) •

وفيه أيضا : أنهم كانوا يقولون له ، وهو على الخشبة بظنكم : « ان كنت المسيح فأنزل نفسك ، نؤمن بك »(٥) يطلبون منه بذلك آية ، فلم يفعل •

---

(١) مرقس الأصحاح الخامس عشر • ويوم الاستعداد فى الانجيل هو يوم الجمعة • وفيه يستعدون ليوم السبت الذى لا يعملون فيه عملا •

(٢) النص فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا •

(٣) يريد الايمان بتعاليمه ليحيوا حياة طيبة •

(٤) متى ١٢ : ٣٨ ــ ٣٩

(٥) الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا •

ومثل هذا كثير فيه •

ثم ان اليهود عندهم من الاختلاف فى أمره ما يدل على عدم يقينهم بشىء من أخباره • فمنهم من يقول : انه كان رجلا منهم يعرفون أباه وأمه ، وينسبونه لزانية ، وحاشى لله • كذبوا • ويسمون أباه للزنية : « البندير[١] الرومى » وأمه « مرم الماشطة » كذبوا — لعنهم الله — ويزعمون : أن زوجها يوسف لما رأى « البندير » عندها على فراشها ، وتشعر بذلك فهجرها ، وأنكر ابنها • ومنهم من يقول : انه لم يتولد من غير أب ، وينكره ، ويقول : انما أبوه يوسف بن يهوذا ، الذى كان زوجا لمريم •

ثم ان اليهود — لعنهم الله — أطبقت على اطلاق الذم عليه ، ثم اختلفوا فى سببه ، فمنهم من قال ما تقدم • ومنهم من ذكر سببا آخر ، وهو أنهم زعموا : أنه كان يوما مع معلمه « يهوشوع » بن برخيا ، وسائر التلاميذ فى سفر ، فنزلوا موضعا ، وجاءت امرأة من أهله • وجعلت تبالغ فى كرامتهم • فقال « يهوشوع » : ما أحسن هذه المرأة ، يريد فعلها • فقال عيسى — بزعمهم لعنهم الله — لولا عمش فى عينيها • فصاح « يهوشوع » وقال له : يا ممزار — ترجمته : يا زنيم — أتزنى بالنظر ؟ وغضب عليه غضبا شديدا • وعاد الى بيت المقدس[٢] • وحرم باسمه ، ولعنه ، فى أربع مائة قرن • قالوا : فحينئذ لحق بزعمهم ببعض قواد الروم ، وداخله بصناعة الطب ، فقوى لذلك بزعمهم على اليهود ، وهم يومئذ فى ذمة قيصر « تباريوش » وجعل يخالف حكم التوراة ، ويستدرك عليها ، ويعرض عن بعضها • الى أن كان من أمره ما كان •

ومنهم من يقول : ان ذلك انما أطلق عليه لأنه كان يوما يلاعب الصبيان فى صغره بالكرة • فوقعت له بين جماعة من مشايخ اليهود ، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم • حياء من المشايخ ، فقوى عيسى ، وتخطى رقابهم ، وأخذها • فقالوا له : ما نظنك الا زنيما ؟ فأمضيت عليه هذه الشتيمة •

وكذلك يختلف فى صنعة أبيه ، الذى تقولون أنتم فيه ، خطيب

---

(١) باندارا الرومى فى الكتب الحديثة •

(٢) بيت المقدس : أورشليم (القدس) الآن •

أمه • فمنهم من يقول : يوسف النجار ، وبعضهم يقول : انما هو الحداد • وكذلك تختلفون أنتم فى اسم أبيه ، فبعضكم يقول : يوسف بن يعقوب ، وبعضكم يقول : يوسف بن هالى • وكذلك اختلفتم أنتم فى آبائه ، وفى عدده • فمنكم من يقلل ، ومنكم من يكثر • على ما تقدم • فهذا الاختلاف الكثير والاضطراب البين الشهير • يدل على : أنكم واليهود ، فى شك منه ، وأنه لم يثبت عندكم خبر متواتر عنه • وانما هى ظنون كاذبة ، وأوهام راتبة ، وسنبين مداخل الشك والأوهام عليهم فى قولهم بصلوبيته • ونبين أن اليهود والنصارى فى قولهم بصلبه كاذبون ، وأنهم **« فى ريبهم يترددون »**(١) فلولا أن من الله علينا بفضله علينا وعليكم معاشر النصارى بأن بعث الى الجميع : سيد المرسلين لبقى الجميع من أمر عيسى حيارى •

فنزه الله المسيح وأمه ، على لسان نبيه ، مما قالته اليهود فيهما من الأقوال الوخيمة • ونسبوه لها من الهجاء والشتيمة • وكما شهد ببراءة المسيح وأمه ، مما نسبته اليهود اليهما • كذلك شهد ببراءتهما مما نسبتموهما أنتم اليه ، وتقولتموه عليهما •

وذلك أن منكم طائفة يقولون : ان مريم اله • وقد أطبقتم على أن المسيح اله • وابن الاله • ونبينا عليه السلام يقول مخبرا عن الله سبحانه وتعـالى : **« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة »**(٢) •

فاذا سمع القائل قوله فيهما علم بعقله : أن ذلك القول هو الحق •

وان كان ممن طالع الزبور : علم أن دعاء داوود مستجاب ، ومقاله صدق • وذلك أن فى الزبور : أن الله تعـالى قال لداوود : « سيولد لك : ولد • أدعى له : أبا • ويدعى لى : ابنا »(٣) فقال :

---

(١) التوبة : ٤٥ (٢) المـائدة : ٧٥

(٣) البشارة لداوود عليه السلام بسليمان ابنه عليه السلام وعبارة « اللهم ابعث جاعل السنة » يشير بها المؤلف الى محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أن عيسى بشرا وليس الهـا • والحقيقة أن فى الزبور نبوءاته كثيرة عن محمد صلى الله عليه وسلم ولكن ليس فى النبوءات : أن المسيح سيظهر من نسل داوود ويتهمه النصارى بالألوهية • مع العلم بأن عيسى ليس من داوود بل هو من نسل هارون عليه السلام •• انظر كتابنا : (اعجاز القرآن) وكتابنا : (أقانيم النصارى) •

« اللهم ابعث جاعل السنة ، كى يعلم الناس أنه بشر » •

فاعتبر قول داوود حين أفزعه ذلك وراعه • كيف دعا الى الله : أن يبعث جاعل السنة ، الذى يعلم الناس : أن ذلك الولد المدعو : انما هو بشر •

وكذلك قال المسيح على ما حكاه انجيلكم : « اللهم ابعث البارقليط ، ليعلم الناس : أن ابن الانسان بشر » •

« والبارقليط »(١) بالرومية : هو « محمد » بالعربية •

فلما ضللتم ، وتفوهتم بذلك ، وراغمتم أدلة العقول ، وكلام الأنبياء المنقول • بعث الله جاعل السنة ، وكاشف الغمة : محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأعلم الناس أنه بشر ، ليس بالاه • ولا ابن اله • فقال مبلغا عن الله : « **وقالت النصارى المسيح ابن الله • ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون • اتخذوا أحبارهم ورهبانهم : أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهـا واحدا ، لا الـه الا هو ، سـبحانه عما يشركون** »(٢) وقال تعالى : « **وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا • ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا** »(٣) •

ونذكر الآن هنا : خبر « النجاشى » ليكون منبهة للعاقل ، ومردعة للجاهل •

وذلك أن الله تعالى • لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم اتبعه جماعة ممن نور الله قلبه ، وشرح للاسلام صدره • وذلك فى أول الأمر • فآمنوا به ، والتزموا شرعه وأحكامه • فكان كفار قريش والمخالفون لهم فى أديانهم يؤذونهم ويعذبونهم ، يرومون بذلك ردهم عن دينهم ، كما قد فعل بأتباع الأنبياء قبلهم ، فلما اشتد عليهم الأمر • شكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يهاجروا الى أرض الحبشة ؛ ووعدهم بأن يجعل الله من أمرهم فرجا • وأخبرهم أن بها ملكا عظيما ؛ لا يظلم عنده أحد • ففعلوا • فقدموا على النجاشى واسمه « أصحمة » وكان على صميم دين النصرانية •

---

(١) البيرقليط هى محمد ، والبارقليط تعنى النائب عن عيسى •
(٢) التوبة : ٣٠ ، ٣١ (٣) مريم : ٩٢ ، ٩٣

فلما قدموا عليه استقر بهم المنزل ، ووجدوه خير منزل . فأقاموا هنالك دينهم ، واغتبط النجاشى بصحبتهم ، وهم بجواره . فلما رأى كفار قريش ، أن قد وجدوا بأرض النجاشى أمنا ودعة ، وجهوا اثنين منهم وأصحبوهما هدايا جليلة الى النجاشى وأقسته . وطلبوا منه ، ومن أساقفته : أن يسلمهم لهما .

فلما قدما أرض النجاشى دفعا لأقسته هداياهم ، وطلبا منهم أن يعينوهما على ردهم معهما ، واسلامهم لقومهما . ثم دفعا للنجاشى هديته . وقالا له : أيها الملك . قد ضوا الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردهم اليهم .

فهم أعل بهم عينا . وأعلم بما عابوا عليهم . فأسلمهم اليهم ، فغضب النجاشى . ثم قال : لا . والله لا أسلمهم اليهما أبدا . ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، لا أسلمهم حتى أدعوهم . فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم .

ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله . فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل كافة ؟

فكلمه « جعفر بن أبى طالب » فقال : أيهـا الملك : كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على هذا حتى بعث الله الينا رسولا نعرفه ، ونعرف نسبه وأمانته ، وصدقه وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام •

وعدد عليه أمور الاسلام • فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به عن الله • فعدى علينا قومنا • وعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان • وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث •

فلما قهرونا وظلمونا • خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك •

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ فقال له جعفر : نعم • فقال : اقرأه •

فقرأ عليه جعفر صدرا من « كهيعص » فبكى — والله — النجاشى ، حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا لحاهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم • ثم قال النجاشى : ان هذا ، والذى جاء به موسى ، ليخرج من مشكاة واحدة •

انطلقا • فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا أكاد •

فلما خرجا من عنده ، وقد يئسا من مرادهما • قال أحدهما • وهو « عمرو بن العاص » : لآتينه عنهم غدا بما يهلكهم لأجله • ثم غدا عليه من الغد • فقال : أيها الملك •• انهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما • فأرسل اليهم ليسألهم • قالوا : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى اذا سألكم ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاء به نبينا ، كائنا فى ذلك ما كان •

فلما دخلوا عليه • قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه : الذى جاءنا به نبينا : هو عبد الله ورسوله • وروحه وكلمته • ألقاها الى مريم العذراء البتول •

قال : فضرب النجاشى بيده الى الأرض ، فأخذ منها عودا • ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود •

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال • فقال : وان نخرتم • والله • اذهبوا • فأنتم « شيوم » ترجمته « آمنون »[1] •

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام فى خبر النجاشى هذا •

فهذا قول أهل العلم من قبلكم ، العارفين بشريعتكم ، وما عدا ذلك فشجرته غثاء وأوضار « **اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار** »[1]

وسيأتى ان شاء الله تعالى : قول هرقل • اثر هذا الباب ، ان شاء الله تعالى •

كمل الجزء الثانى ، والحمد لله وحده •

(انتهى الجزء الثانى من كتاب « الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام واظهار محاسن دين الاسلام واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » ويليه الجزء الثالث باذن الله • وأوله : « أنواع القسم الثانى فى اثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ») •

---

(١) ابراهيم : ٢٦

أنواع القسم الثانى

فى إثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

نقول : ان محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الاسماعيلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما أخبر به عن الله تعالى ، ولا يجوز عليه شىء من الكذب •

ونستدل على ذلك : بأدلة صادعة ، وبراهين قاطعة ، أصولها أربعة :

الأول : أنواع أخبار الأنبياء قبله ، ووصفهم له فى كتبهم •

الثانى : النظر فى قوانين أحواله •

الثالث : الكتاب العزيز •

الرابع : ما ظهر على يديه من خوارق العادات •

فهذه أربعة أنواع •

* * *

النوع الأول

من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

اخبار الأنبياء به قبله

وانما قدمنا هذا النوع ، وان كان غيره أولى بالتقديم ، لكون الأنبياء الخبيرين بعلاماته ، متقدمين عليه فى الزمان ، ولكون هذه البشائر كانت معروفة قبل مجيئه ، **ولكون السائل الذى كتبنا هذا الكتاب جوابه ، لم يطلب منا بجهله ، الا الاستدلال بما جاء فى كتب الأنبياء** • وليكون هذا الباب مؤنسا له ، وباعثا على النظر فيما بعده • ولتعلم أن الاستدلال بهذا النوع ، لا ينتفع به الا من صدق بتلك الكتب • وتواترت عنده •

ومن خلى عن شىء من ذلك ، لا ينتفع بشىء منها ، ولا يستدل بها عليه • وأما ما بعد هذا النوع ، فيستدل به على كل من أنكر نبوته من سائر الفرق • فأما هذا النوع فانما هو حجة على اليهود والنصارى • لادعائهم : أن تلك الكتب تواترت عندهم •

وهذا النوع عندنا على التحقيق : انما هو داخل فى باب الالزامات لهم • ليظهر عنادهم وافحامهم • ثم لتعلم أنا انما نذكر أخبار الأنبياء المبشرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من كتبهم التى بأيديهم ، وعلى ما ترجمها مترجموهم من غير زيادة ولا نقصان •

فمن ذلك : ما جاء فى التوراة : أن الله قال لموسى بن عمران : « انى أقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبى مثلك • أجعل كلامى على فيه • فمن عصاه انتقمت منه »(١) •

فان قلت : ان ذلك انما هو « يشوع بن نون »(٢) قلنا : لا •

---

(١) الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية • الآية الخامسة عشر وما بعدها •

(٢) اليهود الى اليوم يقولون : هذا النبى لم يأت الى الآن واذا أتى سيكون منهم • والنصارى يقولون : هو عيسى • والحق : أنه محمد صلى الله عليه وسلم لأن لاسماعيل بركة •

فقــد قــال فى آخر التوراة : « لا يخلف من بنى اسرائيل نبى مثل موسى »(١) فــلا محالة أن ذلك الذى بشرت به التوراة لا يكون من بنى اسرائيل • لكن من اخوة بنى اسرائيل • فلننظر • من هم اخوة بنى اسرائيل ؟ فلا محالة : أنهم العرب • أو الروم(٢) •

فأما الروم فلم يكن منهم نبى سوى أيوب ، وكان قبل موسى بزمان ، فلا يجوز أن يكون هو الذى بشرت به التوراة ، فلم يبق الا العرب • فهو اذن : محمد عليه السلام • وقد قال فى التوراة حين ذكر اسماعيل جد العرب : « انه يضع فسطاطه ، فى وســط بــلاد اخوته »(٣) فكنى عن بنى اسرائيل : باخوة اسماعيل ، كما كنى عن العرب باخوة بنى اسرائيل ، فى قوله : « انى أقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبى مثلك » ويدل على ذلك أيضا قوله : « أجعل كلامى على فيــه » فان هذا تصريح بالقرآن • اذ هو كلام الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتلقيناه من فلق فيه • ويدل أيضا على ذلك قوله : « من عصاه انتقمت منه »(٤) اذ قد فعل الله ذلك بصناديد قريش ، وعظماء ملوك الروم وغيرهم ، فهم بين أسير وقتيل ، ومعطى الجزية على وجه الصغار ، والذلة **« ولعذاب الآخرة أشق »**(٥) •

ومن ذلك • ما جاء فيها أنه قال : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته • فقال : « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبــال فاران • ومعه جماعة من الصالحين »(٦) •

---

(١) تثنية ٣٤ : ١٠

(٢) يشير بالروم الى سكان الأردن وهم نسل عيســو بن اسحاق عليه السلام •

(٣) تكوين ١٦ : ١٢

(٤) ترجمتها الحالية : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » (أعمال ٣ : ٢٣) وفى التوراة : « ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » (تثنية ١٨ : ١٩)

(٥) الرعد : ٣٤

(٦) تثنية ٣٣ : ١ ـ ٣

فمجيئه من جبل سيناء : أن الله أنزل فيه التوراة ، وكلم عليه موسى • واشراقه من جبل ساعير : أن دين المسيح انما أشرق من جبال ساعير ، وهى جبال الروم من أدوم[1] • واستعلانه من جبال فاران : أن الله تعالى بعث منها محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأوحى اليه فيها •

ولا اختلاف : أن فاران : « مكة » وقد قال فى التوراة : « ان الله أسكن هاجر وابنها اسماعيل فاران »[2] •

وفى بعض التراجم : « أقبل السيد من سيناء ، ومن شعير تراءى لنا ، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين ، ومعه كتاب نارى ، وهو ختم الأجناس • وجميع الصالحين فى قبضته ، ومن تدانى من قدميه يصب من علمه » •

ففكر على انصاف وتثبت • من الجائى المقبل من جبال فاران • مع الآلاف من الصالحين ؟ ومن جاء بالكتاب الذى ما منه سورة الا وفيها الوعيد على المخالف بالنار وعذابها وأنكالها وأغلالها ؟[3] •

ومن ذلك • ما جاء فيها أيضا • أن الله قال لابراهيم : « قد استجبتك فى اسماعيل • وباركته • وكثرته • وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثنا عشر عظيما ، وأجعله لشعب عظيم » ولا يشك فى أن الشعب العظيم هو محمد عليه السلام وأمته • اذ لم يكن فى ولد اسماعيل أعظم منهم •

وقد تفطن بعض النبهاء ، ممن نشأ على لسان اليهود ، وقرأ بعض كتبهم • فقال : فى التوراة موضعان[4] يخرج منهما اسم محمد • بالعدد على ما تستعمله اليهود فيما بينهم •

ثم ذكر ما قدمته من قول الله لابراهيم : « قد استجبتك فى اسماعيل » •

---

(١) أدوم هو عيسو وجبل ساعير أيضا يجاور القدس (يشوع ١٥)

(٢) تكوين ٢١ : ٢١

(٣) تشير النبوءة الى عذاب المسلمين للذين لا يسلمون من اليهود •

(٤) الأول : بماد ماد (جدا جدا) والثانى : لجوى جدول (شعب عظيم) •

فأما قوله « جدا جدا » فهو بتلك اللغة « بمأد ماد » وعدد هذه الحروف : اثنان وتسعون . وذلك أن الباء عندهم : اثنان . والميم : أربعون . والألف : واحد . والدال : أربعة . والميم الثانية : أربعون . والألف : واحد . والدال : أربعة . وكذلك الميم من محمد : أربعون . والحاء : ثمانية . والميم : أربعون . والدال : أربعة .

وأما قوله « لشعب عظيم » فهو بتلك اللغة « لغوى غدول » فاللام عندهم : ثلاثون ، والغين : ثلاثة . وهى عندهم مقام : الجيم ، اذ ليس فى لغتهم : جيم ، ولا ضاد . والواو : ستة . والياء : عشرة . والغين أيضا : ثلاثة . والدال : أربعة . والواو : ستة . واللام : ثلاثون . فمجموع هذه أيضا : اثنان وتسعون .

وهذا من رشيق الفهم ، وملح البحث ، وغرائب العلم .

وفى **التوراة** أيضا : أن ملاك الرب قال لهاجر : « ستلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ، يده على كل . ويد كل به . وسيحل على جميع حدود اخوته »(١) .

ولا محالة أن اسماعيل ، وولده لم تكن أيديهم الا تحت يد « اسحق » لأن النبوة والملك انما كانا فى ولد اسحق ، فلما بعث الله تعـالى محمدا ، جعل يد بنى اسماعيل فوق أيدى الجميع ، ورد النبوة والملك فيهم . وأنماهم . وعظمهم ، وبارك عليهم جدا جدا .

ومن ذلك ما جاء فى الزبور الذى بأيديكم أنه قال : « سبحوا الرب تسبيحا ، حديثا . سبحوا الذى هيكله الصالحون ، ليفرح اسرائيل بخالقه ، وبنو صهيون . من أجل أن الله اصطفى لهم أمة ، وأعطاهم النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة . يسبحون الله على مضاجعهم ويكبرونه بأصوات مرتفعة . بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، لينتقم الله بهم من الأمم . الذين لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال »(٢) .

---

(١) تكوين ١٦ : ١١ ــ ١٢

(٢) المزمور المئة والتاسع والأربعون . وهو مثل الأمة الاسلامية فى التوراة الذى تشير اليه سورة الفتح . ومثل الأمة الاسلامية فى الانجيل مذكور فى الاصحاح الرابع من مرقس .

أخبرونا . يا هؤلاء الجاحدون للحق ، المعرضون عن أخبار الصدق : من هذه الأمة التى سيوفها : سيوف ذوات شفرتين ، ينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه ؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء ؟ ومن الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى الأذان ؟ هذه أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم . وأوصاف أمته ، بلا ريب ، ولا رجم غيب .

وفى الزبور أيضا : ذكر صفة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : « ويجوز من البحر ، الى البحر ، ومن منقطع الأنهار . الى منقطع الأنهـار . وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم . ويلحس أعداؤه بالتراب . وتأتيه ملوك بالقرابين وتسجد له وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد . لأنه يخلص المضطهد البائس من الأقوى منه ، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرأف بالضعفاء والمساكين . وأنه يعطى من ذهب بلاد سبأ ، ويصلى عليه فى كل وقت . ويدوم أمره الى آخر الدهر »(١) .

تأمل أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم فهى على ما ذكر . ما غادر منها واحدا . ولم تجتمع هذه الصفات والعلامات لأحد قبله ، على ما هو معروف من أحوال الأنبياء المتقدمين ، عند العلماء المنصفين غير الجاهلين المتعصبين .

وفى الزبور أيضا : أن الله تعـالى « أظهر من صهيون اكليلا محمودا »(٢) .

فالاكليل : ضرب مثل لرياسته ، ومحمود : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقد بلغ دينه صهيون وغيره .

وفيه أيضا : « تقلد أيها الجبار سيفك ، فان ناموسك ، وشريعتك مقرونة بيمينك ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك »(٣) .

تأمل . من الجبار الآتى بشرائع يظهرها بالسيف والسهام ؟ فانك اذا تأملت ذلك لم تجد على هذه الصفات أحدا من عهد داوود الا

---

(١) المزمور الثانى والسبعون .
(٢) بالمعنى فى المزمور ١٣٢ : ١٨ والمزمور ١٣٣
(٣) المزمور الخامس والأربعون .

النبى محمد عليه الصلاة والسلام . فهو المبشر به ، لا محالة .

وقد تقدم قول داوود : « اللهم ابعث جاعل السنة ، كى يعلم الناس أنه بشر »(١) .

فلينظر هنالك . فانه نص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فانه جاعل السنة ، وهو أخبر بأن المسيح : بشر . وليس باله .

وفى الزبور(٢) ترجمة « وهب بن منبه » يقول الله تعالى لداوود عليه السلام فى المزمور الخامس : « اسمع ما أقول . ومر سليمان ؛ فليقله للناس من بعدك : ان الأرض لى أورثها محمدا . وأمته . فهم خلافكم لم تكن صلاتهم بالطنابير ، ولا قدسونى بالأوتار » .

وهذا تصريح باسمه ، وتأييد شريعته ، وبصفات أمته . وزبور « وهب بن منبه » هذا الذى نقلت منه ، أصح ما يوجد من كتاب الزبور . فانه أوثق وأعلم من كل ترجمة فى سالف الدهور . ولكن النصارى مع ذلك يكذبون اذ هم جاهلون ومعاندون .

ومن ذلك . **ما جاء فى الانجيل الذى بأيديكم** : أن المسيح قال : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وسأرغب الى الآب . فى أن يبعث اليكم **البرقليط** . ليكون معكم الى الأبد . روح الحق الذى لا تقبله الدنيا ، لأنها لا تراه . ولا تعرفه . وأنتم تعرفونه لأنه نازل عليكم ، وعندكم لابث ، ولست أدعكم أيتاما »(٣) .

وفيه أيضا عن يوحنا : أن المسيح قال : « سينفعكم ذهابى . لأنى ان لم أذهب لم يأتكم البرقليط وان ذهبت سأبعثه اليكم . واذا قدم سيعرف الدنيا بالمأثم والعدل والحكم . فأما المأثم فتركهم الايمان بى . وأما العدل فذهابى الى الآب ، ولا ترونى بعدها . وأما الذى يحكم بى فيها . فانه يحكم على صاحب الدنيا ، ويقهر .

---

(١) سبق الحديث .

(٢) بالمعنى ، وهو واضح فى المزمور السابع والثلاثين .

(٣) يوحنا ١٤ : ١٥ ـ ١٨

وقد بقيت لى أشياء كثيرة ، أعلمكم بها ، الا أنكم لا تحملونها الآن . فاذا قدم الروح الصادق فهو يعرفكم بالصواب ، وليس يعلمكم من ذاته ، الا بما يسمع ، وسيعلمكم بما يكون ، وسيعظمنى . لأنه يصيب منى ويعلمكم »(١) .

وفيه أيضا . أن المسيح قال للحواريين : « الذى يبغضنى يبغض أبى . فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيرى لم يكن قبلهم ذنب . ولكنهم الآن قد عابوا وكرهونى . ليتم ما كتب فى كتبهم ، حيث قال انهم كرهونى بلا ذنب . فاذا أقبل **البرقليط** ، الذى أبعث اليكم من عند الآب ، الروح الصادق المنبثق من الآب ، هو يؤدى الشهادة عنى ، وأنتم تستشهدون لأنكم كنتم معى من أول الأمر . وانما أقول لكم هذا ، لئلا يواقعكم التشكيك »(٢) .

فالبرقليط(٣) بالرومية : المنحمنا بالسريانية ، وهو : محمد بالعربية .

فتأمل هذه البشائر التى لا ينكرهـا الا معاند مجاهر . فقد أخبر به المسـيح : بالعين والاسـم والأفعال « **فماذا بعد الحق الا الضلال** »(٤) ؟ .

وفيه أيضا . أنه قال لليهود : « وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا . لم نساعدهم على قتل الأنبياء .. فأتموا كيل آبائكم ، يا ثعابين بنى الأفاعى ، كيف لكم والنجاة من عذاب النار ؟ وسأبعث اليكم أنبياء وعلماء وستقتلون منهم وتصلبون وتجلدونهم فى جماعتكم ، وتطلبونهم من مدينة الى أخرى لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهراقة على الأرض من دم هابيل الصالح . الى دم زكريا بن برخيا ، الذى قتلتموه بين المذبح والهيكل آمين . آمين . أقول : انه سيأتى جميع ما وصفته على هذه الأمة . يرشالم . يرشالم . التى تقتل الأنبياء ، وترجم من بعث اليها . قد أردت أن أجمع بنيك ، جمع الدجاجة فراريجها تحت جناحيها . وكرهت أنت ذلك .

---

(١) يوحنا ١٦ : ٧ ـ ١٤

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٣ ـ ٢٧ و ١٦ : ١

(٣) البرقليط ـ بكسر الباء ـ : اسم محمد ـ وبفتح الباء ـ : النائب عن المسيح ، ومعنى الرومية : اللغة اليونانية .

(٤) يونس : ٣٢

سأقفر عليكم بيتكم • وأنا أقول لكم : لا تروننى الآن ، حتى يأتى من تقولون له : مبارك الآتى على اسم الله »(١) •

تأمل بشارته بالنبى محمد عليه السلام ، وتوعده لهم بالانتقام منهم على يديه •

فاذا تأملت هذا على جهة الانصاف ، لاح الحق لك • والا فمن « كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى ، وأضل سبيلا »(٢) •

وقوله « سأبعث » فى الموضعين : تحريف • بدليل قوله فيما تقدم : « سأرغب الى الآب فى أن يبعث اليكم البرقليط » فقد صرح هنا : بأن الباعث له : هو الله • لا هو • وهو الحق ، اذ قد تبين : أن المسيح لا يفعل شيئا من ذاته ، وانما يفعل ما يريده الله تعالى ، وقد تقدم قوله « لست أنفذ ارادتى • وانما أنفذ ارادة الرب » •

وفيه أيضا • أن المسيح قال : « ان التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضا بالنبوة والوحى حتى جاء يحيى • وأما الآن • فان شئتم فاقبلوا • فان ايل مزمع أن يأتى • فمن كانت له أذنان سامعتان ، فليسمع »(٣) •

ايل(٤) : هو الله تعالى • ومجيئه هو : مجىء رسوله بكتابه وأمره ، كما قال فى التوراة « جاء الله من سيناء » وما أشبه ذلك •

فان قلت : قوله « فان ايل مزمع أن يأتى » وقوله « حتى يأتى

---

(١) آخر الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى •

(٢) الاسراء : ٧٢ (٣) متى ١١ : ١٤ — ١٥

(٤) ظن المؤلف — ولا شك أنه ينقل عن غيره — أن عبارة الانجيل « ايل » ، وتفسيرها الله مثل جبرائيل أى رجل الله ، واسرائيل ، أى المجاهد مع الله ولكن الصحيح : أن الكلمة : ايلياء ويشير بايلياء الى محمد صلى الله عليه وسلم بحساب الجمل فان ملاخى فى الاصحاح الأخير من سفره يقول على لسان الله تعالى : « ها أنذا أرسل اليكم ايلياء النبى قبل مجىء يوم الرب » وعيسى عليه السلام ينطق اسم محمد كما نطقه ملاخى • وايلياء بحساب الجمل يساوى اسم أحمد فالألف بواحد والياء بعشرة واللام بثلاثين والياء بعشرة والألف بواحد والهمزة بواحد فالمجموع ثلاث وخمسون والألف من أحمد بواحد والحاء بثمانية والميم بأربعين والدال بأربعة •

من تقولون له : مبارك (١) الآتى » انما أراد من كان بعده من الأنبياء مثل : بارنابا ، وشمعون(٢) ، وليوقيوش • ومناين • هؤلاء أنبياء « أنطاكية »(٣) ومن « بيت المقدس » أغفانوس • ومن « فلسطين » جرجيس •

فالجواب : أنه لا يصح لكم أن تعترفوا بنبوة واحد من هؤلاء ، بل ينبغى لكم أن تكفروا بهم لأنكم ترون : أنه لا نبى بعد المسيح ، وتسندون ذلك الى كتبكم • فاما أن تكذبوا بقولكم لا نبى بعد المسيح أو تنكروا نبوة من ذكرتم •

ثم لو سلمنا أنهم أنبياء • فليسوا المرادين بما ذكر ، لأنهم لم يأتوا بكتب من الله • ولا بأوامر أخر •

وغايتهم : أن يحكموا بكتب الأنبياء قبلهم •

واتيان الله فيما ذكر : انما هو عبارة عن اتيان « نبى » من أنبيائه بكلامه ، وكتابه ، كما قال « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وهذا واضح للمنصف(٤) •

وقد زعم بعض المعاندين الجاهلين ممن ينتمى الى دينكم : أن المبشر به فى ذينك الموضعين(٥) : انما المراد به رجوع بعض ما مضى من الرسل ، وعودهم الى الأرض ، والى الناس(٦) • وهذا قول باطل صدر عن معاند جاهل اذ لم يثبت شىء من ذلك على لسان نبى فاضل ، الا ما صح(٧) على لسان نبينا من رجوع عيسى ابن مريم صلوات الله

---

(١) يشير بالمبارك الى محمد صلى الله عليه وسلم كما عبر داوود فى المزمور المئة والثامن عشر • (٢) شمعون : بطرس •

(٣) الاصحاح الثالث عشر من سفر أعمال الرسل •

(٤) لم يفطن المؤلف الى أن من عادة اليهود والنصارى تلقيب العلماء بلقب الأنبياء وتلاميذ العلماء بلقب بنى الأنبياء وقد بينا هذا فى كتابنا : (أقانيم النصارى) وتحقيقنا : لمنظومة الامام الأبوصيرى فى الرد على النصارى واليهود •

(٥) يشير الى : المبارك الآتى والى ايلياء •

(٦) يقولون فى المبارك انه المسيح عيسى فى مجيئه الثانى ويقولون فى ايلياء هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) جاء الى الدنيا بروح وقوة الياس عليه السلام •

(٧) لم تصح لأنها أخبار آحاد (انظر كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت) •

عليهم وسلامه اذ أخرج « الدجال » وقتله له • وفى انجيلكم اشارة الى هذا • وهذا عندنا مبنى على أن الله تعالى رفع المسيح اليه ، ولم يقتل • **ولا مات**[١] « **بل رفعه الله اليه** »[٢] على ما يأتى عند ذكر الصلوبية • وانما يموت اذا قتل الدجال عند باب « لد » وبعد أن يهلك الله « يأجوج ومأجوج » على يديه •

وفى الانجيل أيضا • أنه ضرب مثلا للدنيا[٣] فقال : « مثل الدنيا كمثل رجل اغترس كرما ، وسبخ حوله ، وجعل فيه معصرة ، وشيد فيه قصرا ، ووكل به أعوانا ، وتغرب عنه • فلما دنا أوان قطافه ، بعث عبيده الى أعوانه ، الموكلين بالكرم » •

فضرب المسيح عليه السلام مثلا للأنبياء ، ثم لنفسه ، ثم قال : « سيزاح عنكم ملك الله ، وتعطاه الأمة المطيعة » •

فتأمله • ثم ذكر فى المثل : « صخرة » وقال : « من سقط على هذه الصخرة سينكسر • ومن سقطت عليه يتهشم »[٤] يريد بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم • من ناوأه وحاربه أظهره الله عليه • وكذلك ، قد أزاح الله ملككم • وأزاله عنكم ، وأعطاه أمة محمد ، حيث افتتحوا عليكم بلاد الشام ، وبلاد الغرب ، وردوكم فى أكثر الأرض ، أهل ذلة ، وصغار ، وأخذوا منكم الجزية بعد القتل الذريع ، والاسترقاق الشديد ، بعد أن كان ملككم راسخا ، وجبله شامخا • فهد الله بنبيه قواعده ، ولينفذ به الله مواعده ، وأعظم شاهد على أن الله أزاح ملككم عنكم كما قال المسيح : ان الله تعالى أعطانا بيت المقدس ، وأظهرنا عليه • وان كرهتم • والحج اليه عندكم من أعظم شرائعكم ، وشرائع اليهود ، ثم الواحد منكم لا يصل اليه ، حتى يلحقه من الذلة والصغار ، ما لا يخفى عليكم « **والله متم نوره ، ولو كره الكافرون** »[٥]

---

(١) لم يقتل عيسى وانما مات ورفع بروحه درجة لا رفعة جسد •

(٢) النساء : ١٥٨

(٣) هو مثل للناس على الأرض وارسال الله الرسل للهداية ويشير بالأمة المطيعة الى أمة الاسلام •

(٤) هذا المثل يسمى « مثل الكرامين الأردياء » وهو فى الاصحاح الحادى والعشرين من متى •

(٥) الصف : ٨

وفى **صحف أشـــعياء النبى** الذى بأيديكم • قال : « ستمتلىء البادية والقصور التى سكنها قيدار ، يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون • هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويبثون تسبيحه فى البر والبحر »(١) •

وفى **صحف حزقيـــال النبى** عن الله يقـــول : « انى مؤيد قيدار بالملائكة »(٢) •

وقيدار : ولد اسماعيل ، بلا شك • فانظر أى بادية هذه البادية التى انتقلت من قصور الى قيدار ؟ والذين ينادون بالأذان والتلبية من رؤوس الجبال ، ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج والصوم والزكاة وغير ذلك ؟ وقد ثبت أن الملائكة قاتلت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مواطن على ما يأتى ان شاء الله تعـــالى •

وقال **أشعياء النبى** عن الله : « عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، يوصى الأمم بالوصايا • لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، ويسمع الآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطيه غيره •

أحمد يحمد الله حمدا كثيرا • يأتى من أقصى الأرض ، تفرح البرية • وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية • لا يضعف ، ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى • ولا يسمع فى الأسواق صوته ، ولا يذل الصالحين ، الذين هم كالعصفة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن للمتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفىء ولا يخاصم ، حتى تثبت فى الأرض حجتى ، وينقطع العذر به ، والى توراته ينقاد الحق »(٣) •

فاعتبر هذا التصريح باسم محمد وصفاته • وان هذه العلامات المذكورات على لسان هذا النبى لا يصح بحال أن توجد لغيره ، ولم يكن الا له •

فان قلت : هو المسيح • قيل لك : تفهم لفظ الكلام ومساقه ، وحينئذ تحكم بأنه « محمد » قطعا • وذلك أنه قال فيه « يوصى الأمم »

---

(١) أشعياء ٤٢ : ١١ ــ ١٣ (٢) حزقيال ٢٧ : ٢١

(٣) أشعياء : الاصحاح الثانى والأربعون ــ والترجمة مختلفة كثيرا •

وهذا التصريح ببعثه للناس كافة • وعيسى نما بعث للأجناس من بنى اسرائيل خاصة بدليل قوله فى الانجيل : « انى لم أبعث الى الأجناس • وانما بعثت الى الغنم الرابضة من نسل اسرائيل »(١) •

وكذلك قال للحواريين : « لا تسلكوا فى سبيل الأجناس • ولكن اختصروا بالضرورة الى الغنم الرابضة من بنى اسرائيل »(٢) •

ثم قال « أحمد يحمد الله » وهذا تصريح باسمه ، فان أسمائه كثيرة منها : محمد • وأحمـد • ثم قال : « يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية » وهذا اخبار بآذانهم وتلبيتهم • وليس هذا لأحد غيره • ثم قال « لا يضعف ولا يغلب » وأنتم تزعمون أن المسيح غلب على نفسه ، وحمل على خشبة ، وسمرت يداه فيها ، وقتل عليها ، بعد صفع واهانة عظيمة • ولا درجة فى الغلبة والضعف والذلة تزيد على هذا •

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد فتح الله عليه فتحا مبينا ، ونصره نصرا ، وأظهره على كل عدو معاند • حتى أعلى الله دينه ، وأفشى توحيده ، وعصمه من كل الشرور ، ووقاه كل مخوف ، وكل محذور • ومن أدل ما فى كلامه : أن نبينا محمدا هو المراد والمبشر به قوله « لا يخاصم ، حتى تثبت فى الأرض حجتى » فان هذا تصريح بالقرآن الذى جاء به • اذ قد عجز عن الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله جميع البشر • وان كان فيهم اللد الفصحاء ، والمهرة الحكماء • فثبتت فى الأرض حجة الله • وعلم أنه من عند الله • وسيأتى بيان هذا المعنى ان شاء الله عز وجل •

وفى صحف حبقوق النبى التى بأيديكم • قال : « جاء الله من التيمن ، والقدوس من جبل فاران وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ، وتقديسه ، وملأ الأرض بهيبته » •

وقال أيضا : « تضىء لنوره الأرض ، وستنزع فى قسيك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء »(٣) •

---

(١) متى ١٥ : ٢٤ وهذا فى بدء دعوته وفى نهايتها قال : انطلقوا الى الأمم (متى ٢٨ : ١٩) انظر أيضا سيرة ابن هشام • (٢) متى ١٠ : ٥ ـ ٦

(٣) هذا النص باختلاف فى الترجمة يسير فى الاصحاح الثالث من سفر حبقوق •

فيا معشر العقلاء • انظروا عناد هؤلاء الجاحدين ، وانكار هؤلاء المباهتين ، وتواقح هؤلاء الجــاهلين • كيف خالفوا هذه النصوص القاطعة ، والبشارات الصادعة ، محكمين فى ذلك أهوائهم • وهم **« يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »**(١) •

وفى صحف أشعياء النبى قال : « قيل لى : قم ناظرا • فانظر • فما ترى ، تخبر به • قلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما : على حمار • والآخر : على جمل • يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل • وأصنامها النخرة »(٢) •

فصاحب الجمل هو : محمد صلى الله عليه وسلم • وصاحب الحمار ، باتفاق منا ومنكم ، هو : المسيح وليس محمد بركوب الجمل أشهر من عيسى بركوب الحمار • وانما سقطت عبادة الأصنام ببابل من دون الله وهدت أوثانها بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، لا بعيسى ولا بغيره • فما زالت ملوك بابل يعبدون الأوثان من كون ابراهيم الى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وأمته(٣) •

وفى صحفه أيضــا : « لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج البرارى والفلوات لأنها ستعطى بأحمد ، محاسن لبنان ، كمثل حسن الدساكير والرياض »(٤) •

هذا ينص على اسمه ووصفه وبلده بحيث لا ينكره الا وقاح مجاهر بالباطل الصراح •

وفى صحف أشــعياء النبى : « أتت أيــام الافتقاد • أتت أيام

---

(١) الأنعام : ٢٠

(٢) الاصحاح الحادى والعشرين من سفر أشعياء •

(٣) توجــد مشابهة بين كتاب الاعلام للقرطبى وكتاب مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الايمان للخزرجى القرطبى المتوفى سنة ٥٨٢ هجرية فى كثير من النصوص خاصة فى هذا الموضع • وكذلك توجد المشابهة فى منظومة الامام الأبوصيرى فى الرد على النصارى واليهود وكذلك فى هداية الحيارى لابن قيم الجوزية •

(٤) الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر أشعياء •

الكمال »(١) ثم قال : « لتعلموا يا بنى اسرائيل الجاهلين • أن الذى تسمونه ضالا ، هو صاحب النبوة • تفترون ذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم فجوركم » •

وفى الصحف المنسوبة للاثنى عشر نبيا(٢) : « أن الله سيتجلى من القبلة ، وتظهر كلمة القدس من جبال فاران ، ظهورا أبديا • ويحمد الله على ذلك فى السموات والأرض ، وكلمة أحمد تملأ الأرض » •

وفى صحف حزقيال النبى التى بأيديكم يقول عن الله بعد ما ذكر معاصى بنى اسرائيل • وشبههم بكرمة غذاها • وقال : « لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ، ورمى بهـا على الأرض ، وأحرقت السمائم حرهـا • فعند ذلك غرس غرس فى البدو ، وفى الأرض المهملة ، العطشى ، وخرجت من أغصانهـا الفاضلة نار أكلت تلك ، حتى لم يوجد فيها غصن قوى ، ولا قضيب »(٣) •

اعتبر أيهـا العاقل • هذا المثل على جهة الانصاف يجانبك الخطأ والزلل • فان الكرمة مثل لدين المسيح(٤) ورسالته • وذلك أن مقامه كان فى قومه زمانا يسيرا ورفعه الله عن أتباع يسيرين • أحد عشر على ما زعموا ، ثم أتباعهم على شرعهم المستقيم يسيرون •

ثم بعد ذلك بنحو الأربعين سنة اعتراهم التبديل الكثير ، والتغيير العظيم ، حتى أحرقت ديار الكفر تلك الكرمة • فلما لم يبق منهم الا بقايا قليل عددهم ، وخفى موضعهم بعث الله نبيه فى أرض البدو التى هى أرض اسماعيل ومنشأه ، ووصفه لها بالعطشى تصريح بوصفها ، فانهـا صحراء ، وكونها مهملة انما هو من النبوة • فانه لم يكن بها نبى من عهد اسماعيل الى عهد محمد صلى الله عليه وسلم • ثم انه شبه ما نصر به النبى عليه السلام من الحرب والرعب بالنار • التى تأتى على كل شىء • فكذلك دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أظهره الله بالحجة والسيف على الدين كله • ولو كره المشركون •

---

(١) الاصحاح الثانى والأربعين من أشعياء من الآية التاسعة •

(٢) النص من الاصحاح الثالث من سفر حبقوق بالمعنى •

(٣) حزقيال الاصحاح التاسع عشر •

(٤) مثل لبنى اسرائيل على الأرض •

وقد قدمت أن فى **صحف دانيال النبى** ، وقد نعت الكذابين وقال : « لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم ، وأقسم الرب بساعده ألا يظهر الباطل ، ولا يقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة »[1] •

وهذا دين الاسلام الذى جاء به محمد عليه السلام له : ست مائة سنة ، ونيف من الأعوام ، وهو باق الى آخر الأيام ، والحمد لله على ما أولى من الفضل والانعام •

وقال دانيال النبى • وقد سأله الملك نبوخذناصر[2] عن رؤيا رآها ، وطلب أن يخبر بها ، ثم بتفسيرها • فقال : « أيها الملك رأيت صنما بارع الجمال ، أعلاه من ذهب ، ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس • وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار • فبينما أنت تنظر اليه ، وقد أعجبك اذ دقه الله بحجر من السماء ، فضرب رأس الصنم ، فطحنه حتى اختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره •

ثم ان الحجر : ربا • وعظم • حتى ملأ الأرض كلها • قال له نبوخذ ناصر : صدقت فأخبرنى بتأويلها •

قال دانيال : أما الصنم • فأمم مختلفة فى أول الزمان ، وفى وسطه ، وفى آخره • فالرأس من الذهب : أنت • والفضة : ابنك من بعدك • والنحاس : الروم • والحديد : الفرس • والفخار : أمتان ضعيفتان تملكهما امرأتان باليمن والشام • والحجر : هو دين نبى ، وملك أبدى فى آخر الزمان ، يغلب الأمم كلها ، ثم يعظم حتى يملأ الأرض كلها ، كما ملأها ذلك الحجر »[3] •

قلت • ولا يصح لك يا أيها المخدوع أن تدعى : أنه المسيح ، فانه لم يغلب الأمم كلها بل غلب بزعمكم ، فانه استضعف فأهين ، وصلب ، ولم يبعث الى الأمم كلها عامة ، بل الى قوم بأعيانهم خاصة • وانما محمد الذى غلب كل الأمم العرب منها والعجم على اختلاف أصنافها ، وشتى ضروبها وأوصافها ، فجعل الكل جنسا واحدا ،

---

(١) انظر المزمور المئة والتاسع •

(٢) فى المخطوطة : بخت نصر •

(٣) الاصحاح الثانى من سفر دانيال •

وألزمهم دينا واحدا ، وصيرهم أمة واحدة وجعلهم على اختلاف لغاتهم يتكلمون بلغة واحدة ، أعنى اذا قرأوا القرآن • اذ لا يمكن أن ينتقل عن لسان العرب الى لسان غيرهم • فان ترجم بلسان آخر فليس ذلك هو القرآن • وانما هو تفسير القرآن •

يا أيها الجاهل ، الناكث عن الحق العادل • قد كنت ذكرت فى كلامك : أن المسلم ان أقام شاهدا من كتب الأنبياء أن فيها محمدا منتظرا • فدينه حق ، ودين النصارى باطل • وقد أقمنا والحمد لله : الشواهد من كتب الأنبياء الأوائل على الذى طلبت ، على نحو ما رسمت • بل هذه الشواهد فى دلالتها على نبوة محمد أوضح وأقص مما استدللت أنت بها على نبوة المسيح •

وقد وكلت العاقل المنصف للنظر فى أى الدلالات أبين وأوضح • أدلالتنا ، أم دلالتكم ؟ وعند الوصول الى هذا القدر ، والوقوف على تلك الشواهد الغر • تتبين أن دين النصارى واليهود باطل وأنهم اما معاند واما جاهل •

ولقد جاء فى **كتاب أشعياء النبى** من نعوته وأوصافه ، وذكر مكة بلده ، وحج الناس اليها ما لا يبقى معه ريب ولا اشكال •

فمن ذلك • قال حاكيا عن الله تعالى : « سأبعث قوما فيأتون من المشرق أفواجا ، كالصعيد كثرة ، ومثل الطيان الذى يدوس برجليه »(١) •

ومن ذلك أنه قال : « أبشرى واهتزى يا أيتها العاقر التى لم تلد • وانطقى بالتسبيح ، وافرحى أن لم تحبلى • فان أهلك سيكونون أكثر من أهلى »(٢) •

هذه من الله مخاطبة لمكة ، على ما يقتضيه مساق كلامه • ثم شبهها بالعاقر من النساء ، التى لم تلد من حيث أن مكة لم يبعث منها نبى من بعد اسماعيل الا محمدا صلى الله عليه وسلم • ولا يجوز أن

---

(١) الاصحاح الحادى والأربعون من أشعياء •

(٢) الاصحاح الرابع والخمسون من سفر أشعياء •

يكون العاقر بيت المقدس • لأنها كانت مقر الأنبياء • وقوله « فان أهلك سيكونون أكثر من أهلى » يعنى بأهله بيت المقدس •

وفى نفس النص : أنه قال حاكيا عن الله : « قد أقسمت بنفسى كقسمى أيام الطوفان أن أغرق الأرض بالطوفان • كذلك أقسمت ألا أسخط عليك ، ولا أرفضك • فان الجبال تزول ، والقلاع تنحط ، ورحمتى عليك لا تزول » •

ثم قال فى النص نفسه : « يا مسكينة يا مضطهدة • ها أنذا بان بالجص حجارتك ، ومزينك بالجواهر ، ومكلل باللؤلؤ سقفك • وبالزبرجد أبوابك • وتبعدين من الظلم فلا تخافى ، ومن الضعف فلا تضعفى • وكل سلاح يعمله صانع لا يعمل فيك ، وكل لسان ذلق يقوم معك بالخصومة تفلجين • ويسميك الله اسما جديدا » •

وكذلك كان اسمها الكعبة فسماها الله المسجد الحرام • وكذلك قوله « بالخصومة تفلجين » انما هو اشارة الى كتاب الله الذى جاء به محمد رسول الله الذى أفحم كل خصم وأسكت •

وفى صحف أشعياء أيضا : « فقومى واشرقى • فانه قد ورى زندك ، ووقار الله عليك ••• انظرى بنيك حولك فانهم مجتمعون • يأتيك بنوك وبناتك على الأيدى ، فحينئذ تنظرين وتزهرين ويخفق قلبك ويتسع ، وكل غنم قيدار تجتمع اليك وسادت نبايوت يخدمونك ••• وتفتح أبوابك الليل والنهار فلا تغلق ، ويتخذونك قبلة ••• وتدعين بعد ذلك مدينة الرب »(١) •

فهاهو عليه السلام قد وصف مكة بأوصافها التى لا تصح أن توجد فى غيرها •

ومن أبين ذلك وأدله • قوله « وكل غنم قيدار تجتمع اليك ، وسادات نبايوت يخدمونك » وقيدار ، ونبايوت ، ولدا اسماعيل • وأغنامهم هى التى تساق الى مكة هديا ، وهم أهل مكة ، وخدام البيت • وليس بعد هذا بيان • وكذلك قوله « ويتخذونك قبلة » وهذا بشارة بالنبى عليه الصلاة والسلام • فانها لم تتخذ قبلة الا على عهده صلى الله عليه وسلم •

---

(١) الاصحاح الستون من سفر أشعياء •

وقول أشعياء هذا فى بعض التراجم هكذا : « ارفعى الى ما حولك بصرك فستبتهجين ، وتفرحين من أجل أنه تميل اليك ثروة البحر ، ويأتى اليك غنى الأمم ، حتى تعمرك ، قطار الابل المؤبلة تضيق أرضك عن القطارات التى تجمع اليك . وتساق اليك كباش مدين ، ويسير اليك أهل سبأ ، وتسير اليك أعلام قيدار ، ويخدمك رجال نبايوت »(١)

فاعتبر هذه الأوصاف البينة ، والأعلام المتصلة الظاهرة التى لا توجد فى بلد الا فى مكة ، ولا يصح شىء منها أن يوجد فى بيت المقدس ولا فى غيرها .

وقال أيضا عن الله(٢) : « أعطى البادية كرامات لبنان ، وبهاء جبل الكرمل » فالبادية : مكة . ولبنان : الشام وبيت المقدس .

وقال على اثر ذلك : «وتنشق فى البادية مياه ، وسواق فى أرض الفلاة . وتكون الفيافى والأماكن العطاش ينابيع . وتصير هناك محجة ، وطريق الحرم . لا تمر به أنجاس الأمم ، والجاهل لا يضل هناك ، ولا يكون به سباع ، ولا أسد . ويكون هناك ممر المخلصين » .

وقال أشعياء(٣) أيضا عن الله : « ها أنذا مؤسس بصهيون ، وهو بيت الله حجرا مقره فى زاوية مكة . فمن كان مؤمنا فلا يتعجل » .

وهذا اخبار منه عن الحجر المقدس الأسود ، الذى فى الركن اليمانى . وهو الحجر الذى أنزله الله من الجنة ، وكان أبيض فاسود لأجل خطايا بنى آدم . و « صهيون » الجبل بلسانهم . فهذه دلائل واضحة ، وشواهد راجحة ، لا يعدل عنها الا من حرم التوفيق ، فاستدبر الطريق ، ولا يتدبرها ويتفهم معانيها الا من رافقه التوفيق ، وساعده الفهم والتحقيق .

فهذا ما رأينا . أن نثبته هنا من شواهد نبوته ، صلى الله عليه وسلم من الكتب المتقدمة وفيها من الشواهد ما هو أكثر من هذا . ومن وقف بفهم على ما فى تلك الكتب . قضى من عناد المخالفين العجب .

* * *

(١) الاصحاح الستون من سفر أشعياء .

(٢) الاصحاح الخامس والثلاثون من سفر أشعياء .

(٣) المعنى فى الاصحاح الثامن من سفر أشعياء ولاحظ أن كاتب سفر أشعياء وضع النصوص محتملة لأورشليم أو لمكة .

النوع الثــانى

الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله صلى الله عليه وسلم

فأول ذلك ما ظهر على أبيه عبد الله بن عبد المطلب •

وذلك أنه لما أراد الله خلقه ، وقرب وقته ، وحان خروج نطفته من صلب أبيه ، حمل بين عينى أبيه نور ، فكان يراه الرائى كغرة الفرس • وقد ثبت فى كتب نبوته على ألسنة النقلة الثقات العدول الأثبات(١) ، الذين يدينون بتحريم الكذب ، ويعتقدون وجوب الصدق ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم : أن عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم • كانت له امرأتان ، احداهما : آمنة ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم • وامرأة أخرى • فعمل يوما فى طين لبناء بيته ، فتعلقت به آثار من الطين • فمر بتلك المرأة فدعاها لنفسه ، فأبت لما كان عليه من الطين فخرج من عندها ، فاغتسل ، وغسل ما به من أثر الطين • فدعته تلك المرأة الى نفسها فأبى عليها ، ثم خرج عامدا الى آمنة ، فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر بامرأته تلك • فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا • انك مررت بى ، وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس ، فدعوتك رجاء أن يكون لى فأبيت ، ودخلت على آمنة ، فذهبت بها •

ثم لمـــا حملت به آمنة أمه • أتيت فقيل لها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة • فاذا وقع على الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا •

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام •

ولقد قالت أم عثمان الثقفية : حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نورا ، ورأيت

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٤٥ طبعة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٤ م •

النجوم تدنو حتى ظننت أنهـا ستقع على • وولد صلى الله عليه وسلم مختونا •

وكانت أمه تحدث : أنها لم تجد حين حملت به ، ما تجد الحوامل من ثقل وألم ، ولا غير ذلك ، ولمـا وضعته أمه ، وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ، مشيرا بالسبابة كالمسبح بها •

وذكر ابن دريد : أنه ألقت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده • فجاء جده ، والجفنة قد انفلقت عنه •

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبوه أن توفى ، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، فكفله جده عبد المطلب ، وقيل لجده : لم سميت ابنك محمدا ، وليس هذا الاسم لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : انى لأرجو أن تحمده أهل الأرض كلهم •

وذلك أنه كان يرى فى منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور • واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يعتلقون بها • فقصها • فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء ، وأهل الأرض • فلذلك : سماه محمدا •

قال حسان بن ثابت رضى الله عنه : والله انى لغلام يفعة • ابن سبع سنين ، أو ثمان سنين ، أعقل كل ما سمعته • اذ سمعت يهوديا على أطم يثرب ، يصرخ بأعلى صوته ، يقول : « يا معشر يهود » فلما اجتمعوا له ، قالوا له : « ويلك • مالك » قال : « طلع الليلة نجم أحمد » •

ثم التمس له المراضع ، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، اسمهـا : حليمة بنت أبى ذؤيب • قالت حليمة : خرجت من بلدى مع زوجى • وابن لى فى نسوة من بنى سعد ، نلتمس الرضعاء • قالت : وفى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا • قالت : فخرجت على أتان لى • قمراء • معنـا شـارف لنا • والله ما تفيض بقطرة ، وما ننام ليـلنا مع صبينا من بكائه من الجوع • وما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه • ولكنا نرجو الغيث والفرج ، فلقد حيست[1] الركب حتى

---

(١) حيست : فى سيرة ابن هشام : أدمت • وفى نسخة : أذممت ، ويروى : أذمت •

شق ذلك عليهم ضعفا ، وعجفا . حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء . فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد بن عبد الله فتأباه ، اذا قيل لهـا : انه يتيم .

وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ، فما عسى أن تصنع أمه وجده . فكنا نكرهه لذلك . فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا . غيرى . فلما أجمعنا الانطلاق . قلت لصاحبى : انى والله أكره ، أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال : افعلى . عسى الله أن يجعل فيه بركة . قالت : فذهبت اليه ، فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رجلى ، فلما وضعته فى حجرى ، أقبل على ثدياى ، بما شاء من لبن ، فشرب ، حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى . ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى الى شارفنا تلك . فاذا أنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت . حتى انتهينا : ريا ، وشبعا . فبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبى ، حين أصبحنا : تعلمى — والله يا حليمة — لقد أخذت نسمة مباركة . قلت : والله انى لأرجو ذلك . قالت : ثم خرجنا . فركبت أتانى وحملته عليها معى . فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شىء من حمرهم ، حتى أن صواحبى ليقلن لى : يا ابنة أبى ذؤيب : ويحك . أربعى علينا . أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى ، والله . فيقلن لى : والله ان لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا : شباعا لبنا . فنحلب ، ونشرب . وما يحلب انسان قطرة ، ولا يجدها فى ضرع . حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم : ويحكم . اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ، ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه ، وفصلته . وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه ، حتى كان غلاما جفرا .

قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا • لما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت بنى عندى ، حتى يغلظ • فانى أخشى عليه وباء مكة • قالت : فلم نزل بها ، حتى ردته لنا • قالت : فرجعنا به • فوالله انه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا • اذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى ، قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه — يعنى : يخلطانه — قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه • قالت : فالتزمته ، والتزمه أبوه • فقلنا له : مالك يا بنى • قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ، وشقا بطنى فالتمسا شيئا ، لا أدرى ما هو • قالت : فرجعنا به الى خبائنا •

قالت : وقال لى أبوه : يا حليمة • لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله • قبل أن يظهر ذلك به • قالت :

فاحتملناه • فقدمنا به على أمه • فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى على ، وتخوفت الأحداث عليه • فأديته اليك كما تحبين • قالت : ما هذا شأنك • فاصدقينى خبرك • قالت : فلم تدعنى حتى أخبرتها • قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت : قلت : نعم • قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنى لشأنا • أفلا أخبرك خبره ؟ قالت : قلت : بلى • قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور ، أضاء لى قصور « بصرى » من أرض الشام • ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط ، كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته • وانه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه الى السماء ، دعيه عنك ، وانصرفى راشدة[1] •

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلأة الله تعالى وحفظه ينبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر الى ص ١٥٣ سيرة ابن هشام — ج ١

مع جده عبد المطلب ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه ، اجلالا له • قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه • فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله ان له لشأنا • ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب(١) جده فكان مع عمه أبى طالب فكان يحنو عليه ويحفظه ، فبينما هو عنده يوما اذ قدم مكة رجل عائف من « أزد شنوءة » وكان ذلك الرجل اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر اليهم ، ويعتاف لهم ويتفرس • وكان ماهرا فى ذلك معروفا به ، مجربا عليه الاصابة فى ذلك •

فأتاه أبو طالب به وهو غلام • قال : فنظر العائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شىء • فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ على به • فلما رأى أبو طالب حرصه عليه ، غيبه عنه • فجعل يقول : ويلكم • ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا • فوالله ليكونن له شأن •

ثم ان أبا طالب خرج فى ركب تاجرا الى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ضبث(٢) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب • وقال : والله لأخرجن به معى • ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا • وكان يحبه حبا شديدا • فخرج به معه • فلما نزل الركب « بصرى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال له : « بحيرا » فى صومعة له ، وكان اليه علم النصرانية ، ولم ينزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب يصير اليه علم النصرانية ، لأجل كتاب فيها • فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر • فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا • وكان كثيرا ما يمرون به • قبل ذلك ، فلا يعرض لهم ، ولا يكلمهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا قريبا من صومعته • صنع لهم طعاما كثيرا •

---

(١) سيرة ابن هشام الى ص ١٥٦ ـ جـ ١

(٢) فى السيرة : صب ، وفى غير رواية أبى بحر : ضبث به ، أى لزمه قال الشاعر :

كأن فؤادى فى يد ضبثت به   محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه

وذلك عن شيء رآه فى صومعته • وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صومعته وهو فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم • ثم أقبلوا ، فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ، فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها • فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته • وقد أمر بذلك الطعام ، فصنع • ثم أرسل اليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما • فقال له رجل : والله يا بحيرا • ان لك اليوم لشأنا • فما كنت تصنع هذا بنا • وقد كنا نمر بك كثيرا • فما شأنك اليوم ؟

فقال له « بحيرا » : صدقت • قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف • وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم ، فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة • فلما نظر بحيرا فى القوم ، لم ير الصفة التى يعرف ، ويجد عنده • قال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى • فقالوا له : يا بحيرا • ما تخلف عنكم أحد ، ينبغى له أن يأتيك الا غلام ، وهو أحدث القوم سنا • فتخلف فى رحالهم • قال : لا تفعلوا • دعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم •

فجاء وقد احتضنه رجل من القوم ، فلما رآه بحيرا • جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرا • وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • وانما قال له بحيرا ذلك • لأنه كان يسمع قومه يحلفون بهما • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى باللات والعزى • فوالله ما أبغضت شيئا قط ، بغضهما •

فقال له بحيرا : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • قال له : سل عما بدا لك • فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره • فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته • ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده • وكان مثل أثر المحجم ثم أقبل على

عمه أبي طالب • فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني • قال : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا •

قال : فانه ابن أخي • قال : ما فعل أبوه ؟ قال : مات ، وأمه حبلى به • قال : صدقت • فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود • فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا • فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم • فأسرع به الى بلاده •

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته • فزعموا فيما يروى الناس أن « زريرا » و « تماما » و « دريسا » — وهم نفر من أهل الكتاب — قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبي طالب فأرادوه ، فردهم عنه بحيرا وذكرهم الله ، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا اليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال • فتركوه ، وانصرفوا •

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته • حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزها وتكرما • حتى ما اسمه في قومه الا الأمين • لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة(١) •

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ، وعرفت أمانته ، وصدق حديثه ، وظهرت بركته ، عرضت عليه « خديجة بنت خويلد » مالا يخرج به مسافرا الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار • مع غلام لها يقال له « ميسرة » فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج في ذلك المال ، وخرج معه ميسرة • حتى قدما الشام • فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان • فاطلع الراهب(٢)

---

(١) الى ص ١٦٧ من السيرة •

(٢) يقال ان اسم هذا الراهب : نسطور •

الى ميسرة • وقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم • فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط ، الا نبى •

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلا الى مكة ، ومعه ميسرة • فكان ميسرة اذا كانت الهاجرة ، واشتد الحر ، يرى ملكين يظلانه من الشمس ، وهو يسير على بعيره •

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به بأضعف ، أو قريبا •

وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعن ما كان يرى من اظلال الملكين اياه ، وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامتها • فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت له : يا ابن عم • انى قد رغبت فيك لقرابتك ووسطك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها •

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا • كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه • فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على « خويلد بن أسد » فخطبها اليه ، فتزوجها •

وقد كانت خديجة بنت خويلد ، قد ذكرت لورقة بن نوفل ، وكان ابن عمها ، وكان نصرانيا ، قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه • اذ كان الملكان يظلانه • فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة فان محمدا لنبى هذه الأمة • وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر • هذا زمانه — أو كما قال — ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى ؟ (١)

فلما تقارب زمان مبعثه كثرت أحاديث الكهان عن نبوته ، والأخبار بذلك فبشر بقرب ظهوره جماعة من الكهان •

---

(١) الى ص ١٧٥ سيرة ابن هشام — ج ١

وأما اليهود فكانت تكون بينها وبين العرب شرور وحروب • فربما أصابت العرب منهم • فكانت اليهود تقول : قد قرب زمان نبى سيبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وارم • ثم لم يلبثوا حتى ظهر ، وعرفوه « كما يعرفون أبناءهم » •

فلما بعث •• منهم من آمن به • ومنهم من كفر به حسدا وعنادا ، كما فعلتم أنتم •

ولقد قدم المدينة نفر من اليهود يلتمسون هجرته اليها ، وكونه فيها • من ذلك ما يحكى عن « ابن الهيبان » حبر من أحبار يهود • وممن كان ينتهى اليه علمهم وكان فاضلا فى دينه ، مجاب الدعوة • ممن علم ذلك منه بكثرة تجربة ذلك • فقال لليهود يوما : ما ترونه أخرجنى من الشام ، أرض الخمر والخمير الى أرض البؤس والجوع ؟ قالوا له : أنت أعلم • قال : فانى قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظل زمانه • وهذه البلدة مهاجره • فكنت أرجو أن يبعث ، فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه ، فلا تسبقن اليه يا معشر يهود ، فانه يبعث بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ، ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه •

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاصر بنى قريظة • قال نفر من اليهود : يا بنى قريظة •• والله • انه للنبى الذى كان عهد اليكم فيه ابن الهيبان • قالوا : ليس به • قالوا : بلى ، والله انه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، ومثل هذا كثير •

ومن أوضح ذلك وأبينه • قصة سلمان الفارسى ، وذلك أنه كان تنصر ، وقرأ كتبكم ، وبحث عن جماعة من أهل دينكم ، أعنى الذين كانوا متمسكين بدين المسيح ، فلم يزل يبحث عنهم واحدا بعد واحد ، ويخدمهم حتى يحضرهم الوفاة • فكان الواحد منهم اذا حضرته الوفاة ، وصاه بأن يلحق بمن هو على مثل دينه ، وحاله ، ويعينه له ، ويدله عليه ، الى أن وصل الى عمورية الى أرض الروم الى راهب نصرانى كان هنالك •

قال سلمان : فأقمت عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم — يعنى الدين — كانوا دلوا عليه ، الى أن حضرته الوفاة •

فقلت له : يا فلان .. انى كنت مع فلان ، فأوصانى الى فلان . ثم أوصانى فلان الى فلان ، ثم أوصانى فلان اليك . فالى من توصى بى أنت ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنى ، والله ما أعلمه ، أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه . ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجره الى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات ، لا تخفى . يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات . وغيب . ولحق سلمان بالمدينة بالأرض التى عينت له ، فأقام هنالك حتى قدم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا . فبحث عن تلك العلامات ، التى رسمت له فوجدها كما رسمت له . فآمن به واتبعه وصدقه ، وكان معه وعلى دينه الى أن توفاه الله تعالى رضى الله عنه[1] .

ولو ذهبت الى استقصاء مثل هذا ، لطال الكتاب .

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا .

فكان أول ما ابتدىء به من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب الله اليه الخلوة ، فكان ينقطع الى الكهوف والجبال ويأوى اليها .

فكان يخلو بغار حراء . وكان فى ذلك لا يمر بحجر ولا شجرة الا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله عن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى الا الشجر والحجارة تكلمه .

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاء جبريل صلى الله عليه وسلم بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى رمضان . ومن ذلك الوقت ظهرت آياته ، وعمت

---

(١) الى ص ٢٠٠ من السيرة النبوية لابن هشام ـ ج ١.

بركاته ، وتنوقلت رسالته ومعجزاته ، واذ ذاك جمع الله له كل خصال الكمال ، وخصه بصفات الشرف والجلال . فلقد جمع الله له الكمال الظاهر والباطن بما جعل فيه من الفضائل والمحاسن .

وينبغى الآن أن يعرف الجاحد والجاهل بعض ما خص به من صفات الكمال والفضائل .

اعلم . أن الكمال البشرى ضربان : ظاهر ، وباطن . وكل واحد من هذين الضربين ضربان : ضرب يكون الانسان مجبولا عليه ، ولا اكتساب له فيه ، وضرب يكون مكتسبا للانسان يحصل له بسعيه ، وتكسبه . فقد انحصرت صفات الكمال فى أربعة أقسام : كمال ظاهر ضرورى ، وكمال ظاهر مكتسب ، وكمال باطن ضرورى ، وكمال باطن مكتسب .

وقد جمع الله هذه الأربعة الأصناف للنبى محمد صلى الله عليه وسلم . ونحن نذكرها جملة ثم نشرع بعد فى التفصيل ان شاء الله تعالى .

اعلم أنا . انما نذكر من صفات كماله وجلاله . المشهور بشرط الاختصار ، خوفا من التطويل والاكثار ، ولو ذهبنا الى الاستقصاء لعجزنا عن ذلك .

فمن ذلك . كمال خلقته ، وجمال صورته ، وفصاحة لسانه ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه ، وقوة عقله ، وصحة فهمه . ومتين علمه ، وجميل صبره ، وعظيم حلمه ، وحسن تواضعه وعدله ، وجزيل زهده وفضله ، وعميم جوده وكرمه ، ووثيق عهوده وذممه ، ورائق سمته وأدبه ، وطهارة ذاته ونسبه ، وعظيم شجاعته ونجدته ، وكثير حيائه ومروءته(١) .

وجملة أمره صلى الله عليه وسلم : أنه أكمل الناس خلالا ، وأفضلهم حالا . وأعلمهم بحدود الله . وأخوفهم من الله .

فأما كمال خلقته(٢) ، وجمال صورته ، فشىء معلوم ، لم يذهب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص ١٦٧ ـ ج ١

(٢) انظر فى الأوصاف الجسمية للنبى صلى الله عليه وسلم كتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، طبعة دارالكتب الحديثة بمصر .. الجزء الثانى . فلقد ذكر أحاديث نبوية كثيرة فى صفاته الخلقية .

أحد من أعدائه الى خلاف ذلك ، ولا استطاع أن ينسب اليه نقصا ، ولا شينا ، فى شىء من ذلك . لقد اعترف الكل : أنه كان أزهر اللون ، أدعج العينين ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أفلج ، أزج ، أقنى ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية ، تملأ صدره ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام والعضدين ، والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرد ، دقيق المسربة ، مربوع القد . ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد . ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب الى الطول الا طاله ، رجل الشعر . اذا افتر ضاحكا عن جمان ، افتر عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام . اذا تكلم رؤى كالنور يخرج من ثناياه ، أحسن الناس عنقا ، ليس بمطهم ، ولا بمكلثم ، متماسك اللحم .

قال ناعته : ما رأيت أحدا فى حلة حمراء — مرجلا — أحسن منه صلى الله عليه وسلم . كأن الشمس تجرى فى وجهه . واذا ضحك يتلألأ فى الجد ، وأجمل الناس من بعيد ، وأحسنهم من قريب . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

يقول ناعته : لم أر قبله ، ولا بعده مثله . طيب الرائحة والعرف . ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف برائحته ، وان لم ير . ولقد كان يتطيب برائحته ، ويوضع فى الطيب ، فينم أكثر منه[1] .

ولقد كان يضع يده على رأس الطفل رحمة له . فكانت تنم عليه رائحة طيبه صلى الله عليه وسلم ، ولقد اشتهر وصح أنه صلى الله عليه وسلم بعد موته ، طال مكثه فى البيت قبل أن يدفن يومين ، وليلة فى المشهور ، وكان موته فى شهر (أيلول) ومع ذلك فلم يتغير له ريح ،

---

(١) « كان على بن أبى طالب عليه السلام اذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكن بالطويل الممغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا السبط . كان جعدا رجلا . ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين . اذا مشى تقلع ، كأنما يمشى فى صبب ، واذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » (سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥) .

ولا ظهر عليه شيء مما يظهر على الموتى حتى كانت الصحابة رضى الله عنهم • تقول له : طبت حيا وميتا •

ولقد روى أن أم سلمة قالت : وضعت يدى على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ميت • فمرت على جمع ، لا آكل ولا أتوضأ الا وجدت ريح المسك من يدى •

فان قيل : نسلم أنه كما وصفت • لكن أى فضيلة لحسن الصورة الظاهرة ؟ وأى مزية لها على غيرها ؟ اذ رب قبيح المنظر ، حسن الفعل والمخبر ، ورب حسن الظاهر ، والمنظر • قبيح الفعل والمخبر •

فنقول : هذا الذى ذكرت يندر ، ويقل • بل لا يبعد أن يقول قائل : لا يوجد كامل الصورة الظاهرة الا وهو كامل الصورة الباطنة • اذ كلاهما انما سببه بحسب ما أجرى الله العادة مزاج معتدل فهما ثمرتا مثمر واحد ، ولأجل هذا — والله أعلم — لم نسمع قط عن نبى من أنبياء الله تعـالى • أن الله تعالى خلقه ناقص الخلقة ، أو مشوهها ، اللهم الا قد طرأت على بعضهم آفات لأسباب شاءها الله تعـالى • مثل أيوب وغيره • وليس الكلام فى الطارىء • وانما الكلام فى أصل الخلقة • ثم ان الحكماء والعلماء قد استدلوا بحسن الخلق على حسن الخلق • حتى أن الحكماء قالوا : اقصدوا بحوائجكم سماح الوجوه • فانه أنجح لها • أو فانه أحرى أن تقضى •

وأيضا : فان الجمال والحسن محبوب بالطبع ، ومرغوب فيه • والقبح منفور عنه ، ومقصود الله تعالى : أن يحب الأنبياء ، وأن لا ينفر منهم • والحسن موجب لذلك • وأيضا : فان صفة نبينا هذه هى صفة جده ابراهيم خليل الرحمن • حتى كأنه هو على ما ثبت من صفة ابراهيم فى كتب الأنبياء عليهم السلام •

وأما فصاحة لسانه • فلقد أطل من الفصاحة على كل نهاية ، وبلغ من البلاغة كل غاية ، فلقد أوتين صلى الله عليه وسلم سلامة الطبع ، وبراعة المنزع ، وعذوبة اللفظ ، وحسن الايراد ، وجزالة القول ، وصحة المعانى • مع ايجاز اللفظ ، وقلة التكلف •

أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، وبدائع الحكم • فلقد كان يخاطب كل حى من أحياء العرب بلغتهم • ولم يكن يقتصر على لغة واحدة ، مع أنه انما نشأ على لغة بنى سعد وقريش ، وكان يعرف لغات

غيرهم • حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون : ما رأينا بالذى هو أفصح منه • وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العرباء •

ويقف على معرفة ذلك بالذوق والمشاهدة من كان عارفا بلسان العرب ولغتهم ووقف على شيء من كلامه معهم • ومجاوبتهم •

وأما نسبه • فمعلوم لا يجهل ، ومشهود لا ينكر ، جده الأعلى ابراهيم • والأقرب عبد المطلب • كابرا عن كابر • وشريفا عن شريف • فهم بين أنبيائه فضلاء ، وبين شرفاء حكماء • وهذا كله مسلم لا يمنع ، ومقبول لا يدفع ، فهو صلى الله عليه وسلم من خير قرون بنى آدم قرنا • فقرنا • وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم ابراهيم • واصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل • كما قد شهدت التوراة وغيرها بذلك • واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة • واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاه صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم • فهو خيار ، من خيار ، من خيار • وكذلك الرسل صلى الله عليهم وسلم تبعث فى أشرف أنساب قومها صلى الله عليهم • ذلك ليكون أميل لقلوب الخلق اليهم • والله أعلم •

وأما عزة قومه • فقد كانوا فى جاهليتهم لم ينلهم سباء ، ولا ظفرت بهم أعداء ولا دخلوا فى أغلب أزمانهم تحت قهر غيرهم • بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر ، والمفاخر والمآثر • هم أوفر الناس عقولا • وأقلهم فضولا ، وأفصح الناس مقالا ، وأكرمهم فعالا • الشجعان الكرماء ، والحكماء الأدباء •

أما سفساف الأخلاق ودنيها • فهم مبرأون عنها ، وأما حسنها وعليها فهم أحرص الناس عليها ، والموصوفون بها ، وكفى دليلا على ذلك ما علم من حسن جوابهم ، وكريم عمودهم ، وعميم بذلهم وجودهم • وكل هذا من أوصافهم معروف • والغالب منهم بذلك موصوف ، وحق لقائلهم أن يقول :

لنـــا الشرف الذى يطـــأ الثريـــا
مع الفجـــر الذى بهـــر العبـــادا

وأما أرضه • فناهيك من أرض أسس بقيتها ابراهيم الخليل ، وأمره بأن يدعو الناس اليها الملك الجليل ، وتولى عمارتها ، والمقام بها : النبى اسماعيل ، وتوارثها الأشراف جيلا بعد جيل ، وكفى بلدته شرفا ما فعل الله بملك الحبشة الذى جاء لهدمها ، فلما قرب منها ، وعزم

على هدمها ، ووجه فيله عليها أرسل الله عليهم طيرا أشباه الخطاطيف ، مع كل واحد منها ثلاثة أحجار : هجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه • فرمت الطير ذلك الجيش بتلك الجهات ، فكل من أصابه من تلك الحجارة شىء هلك مكانه • وأصاب ملكهم منها حجر فهلك بعد أن تناثر لحمه ، وتساقط أنملة أنملة •

فتفرقوا فى كل وجه ، وأهلكهم الله كل هلاك ، وبدد شملهم أى تبديد ، وكل هذا معروف لا ينكر ، ومشهور لا يجهل • فهذه الأرض على محلها وجدبهـا ، وشظف عيش أهلها : خير البلاد عند ربها ، دل على ذلك كلام الأنبياء والرسل • وما جاء من ذلك فى متقدمى الكتب •

ولا يظن الجاهل : أن خير بلاد الدنيا عند الله أكثرها خصبا ، وأعظمها فاكهة وأبا • فان هذا ظن من ليس له نطق ولا فهم ، وهمته ما يجعل فى بطنه كالبهم • بل خير البلاد عند الله ما كوبدت فيه المشقات التى توصل الى ما عند الله من الدرجات ، وكانت مع ذلك مما قدس ، وانتشرت منه الديانات •

وكل ذلك فى حق أرضه معلوم من جهة النبوات ، وسيأتى ما ذكر الله تعالى فى مكة بلده عليه السلام على لسان أشعياء عليه السلام •

وأما قوة عقله وعلمه • فلقد أوتى منهما ما لم يؤته أحد ، وأعطى منها ما لم يعطه والد ولا ولد • وكفى دليلا على ذلك : ما ظهر عليه من حسن السياسة ، واحكام أمور الرياسة ، والأخذ فى العلوم العقليات من غير اكتساب شىء مما يحتاج اليه من المقدمات ، حتى اتخذ أرباب كل علم ، كلامه فى ذلك العلم أصلا • يرجع اليه ويعول فى صناعته عليه • فتارة يكون كلامه فى بعض العلوم منشئا ممهدا ، وأخرى متمما ومؤيدا • وان أردت أن تعلم ذلك علم اليقين ، فتأمل تأمل اليقظين ، ما تضمنه من ذلك : الكتاب والسنة • فبهما كثرت الخيرات ، وعظمت المنة ، فانك تجدهما قد جمع له منهما ، علوم الأولين والآخرين ، على اختلاف علوم العالمين من الرياضات على اختلاف أوصافها ، والالهيات مع تعذرهـا على أكثر الأفهام واعتياصها ، والسياسات على تشتت أوصافها •

أما الأمور المصلحية التى يعبر عنها بالقوانين الشرعية ، فيقضى العقلاء منها العجب ، فانه أطل منها على أعلى المراتب والرتب • وذلك

أن أعمال شريعته صلى الله عليه وسلم انقسمت الى أمور تعبدية مثل الصوم والصلاة والحج • وغير ذلك مما لا يدرك معانيها وحكمها الا من أمده الله بتوفيق خاص ، فنور بالمعارف باطنه ، وزين بالأعمال ظاهره • والى أمور مصلحية يدرك معانيها الجفلى والجمهور • من أهل الديانة الحنيفية •

ثم انه اعتبر **أصول مصالح العالم** فأوجبها ، واعتبر أصول مفاسد العالم وحرمها ، وأصول المصالح انما هى خمسة : المحافظة على صيانة الدماء فى أهبها ، والأموال على ملاكها ، والأنساب على أهليها ، والعقول على المتصفين بهـا ، والأديان التى بها عيش النفوس وزكاتها •

فأصـول الشريعة ، وان تعددت صورها فهى راجعة الى هذه الخمسة • فاما بمرتبة واحدة ، أو بمراتب على ما يعرف فى موضعه •

وأما الدماء فحقنها بأن شرع : أن من قتل يقتل ، ومن جرح يجرح ، ومن فقأ عين انسان ، فقئت عينه • وهكذا •

فاذا علم القاتل • أن يفعل به مثل ما يفعل انكف عن القتل فحصلت حياة النفوس ، وصيانة الدماء ، ولأجل ذلك قال الله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة ، يا أولى الألباب** »[1] •

ثم سوى فى القصاص بين الكبير والصغير والشريف والمشروف ، اشعارا بأن مزايا الدنيـا وفضائلها لا مبالاة بها عند الله • وأن الشرف : انما هو بالدين والتقوى • ولأجل هذا قال الله تعالى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** »[2] • وقال عليه السلام : (الناس كأسنان المشط) يريد بذلك : أن الأحكام متساوية بينهم • وانهم فيما شرع سواء •

وأما الأموال • فصانها على ملاكها بأن شرع قطع يد السارق النصاب ، وقتل المحارب ، وغرم مثل المتلف ، أو المغصوب ان كان مما له مثل • فاذا علم السارق والمحارب أنهما يعاقبان بما يناسب جنايتهما ، ارتدعا وانكفا ، فانحفظت الأموال •

---

(١) البقرة : ١٧٩ (٢) الحجرات : ١٣

وأما العقول • فحرم استعمال ما يؤدى الى تلفها ، وذهابها ، كالخمر • وذلك أن مناط التكليف : العقل • وهو الذى به يعرف الله تعالى ، وهو الذى ينتظم مصالح الدنيا والدين • فاذا أذهبه الانسان بالخمر ، وما فى معناه • فقد تعرض لاسقاط التكليف وللكفر بالله تعالى ، بل لكل المفاسد • ولأجل هذا قال عليه السلام : (الخمر جماع الاثم ، وأم الخبائث والكبائر) ولأجل هذا • قال الله تعالى : **« انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »**(١) •

ثم أكد الكف عن الخمر بأن شرع على شربه حدا • هو ضرب بالسوط ليكون ذلك أبلغ فى الردع والزجر •

وأما حفظ الأنساب وصيانة اختلاط المياه فى الأرحام • فشرع النكاح ، وحرم السفاح ، لينتسب كل ولد لوالده ، ويتميز الولى عن مضادده ، ولينضاف كل الى شيعته ، ويتحقق نسبته بقبيلته • ولأجل هذا ، قال الله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »**(٢) •

ولم لم يكن ذلك لارتفع التعارف ، ولم يسمع ، ولاتسع خرق لا يرقع •

وأما المحافظة على الأديان وصيانتها • فهو المقصود الأعظم ، والمستند الأعصم ، فحرم الكفر والفسوق والعصيان ، وأوجب الطاعات والايمان • وأوجب قتل الكافر ، وتوعده بالعذاب الدائم والهوان ، ولا يخفى على من معه أدنى مسكة ، اذا تأمل بأدنى فكرة : ان الايمان

---

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ وتحريم الخمر بآية فى الأعراف وهى : **« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم ••• »** الخ (الأعراف : ٣٣) فالاثم محرم سواء كان صغيرا أو كبيرا فى مكة لأن سورة الأعراف مكية • فلما نزل فى المدينة : **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير »** ••• الخ (البقرة : ٢١٩) كان التحريم قاطعا ، لأنه اذا كان القليل محرما كان الكثير من باب أولى •

(٢) الحجرات : ١٣

بالله رأس المصالح والخيرات . والكفر رأس المقابح والمهلكات . ولأجله وجوب الايمان ، وتحريم الكفران ، أرسل الله الرسل . وأنزل الكتب . ولأجل ذلك قال الله تعـالى : **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمـون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »**(١) .

فهذه الأصول الخمسة . بها يتم نظام العالم . وبأضدادها يخرب العالم . وبنظام العالم يتم نظام الأديان . وبنظام الأديان يحصل النجاة من عذاب النيران . والفوز بنعيم الجنان ، مع رضى الرحمن .

فهذا بيان أنموذج من أصول السياسات الشرعيات .

وأما الرياضـات . فيكفيك منها مثال واحد من الطبيات . وذلك أنه عليه السلام قال : (المعدة بيت الداء ، والحمية أصل الدواء . وأصل كل داء البرد) ولقـد سـمع بعض أطباء الهند هذا الكلام فقـال : « لم يترك نبيكم من الطب لأحد شيئا » أو كلاما هذا معناه .

وتتبع ما استفيد من جهته من العلوم بحر . لا ساحل له . وليس هذا موضع استيفائه ، ومقصود هذا الكلام : أن النبى الرفيع عند الله ، العظيم القدر لديه ، كان أميا منسوبا الى ولادة الأم . ومعنى هذه النسبة : أنه بقى على ما كان عليه ، أى لم يتعلم علما من أحد ، ولا اكتسبه ، ولا خط كتابا بيمينه ، وهذا معروف من حاله عند الموافق والمخالف . وربما كان اذا أراد أن يحسب شيئا عدده بأصابعه ، فكان يقول : (انا أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب ، الشهر هكذا ، وهكذا) يشير بيديه ثلاثا (والشهر هكذا ، وهكذا) — ويخنس باحدى أصابعه — يعنى فى الثالثة . ومع ذلك فقد أوتى جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وعلوم الأولين . فأخبر عن القرون الماضية ، والأمم السالفة بأخبار ، هى حق عند أرباب العلوم ، ولا ينازعه أحد منهم فيها . بل اذا سمعوها ، أذعنوا للتصديق بهـا ، ولم يكذبوه فى شىء منها ، وكذلك أخبر عن الأمم الآتية ، والوقائع المنتظرة ، أخبارا ، لا يتوصل اليها باكتساب . وانما ذلك باعلام العليم الوهاب ، فجاءت على نحو ما أخبر ، وما به بشر وأنذر .

وسيأتى من ذلك مواضع يتبين فيها ذلك ان شاء الله تعالى .

---

(١) الذاريات : ٥٦ — ٥٨

وهذا دليل من أدلة نبوته ، لا يخفى على متأمل ، وبالله التوفيق •
بل نقول : انه ليس فى القوة البشرية ، والجبلة الانسانية ، الوصول من العلوم والمعقولات الى مثل ما وصل هو اليه • اذ قد علم أمورا ، لا يستقل العقل بدركها ، وأخبر بهـا • وعند هذا يعلم : أن ذلك بتوفيق الهى ، ونور ربانى • ولأجل هذا ، قال الله له : « **وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما** »(١) •

وأما صـبره وحلمه : فيكفيك من ذلك أنه كسرت رباعيته يوم « أحد » وشج فى وجهه ، فشق ذلك على أصحابه • فقالوا له : لو دعوت الله عليهم • فقال : (انى لم أبعث لعانا • وانما بعثت رحمة) ثم قال : (اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون) •

فانظر • ما فى هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الاحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم • اذ لم يقتصر على السكوت عنهم ، حتى عفى ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا ، وشفع لهم ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة ، بقوله : « لقومى » ثم اعتذر عنهم لجهلهم ، فقال : « فانهم لا يعلمون » وكذلك جاء أعرابى جلف جاف ، وكان على النبى صلى الله عليه وسلم « برد » غليظ الحاشية ، فجذبه الأعرابى بردائيه جبذا شديدا ، حتى أثر حاشية البرد فى صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ، احملنى على بعير من مال الله ، الذى بيدك ، فانك لا تحملنى من مالك ، ولا من مال أبيك ، فسكت النبى صلى الله عليه وسلم • وقال : (المـال • مال الله • وأنا عبده) ثم قال له : (لم فعلت بى ما فعلت) ؟ قال : كأنك لا تكافىء بالسيئة ، السيئة ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير : شعير ، وعلى آخر : تمر •

وكذلك قال له آخر : اعدل يا محمد • فان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ويلك ان لم أعدل أنا • فمن يعدل ؟ أيأمننى الله على خزائنه ، ولا تأمنونى ؟) وكذلك سحره(٢)

---

(١) النساء : ١١٣

(٢) هذا خبر لم يصح ، لأن القرآن لا يثبت للسحر حقيقة • لقد ذكر اشاعة هاروت وماروت التى افتراها شياطين (علماء) اليهود فى مدينة بابل ونفاها وبين أن الله لم ينزل شيئا على هاروت وماروت وهما لم يعلما من =

« لبيد بن الأعصم اليهودى » فأعلمه الله بسحره ، وحيث هو ، فاستخرجه الله ، فبرىء • فقيل له : ألا تقتله ؟ فقال : (أما أنا فقد شفانى الله ، وأكره أن أثير على الناس شرا) •

وكذلك قدمت اليه « يهودية » ذراع شاة مسمومة ، فأكل منه النبى عليه السلام فعافاه الله فى ذلك الوقت من ضرر ذلك السم فاستحضر المرأة • وقال لها : (ما الذى حملك على ذلك) ؟ قالت : أردت، ان كنت كاذبا ، أرحت منك ، وان كنت صادقا لا يضرك • فعفى عنها •

وقد قال بعض أصحابه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط • ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى • وما ضرب بيده شيئا قط الا أن يجاهد فى سبيل الله • وما ضرب خادما ، ولا امرأة •

وجىء اليه برجل • فقيل : هذا أراد أن يقتلك • فقال له صلى الله عليه وسلم : (لن ترع • لن ترع • ولو أردت ذلك لم تسلط على) •

وجاءه « زيد بن سعية » يتقاضاه دينا له عليه • فجبذ ثوبه عن منكبيه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، فانتهره عمر • وشدد له فى القول • والنبى صلى الله عليه وسلم يتبسم • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا وهو كنا الى غير هذا منك أحوج • تأمرنى بحسن القضاء • وتأمره بحسن التقاضى) ثم قال : (لقد بقى من أجله ثلاث) وأمر عمر يقضيه ما له • ويزيده عشرين صاعا • فكان سبب اسلامه •

والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن يأتى على حصرها ، هذا الكتاب •

وعلى الجملة : فقد تواتر صبره على أذى قريش ، وسبه • واخراجه من بلده ، ونيل الأذى ، حتى بلغوا منه مبلغا لا يصبر عليه الا من هو مثله • فلما أظفره الله بهم قال لهم : (ما تقولون انى فاعل بكم) ؟ قالوا : خيرا أخ كريم ، وابن كريم • فقال : (أقول كما قال أخى

= أحد ... الخ (انظر الطبعة الثانية من كتابنا : اعجاز القرآن ـ نشر الأنجلو المصرية) •

يوسف : « **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين** »(١) اذهبوا • فأنتم الطلقاء) •

ولقد ثبت عنه أنه لما كذبه قومه ، جاءه جبريل عليهما السلام فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك • وما ردوا عليك • وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه ملك الجبال ، وسلم عليه • وقال : مرني بما شئت • ان شئت أطبق عليهم الأخشبين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ، وحده ، لا يشرك به شيئا) •

ولقد هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا • فأعتقهم •

ومثل هذا كثير •

وعند هذا يتبين أنه صلى الله عليه وسلم : أحلم الناس عند مقدرته ، وأصبرهم على مكرهته ، وأنه امتثل أمر الله ، حيث قال له : « **خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين** »(٢) وحيث قال له تعالى : « **فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين** »(٣) •

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم على علو منصبه ، ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن كبر ، وحسبك : أن الله خيره بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا • فاختار أن يكون نبيا عبداً • فقال له اسرافيل عليه السلام ، عند ذلك : فان الله قد أعطاك بما تواضعت له : أنك سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق الأرض عنه ، وأول شافع •

وقال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكأ على عصا ، فقمنا له • فقال : (لا تقوموا ، كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا) وقال : (انما أنا عبد • آكل ، كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبيد ، ويجلس بين أصحابه ، مختلطا بهم حيث ما انتهى به المجلس جلس •

---

(١) يوسف : ٩٢ (٢) الأعراف : ١٩٩
(٣) المائدة : ١٣

وقال عليه السلام : (لا تطرونى كما أطرت النصارى : ابن مريم انما أنا عبد • فقولوا : عبد الله ورسوله) •

وجاءته امرأة ، فقالت : ان لى اليك حاجة • قال لها : (اجلسى يا أم فلان • فى أى طرق المدينة شئت • أجلس اليك ، حتى أقضى حاجتك) فجلس اليها ، حتى فرغت من حاجتها ، وكان يوم بنى قريظة ، على حمار ، ومخطوم بحبل من ليف ، عليه أكاف •

وكان يدعى الى خبز الشعير ، والاهالة السنخة ، فيجيب •

وقد حج • وكان عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم • هذا كله • وقد أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، وألقت اليه أفلاذ كبدها ، فلم يلتفت اليها ، ولا عبأ بها • وكان صلى الله عليه وسلم فى بيته ، فى مهنة أهله ، يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، وكانت الأمة من اماء أهل المدينة تأخذ بيده ، فتنطلق به حيث شاءت من المدينة ، حتى يقضى حاجتها •

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : (هون عليك • فانى لست بملك • انما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد) •

وقال أبو هريرة : دخلت السوق ، مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فاشترى سراويل • وقال للوازن : (زن ، وارجح) وذكر قصته • قال : فوثب الى يد النبى صلى الله عليه وسلم يقبلها • فجذب يده ، وقال : (هذا تفعله الأعاجم بملوكها • ولست بملك انما أنا رجل منكم) ثم أخذ السراويل • فذهبت لأحمله • فقال : (صاحب الشىء ، أحق بشيئه أن يحمله) •

وأما عدله ، وصدقه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانته ، وصدق لهجته • فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان •

اعترف بذلك محادوه ، وعداته • وكان يسـمى قبل النبوة : « الأمين » وذلك لمـا جعل الله فيه من الأخلاق الصالحة •

ومما يدل على ذلك : أن قريشا لما بنيت الكعبة ، اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ؟ فحكموا بينهم أول داخل عليهم . فاذا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم داخلا . فقالوا : هذا محمد . هذا الأمين ، قد رضينا به . وذلك قبل أن يبعث .

ولقد اجتمع الأخنس بن شريق مع أبى جهل يوم بدر ، وكلاهما مخالف له ، وعدو له ، قد أجمع على قتله ، وقتاله . فقال الأخنس لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فأخبرنى عن محمد . أصادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله ان محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط .

ولقد سأل هرقل أبا سفيان وهو على شركه ومخالفته . فقال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال هرقل : قد أعلم أنه لم يكن يدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وقال النضر بن الحارث لقريش وهو عدوه ومخالفه : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاء به . قلتم : انه كذاب ، وانه ساحر .

لا . والله . ما هو بساحر ، ولا بكذاب .

فهذا كان حاله . فاعترف أعداؤه بمناقبه ، ولا يقدرون على انكار شىء من فضائله .

من أدل دليل على عدله ، وعظيم تواضعه وفضله . أنه كان قد انتهى به الأمر الى أن تهابه الملوك ، وتفرق منه الجبابرة . ومع ذلك فانه كان يوفى لكل ذى حق حقه ، ويعرف لذى الفضل فضله . حتى كان يقول : (انى أريد أن ألقى الله ، وليس لأحد منكم يطالبنى بمظلمة فى أهل ولا مال) ولأجل ذلك : أقاد « عكاشة بن محصن » من نفسه ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضربه بقضيب فى ظهره ، غير قاصد لضربه ، فقال له عكاشة : انك قد أوجعتنى ، فأقدنى — معناه : مكنى منك حتى أضربك ، مثلما ضربتنى — ، فكشف له عن ظهره ، وناوله القضيب . وقال : (اضرب) . فأكب عكاشة على ظهره يقبله . وقال : انما أردت أن يمس جلدى جلدك .

والأخبار فى هذا أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب .

وأما زهده صلى الله عليه وسلم . فلقد كان أزهد الناس ، وأورعهم ، وحسبك شاهدا على ذلك ما علم من حــاله صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه أعرض عن الدنيا وزهرتها . ولم يلتفت الى شىء منها مع اقبالها عليه . وسياقتها اليه . وذلك أن الدنيا سيقت اليه بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها . وهو مع ذلك لا يعرج عليها ، ولا يلتفت اليها ، الى أن مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله . وهو يدعو ويقول : (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) ويقول : (اللهم أحيينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى جملة المساكين) ولقد صحت الأخبار عنه : أنه ما شبع ثلاثا تباعا ، حتى مضى لسبيله ، ولقد روى أنه ما شبع من خبز الشعير يومين متواليين ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ، ولا درهما ، ولا شاة ولا بعيرا . وما ترك الا بغلته وسلاحه ، وأرضا جعلها صدقة ، وكان يقول : (ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا . يمضى ثالثة ، وعندى منه دينارا الا شيئا أرصده لدين) ولقد قال صلى الله عليه وسلم : (عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا . قلت : لا . يا رب . بل أجوع يوما ، وأشبع يوما . فاذا جعت تضرعت اليك ودعوتك . واذا شبعت شكرتك وحمدتك) ولقد حكى عنه جماعة من أصحابه أنه كان يبيت هو وعياله الليالى المتتابعة ، طاويا ، لا يجدون عشاء . وقال « أنس » خادمه : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « خوان » ولا فى « سكرجة » ولا خبز له مرقق ، ولا رأى شاة عبيطا قط .

ودخل عليه عمر بن الخطاب فوجده مضطجعا على رمل حصير ، قد أثر فى جنبه . قال عمر : فنظرت فى بيته ، فلم أر فيه شيئا . فبكيت لمــا رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحاجة والفاقة . فقال : (ما شأنك يا ابن الخطاب) ؟ فقلت : يا رسول الله ذكرت « كسرى » و « قيصر » وما أعطاهمــا الله تعــالى . فقــال : (أفى شــك أنت يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لهما الدنيا . ولنا الآخرة) ؟ وقالت عائشة : (لم يمتلئ جوف نبى الله شبعا قط . ولم يبث شكوى الى أحد . وكانت الفاقة أحب اليه من الغناء . وان كان ليظل جائعا يلتوى طول ليله من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء سأل ربه كنوز جميع الأرض وثمارها ، ورغد عيشها .

ولقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع . وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك) ؟ فيقول : (يا عائشة : مالى وللدنيـــا . اخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرمهم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجدنى أستحيى ان ترفهت فى معيشتى أن يقصرنى غدا دونهم ، وما شىء هو أحب الى من اللحوق باخوانى وأخلانى) قالت : (فما أقام بعد ذلك ، الا شهرا ، حتى توفى صلوات الله عليه) .

ولقد شكى اليه بعض أصحابه الجوع ، وكشف له عن بطنه عن حجر . فكشف له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه عن حجرين ، صلى الله عليه وسلم تسليما . وهذا معلوم قطعا من أحواله ، لا يقدر على جحده أحد من أعدائه ، ولا أوليائه .

وأما كثرة جوده وكرمه فشىء معروف من شيمه . فلقد تواتر : أنه كان أكرم الناس ، وأجودهم ، حتى أنه ما سئل قط شيئا . فمنعه . اذا كان ذلك الشىء المسئول مما لا يمنع شرعا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى صلى الله عليه وسلم : أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى رمضان . وكان أجود بالخير من الريح المرسلة .

ولقد سأله رجل ، فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع ذلك الرجل الى قومه . فقال : أسلموا . فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . وأعطى أناسا كثيرين : مائة ، مائة من الابل . وأعطى « صفوان » مائة ، ثم مائة ، وأعطى « العباس » من الذهب ، ما لم يطق حمله ، وسيق له صلى الله عليه وسلم ، تسعون ألفـــا ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ، فما رد سائلا ، حتى فرغ منه .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد سائلا جاءه . وربما كان السائل لا يجد عنده شيئا . فيأخذ له بالدين ، ويعطيه السائل ، حتى يقضيه النبى صلى الله عليه وسلم . ولقد جاءه رجل فسأله . فقال : (ما عندى شىء ، ولكن ابتع على بدين . فاذا جاءنا شىء قضيناه) فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم

ما قاله عمر . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله . أنفق ، ولا تخف من ذى العرش اقلالا . فتبسم وعرف بشر ذلك القول فى وجهه ، وقال : (بهذا أمرت) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم **يقبل الهدية** ، وان لم يحتج اليها ، ويثيب عليها بأضعافها . روى أن « معاذ بن عفراء » أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم طبقا فيه رطب ، وقثاء ، فأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم ملء كفه ذهبا وحليا . وكان صلى الله عليه وسلم ، لا يدخر شيئا لغده ، لنفسه . وقد ثبت عنه أنه كان يقول : (ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا ، يمضى على ثالثة ، وعندى منه دينارا ، الا شيئا أرصده لدين) . وما سيق له قط شىء يقسم ، ذهبا كان أو غيره الا أمر بقسمه ، ولم يبت عنده .

وهكذا . كان المعروف من خلقه قبل مبعثه ، وكان هذا معروفا عند قومه الذين نشأ فيهم . حتى لقد قال له « ورقة بن نوفل » وكان امرءا تنصر ، وقرأ الكتب العبرانية ، وكان قد تفطن ، واستشعر بنبوته عليه السلام ، لما رأى من العلامات التى علمها من الكتب المتقدمة . فقال له : انك لتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .

وهذا كله من أخلاقه معروف حاصل ، لا يتمارى فيه منصف عاقل .

وأما وفاؤه بالعهد . فلا يتمارى فيه الا خسيس وغد . فقد كان صلى الله عليه وسلم أحفظ الناس بعهد ، وأوفاهم بميثاق ووعد . وأحسنهم جوارا ، وأصدقهم قولا وأخبارا . روى عن « عبد الله ابن أبى الحمساء » أنه قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع . قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية . فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو فى مكانه . فقال : (يا فتى . لقد شققت على . أنا هاهنا . منذ ثلاث أنتظرك) وذلك للميعاد الذى كان بينهما ، وكان المعلوم من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يعقد العهود والمواثيق بينه وبين عداته وغيرهم . فيفى بها ، ويؤذنهم بانقضائها عند تمامها ، ولم يغدر قط فى شىء منها . ولقد كان هذا معروفا عند أعدائه ، كما هو معروفا عند أوليائه .

ولقد روى أن هرقل • ملك النصارى لمـا سأل كفار قريش عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم قال : فهل يغدر ؟ قالوا له : لا • فقال لهم : كذلك الرسل لا تغدر • وكيف يغدر صلى الله عليه وسلم ، وهو قال : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به • يقال : هذه غدرة فلان) ؟ ولقد جاءه « المغيرة بن شعبة » مسلما • وجاء معه بمال قوم من الجاهلية كان قد صحبهم ، ثم قتلهم ، وأخذ أموالهم • فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (أما الاسلام فأقبل • وأما المـال فلست منه فى شىء) وقال صلى الله عليه وسلم ، وقد عرض له بعض أصحابه بغدر المشركين : (دعنى لهم ، ونستعين الله عليهم) •

وفى خبر « الجلندى » ملك عمان ، لمـا بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام • فقال الجلندى : والله لقد دلنى على أن هذا نبى : أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له • وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر(١) ، ويفى بالعهود ، وينجز الموعود • أشهد أنه نبى •

يا هذا • تأمل بعقلك • أين هذا مما يحكى اليهود والنصارى عن موسى عليه السلام فى كتبهم من أن موسى عليه السلام ، لمـا أراد الخروج من مصر ، استعار حلى بنى اسرائيل ، ثم فر به ليلا •

وعند الانتهاء الى هذا المقام • يعلم العاقل ما فى كتب القوم من الأباطل والأوهام وموسى عليه السلام مبرأ عن النقائص والآثام •

ومن وفائه بالعهد ، وقيامه فى حفظه بالحد : أنه قدم عليه وفد النجاشى فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم بنفسه • فقال له أصحابه : نحن نكفيك • فقال : (انهم كانوا لأصحابنا مكرمين • وانى أحب أن أكافئهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (حسن العهد من الايمان) •

وحقيقة الوفاء بالعهد : تتميم ما ربط من العقد ، ومراعاة ما تقدم من الود ، ومكافأة من له يد • وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه • لا ينازع فى ذلك أحد • وان كان يناوئه •

وأما حسن سمته ، وتؤدته ، وكثير حيائه ، ومروءته • فشىء لا يجحد ولا يجهل ، ولا يلحقه فى شىء من ذلك أحد • وان بذل غاية جده • ولم يكسل • فهو بالحقيقة كما قال الشاعر الأول :

---

(١) « يغلب » الأولى بفتح الياء ، والثانية بضمها •

سعى بعدهم قـــوم لكي يدركونهم
فلم يفعلوا ، ولم يليموا ، ولم يألوا

كان صلى الله عليه وسلم كثير الصمت والوقار ، طويل الاطراق والاعتبار ، تكسو هيبة وقاره جلسائه . حتى اذا جلسوا بين يديه كأن على رؤوسهم الطير اعظاما له ، وهيبة منه .

مجلسه أوفر المجالس ، لا يسمع فيه ضحت الأصوات ، ولا اختلاط اللغات ، ليس فيه مراء ولا جدال ، ولا للهجر ، والفحش فيه مجال . لا توبن فى مجلسه الحرم ، ولا يغض فيه من الأقدار والقيم . بل كان مجلس علم .

وأصحابه يعظمون فى مجلسهم معه حرمات الله . ويتعلمون منه أحكام الله . فتارة يعلمهم بأمور الآخرة كأنهم ينظرون اليها . وأخرى يعلمهم أحكام شريعته ، كى يعملوا بها .

قال ابن أبى هالة : كان سكوته على أربع : على الحكم والحذر والتقوى والتفكر . يعلم الجاهل المسترشد ويدنيه . ويطرد المعاند المتكبر ويقصيه ، يتواضع للفقراء ، ويتواضع لديه الأمراء .

كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها ، الرفيعة الشريفة فى قومها ، كان اذا سمع ما يستحيى منه ، ظهر نور الخفر على وجهه . ولذلك مر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يعتب أخاه على الحياء . فقال صلى الله عليه وسلم : (دعه . فان الحياء من الايمان) وقال : (الحياء خير كله ، ولا يأتى الا بخير) وقال : (استحيوا من الله حق الحياء) وكان صلى الله عليه وسلم ضحكه تبسما . ولم ير قط فى ضحكه مقهقها ، ولا مترنما .

كان كلامه فصلا . يفهمه كل من سمعه ، وربما تكلم بالكلمة ثلاثا حتى تفهم عنه ، وكان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه . وكان اذا مر بقوم يسلم عليهم ثلاثا . وكان صلى الله عليه وسلم يحافظ على مروءته ، وعلى استقامة حالته ، وتحسين هيئته ، يمشى هونا ، كأنما ينحط من صبب . اذا مشى مشى مجتمعا ، واذا جلس جلس محتبيا ، وقرب اليه طعام ومتكأ . فقال : (لا أتكىء . انما آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) .

كان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ، والرائحة الحسنة ، ويستعملهما ، ويحض عليهما . ويقول : (ان الله تعالى جميل يحب الجمال) ويأمر بالسواك ، وغسل البراجم والدواجب . واستعمال خصال الفطرة ، ويأخذ بذلك ويعمل به .

وكان صلى الله عليه وسلم لكثرة محافظته على جلال مروءته . اذا عطس غطا وجهه ، وخفض بها صوته .

وما عسى أن يقول القاص فيمن جمعت فيه كل الفضائل والمآثر . بل غاية الفصيح الأثر أن ينتهى الى ما قاله الشاعر :

ماذا أقول ؟ وقولى فيك ذو حصر
وقد كفيتنى التفصيل والجملا
ان قلت : ما زلت مرفوعا ، فأنت كذا
أو قلت زانك دى ، فهو قد فعلا

وأما شجاعته . ونجدته . فكان منها صلى الله عليه وسلم بالمكان الذى لا يجهل . وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل . قد كان مارس الضراب ، ووقف مواقف الصعاب ، لا يبالى بكثرة العدد ، ولم يفر قط أمام أحد . وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وان كان له بعدها كرة . الا هو صلى الله عليه وسلم ، فلم يدبر قط منهزما . ولا فارق مكرها ملتزما .

وكان « على بن أبى طالب » يقول : كنا اذا اشتد البأس ، وحميت الحرب . اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو . ولقد كانت الصحابة تقول : ان الشجاع منا للذى يقوم بجانبه يستتر به .

وقيل لـ « أنس » أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر .

ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، و « أبو سفيان » آخذا بلجامها . والنبى صلى الله عليه سلم يقول :

(أنا النبى لا كذب .:. أنا ابن عبد المطلب)

قيل : فما رؤى يومئذ أحد كان أجرأ منه ، ولا أشد . وقد روى عنه : أنه نزل عن بغلته متوجها نحو العدو . وقال « العباس

ابن عبد المطلب » : لما التقى المسلمون والكفار ، يوم « حنين » ولى المسلمون مدبرين ، فطفق النبى صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار •

قال العباس ، وأنا آخذ بلجامها ، أكفها ارادة ألا تسرع • وأبو سفيان آخذ بركابه ، ثم نادى بالمسلمين • وذكر الحديث •

وقال أنس : كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس • ولقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق أناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت • وقد استبرأ الخبر على فرس عرى ، لأبى طلحة • وفى عنقه السيف ، وهو يقول : (لن تراعوا • لن تراعوا) وانا وجدناه لبحرا — يعنى القوس لكثرة جرية •

وقال « ابن حصين » ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول ضارب • ولما رآه « أبى بن خلف » يوم أحد ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت ان نجا •

وقد كان قال للنبى صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة ، أقتلك عليها • فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (بل أنا أقتلك ان شاء الله) فلما رآه أبى يوم أحد ، شد « أبى » فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (دعوه • خلوا طريقه) وتناول النبى صلى الله عليه وسلم الحربة من « الحارث ابن الصمة » فانتفض بها انتفاضة ، فتطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير ، اذا انتفض ، ثم استقبله النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم طعنه بها طعنة ، تدأدأ منها على فرسه ، وقيل : بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع الى قريش يقول : قتلنى محمد • وهم يقولون : لا بأس بك • فقال : لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم • أليس قد قال لى : (أنا أقتلك ان شاء الله) • والله لو بصق على لقتلنى • فمات بـ « سرف » فى قفولهم الى « مكة » •

ومما يدلك على عظيم شجاعته : أنه يوم « أحد » فر عنه الناس ، فاستقبل العدو فى نفر قليل من أصحابه ، فكسر « عتبة بن أبى وقاص » رباعيته اليمنى ، وجرح شفته السفلى ، وشجه فى جبهته « عبد الله

ابن شهاب الزهرى » وضرب « عمرو بن قمئة » وجنته . فأدخل حلقتين من حلق المغفر فى وجنته ، وهو فى ذلك كله ، لا يزول عن موضعه . ولا يولى ظهره . ولم يزل كذلك حتى أنزل الله عليه نصره ، حين رأى صبره .

وفى ذلك الموضع ، وفى تلك الحال ، نهض نفر من أصحابه لقتال العدو فوافقوهم وقاوموهم ، مع كثرة عدوهم ، فانفدت مقاتل واحد منهم . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم خد ذلك الرجل على قدمه ، حتى مات . وهذا يدلك على غاية شجاعته ، وكثرة الجلد ، وقلة المبالاة بالعدو . ولقد كانت غزوة « أحد » هذه التى جرى فيها ما ذكر . من أول الشواهد على نبوته صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه لما التقى هو والمشركون . قال النبى صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه ، وكانوا رماة : (انضحوا عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، واثبتوا مكانكم ، كانت لنا . أو علينا) .

وقد كان أمر عليهم « عبد الله بن جبير » ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ، فهزموا المشركين ، وولوا أدبارهم ، حتى سقط لواءهم صريعا . فلما رأى أصحاب « عبد الله » الهزيمة . قالوا : الهزيمة . الهزيمة . تعالوا بنا نصيب مما تصيبه الناس . فقال لهم عبد الله : ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تبرحوا من مواضعكم) فقالوا له : قد هزم الله العدو . فلم يلتفتوا كلامه . فزالوا عن مواضعهم . فلما زالوا عن مواضعهم عاقهم الله . بأن رجع العدو عليهم ، فقتل منهم من قتل ، لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحص الله فى تلك الغزوة : المؤمنين . ومحق الكافرين والمنافقين .

وفى تلك الغزوة فقئت عين « قتادة بن النعمان » حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه . وسيأتى ذكر هذا ، وماشاكله بعد هذا ، ان شاء الله تعالى .

وأما خوفه من الله تعالى واجتهاده فى عبادته . فقد بلغ من ذلك الى حد لم يبلغه أحد من الخليقة . وذلك أن الله تعالى كلفه من وظائف العبادات ما لم يكلف أحدا على الحقيقة ، وهو مع ذلك لا يقصر فى شىء منها . بل كان يبذل غاية اجتهاده ، ووسعه فى أدائها . فمن العبادات التى كلفها الله له : تحمل أعباء الوحى ، ومشقة ثقله . فلقد كان ينزل عليه

الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا •

ولأجل هذا • قال الله تعالى : « **انا سنلقى عليك قولا ثقيلا** »[١]

وقال له : « **فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه** »[٢] •

وهذه مشقة لا يعرفها على التحقيق ، الا الرسل • ولأجل عظم هذا الأمر جاءه جبريل عليه السلام ، وهو يتعبد بغار حراء • وذلك قبل أن يوحى اليه • فقال له : « اقرأ » فقال : (ما أنا بقارىء) فأخذه ، فغطه ، حتى بلغ منه الجهد • ثم أرسله • فقال : « اقرأ » فقال : (ما أنا بقارىء) ففعل به مثل ذلك مرتين • فقال له فى الثالثة : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** •• »[٣] الآيات • فقرأها • ثم رجع الى خديجة يرجف فؤاده ، فقال : (زملونى) فدثروه • فأنزل الله عليه ، وهو على تلك الحال : « **يا أيها المدثر • قم فأنذر • وربك فكبر** •• »[٤] الآيات •

ثم بعد قبول الوحى أمر بتبليغه وتبيينه للناس ، والصبر على ما يصيبه من أذى قومه • فكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه ودينه على قبائل العرب ، وعلى وفودها اذا قدموا مكة لمواسم الحج ، فيعيب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، ويظهر خلافهم ، ويوبخهم على جهالاتهم ، فيردون عليه قوله ، ويكذبونه ، ويسبونه ، ويؤذونه ، بأقصى ممكنهم من أنواع الأذى ، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه ، على الله •

فلسان الحال ينشد ، والأنفاس خوفا من التقصير فى أمر الله تتصعد :

لا أبــالى ، اذا رضيت الهى
أى أمر من الأمــور دهــانى

فلم يزل راضيا ، صابرا على أنواع البلاء ، حتى كان لسان حاله يقول :

* عذب التعذيب عندى وحلا *

فأقام على ذلك بمكة ثنتى عشرة سنة ، يدعو الناس من غير قتل ،

---

(١) المزمل : ٥
(٢) القيامة : ١٨
(٣) العلق : ١
(٤) المدثر : ١ ـ ٣

ولا قتـال • وذلك كله ليظهر الاسلام ، وتنتشر دعوته ، لئلا يكون لأحد حجة على الله ورسوله •

وبعد ذلك أمر بالهجرة من مكة الى المدينة ، ففارق أهله وعشيرته ، وحاله وماله وولده وبلده ، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك فى ذات الله • فترك كل ذلك الى الله فوقع أجره على الله •

فلما حل بالمدينة • افترض الله عليه القتال • فقاتل فى ذات الله جميع من كفر بالله غير مقصر فى ذلك ، ولا مفرط • بل جادا مجتهدا حتى أظهر الله دينه • وان رغمت أنوف الجاحدين • وفى كل ذلك الزمان ، كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها ، عبادة عبادة ، فصلى حتى تورمت قدماه وانتفخت ، وصـام • حتى كان القائل يقول : لا يفطر لكثرة ما كان يرى من صومه ، ووصاله • وكان يذكر الله ويعظمه ويمجده ويشكره على كل أحواله من غير تقصير ، ولا فتور ، ولا تشغله عبادة عن عبادة ، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر •

كان عمله دائما • وكذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم : (خير العمل أدومه) فكان يراعى أنفاسه مع الله ، ولا يضيع شيئا مما كلفه خوفا من الله ، فكان ربما يتفكر فى عظيم أمر الله وعزة سلطانه ، فيستعظم ما يعرف من هول المطلع ، فكان يقول : (والله انى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية) وكان يقول : (يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولخرجتم الى الصعدات ، تجأرون الى الله ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش • لوددت أنى شجرة تعضد) ولذلك كان يقول : (انى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون • أطت السماء ، وحق لهـا أن تئط • ما فيهـا موضع أربع أصابع ، الا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله) •

وهذا كله • يدل على كثرة معرفته بالله تعالى ، وشدة خوفه منه ، ورهبته له ، وكذلك كان يبكى ، ويسمع لخوفه صوت ، كصوت المرجل من البكاء • وكذلك صح النقل عنه : بأنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة • وكان يقول : (يا أيها الذين آمنوا توبوا ، فانى أتوب الى الله فى اليوم والليلة مائة مرة) •

وروى عن على بن أبى طالب أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنة ؟ فقال : (المعرفة رأس مالى ، والعمل رأس

دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله مجدى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والصبر هادى خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة) •

وفى حديث آخر : (وثمرة فؤادى فى ذكره ، وغمى لأجل أمتى ، وشوقى الى ذى الجلال) •

ووصف خوفه يطول ، ومعرفة ذلك من حاله ، لا ينكره عليم ، ولا جهول • اذا كان من أهل الانصاف والعقول •

وعلى الجملة : فمناقبه الشريفة لا تحصى ، وما خص به من الأخلاق الكريمة عديد الحصى ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى له : « **وانك لعلى خلق عظيم** »[1] وما عظمه العظيم فهو عظيم • وكيف لا يكون ذلك • وقد بعثه الله تعالى متمما لمكارم أخلاق الأولين • وقد خصه بصفات جميع النبيين • فلو جاز أو تصور أن يعبد أحد من البشر ، لكمال أخلاقه ، وكرم أوصافه ، وطيب أعرافه ، لكان هو • اذ قد أعطى من ذلك ما لم يعطه أحد من البشر ، ولا دخل لهم تحت كسب ولا قدر •



(١) القلم : ٤

خاتمة جامعة في صفاته وشواهد صدقه وعلاماته

وذلك أن « أبا سفيان » وكفار قريش قدموا الشام تجارا . فأرسل اليهم « هرقل » وكان ملك النصارى وعظيمهم ، واليه ينتهى علمهم . فجاءوه ، ودخلوا عليه فى مجلسه ، وحوله عظماء الروم . فقال لترجمانه : قل لهم : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا . أقرب نسبا منه . فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، واجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه انى سائل هذا ، عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى . فان كذب ، فكذبوه .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عنى كذبا لكذبت عليه ، قال أبو سفيان : فكان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله . قلت : لا . قال : فهل كان فى آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت لا . ونحن فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ؟ — يعنى صلحا — .

قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال . ينال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا . واتركوا ما يقول آباؤكم) ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال هرقل لترجمانه : قل له : سألتك عن نسبه . فذكرت أنه فيكم ذو نسب . وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت : أن لا . فقلت : لو كان أحد

قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يقتدى يقول قيل قبله • وسألتك : هل كان من آبائه من ملك • فذكرت : أن لا • فلو كان من آبائه من ملك • لقلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال • فذكرت : أن لا • فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله • وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم • فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل •

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه • فذكرت : لا • وكذلك الايمان ، حين تخالط بشاشته القلوب • وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت : أنهم يزيدون • وكذلك أمر الايمان حتى يتم • وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا • وكذلك الرسل لا تغـدر • وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم : أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف •

فان كان ما تقول حقا • فسيملك موضع قدمى هاتين • وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم • فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لأحببت لقاءه • ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه •

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد بعث به مع « دحية » الى عظيم « بصرى » فدفعه الى هرقل ، فقرأه ، فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم • سلام على من اتبع الهدى « أما بعد » فانى أدعوك بدعاية الاسلام • أسلم • تسلم • يؤتك الله أجرك مرتين • فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين[١] — يعنى المقتدين به — و **« يا أهل الكتاب : تعالوا الى كلمة سواء بيننا ، وبينكم : ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون »**[٢] •

---

(١) يقال ان الآريسيين هم أتباع آريوس الذى كان ينادى بتوحيد الله عز وجل فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وهو الأصح — والله أعلم — •

(٢) آل عمران : ٦٤

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابى ، حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة . انه ليخافه ملك بنى الأصفر . فما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله على الاسلام .

وكان ابن الناظور ، صاحب « ايلياء »[1] يحدث أن هرقل ، حين قدم ايلياء أصبح يوما خبيث النفس . فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك .

قال ابن الناظور : وكان هرقل حزاء ، ينظر فى النجوم . فقال لهم حين سألوه : انى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان ، قد ظهر . فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن من هذه الأمة الا اليهود . فلا يهمنك شأنهم . واكتب الى مدائن ملكك . فليقتلوا من فيهم من اليهود . فبينا هم على ذلك أتى هرقل برجل . أرسل به ملك غسان ، يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما استخبره هرقل . قال : اذهبوا فانظروا . أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا اليه . فحدثوه أنه مختتن . وسأله عن العرب . أيختتنون ؟ فقال : هم يختتنون . فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر .

ثم كتب هرقل الى صاحب له برومية ، وكان نظيره فى العلم . وسار هرقل الى « حمص » فلم يرم حمص ، حتى أتاه كتاب من صاحبه . يوافق رأى هرقل على خروج النبى صلى الله عليه وسلم . وأنه نبى . فأذن هرقل عظماء الروم فى « دسكرة » له بحمص . ثم أمر بأبوابها فغلقت . ثم اطلع . فقال : يا معشر الروم . هل لكم فى الفلاح والرشد . وأن يثبت ملككم . فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت . فلما رأى هرقل نفرتهم . وآيس من ايمانهم . قال : ردوهم على . وقال : انى قلت مقالتى آنفا . أختبر بها شدتكم على دينكم . فقد رأيت . فسجدوا له ، ورضوا عنه .

فكان هذا آخر شأن « هرقل » .

فتأمل أيها « القس » ان كنت من أهل العقل والحدس . كيف كان العلماء منكم يعرفونه بعلاماته ، ويستدلون على صحة نبوته بحسن

---

(١) هى الآن : مدينة القدس ، ويسميها اليهود ـ لعنهم الله ـ : « أورشليم » .

أوصافه وهيئاته . وهكذا فعل جماعة من عقلاء أهل الكتاب ، وغير واحد من ذوى الألباب . مثل : عبد الله بن سلام . والفارسى سلمان ، ونصارى « الحبشة » وأساقفة « نجران » .

ولا تشك ان كنت منصفا . أنهم كانوا أعلم بالكتب منك ، وأعرف برسل الله وعلاماتهم من عشرتك . ولعلمهم بكتب الله ، وما جاء فيها من علامات محمد رسول الله ، لما جاءهم ما عرفوا ، وحققوا : آمنوا وصدقوا . فقالوا : **« ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين »**(١) .

ولجهلكم بكتب الله ، وبعلامات رسول الله لما جاءكم الحق : كفرتم به **« فلعنة الله على الكافرين »**(٢) .

ومن أعظم آياته ، وأوضح دلالاته : ما جرى له مع قومه . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما **جاهر قومه بتبليغ ما أمره الله** من الرسالة ، وصدع بأمره ، فسفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم . وبين لهم فساد ما هم عليه . شق ذلك عليهم ، وأجمعوا على خلافه ، وعداوته . الا من عصم الله منهم بالاسلام . كانوا اذ ذاك قليلا مستخفين فأرادت قريش قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقتل من معه . والوثوب عليهم . فحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه منهم لشرفه فى قومه ، وعزته فلم يقدروا أن يصلوا اليه بشىء مما أرادوه . فلما رأوا أنهم لا يقدرون أن يصلوا الى ضره ، لمنع عمه له منهم . اجتمعوا ، وقالوا لأبى طالب : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا . وردهم ردا جميلا .

ثم قال له : يا ابن أخى ان قومك قد جاءونى . فقالوا لى : كذا . وكذا — للذى قالوا له — فابق يا ابن أخى على ، وعلى نفسك . ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك القول منه ، ظن أنه سيسلمه اليهم ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، فقال له : (يا عم . والله لو وضعوا الشمس

---

(١) آل عمران : ٥٣ (٢) البقرة : ٨٩

فى يمينى ، والقمر فى يسارى • على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى • ثم قام • فلما ولى ناداه أبو طالب عمه • وقال له : أقبل يا ابن أخى ، واذهب فقل ما أحببت • فوالله ما أسلمك لشىء أبدا •

فلما رأت قريش أن أبا طالب لا يسلمه عزمت على حرب أبى طالب وقتاله • فتهيأ أبو طالب لقتالهم ، وجمع قومه وعشيرته لذلك • ثم انهم تصالحوا فيما بينهم • وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حاله ذلك من عيب دينهم وتسفيه عقولهم وذم آلهتهم لا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عما يريده صاد •

فاجتمع أشراف قريش يوما • فقالوا : ما رأينا مثل صبرنا • على ما نلقى من أمر هذا الرجل • انه قد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا • لقد صرنا منه على أمر عظيم • فبينما هم يقولون ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت • فلما مر بهم غمزوه ، ببعض القول ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقال لهم : (أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح) قال : فأخذت القوم كلمته وهيبته • حتى ما منهم رجل الا ناكس رأسه • كأن على رأسه طائرا واقفا • حتى ان أشدهم عليه وطأة ليلين له بالقول • ويقول له أحسن ما يجده من الكلام ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا • فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم • حتى اذا كان الغد • اجتمعوا • فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه • حتى اذا أسمعكم ما تكرهون تركتموه • فبينما هم فى ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم •

فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به ، يقولون : أنت الذى تعيب آلهتنا ، وديننا ، فيقول : (نعم ، أنا الذى أقول ذلك) فأخذوا بمجمع ردائه ، وجبذوه جبذا شديدا • وهو فى ذلك يقول لهم : (أنا الذى أعيب ما أنتم عليه) لم يفزعه ما رأى منهم ، ولا هاله ذلك • بل صبر على ما ناله ، حتى نصره الله عليهم ، وأظهر دينه على دينهم •

فتأمل أيها العاقل • ان كنت منصفا : فرق ما بين نبينا محمد عليه السلام ، وبين ما تحكيه النصارى عن المسيح فى انجيلهم • وذلك أنها تحكى فيه : أن المسيح لما استشعر بوثوب اليهود عليه • قال : « قد جزعت نفسى الآن • فماذا أقول يا أبتاه ؟ فسلمنى من هذا الوقت »(١) وأنه حين رفع فى الخشبة صاح صياحا عظيما • وقال : « الى • الى • لم غريتنانى ؟ وترجمته : الهى • الهى • لم أسلمتنى ؟ »(٢)

وهذا غاية الجزع والخور ينزه عنه عيسى • بل هو من أكاذيبهم عليه •

وكذلك ذكرت فى انجيلها : أن عيسى لما أخذته اليهود ، وحملته الى قائد القسيسين قال له : « أستحلفك بالله الحى أن تصدقنا : ان كنت المسيح ابن الله ؟ فقال له المسيح : أنت قلته »(٣) وهذا كلام يدل على أنه كتم نفسه ، وسترها ضعفا وجبنا • ثم ان كفار قريش لما أكربهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغاظهم شأنه • تشاوروا فى أمره • فقال لهم « عتبة بن ربيعة » : يا معشر قريش : ألا أقوم لمحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك لما لم يقدروا أن يصلوا اليه بمكروه • فقالوا له : بلى • فقام اليه عتبة • فقال له : يا ابن أخى • انك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة ، والمكانة فى النسب • وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم •

فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا لعلك تقبل منا بعضها • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل •• أسمع) فقال : يا ابن أخى • أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا • وان كنت تريد شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك • وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا • وان كان

---

(١) (متى ٢٦ : ٣٨) •

(٢) الترجمة الحديثة : « ايلى ايلى لما شبقتنى • أى الهى الهى لماذا تركتنى » (متى ٢٧ : ٤٦) وفى مرقس « الوى الوى ••• » الخ •

(٣) متى ٢٧ : ١١ مرقس ١٥ : ٢ ـ ٤ لوقا ٢٢ : ٦٧ ـ ٧٠ و ٢٣ : ٣

هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه • فلما فرغ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (أقد فرغت ؟) قال : نعم • قال : (فاسمع منى) قال : أفعل • فقرأ : « **بسم الله الرحمن الرحيم • حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته ، قرآنا عربيا لقوم يعلمون • بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون** »(١) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة ، حتى اذا بلغ « السجدة »(٢) فسجد • ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت • فأنت وذاك) •

فقام « عتبة » الى أصحابه • فقال بعضهم لبعض : أحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم • قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط • والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، ولا بالسحر • يا معشر قريش : أطيعونى ، واجعلوها بى • خلوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه ، واعتزلوا • فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم • فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم • وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه • فقال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم •

فانظر • ان كنت عاقلا • كيف بذلوا له أموالهم ، فلم يلتفتها ، وعرضوا عليه ملك الدنيا ، فلم يعرج عليها ، بل صدع بأمر الله ، وبلغ ما أمره به الله •

وكذلك اجتمع كفار قريش أشرافهم وسادتهم فعرضوا عليه مثل الذى عرض عليه « عتبة » وقالوا له مثل قوله • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بى مما تقولون شيئا • وما جئتكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا التملك عليكم • ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا • وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

---

(١) فصلت : ١ ــ ٤

(٢) أى الى نهاية الآية ٣٨ من سورة فصلت •

فبلغتكم رسالات الله ، ونصحت لكم • فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيـــا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) •

والأخبار فى هذا النوع كثيرة • ومن أوضح آياته ، وأشهر علاماته :

ما أكرمه الله به بعد وفاته • وذلك أنه قد اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم لما توفاه الله تعـــالى اختلف غاسلوه فى تجريده القميص • فلما اختلفوا فى ذلك ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل ، الا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت • لا يدرون من هو ؟ ولا يرون أحدا : أن اغسلوا النبى ، وعليه ثيابه •

وكذلك روى أن « عليا » و « الفضل » حين انتهيا فى الغسل الى أسفله ، سمعوا مناديا يقول : لا تكشفوا عورة نبيكم صلى الله عليه وسلم •

وكذلك روى فى طرق صحاح أن أهل بيته سمعوا وهو مسجى بينهم قائلا يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • أهل البيت • ان فى الله عوضا عن كل تالف ، وخلفا من كل هالك ، وعزاء من كل مصيبة • فاصبروا واحتسبوا • ان الله مع الصابرين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل • قال : فكانوا يرون أنه « الخضر » •

وقد آن أن نمسك العنان • اذ قد حصل البيان ، على أن قرائن أحوال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلاماته ، مما لا يحصيها لسان ، ولا يحيط بأجملها انسان •

وقد نجز القول فى النوع الثانى من أدلة نبوته • والحمد لله • ونشرع الآن فى النوع الثالث •

* * *

النوع الثـــالث

الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

ولقد كان ينبغى أن نقدم الاستدلال بهذا النوع ، لكونه أعظم المعجزات وأوضحها وأشهرها • لكن قدمنا النوع الأول تسكيتا للنصارى واليهود ، وتأسيسا •

وقدمنا النوع الثانى بناء وتأسيسا •

فنقول أيضا : محمد بن عبد الله رسول صادق فيما يقوله عن الله • والدليل على ذلك : أنه قد جاء بالمعجزات • وكل من جاء بها فهو صادق • فمحمد اذن رسول من الله صادق • فان قيل : لم قلتم : انه قد جاء بالمعجزات ؟ قلنا : قد نقل الينا نقلا متواترا ، بحيث لا يشك فيه : أنه جاء بالقرآن ، وبمعجزات كثيرة • فاذن هو صادق •

ونبدأ الآن بالكلام على القرآن ، وبعد الفراغ منه نشرع فى الكلام على غيره من المعجزات ، ان شاء الله تعالى •

فان أنكر منكر أن يكون جاء بالقرآن • فقد تبين عناده ، وسقط استرشاده ، ويقال له : قد حصل العلم بذلك لكل الأمم ، واستوى فى ذلك العرب والعجم ، وسبيلك ان كنت منصفا : أن تعاشر المتشرعين ، وتسألهم عن أخبار المـــاضين ، ، حتى يحصل لك العلم اليقين • ولن ينازع فى ذلك عاقل منصف • بل اما معتوه ، أو متعسف •

فان قيل : سلمنا انه جاء بالقرآن • فلم قلتم انه معجزة ؟ قلنا : لأنه قد تحدى به كافة الفصحاء البلغاء • ومدة مقامه بينهم ، فلم يقدروا على معارضة شىء منه •• فاذن هو معجزة • بيان ذلك :

أنه صلى الله عليه وسلم بعثه الله الى قوم كان معظم علمهم : الكلام الفصيح البليغ المليح • فلقد خصوا من البلاغة والحكم ، بما

لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من دراية اللسان ما لم يؤته انسان ، ومن فصل الخطاب ما يتعجب منه أولوا الألبـــاب • جعل الله لهم ذلك طبعا ، وخلقه فيهم غريزة ووضعا • فيأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب فيخطبون بدلها فى المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب • فربما مدحوا شيئا وضيعا فرفع • وربما ذموا شريفا فوضع • فيصيرون بمدحهم الناقص : كاملا • والنبيه : خاملا • وذلك لفصـــاحتهم الرائقة ، وبلاغتهم الفائقة • فكانوا يأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويوردونه أعذب من المـــاء الزلال •

فيخدعون بذلك الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ، ويهيجون الفتن ويجرءون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان • فهم يعرفون أصناف الكلام • ما كان منه نثرا ، وما كان ذا نظام • قد عمروا بذلك أزمانهم • وجعلوا ذلك مهمتهم وشأنهم ، حتى بلغوا منه أعلى الرتب ، وأطلوا منه على كل غاية وسبب ، لا ينازعهم فى ذلك منازع ، ولا يدافعهم عن ذلك مدافع ، فبينما هم كذلك اذ جاءهم رسول كريم بقرآن حكيم ، فعرضه عليهم وأسمعهم اياه ، واستدل على صدقه بذلك •

وقال لهم : ان كنتم فى شك من صدقى • فائتوا بقرآن مثله ، وعند سماعهم له ، راعهم ما سمعوا ، وعلموا أنهم دون معارضته قد انقطعوا • فلم يقدروا على ذلك • ثم انه طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ، ولم يقدروا • ثم طلب منهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطيعوا • وعند ذلك أخبرهم • وقال لهم : « **لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »(١) يعنى عونا • فعند ذلك ظهر عجزهم وتبلدهم • وان كانوا هم اللسن الفصحاء ، اللد البلغاء •

وعند ظهور عجزهم تبينت حجته ، ووضحت محجته ، وهكذا حال غير واحد من الرسل ، ألا ترى أن الله تعالى أرسل موسى بن عمران الى قوم كان معظم علمهم وعملهم السحر • فأيده بقلب العصى حية

---

(١) الاسراء : ٨٨

تسعى ، فرام السحرة معارضته ومقاومته فلم يقدروا من ذلك على شىء . وعند عجزهم تبين صدقه وأنه رسول من عند الله . وكذلك عيسى عليه السلام بعثه الله فى زمان كان معظم علم أهله الطب ، فأيده باحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص . وعند عجزهم عن الاتيان بشىء من ذلك تبين صدقه . وأنه رسول من عند الله فعلم بهذا البرهان ، الذى لا يتطرق اليه خلل . أن محمدا رسول الله « **قد خلت من قبله الرسل** »(١)

فان قيل : « لا نسلم أنه لم يعارض ، بل لعله عورض ، ولم ينقل ، أو نقل فأخفى » .

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنا نقــول لليهود والنصــارى : هذا الســؤال ينقلب عليكم فى معجزات موسى وعيسى . اذ يمكن أن يقال : ان ساحرا من السحرة عارض موسى عليه السلام ، وأنه أتى بعصا . فقلبها ثعبانا أعظم من ثعبان موسى ، والتقم ثعبان موسى .

ويمكن أن يقال للنصارى : ان عيسى عليه السلام عورض فى احياء الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، ولم ينقل الينا . أو نقل فأخفى .

وكذلك نقول لغير اليهود والنصارى من الأمم فى معجزات أنبيائهم . فبالذى ينفصلون عن معجزات أنبيائهم . به بعينه ننفصل عن معجزات نبينا عليه السلام .

وجملة ما قيل فى جواب هذا : لو عورض لنقل . اذ العادات تقتضى ذلك . فان هذا الأمر مهم عظيم ، تكثر العناية به ، فيكثر نقله ، لا سيما فى شريعتنا . فانهم قيل لهم : اذ لم تصدقوا ، ولم تعارضوا . فأذنوا بحرب فلما لم يؤمنوا ، ولم يعارضوا قاتلهم ، فقتلهم ، وسبى ذراريهم . وانتقم منهم غاية الانتقام . فلو قدروا على المعارضة لعارضوا ، ولو عارضوا لنقل نقلا متواترا . فان هذا الأمر من أهم المهمات عند العقلاء .

الوجه الثانى من الجواب : وهو الانفصال الحق ، والكلام الصدق أن نقول : من وقف على القرآن وسمعه ، وفهم معانيه ، وكان عارفا

---

(١) آل عمران : ١٤٤

بأصناف كلامهم علم عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ضرورة كما يعلم عجز الأطباء عن احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص بنفس العلم بهذه الأمور ، والوقوف عليها . وكذلك من شاهد قلب العصى ثعبانا مبينا يتلقف ما جاءوا به من السحر والتخييلات ، حصل له العلم القطعى بأن قلب العصى ثعبانا يعجز عنه الخلائق أجمعون اذ ذاك خارج عن مقدورهم .

فان قيل : « احياء الموتى ، وقلب العصى ، وما ينزل منزلتها جلى ، لا يشك فيه من شاهده ، عام . بالاضافة الى كل العقلاء ، لا يبقى معه ريب لأحدهم . بل يحصل لهم العلم القطعى بذلك . وليس كذلك ما ادعاه نبيكم من اعجاز القرآن اذ لا يحصل العلم باعجازه لكل أحد . بل انما يحصل العلم بذلك عندكم ، وعلى زعمكم للفصحاء من العرب . وأما من ليس فصيحا أو أعجميا ، لا يفقه لسان العرب ، فلا يحصل له العلم باعجازه . فان الأعجمى لو كلف أن يتكلم بكلمة واحدة من لسان العرب لم يقدر على ذلك . فعدم قدرته على ذلك لا يدل على صدق المتحدي به . وكذلك من ليس فصيحا من العرب لو كلف أن يأتى بكلام فصيح لم يقدر عليه . فلا يكون ذلك معجزا فى حقه » .

الجواب : أن نقول : سنبين ان شاء الله وجوه اعجازه ، وأنها متعددة ، وان منها ما يدركه الجفلا ، ويشترك فى معرفة اعجازه أهل الحضارة والفلا

فيكون هذا النوع كقلب العصى ، واحياء الموتى . ولو سلمنا جدلا أنه معجز من حيث بلاغته ، وأسلوبه المخالف لأساليب كلامهم فقط . لقلنا : ان العلم باعجازه واحياء الموتى ، وقلب العصى لا يحصل لكل العقلاء على حد سواء . ولا فى زمان واحد ، بل يحصل ذلك لمن علم وجه اعجاز ذلك الشيء المعجز ، حين يعرف أنه مما ليس يدرك بجبلة بشرية ، ولا يتوصل الى ذلك بالاطلاع على خاصية .

وقد لا يبعد أن تقوم شبهة عند جاهل بصناعة الطب والسحر تمنعه من تحصيل العلم بالاعجاز . فيقول : لعل موسى اطلع من السحر على شيء لم يعلمه السحرة ، ولا اطلعت عليه . وكذلك عيسى . لعله وقع على خاصية بعض الأحجار ، أو بعض الموجودات . فكان يفعل بها ما يظهر على يديه . وهذه الشبهة انما ممكن أن تظهر للجاهل بالطب

والسحر ، وأما العالم بالطب وبالسحر • فلا تكون هذه شبهة فى حقه ، لعلمه الذى حصل له بالذوق والممارسة • بأن الذى جاء به هذا مما ليس يدرك بحيلة صناعية ، ولا بالوقوف على خاصية ، بل هو صنع خالق البرية • وأنه أراد به التصديق لهذا المدعى والشهادة واليقينية • فحصل من هذا : أن العلم باعجاز احياء الموتى ، وقلب العصى ، انما يحصل أولا للسحرة ، والأطباء • ولا يحصل لكثير من الجهال بالطب والسحر الأغبياء ، فكذلك اعجاز القرآن ، ولا فرق •

حصل العلم به لمن يعلم لسان العرب بالذوق ، بضرورة الفرق الذى بينه ، وبين لسان العرب • فعلم أنه ليس داخلا تحت مقدور العرب • واذا عجز عنه العرب الفصحاء واللد البلغاء ، فغيرهم أعجز • كما أنا نقول : اذا عجز الأطباء عن احياء الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، فغير الأطباء أولى • واذا عجز السحرة عن قلب العصى ثعبانا فغير السحرة أعجز ، وأعجز •

وقولهم : « انما يعجز عنه العرب ، لا العجم » **معارض** بأن يقال لهم : انما يعجز عن احياء الموتى الأطباء ، لا غيرهم • وانما يعجز عن قلب العصى السحرة ، لا غيرهم • فبالذى ينفصلون به ، ننفصل ، بل نزيد عليهم فى الانفصال ، بوجوه ترفع الاشكال • فانا سنبدى وجوها فى اعجاز القرآن يدركها كل انسان عجميا كان أو عربيا • مجوسيا كان أو كتابيا • وسنبينها ان شاء الله اثر هذا •

فقد حصل من هذا الكلام كله : العلم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن ، وتحدى به ، وهو معجزة ، وكل من جاء بالمعجزة وتحدى بها فهو صادق ، فالنتيجة معلومة وهى : أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق •

فان قيل : « فبينوا لنا وجوه اعجاز القرآن • وهل هو من جنس ما يقدر عليه البشر فصرفوا عنه • أو ليس من جنس ما يقدرون عليه » ؟

فالجواب : أن نقول : ذهب بعض علمائنا الى أن وجه اعجازه انما هو من جهة أن صرفوا عن الاتيان به ، وأنه من جنس مقدور البشر • لكن لم يقدروا عليه • وهذا ان كان • فهو بليغ فى الاعجاز • وذلك أن المعجزات ضربان : ضرب خارج عن مقدور البشر ، كانفلاق

البحر ، وانشقاق القمر ، ونبع المــاء من بين الأصابع • وضرب يكون من جنس مقدور البشر الا أنهم يمنعون من فعله ، ولا يقدرون عليه •

فلو أن نبيا ادعى أنه رسول الله ، واستدل على صدقه بأن قال لقومه : آيتى • ألا تقدروا اليوم على القيام • فكان ذلك • فهذا دليل صدقه ، وهو معجزة جلية ، أبلغ فى الاعجاز من الاتيان بما ليس بمقدور ، ولا يبعد أن يكون اعجاز القرآن من هذا القبيل • فان البشر قد صرفوا عن الاتيان بمثله • بل عن الاتيان بآية طويلة من آياته • ومن تنازع فى ذلك فعليه بأن يأتى بقرآن مثله ، أو بسورة من مثله ، وهذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم •

وذلك أن معجزته موجودة بعده ، وحاضرة مشاهدة فى كل وقت لم تنقطع بانقطاع وجوده ، ولا ماتت بموته • بل هى موجودة مستمرة الى قيام الساعة • فكل من أبدى نكيرا فى نبوته ، أو قدحا فى رسالته • قلنا له : ان كنت صادقا فى تكذيبك له • فعارض قرآنه ومنزله • فان لم تفعل تبين العقلاء منه أنه متواقح مبطل •

ثم نقول : والذى ذهب اليه أكثر علمائنا : أن القرآن خارج عن مقدور البشر ، وليس من جنس مقدورهم • وأن القرآن وان كان كلاما ، فليس بينه ، وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء ، الا ما كان بين الحية التى انقلبت عصى موسى عنها ، وبين حيات السحرة ، التى كانت تخيل للناظر اليها : أنها حيات تسعى •

ووجوه اعجازه كثيرة • لكنا نبدى منها أربعة ، ونقتصر عليها ، لبيانها ، وظهورها :

* * *

الوجه الأول

فنقول : أن **لسان العرب مباين للسان غيرهم** ، ومتميز عنه بأمور يعلمها العارفون بالألسنة واللغات ، ولا يشكون فيها .

ومن غالط فى ذلك وأنكره . فعليه أن يتعلم لسان العرب ، وألسنة غيرهم ، حتى يحصل له الفرق بينه ، وبينها ذوقا ومشاهدة ضرورية . وتلك الأمور التى باين بها غيره من الألسنة : خفة اللفظ على اللسان وعذوبته ، وسهولة المخارج والتعبير عن المعنى الدائر فى الضمير بأبلغ عبارة ، وأوضح تفسير . وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم . كذلك غير لسان العرب . فكذلك تمييز لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأساليب أخر . ومناهج لم تكن العرب قبله تستعملها على نحو ما استعملها هو . حتى أن من لم يعرف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه ، وكان عربيا يفرق بينه ، وبين كلام غيره من الفصحاء . فانه يرز على بلاغة البلغاء ، وينف فى حكمته على جميع الحكمـــاء .

وكذلك كانت العرب تقول له : ما رأينا بالذى هو أفصح منك . وهذه المناهج المعروفة فى كلامه انما يعرفها على التحقيق من باشر كلامه ، وتتبعه وتفهمه ، وكان عارفا بلسان العرب ، وكما تميز كلامه عن كلام العرب وزاد عليهم . فكذلك تميز كلام الله عن كلامه بأساليب أخر . حتى أنه كان اذا تكلم بكلامه أدرك الفرق بينه وبين كلام الله حين يتلوه ، ويتكلم به . حتى كان العاقل الفصيح اذا سمعه قال : ليس هذا من كلام البشر ، ولا مما تقدرون عليه . وسنذكر ما نقل الينا عن فصحائهم لما سمعوا القرآن .

فمن الوجوه الذى به مايز القرآن كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلام العرب : **فصاحته الرائقة . وبلاغته الموفقة ، وجزالته الفائقة ،** حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معانى كثيرة ، مع عذوبة ايرادها ، وجزالة مساقها ، وصحة معانيها . مثل قوله : ((**خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين**))[1] .

---

(١) الأعراف : ١٩٩

ولما نزلت هذه الآية قال « أبو جهل » وكان من أشد الأعداء ، على محمد خير الأنبياء : ان رب محمد لفصيح . وهذه الآية بما تضمنته من الأحكام ، وتفسير الحلال والحرام ، والاعراض عن أهل الجهل والاجترام ، والأمر بالتزام أخلاق الكرام . تدل دلالة قاطعة على أنها كلام العزيز العلام . مع ما هى عليه من اللفظ الجزل الرصين ، الذى يروع قلوب العارفين . ويثلج قلوب القارئين والسامعين .

وكذلك قوله تعالى : **« أن الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون »**(١) .

ولما سمع « المغيرة » هذه الآية . وكان من أعدائه ، الذين يريدون اطفاء نوره ، واذهاب بهائه . قال : والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر مورق ، وما يقول هذا بشر . وهذه الآية قد تضمنت بحكم عمومها ، وصحة مفهومها معانى كتب المتقدمين ، وشرائع الماضين ، وتذكرة الحاضرين ، وتخويف المقصرين ، وترغيب المجتهدين ، مع ما هى عليه من قلة الكلمات ، ومع عذوبة المساق والجزالات .

وكذلك قوله تعالى : **« ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون »**(٢) حكى أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بينما هو يوما نائم فى المسجد . اذ وقف على رأسه رجل يتشهد بشهادة الحق . فاستخبره . فقال : انى كنت من بطارقة الروم . وكنت ممن يحسن كلام العرب وغيرهم . فسمعت أسيرا من المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها ، فاذا هى قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة . ثم قرأ عليه : **« ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه »** — الآية المتقدمة — وكذلك قوله تعالى : **« وأوحينا الى أم موسى : أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ، ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين »**(٣) .

---

(١) النحل : ٩٠
(٢) النور : ٥٢
(٣) القصص : ٧

حكى أن « الأصمعى » سمع جارية من العرب(١) • فتعجب من فصاحتها • فقالت : وهل بعد قول الله تعالى فصاحة ، حيث قال : **« وأوحينا الى أم موسى : أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين »** • فانه جمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ؟

وكذلك قوله تعالى : **« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »**(٢)

حكى أن أعرابيا لما سمعها سجد • فقيل له : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحته ، ولا يظن الجاهل : أنا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب • كلا • لو كان ذلك لكانت الحجة أضعف من السراب • بل نعلم : أنه معجز بفصاحته علم ضرورة تحصل لنا عند سماعه وقراءته • والبلغاء اذا وقفوا عليه وسمعوه ، لذلك العلم مضطرون ، بحيث لا يرتابون ولا يشكون •

كيف ؟ والعربى الفصيح اذا سمع قوله تعالى : **« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »**(٣) وقوله تعالى : **« ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب »**(٤) وقوله تعالى : **« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »**(٥) وقوله تعالى : **« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين »**(٦) وقوله تعالى : **« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »**(٧) ومثل هذا كثير ، قضى من هذه البلاغة والجزالة ومتانة هذه المعانى : العجب • وعلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ، ولا من العرب •

---

(١) يقال : انه سمع الجارية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله ... قتلت انسانا بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله ... وانتصف الليل ولم أصله

(٢) الحجر : ٩٤

(٣) البقرة : ١٧٩

(٤) سبأ : ٥١

(٥) فصلت : ٣٤

(٦) هود : ٤٤

(٧) العنكبوت : ٤٠

وما عسى أن يقال فى كلام ذى الجلال • اذ هو أصدق الكتب ، ومصدق خير الرسل ، ولو كانت البحار مدادا ، وجميع الجن والانس كتابا • ما بلغوا معشاره ، ولا قدروا مقداره •

قال الله تعالى العظيم ، فى كتابه الكريم : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفد البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مـددا** »(١) •

فهذا هو الوجه الأول •

* * *

(١) الكهف : ١٠٩

الوجــه الثــانى

من وجوه اعجاز القرآن : **نظمه العجيب وأسلوبه الغريب** ، الذى خالف به جميع أسلوب كلام العرب . حتى كأنه ليس بينه ، وبينه نسب ، ولا سبب . فلا هو كمنظوم كلامها ، فيكون شعرا موزونا ، ولا كمنثوره ، فيكون نثرا عريا عن الفواصل ، محروما . بل تشبه رؤوس آيه ، وفواصله ، قوافى النظم . ولا تدانيها ، وتخالف آيه ، متفرقات النثر ، وتناويها . فصار لذلك أسلوبا خارجا عن كلامهم . ومنهاجا خارقا لعادة خطابهم . وذلك أن كلام بلغاء العرب لا يخلو :

اما أن يكون موزونا منظوما . أو غير موزون ولا منظوم . فالأول : هو الشعر . وهو أصناف وأنواع بحسب اختلاف أعاريضه . والثانى : هو النثر . والقرآن العزيز خارج عن الصنفين ، مفارق للنوعين . فارق الشعر بأنه ليس موزونا وزنه ، فتكسره لفظة زائدة ، ولا مرتبطا ربطه حتى تفسده مخالفة قافية واحدة ، فى الوقوف عليه . وأوضح شاهد ، وأقطع لشبهة كل معاند .

وها أنا أتلوا عليكم معشر النصارى بعض آياته ليتحقق المنصف صدق شهاداته .

قال الله العظيم ، فى محكم كتابه الكريم : **« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليهــا روحنا فتمثل لهــا بشرا سويا . قالت : انى أعوذ بالرحمن منك أن كنت تقيــا . قال : انمــا أنا رســول ربك ، لأهب[1] لك غــلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منســيا .**

---

(١) فى الأصل (ليهب) وقراءة حفص (لأهب) .

فناداها من تحتهـا ألا تحزنى قد جعل ربك تحتـك سريا • وهزى اليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطبـا جنيا • فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى : انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا • فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا • يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا • فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا »[1] •

ثم بعد ذلك أخذ فى أسلوب مخالف هذا • فقال تعالى :

« ذلك عيسى ابن مرم ، قول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون • وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم »[2] •

هكذا • الى أن فرغ من هذا النمط ، ثم شرع فى نمط آخر ، على ما يعرفه من وقف عليه ، وتدبره • وانما تلونا هذه الآيات على الخصوص فى هذا المقام لمـا تضمنه من الأخبار عن عيسى ومريم عليهما السلام حتى يعلم النصارى بطلان ما يقولوه عليهما من الكذب والأوهام •

فانظر • ان كنت عاقلا منصفا • كيفية هذا النظم الشريف ، البديع المنيف ، كيف عادل بين رؤوس الآى ، بحروف تشبه القوافى ، وليس بها ، والتزمها ثم عدل عنها ، الى غيرها • مع أن السورة واحدة بخـلاف ما يفعل الناثر ، فانه لا يلتزم قوافى ، ولا فواصل •

والقرآن العزيز ذو آيات لها فواصل ومقاطع ، ورؤوس تشبه القوافى ، فقد عرفت أنه خالف نظم كلام العرب ، ونثرها • فهو منهاج آخر ، وأسلوب لم تكن العرب تعرفه • ولمـا سمعته العرب ووعته ، لم يتحدث قط واحد منهم : بأنه يقدر على معارضة آية منه ، بل حارت

---

(١) مريم : ١٦ ـ ٣٢

(٢) مريم : ٣٣ ـ ٣٦

فيه عقولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم . ولذلك قال « الوليد بن المغيرة » لملأ قريش : يا معشر قريش . انه قد حضر موسم الحج ، وان وفود العرب ستقدم عليكم . وقد سمعوا بأمر صاحبكم . ولا بد أن يسألوكم عنه . فماذا تقولون لهم ؟ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، لئلا تكذبكم العرب ، اذا اختلفتم فيه . قالوا : نقول : انه كاهن . فقال لهم : والله ما هو بكاهن . لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سجعه . قالوا : فنقول : انه مجنون . قال : والله ما هو بمجنون . لقد رأينا المجنون ، وعرفناه . والله ما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته . قالوا : فنقول : انه شاعر ، قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه ، وهزجه ، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : انه ساحر . قال : ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة وسحرهم . فما هو بنفثه ، ولا عقده . وما أنتم قائلون شيئا من هذا الا كذبتكم العرب . وعرفت أنه باطل . قالوا : فما تقول أنت ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة وان أصله لعذق ، وان فرعه لمثمر ، وان أقرب القول فيه أن تقولوا : انه ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه . يعنى : أن هذا تقبله العرب فانها لا تعرف السحر . فعولوا على أن يقولوا : انه سحر . ففعلوا . وفى « الوليد » أنزل الله تعالى : **« ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا »**(١) .

فانظر كيف عرفوا أنه ليس من جنس كلامهم ، ولا من جنس كلام الكهنة ، ولا السحرة ، ولم يمنعهم من الايمان به ، الا ما سبق لهم من الشقاوة والعناد والحسد والجفوة .

وكذلك قال لهم « عتبة بن ربيعة » لما سمع **« حم . تنزيل من الرحمن الرحيم »**(٢) قال : والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . فقد تقدم بكماله ، فلينظر هناك .

وكذلك قال « أنيس » أخو « أبى ذر الغفارى » وكان شاعرا مفلقا ، يناقض الشعراء ويعارضهم . فلما سمع القرآن . قال لأخيه « أبى ذر » لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء

---

(١) المدثر : ١١ ـ ١٤ (٢) فصلت : ١ ، ٢

الشعر ، فلم يلتئم • وما يلتئم على لســان أحد يدعى أنه شعر • والله أنه لصادق ، وانهم لكاذبون •

والأخبار الصحاح فى هذا المعنى أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب •

فقد اتضح من هذا الوجه ، ومن الذى قبله : **أن القرآن العزيز معجز بمجموع فصاحته ونظمه • وقد تبين أنهما وجهان متغايران •**

ثم هل كل واحد من هذين الوجهين معجز بانفراده • أو انما يكون معجزا باجتماعهما ؟ هذا فيه نظر •

ولعلمائنا فيه قولان • ليس هذا موضع استيعابهما ، ولا حاجة بنا ، فى هذا الكتاب الى بيانهما • اذ قد عرف وتحقق : أنه بفصاحته ونظمه معجز • ومن تشكك فى ذلك أو أبدى فيه أمرا ، بعد الوقوف على القرآن ، فهو منكر لـمـا هو ضرورى • والذى يبطل عناده ، ويظهر صميم جهله أن يقال له : ائت بسورة من مثله •

والله ولى التوفيق ، وهو بتنوير قلوب أوليائه حقيق •



الوجه الثالث

من وجوه اعجاز القرآن **ما تضمنه من الاخبار بالمغيبات** قبل أن يحيط أحد من البشر بعلمها ، وبوقوع كائنات قبل وجودها . وذلك أمر لا يتوصل الى العلم به ، الا من جهة الصادقين الذين يخبرون عن الله تعالى .

ونحن نذكر منها مواضع على شرط التقريب والاختصار ، تغنى عن التطويل والاكثار .

فمن ذلك قوله تعالى : « **لتدخلن المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون** »(١) .

فهذه الآية من أوضح معجزاته صلى الله عليه وسلم . وذلك أن الله تعالى وعده بأن يدخله المسجد الحرام هو وقومه فى حالة أمن ، ويفتح عليهم مكة على أحسن حال . فما زالوا ينتظرون ذلك حتى بلغ وقته ، وصدق وعده ، فدخلوا كما وعدهم ، وفتحوه على ما أخبرهم .

ومن ذلك قوله تعالى : « **ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »(٢) .

وهذه الآية أيضا من أعظم معجزاته . وذلك أن هذه الآية لما نزلت كانت « فارس » غالبى « الروم » وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على فارس ، لكون الروم أهل كتاب ، وكانت قريش يحبون ظهور فارس على الروم ، لأنهم واياهم ليسوا أهل كتاب ، ولا ايمان . فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه يصيح فى الناس ، وفى نواحى مكة بهذه الآية . ويقرأها على مشركى

---

(١) الفتح : ٢٧ (٢) الروم : ١ ــ ٦

قريش • فقال ناس من قريش : زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين • أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى — وذلك قبل تحريم الرهان — فارتهن « أبو بكر » والمشركون ، وتواضعوا الرهان • وقالوا لأبى بكر : كم نجعل البضع — البضع ثلاث سنين الى تسع سنين — فسم بيننا وبينك وسطا ننتهى اليه ؟ قال : فسموا بينهم : ست سنين • فمضت الست سنين قبل أن يظهروا • فأخذ المشركون رهن أبى بكر • فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس • فعاب المسلمون على أبى بكر تسميه : ست سنين • لأن الله تعالى قال : **« فى بضع سنين »** •

قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير(١) •

ومن ذلك قوله تعالى : **« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم • وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا • يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئا »**(٢) •

وقد فعل الله ذلك بمحمد وأمته • ملكهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأذل لهم ملوكها • تحت سيف القهر • بعد أن كانوا أهل عز وكبر ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ومنحهم رقابهم **« وعد الله • ان الله لا يخلف الميعاد »**(٣) •

ومن ذلك قوله تعالى : **« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم • والله متم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله • ولو كره المشركون »**(٤) •

فان قيل : « كيف يصح لكم قوله : **« ليظهره على الدين كله »** ومعلوم أن ملك النصارى لم ينقطع فى حياته ، ولا بعد موته • وهذا ملكهم قائم • فلم يظهر دينكم على دينهم • فلا معنى لقوله : **« ليظهره على الدين كله »** ؟

---

(١) وفى الآية اعجاز آخر وهو فرح المؤمنين فيما بعد بنصر الله ، وقد انتصروا على فارس والروم •

(٢) النور : ٥٥ — (٣) الرعد : ٣١

(٤) الصف ٨ ، ٩ ، والمعنى لأيام النبى صلى الله عليه وسلم والمستقبل من الأيام الى يوم القيامة •

الجواب : أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة • والى جميع أهل الملل عامة • نصرانيهم ، ويهوديهم ، وغير ذلك • فبلغهم ما أمره الله به فكلمهم • فناصبوه العداوة ، وأبدوا له صفحة الخلاف وهموا بابطال دعوته ، واطفاء كلمته • وبذلوا فى ذلك غاية جدهم ، واستفرغوا أقصى جهدهم • فنصبوا لحربه ، وعزموا على قتله ، ونهبه • ومرسله يقول له : « **بلغ ما أنزل اليك من ربك • وان لم تفعل فما بلغت رسالته • والله يعصمك من الناس** »(١) •

فأول من حاربه : كفار قريش ، فأظفره الله بهم ، وأظهره عليهم ، ثم حاربته : يهــود ، فأمكنه الله منهم ، وملكه أرضهم وديارهم • فقتل وسبا ، وأسر • فعلا عليهم وظهر • ثم حاربته النصارى فغزاهم بتبوك ، ودخل عليهم بلادهم ، وافتتح فى طريقه حصونا لهم ، ولغيرهم ، وأظهره الله عليهم ، وضرب على كثير من ملوكهم الجزية •

ثم ان أصحابه بعده ، لم يزالوا على مثل حاله • يقاتلون كل من كفر بالله ، ولا يخافون لومة لائم فى الله • فلقد صيروا ملوك الروم وغيرهم : أذلة أهل صغار ، وجزية ، وذلة ، ثم لم يزل دين الاسلام ، مع مرور الأيام ينتشر بكل مكان ، ويظهر • وغيره من الأديان يقل ويصغر •

وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه « الجزيرة الأندلسية »(٢) •

---

(١) المـائدة : ٦٧

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبة جزيرة « ايبريا » المكونة من أسبانيا والبرتغال (ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة الأندلس • والروض المعطار ص ١) • وتطلق فى الرواية العربية أيضا أسبانيا المسلمة ، التى كانت عقب الفتح تشمل كل أسبانيا ما عدا « جليقة » ، وولايات جبال « البرنية » • ولكن « الأندلس » تطلق فى العصور المتأخرة ، وفى الجغرافيا الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة فى جنوب أسبانيا ، بين نهــر الوادى الكبير والبحــر وبين ولاية مرسية « واشبيلة » ، وما زالت « الأندلس » "Andalucia" تحتل فى تقسيم أسبانيا الادارى الحاضر نفس هذه المنطقة • والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة ، فتقول مثلا أنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان ، وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوس (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) • ويقول ابن الأثير : ان النصارى يسمون الأندلس « اشبانة » باسم « اشبانس » أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند « بطليموس » (ج ٤ ص ١٢١) • ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقا أدق فيقول انها سميت =

على يدى جماعة من العرب قليل عددهم ، وعددهم(١) ، كثير دينهم ومددهم على أعداد من النصارى لا تحصى ، وجنود لا تستقصى • ولكن صدق الله عبده ، وأنجز وعده ، وهزم الأحزاب وحده • فأمكنهم الله منكم ، وأظهرهم عليكم ، فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل • وتحت صغار الجزية ذليل ، وأصدق شاهد على ظهور دين الاسلام على دينكم ، وجميع الأديان غلبتهم على بيت حجكم ، وموضع قرابينكم المعظم ، والمسجد المكرم • بيت المقدس حيث أراد الله أن يطهره من رذائلكم ، وينزهه عن جهالاتكم ، وخبائثكم • فافتتحه المسلمون • وظهر دين الله على الدين كله ، ولو كره الكافرون •

ومن ذلك قوله تعالى **« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم »**(٢) •

وقوله : **« فى الآفاق »** يريد بذلك فتح الأمصار ، وقوله : **« وفى أنفسهم »** يعنى به فتح مكة • وقوله : **« سنريهم »** يرجع الى كفار قريش • ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : (ان الله زوى

= « الأندلس » باسم « قندلس » ولعلها « فندلس » ومن الواضح أنه يقصد « الفندال » أى « الوندال » (جـ ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط) • ويقدم لنا البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه لجزيرة الأندلس : ان اسمها القديم « ابارية » "Iberia" من وادى « ابرة » ، ثم سميت بعد ذلك « باطقة » "Baetica" من وادى بيطسى وهو نهر قرطبة • ثم سميت « اشبانية » من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه « اشبان » • وقيل سميت باسم « الأشبان » الذين سكنوها فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه • وقال قوم : ان اسمها فى الحقيقة « اشبارية » "Hisperia" من « اشبرس » وهو الكوكب المعروف بالأحمر • وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء « الأندليس » من الذين سكنوها « والأندلس » هم « الوندال » "Vandals" وهذا هو التعليل الذى يأخذ به « دانفيل » "Danville" اذ يقول : ان الاشتقاق مأخوذ من كلمة « فاندالوسيا » "Vandalusia" أى بلد « الوندال » ، (نقله « جيبون » عن كتاب ممالك أوروبا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) وهذا ما يقرره الفزيرى أيضا فى معجم مخطوطاته الاسكوريال :

(Biblu. Arabico - Hispana Escnrialensis II) (p. 237. Casiri).

من عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، هامش ص ٥٠

(١) « عددهم » : الأولى بفتح العين ، والثانية بضمها •

(٢) فصلت : ٥٣

لى الأرض • فرأيت مشارقها ومغاربها • وان ملك أمتى ، سيبلغ ما زوى منها) — ومعنى « زوى » : جمع —

ومن ذلك قوله تعـالى : « **سيهزم الجمع ، ويولون الدبر** »(١) •

يريد بذلك والله أعلم : جمع كفار قريش • وكذلك فعل بهم • وذلك أنهم خرجوا الى حربه صلى الله عليه وسلم فى غير موطن ، فهزمهم الله ، وولوا الأدبار ، وكانت عاقبتهم الخسار والبوار •

وكذلك قال تعـالى فى آيات أخر : « **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد** »(٢) •

وفى آية أخرى : « **لن يضروكم الا أذى ، وان يقاتلوكم ، يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون** »(٣) •

فهذه الآية اقتضت بشارتين :

احداهما : أنهم لن يصلوا الى أصحاب النبى بضر أكثر من السب •

والثانية : أنهم يغلبون ، ويولون الأدبار • وكذلك كان على نحو ما أنزله ذو العزة والسلطان •

والآيات فى القرآن لهذا النوع كثيرة • ومن ذلك قوله تعـالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »(٤) — يعنى بالذكر : القرآن العزيز —

أخبرنا الله تعـالى فى هذه الآية : أنه أنزله ، وأنه تولى حفظه • وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه ، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من لفظه على كثرة من سعى فى تغييره ، فأطفأ نوره ، لا سيما « القرامطة » فانهم كانوا قد أجمعوا كيدهم ، واستنفدوا فى تغييره وتحريفه جهدهم ، ولم يزل كذلك دأبهم ، ودأب غيرهم ، من أعداء الدين ، وعتاة الملحدين ، ويأبى الله الا أن تعلى كلمته ، وتظهر شريعته •

وقد قدمنا أسباب حفظ القرآن • فلا معنى لاعادتها مع الأحيان •

---

(١) القمر : ٤٥
(٢) آل عمران : ١٢
(٣) آل عمران : ١١١
(٤) الحجر : ٩

ومن ذلك قوله تعـالى : « **انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الهـا آخر** »[1] .

وكان هؤلاء المستهزئون ، نفرا من الكفـار معروفون بأعيانهم وأسمائهم ، ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه ، ويهزأون به ، فأنزل الله على نبيه هذه الآية يبشره باهلاكهم وهم أحياء . فكان سبب اهلاكهم من أعجب آيات النبى صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه كان منهم : « الأسود بن عبد المطلب » رمى فى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم بورقة خضراء ، فعمى . ومنهم « الأسود بن عبد يغوث » أشار اليه النبى صـلى الله عليه وسـلم ، فاستسقى بطنه . فمات حبنا . ومنهم « الوليد بن المغيرة » أشـار النبى صـلى الله عليـه وسـلم الى أثر جرح كان بأسـفل كعبه ، كان أصابه قبـل ذلك بسنتين . وكان قد برأ فتجدد حتى قتله الله به . ومنهم « العاص بن وائل » أشـار النبى صـلى الله عليـه وسـلم الى اخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرماه حماره على الأرض ، فدخلت فى اخمص رجله شوكة . فقتلته . ومنهم « الحارث بن الطلالة » أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى رأسه ، فاستحال دمه : قيحا . فقتله .

فانظر . بعقلك هذه الأمور العجيبة ، وهذه الأحوال الغريبة التى لا تلحق بالأفكار ، ويحار فيها أولى الأبصار ، بل تشهد عندها العقول : أن المقصود بهـا تصديق الرسول . فوالله لو لم يكن له من المعجزات الا هذه الآية . لكان فيها أعظم كفاية ولحصل من تصديقه على أبعد غاية .

وفى كتاب الله تعالى ، من هذا القبيل ما يحتاج استقصائه الى تكثير ، وتطويل وحسبك ما تضمنه من كشف أسرار المنافقين ، وفضيحة اليهود الضالين . فلقد يقضى الناظر فيها من ذلك العجب العجاب . ويتحقق أنه من عند الله من غير شك ، ولا ارتياب .

* * *

(١) الحجر : ٩٥ ، ٩٦

الوجه الرابع

فى وجوه اعجاز القرآن : **ما تضمنه من الاخبار عن الأمم السالفة ،** والقرون السالفة ، والشرائع الدائرة ، والقصص الغابرة التى لا يعلم منها بعضها الا الآحاد من علماء ذلك الشأن . الذين قد انقبضت لهم فى تعلم تلك العلوم : أزمان . فيورده النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن على وجهه ، ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بصحته ، وتصديق قصته ، مع العلم بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينل ذلك بتعليم ، ولا اكتسب ذلك بواسطة معلم ولا حكيم . بل حصل له ذلك باعلام العزيز العليم .

والا . فهو أمى ، لا يقرأ ولا يكتب ولا يتفقه ولا يحسب . ومع ذلك فقد حصلت له علوم الأولين والآخرين ، وصار كتابه وكلامه منبع علوم العالمين . فلقد كان أهل الكتاب يجتمعون اليه ، ويلحون بالأسئلة عليه . فينزل عليه بأجوبتهم القرآن . فما ينكر شيئا من ذلك منهم انسان ، بل يعترف بذلك . ولا ينكر شيئا مما يسمع هنالك .

هذا . مع شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه . وهو مع ذلك يحتج عليهم بما فى كتبهم ويقرعهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، ويبين لهم كثيرا مما كانوا يخفون من شرائع كتبهم ، ووصايا رسلهم . وهم مع ذلك يرومون تعنيته . ويقصدون بأسئلتهم تبكيته . مثل سؤالهم عن الروح(١) ، وعن ذى القرنين(٢) ، وعن أصحاب الكهف(٣) ، وعن عيسى ابن مريم(٤) ، وعن حكم الرجم(٥) ، وعن ما حرم اسرائيل على نفسه(٦) ، وعما حرم عليهم من الأنعام ، ومن طيبات أحلت لهم ، فحرمت عليهم ببغيهم(٧) . وغير ذلك من أمورهم التى نزل القرآن جوابا عنها ، فلم ينكروا شيئا منها ، حين ذكرها لهم على وجهها .

---

(١) يقصد الروح القدس وقد وضحنا القصد فى كتابنا (أقانيم النصارى) .

(٢) ذى القرنين : هو الاسكندر الأكبر المقدونى وقد استولى على مصر وبلاد الشام سنة ٣٣٣ ق.م .

(٣) أصحاب الكهف : من النصارى وكانوا فى قرية « أفسوس » فى عهد القيصر الرومانى ديسيوس (انظر كتابنا اعجاز القرآن) .

(٤) التاريخ الميلادى : مشكوك فيه .

(٥) التثنية ٢٤ الاصحاح الثانى والعشرون .

(٦) التكوين الاصحاح الثانى والثلاثون .

(٧) سفر اللاويين (الأحبار) .

ونحن نذكر بعض ذلك على ما يقتضيه الاقتصار ، ونقتصر على ما صح من الآثار ، وتناقله الجمع الكثير من رواة الأخبار •

فمن ذلك • ما استفاض ذكره ، واشتهر نقله : أن قريشا لما أهمهم شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأكربهم أمره • بعثوا « النضر بن الحارث » وكان من شياطين قريش • و « عقبة بن أبى معيط » الى أحبار يهود ، بالمدينة يسألاهم عن أمره • فجاءا المدينة ، من مكة • وقالا لأحبار يهود : انا جئناكم نسألكم عن شأن هذا الرجل • فانكم أهل الكتاب ، وعندكم من العلم ما ليس عندنا ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله • فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاثة • نأمركم بهن ، فان أخبر بهن فهو نبى مرسل • وان لم يفعل فالرجل متقول • فروا فيه رأيكم •

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجيب • وسلوه عن رجل طواف فى الأرض • قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبؤه • وسلوه عن الروح ما هو ؟ فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى • وان لم يفعل فهو متقول • فأقبل النضر ، وعقبة • حتى قدما مكة على قريش ، فأعلماهم بما قالت لهم أحبار يهود ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عما أخبرت أحبار يهود ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم سورة أصحاب الكهف • وأخبره فيها بقصتهم ، واختلاف الناس فى عددهم ، ومدة لبثهم فى كهفهم ، حتى أتى على آخر قصتهم ، وأخبرهم أيضا عن قصة ذى القرنين الى آخرها ، وعن قصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام • وكيف سأل موسى السبيل الى لقائه ، وذكر فيها جوابهم عن الروح •

وذلك كله مع اللفظ الوجيز الفصيح ، والكلام الجزل الصحيح ، الذى لا يمله سامع ، ولا يطمع فى معارضته طامع •

ومن ذلك قصة أهل نجران ، وكانوا نصارى سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى فى القرآن : **« ذلك نتلوه عليك من الآيات ، والذكر الحكيم • ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون »**[1] •

---

(١) آل عمران : ٥٨ ، ٥٩

ومن ذلك أن نفرا(١) من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالوا : يا محمد • أخبرنا عن أربع نسألك عنهن • فان فعلت اتبعناك ، وصدقناك ، وآمنا بك • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بذلك عهد الله وميثاقه • لئن أخبرتكم لتصدقنني) ؟ قالوا : نعم • قال : (فاسألوا عما بدا لكم) قالوا : أخبرنا كيف يشبه الولد أمه • وانما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم : (أنشدكم الله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمون نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة • فأيتهما غلبت • كان لها الشبه) قالوا : اللهم نعم(٢) • قالوا : فأخبرنا عن نومك كيف هو ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه هل تعلمون : أن نوم الذى تزعمون أنى لست به ، تنام عينه ، وقلبه يقظان)(٣) قالوا : اللهم نعم • قال : (وكذلك نومى • تنـام عينى ، وقلبى يقظان) قالوا : فأخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب اليه ألبان الابل • وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب اليه • شكرا لله ، فحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها) (٤) ؟ قالوا : اللهم نعم • قالوا : أخبرنا عن الروح • قال : (أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتينى ؟) قالوا : اللهم نعم • ولكنه يا محمد لنا عدو • هو ملك انما يأتى بالشدة ، وسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك •

فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : ((**قل من كان عدوا لجبريل • فانه نزله على قلبك باذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين**))(٥) •

---

(١) ويرد هذا الخبر فى سيرة ابن هشام • وقد علقنا عليه (انظر تحقيقنا لسيرة ابن هشام طبعة دار التراث العربى بمصر سنة ١٩٧٩ م) •

(٢) العلم الحديث كذب هذا وهو الحق •

(٣) ليس هذا من أوصافه فى التوراة •

(٤) حرم عرق النسا (التكوين ٣٢) •

(٥) البقرة : ٩٧

ومن ذلك أن يهوديين بالمدينة زنيا ، فأمرت أحبار يهود بهما ، فحمما فمروا بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهما : (ما هذا ؟ .. أهكذا تجدون فى كتابكم ؟) قالوا : نعم . فكذبهم . وقال : « **فائتوا بالتوراة . فاتلوها . ان كنتم صادقين** »[١] فجاءوا بالتوراة ، فتلوها ، فاذا فيها آية الرجم[٢] ، فوضع الذى كان يقرؤها يده عليها . وقرأ ما بعدها ، وما قبلها . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فاذا بآية الرجم ، فاعترفوا بذلك فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما . ثم قال لليهود : (ما حملكم على هذا ؟) فقالوا : كنا اذا زنى الشريف منا عندنا ، لم نقم عليه الحد . واذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فعظم علينا هذا . فرأينا أن نجتمع على حد يشمل الضعيف والشريف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله الذى جعلنى أول من أحيا أمر الله) ــ نقلته بالمعنى ــ

فأنزل الله تعالى : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون** » ، و « **الظالمون** » ، و « **الفاسقون** »[٣] الآيات .

وفى هذا المعنى ، وما قاربه نزل قوله تعالى : « **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب** »[٤] .

والأخبار فى هذا كثيرة . ليس هذا موضع استيفائها . وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل ودراية . وهذان وجهان لا يتصور أن ينكر عاقل أنهما غير داخلين تحت مقدور البشر ، بل هما خارقان للعادة . اقترنا بتحدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعجز الخلائق عن معارضتهما فهو نبى صادق فيما أخبر به عن الله ، مصدق من جهة الله . ومما أخبر به عن الله : أن الله تعالى بعثه الى الناس كافة ، يهوديهم ، ونصرانيهم ، ومجوسيهم ، فهو رسول اليهم ، والى كافة وعامة ، ومن كذبه فقد استحق العذاب الأبدى ، والعقاب السرمدى « **أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تنقذ من فى النار** »[٥] ؟

---

(١) آل عمران : ٩٣
(٢) سفر التثنية : ٢٢
(٣) المـائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧
(٤) المـائدة : ١٥
(٥) الزمر : ١٩

ولا يظن ظان : أن اعجاز القرآن انما هو من هذه الوجوه الأربعة فقط • بل وجوه اعجازه أكثر من أن يحصيها عدد ، أو يحيط بها أحد • ولو شئنا لذكرنا منها وجوها كثيرة ، لكن شرط الاختصار ، منع من الاكثار ، ومن لم ينفعه الكلام المفيد القليل ، فهو معرض كسل عن الكثير •

وعلى الجملة : فانا نقول لمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو شك فى رسالته : ما قال الله تعالى فى كتابه محتجا على من أصر على تكذيبه : « **وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله • ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** »[1] •



(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

النوع الرابع

فى الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بجملة من الآيات الخارقة للعادات

نذكر فى هذا النوع — ان شاء الله — جملة كثيرة من آياته الواضحة ، وبراهينه المصدقة الراجحة ، فنقول — وبالله التوفيق — :

ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أوتى من المعجزات ، وجمع له من الآيات ما لم يجمع لأحد من الأنبياء قبله ، ولم يعط أحد مثله • فكان لذلك أوضحهم دلالة ، وأعمهم رسالة • ولذلك لم يعط الله نبيا من الأنبياء معجزة الا أعطى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مثلها ، أو أوضح منها ، أو ما يقاربها • وسترى ذلك عيانا — ان شاء الله تعالى — ولكنا ان ذهبنا نذكر ما نقل الينا من آياته وأوضح معجزاته • طال الكتاب وفى القليل الواضح كفاية ، لذوى الألباب • فلنقتصر من ذلك على ما تناقله علماء الأمصار والعدول من نقلة الأخبار ، مما صح نقله ، واشتهر ذكره وجمله(١) •

ونحن نذكر ذلك فى فصول :

الفصل الأول : فى انشقاق القمر :

آية له صلى الله عليه وسلم فنقول : نقل خلفنا عن سلفنا ، النقل الذى لا يشك فيه : أن كفار قريش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : آية ، وهو بمنى ، فأراهم : انشقاق القمر ، فصار فرقتين ، حتى رأوا جبلى « حراء » بينهما • وقال ابن مسعود : صار فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة تحته • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) ، فآمن وصدق من أراد الله نجاته • وقال كفار قريش : هذا سحر مستمر • فقال أبو جهل : هذا سحر ، فابعثوا الى أهل الآفاق ، حتى ننظر • أرأوا ذلك ، أم لا ؟ فأخبر أهل مكة : أنهم رأوه منشقا •

---

(١) القرآن يكفى فى اثبات نبوة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : **« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين • أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »** • (العنكبوت : ٥٠ ، ٥١)

فأنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ((**اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر**))(١) وهذا الحديث قد نقله الجم الغفير ، والعدد الكثير . منهم من الصحابة : عبد الله بن مسعود . وأنس . وابن عباس . وابن عمر . وحذيفة . وعلى . وجبير بن مطعم . وغيرهم . رضى الله عنهم .

وقد نقل الينا فى القرآن نقلا متواترا ، محصلا للعلم ، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما تلوناه آنفا ، فصحت الآية ، وعلمت المعجزة . والحمد لله .

فان قال غبى جاهل ، أو معاند مجادل : كيف يصح هذا ؟ ولو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، اذ هو شىء ظاهر لجميعهم ، ولو ظهر اليهم انتقل عنهم ، ولكان مشهورا منقولا على التواتر .

فالجواب . أن نقول : هذا الاستبعاد الوهمى يندفع بأيسر أمر . وذلك أن هذه الآية كانت آية ليلية ، والناس على عادتهم المستمرة : الغالب عليهم النوم . ومن كان منهم منتبها . كان منهم من قد انصرف عن ذلك ببعض أشغالهم ، وكان منهم أيضا من رآه على ما حكيناه عن أهل آفاق مكة . وأيضا . فلعله انما كان ذلك فى أول طلوع القمر ، ولا شك أن الناس تختلف رؤيتهم للقمر وغيره من الكواكب بحسب اختلاف ارتفاع البلاد والأقاليم وانخفاضها . فليس كل من فى معمور الأرض يراه فى وقت واحد . بل يختلف ذلك فى حقهم . فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين . وقد يطلع على قوم لا يشاهده الآخرون . وقد يحول بين قوم وبينه سحاب ، أو جبال .

ولهذا تجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، ويكون فى بعضها جزئية ، وفى بعضها كلية . وفى بعضها لا يعرفها الا المشتغلون بعلم ذلك ، ولا يحس بها غيرهم . لا سيما . وهذه آية كانت بالليل ، والعادة من الناس ما تقدم من الهدوء والسكون . وايجاف الأبواب وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف شيئا من آيات السماء الا من رصد واهتبل .

---

(١) القمر : ١ ــ ٣

وكثيرا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار وشهب ونجوم طوالع عظام تظهر فى أحيان من السماء ، ولا علم عند أحد غيرهم منها •

وانشقاق القمر من هذا القبيل • اذ لم يكن دائما • وانما كان يسيرا فى زمن قريب ، ثم لا يبعد أن يكون الله تعالى صرف الناس فى تلك الساعة عن النظر اليه ، لتختص هذه الآية بمشاهدة أهل مكة ، ومن جاورها من أهل آفاقها • فيكون صرف الناس عن ذلك من قبيل خوارق العادات • وذلك أوضح فى المعجزات • فقد صح ما رمناه ، وانفصلنا عما ألزمناه • والحمد لله •

وعند الوقوف على هذه المعجزة الطاهرة ، والآية الباهرة ، تعلم أنها أعظم من انشقاق البحر ، الذى خص الله تعالى به موسى عليه السلام ، وان كان عظيما • اذ انشقاق البحر ، لم يكن قطعا فى معظم البحر • من احدى ضفتيه الى الأخرى • وانما كان قطع طريق من بحر القلزم الى مفارشوذ • والقمر انقسم فرقتين ، وصار شطرين •

* * *

الفصل الثانى : فى حبس الشمس آية له صلى الله عليه وسلم :

روى أئمتنا ، وأهل العدالة منا : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى اليه ، ورأسه فى حجر « على » فلم يصل العصر ، حتى غربت الشمس • فلما ارتفع الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال له : (ياعلى • أصليت العصر ؟) قال : لا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم انه كان فى طاعتك ، وطاعة رسولك • فاردد) قال الراوى : فرأيتها غربت • ووقفت على الجبال والأرض • وذلك بالصهباء فى خيبر •

ذكر هذا الحديث « الطحاوى » من طريقين • قال « عياض » : وهذان الطريقان • ثابتان ، رواتهما ثقاة • حكاه « البكرى » •

ومن هذا القبيل ما ذكره « يونس بن بكير » فى زيادة المغازى ، روايته عن ابن اسحق : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير ، التى رأى فى مسراه • قالوا له : متى تجىء ؟ فقال لهم : « يوم الأربعاء » فلما كان يوم الأربعاء الموعود به ، أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولى النهار ، ولم

تجىء • فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ، فزيد له فى النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس •

وهذه الآية أعظم من آية « يشوع بن نون » فانكم تقولون ان « يشوع » استوقف الشمس • فوقفت ، وفى بعض كتبكم : انما استوقف ضياها • ونبينا عليه السلام استرجعها فرجعت ، واستزاد ساعة فى النهار فزيدت **« ذلك تقدير العزيز العليم »**[١] •

فان اعترض معترض على معجزة نبينا بشىء • فان كان كتابيا عارضناه بمعجزة « يشوع »[٢] فبالذى ينفصل عن معجزة « يشوع » بمثله ننفصل عما اعترض به • وان كان طبيعيا غير متشرع • انتقل الكلام معه ، الى مواضع أخر ، ليس هذا موضع ذكرها •

* * *

الفصل الثالث : نبع المــاء وتكثيره ، معجزة له صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل نوعان • نوع نبع له المــاء ، من بين أصابعه ، ونوع آخر نبع له المــاء ، من غير أصابعه •

فلنبدأ بالأول : فنقول : روى الجم الغفير ، والعدد الكثير : أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى بعض أسفاره ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل مع أحد منكم ماء ؟) فأتى بماء فى اناء ، فوضع يده فى ذلك الاناء ، وسمى الله • قالت الصحابة : فرأينا المــاء يخرج من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا كلهم • قيل لأنس : كم تراهم ؟ قال : نحوا من سبعين • وقد اتفق له مثل هذا مرة أخرى • وكانوا نحوا من ثلاثة مائة •

وكذلك عطش الناس يوم « الحديبية » ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه • وقالوا : ليس عندنا ماء • الا ما فى ركوتك • فوضع النبى صلى الله

---

(١) يس : ٣٨

(٢) يشوع بن نون فتى موسى — عليهما السلام — كان يحارب وطلب ادامة الشمس ووقف القمر « فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه » (يشوع ١٠ : ١٣) •

عليه وسلم يده فى الركوة • فجعل المـاء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون • وكانوا خمس عشرة مائة • قالوا : ولو كنا مائة ألف لكفانا •

فهذه ثلاثة مواطن • وقد روى عنه نحو هذا من طرق كثيرة ، لا يتطرق لها الكذب ، ولم يردها أحد من أهل العقل والأدب ، لكونها وقعت فى جموع كثيرة ، وتناقلها جماعات عديدة ، يدينون تحريم الكذب ، ويرونه أقبح شبهة ، وأشنع سبب ، بل يبادرون الى ذم الكاذب ، واظهار فضيحته ، ولا يقرون شيئا من الكذب بحال عند معرفته • فهذا هو النوع الأول •

وأما النوع الثانى : فهو ما تواردت به الروايات عن الأئمة الأثبات • من ذلك ما اتفق له فى غزوة تبوك • وذلك أنهم وردوا عينا بتبوك ، وهى تبض بشىء من ماء ، مثل الشراك • فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع منه شىء قليل ، ثم غسل النبى صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ، ويديه ، وأعاده فيها • فجرت بماء كثير • فاستقى الناس • هذا حديث « معاذ » •

وقال « ابن اسحاق » فانخرق من المـاء مالـه حس كحس الصواعق • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك يا معاذ • ان طالت بك حياة ، أن ترى ما هاهنا ، قد ملىء جنانا) وكذلك صنع ذلك الموضع جنانا بعده صلى الله عليه وسلم • وهذا من باب الاخبار عن الغيب •

ومن ذلك ما اتفق له بالحديبية أيضا • وذلك أنهم أتوا الحديبية ، وهم أربع عشرة مائة • وبئرها لا تروى خمسين شاة •

قال « البراء » و « سلمة بن الأكوع » فنزحناها فلم نترك فيها شيئا • فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئرها ، فبصق ودعا وأخرج سهما من كنانته ، فوضعه فى البئر ، فجاشت العين بماء كثير • فأرووا أنفسهم وركابهم ، وهم ألف وأربع مائة •

ومن ذلك ما روى « قتادة » صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الناس شكوا اليه العطش فى بعض أسفاره • فدعا بالميضأة ، فجعلها فى ضبنه • ثم التقم فمها ، فالله أعلم • نفث فيها ، أم لا ؟ فشرب الناس حتى رووا ، وملأوا كل اناء معهم • وكانوا اثنين وسبعين رجلا •

ومن ذلك الحديث المشهور عن « عمران بن حصين » وذلك أنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، فأصابهم عطش شديد ، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهم أنهم يجدون امرأة بمكان كذا ، لمكان معين ، عينه لهم • معها بعير ، عليه مزادتا ماء • فوجداها بالموضع الذى عين لهم على الصفة التى ذكر لهم • فجاءا بها ، الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ من ماء المزادتين • وقال فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم أعاد المـــاء فى المزادتين ، ثم فتحهما ، وأمر الناس ، فملأوا أسقيتهم ، حتى لم يدعوا شيئا الا ملأوه • قال « عمران » و « نحيل » لى : انهما لم يزدادا الا امتلاء ، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد ، حتى ملأ ثوبها ، ثم قال لها : (اذهبى • فانا ما نقصناك من مائك شيئا • ولكن الله سقانا) •

ومن ذلك حديث عمر فى جيش العسرة • وذكر ما أصابهم من العطش ، حتى أن الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه فيشربه ، فرغب أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فى الدعاء • فرفع يديه فلم يرجعهما ، حتى قالت السماء • فانسكبت ، فملأوا ما معهم من آنية ، ولم يجاوز ذلك المطر العسكر •

ومن ذلك حديث « عمرو بن شعيب » : أن « أبا طالب » قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ردفه بذى المجاز : عطشت ، وليس عندى ماء ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم فضرب بقدمه الأرض ، فخرج المـــاء • فقال له : « اشرب » •

والحديث فى هذا النوع كثير • وفيما ذكرناه كفاية • واذا تأمل العاقل المنصف هذا الباب • علم : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أوتى مثل معجزة موسى ، التى هى نبع المـــاء من الحجر ، كما ذكرنا فى هذا النوع الثانى ، وزاد عليه نبع المـــاء من بين أصابعه كما ذكرناه فى النوع الأول كان انفجار المـــاء من اللحم • أعجب من انفجاره من الحجارة • فان رام اليهودى أو النصرانى تشكيكا فى شىء من معجزات نبينا محمد عليه السلام ، أو الحادا ، أو ادعى : أن هذا من قبيل السحر ، عارضناه بمثل مقالته فى معجزة موسى • فبالذى ينفصل به ، بعينه ننفصل •

بل نقول : ان طرق المطرق الجاهل شيئا من هذه الأوهام والتهم ، الى هذه المعجزات لمعجزة موسى فى انشقاق الحجر ، أقبل للتهم فى حق الجاهل على ما روت اليهود •

وذلك أنهم رووا : أن الحجر الذى كان تنفجر منه الأنهار • انما كان حجرا واحدا عمله موسى ، حيث صار ، وهذا محل تهمة للجاهل • وأما العالم فلا يبالى بهذه الأوهام ، ولا يطرق الى العلم : التهم •

ومعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : انما كان يقول : (ائتونى باناء — أى اناء كان — وبماء — أى ماء كان) كما قدمنا • ولسنا ننكر اعجاز ما أتى به موسى ، بل نحن أولى وأحق بموسى منكم ، وأعرف بقدره ، وبمحله عند ربه • وانما هذا لهم على جهة الالزام ، حتى يزعنوا بصحة معجزات نبينا محمد عليه السلام •

* * *

الفصل الرابع : تكثير الطعام معجزة له ، صلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما تضافرت به الروايات ، واشتهر عند أهل الديانات ، ونقله العدول الثقات من حديث « أبى طلحة » أن النبى صلى الله عليه وسلم : أطعم ثمانين ، أو سبعين ، من أقراص شعير جاء بها « أنس » تحت ابطه • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أمر بها ، ففتت • وقال فيها ما شاء الله أن يقول •

وكذلك أطعم يوم الخندق : ألف رجل من صاع من شعير وعناق •

قال « جابر بن عبد الله » : فأقسم بالله • لأكلوا ، حتى تركوه ، وانحرفوا • وان برمتنا لتغط ، كما هى • وان عجيننا ليخبز • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق فى العجين ، والبرمة ، ودعا بالبركة • وكذلك صنع « أبو أيوب الأنصارى » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبى بكر من الطعام • زهاء ما يكفيهما • فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (ادع ثلاثين من أشراف الأنصار) فدعاهم • فأكلوا ، حتى تركوه • ثم قال : (ادع ستين) فأكلوا حتى شبعوا • ثم قال : (ادع سبعين) فأكلوا حتى تركوه • وما خرج منهم أحد ، حتى أسلم •

قال أبو أيوب : فأكله من طعامى : مائة وثمانون رجلا •

وكذلك حديث « سمرة بن جندب » : أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة ، حتى الليل . يقوم قوم ، ويقعد آخرون .

ومن ذلك حديث « عبد الرحمن بن أبى بكر » قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة . وذكر فى الحديث : أنه عجن صاع من طعام ، وصنعت شاة ، فشوى سواد بطنها ، قال : وايم الله . ما من الثلاثين والمائة . الا وقد حز له حزة من سواد بطنها ، ثم جعل منها قصعتين . فأكلنا أجمعين . وفضل فى القصعتين ، وحملته على البعير .

ومن ذلك الخبر المشهور فى غزاة تبوك . وذلك أنهم أصابتهم مجاعة شديدة ، حتى هموا بنحر جمائلهم ، فجمع النبى صلى الله عليه وسلم ما بقى من أزواد القوم ، فكان الرجل يجيء بكف ذرة ، وبكف تمر ، وبسط نطعا . حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير . فدعى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة . قال : (خذوا فى أوعيتكم) فأخذوا ، حتى ما تركوا فى العسكر ، وعاء الا ملأوه . فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما ، فيحجب عن الجنة) .

ومن ذلك خبره فى تزويج « زينب » وذلك أنه أمر خادمه « أنسا » أن يدعو له الناس فدعاهم ، فاجتمعوا ، حتى امتلأ البيت والحجرة . وقدم اليهم تورا من حجارة فيه حيس ، أهدته له « أم سليم » فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتحلق عشرة عشرة ، وليأكل كل انسان مما يليه . قال : فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثم خرجوا . ودخلت طائفة أخرى حتى أكلوا كلهم . وكنت — قال أنس — لم أدع انسانا الا دعوته . قال أنس : ثم قال لى : (ارفع التور) فرفعته . فما أدرى حين وضعت ، كان أكثر ، أم حين رفعت ؟

ومثل هذا نقوله فى قدح لبن أهدى له .

ومن هذا حديث مزود « أبى هريرة » وذلك أن الناس أصابتهم مجاعة شديدة فى بعض أسفاره . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة : (هل من شيء) ؟ قال : قلت : نعم شيء من تمر فى المزود . قال : فآتى به ، فأدخل يده ، فأخرج قبضة فبسطها ، ودعا بالبركة .

ثم قال : (ادع عشرة) فدعوتهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا • ثم لم يزل كذلك حتى أطعم الجيش كله • وقال لى : (خذ ما جئت به) فأخذت ، فأكلت منه ، وأطعمت حياته ، وحياة أبى بكر ، وعمر • الى أن قتل عثمان ، فانتهب منى ، فذهب ، وقد قيل : ان ذلك التمر انما كان بضع عشرة تمرة •

والأخبار فى هذا الباب كثيرة ، يطول الكتاب بنقلها • على أنه لا يجهل شىء منها ، بل هى عندنا معروفة منقوله مشهورة موصوفة •

وهذا النوع من المعجزات هو من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسى عليه السلام فى الانجيل • وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز ، وحوتين : خمسة آلاف رجل سوى النساء ، وهذا أيضا من قبيل ما ثبت أن موسى عليه السلام أطعم بنى اسرائيل بالمفاز : « المن والسلوى » •

فان اعترضت اليهود أو النصارى على هذا النوع من معجزات نبينا عليه السلام ، عارضناهم بذلك فى معجزات أنبيائهم ، وبالذى ينفصلون عن ذلك ، به بعينه ننفصل عن معجزات نبينا •

وعند الوقوف على هذه الفصول • تعلم أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أعطاه الله عز وجل من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله ، وزاده على ذلك • وسنزيد هذا وضوحا ، حتى يتبين كون المعاند الجاحد جاهلا وقيحا •

* * *

الفصل الخامس : فى كلام الشجر ، وكثير من الجمادات ، وشهادتها له بالنبوة :

وهذا الفصل تكثر حكاياته ، وتتسع رواياته ، لكثرة عدد ما روى فى ذلك ، وصحة ما اتفق هنالك • وهذا الفصل نوعان :

النوع الأول : قد وردت الأخبار ، ونقل عن الأئمة ، العدول الأخيار : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى بعض غزواته ، فدنى منه أعرابى • فقال له : (يا أعرابى أين تريد ؟) فقال : أهلى • فقال له : (هل لك فى خير منهم ؟) قال : ما هو ؟ قال : (تشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له • وأن محمدا عبده ورسوله) فقال :

ومن يشهد لك على صحة ما تقول ؟ قــال : (هذه الشجرة) ــ لشجرة بشاطىء الوادى ــ (فادعها فانها تجيبك) قال : فدعوتها • فأقبلت تخد الأرض ، حتى وقفت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا • فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت الى مكانها •

وقد روى هذا الحديث عن « بريدة » وزاد قال : فمالت الشجرة عن يمينها ، وشمالها ، وبين يديها ، وخلفها • فتقطعت عروقها ، ثم جاءت تجر عروقها مغبرة ، حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت : السلام عليك يا رسول الله • فقال الأعرابى : مرها ، فلترجع الى هيئتها ، فأمرها فرجعت ، فدلت عروقها ، حيث كانت واستوت • فآمن الأعرابى ، وقال : ائذن لى ، اسجد لك • فقال له عليه الســـلام : (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لبعلها) قال : فائذن لى أن أقبل يديك ورجليك • فأذن له •

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ظهرت على يديه مثل هذه المعجزة ، مرات ، وطرقها صحاح • بل منها ما هو متواتر على ما حكاه أهل النقل • فقد روى أنه طافت به شجرة ، ثم رجعت الى منبتها • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انها استأذنت أن تسلم) •

وكذلك سأل ربه ، أن يجعل له آية • فقال : انطلق الى موضع كذا ، فان به شجرة • فادع منها غصنا • فانه يأتيك ، ففعل • فجاء يخط الأرض ، حتى انتصب بين يديه ، فحبسه ما شاء الله أن يحبسه ، ثم قال له : (ارجع كما كنت) فرجع •

وكذلك روى عنه من طرق صحاح : أنه خرج يوما ليقضى حاجته ، فلم يجد بما يستتر واذا بشجرتين بشاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأخذ بغصن من أغصانها • وقال لها : (انقادى على باذن الله) فانقادت معه • كالبعير المذلل • ثم فعل بالأخرى مثل ذلك • وقال : (التئما على) فالتئما • فلما قضى حاجته • قال « جابر » : فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل • والشجرتان قد افترقتا • فقامت كل واحدة منهما على ساقها •

وكذلك روى « أسامة بن زيد » مثل هذا فى النخيل • وقال فيه : قال لى : انطلق الى هذه النخلات • وقل لهن : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركن • أن تأتين لحاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقل للحجارة مثل ذلك •

فقلت ذلك لهن • فوالذى بعثه بالحق • لقد رأيت النخلات يتقاربن ، ويجتمعن • والحجارة يتعاقدن ، ويتراكمن ، حتى صرن ركاما خلفه • فلما قضى حاجته • قال لى : (قل لهن : يفترقن) فوالذى نفسى بيده • لقد رأيت النخلات والحجارة يفترقن ، حتى عدن الى مواضعهن •

وقد حكى الأئمة منهم « أبو بكر بن فورك » رضى الله عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة الطائف ليلا ، وهو يسير ، فأخذته سنة ، فاعترضته سدره ، فانفرجت له نصفين ، حتى جاز بينهما • وبقيت على ساقين الى وقتنا هذا • وهى هنالك معروفة معظمة •

النوع الثانى :

نقل خلفنا عن سلفنا نقلا فاشيا مشهورا ، بحيث لا يشك فيه : أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ، وهم يسمعون تسبيحه • وقال « أنس » أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من حصى • فسبحت فى يده ، حتى سمعنا تسبيحها ، ثم صبهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يد « أبى بكر » فسبحت كذلك • ثم صبها فى أيدينا فلم تسبح •

ورواه « أبو ذر » قال : انما سبحت فى كف « عثمان » وقد تواردت الروايات عن الثقات • عن « على » أنه قال : كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج الى بعض نواحيها • فما استقبله شجرة ولا جبل الا قال : السلام عليك يا رسول الله •

وقد روى « العباس » أن النبى صلى الله عليه وسلم غطاه ، وبنيه بملحفة • ودعا لهم بالستر من النار كستره اياهم بملحفته • فأمنت أسكفة الباب ، وحوائط البيت : آمين • آمين •

وقد صحت الأخبار ، بل تواترت • أن النبى صلى الله عليه وسلم لما اتخذ منبره ، وصعد وترك الجذع الذى كان يخطب عليه • حن

الجذع حنين الابل الفاقدة أولادها ، حتى تصدع وانشق . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكن . وفى بعض طرقه قال النبى صلى الله عليه وسلم : (ان هذا بكاء لمـا فقد من الذكر) وفى بعض طرق هذا الحديث : أنه لم يزل يسمع له حنين فى أوقات ، تحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فزعت المنبر على ما فى حديث أبى .

فأخذه أبى عنده الى أن أكلته الأرض . وعاد رفاتا .

وقد روى هذا الحديث « بريدة » وزاد فيه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم للجذع : (ان شئت أردك الى الحائط الذى كنت فيه . فتنبت لك عروقك ، ويكمل خلقك . ويجدد خوصك وثمرك وان شئت أغرسك فى الجنة يأكل منك ، ومن ثمرك أولياء الله) ثم أصغى له النبى صلى الله عليه وسلم يستمع له ما يقول . فقال : بلى تغرسنى فى الجنة ، فيأكل منى أولياء الله . وأكون فى مكان لا أبلى فيه يسمعه من يليه . فقال له : (قد فعلت) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اختار دار البقاء على دار الفناء) .

فكان الحسن اذا حدث بهذا الحديث بكى . وقال : يا عباد الله . الخشبة تحن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا اليه ، فأنتم أحق بذلك ، وأن تشتاقوا الى لقائه .

وكذلك تواتر أيضا : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على جبل أحد ، مع جماعة من أصحابه فتحرك بهم الجبل . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسكن حراء) فما عليك الا نبى ، أو صديق ، أو شهيد .

والأخبار أيضا فى هذا النوع كثيرة . وفيما ذكرناه كفاية ، بل فى الواحد من هذه الأخبار أبلغ غاية .

***

الفصل السادس : فى كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم آية له صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل أيضا نوعان .

النوع الأول :

من ذلك ما روى واشتهر عن « عمر » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى محفل من أصحابه ، اذ جاءه أعرابى . قد صاد « ضبا » فقال : ما هذا ؟ فقالوا له : هذا نبى الله صلى الله عليه وسلم . فقال : واللات والعزى ، لا آمنت بك ، حتى يؤمن بك هذا الضب ، وطرحه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (يا ضب) فأجابه بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك . يا زين من أوفى القيامة . قال : (من تعبد ؟) قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : (فمن أنا ؟) قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك . فأسلم الأعرابى .

ومن ذلك . القصة المشهورة فى كلام « الذئب » من حديث أبى سعيد الخدرى قال : بينما راع يرعى غنمه عرض الذئب لشاة منها . فأخذها الراعى منه . فأقعى الذئب . وقال للراعى : ألا تتقى الله ، حلت بينى وبين رزقى ؟ قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الانس . فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين ، يحدث الناس بأنباء ما قد سبق .

فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (قم فحدثهم) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : (صدق) .

وقد روى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة . وزاد فى هذا الحديث : فقال له الذئب : أنت أعجب . وقفت على غنمك وتركت نبيا لم يبعث الله قط نبيا أعظم منه قدرا عنده . قد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينتظرون اقبالهم . وما بينك وبينه الا هذا الشعب ، فتصير فى جنود الله . فقال الراعى : لو كان لى من يرعى الغنم لمشيت اليه . فقال الذئب : أنا أرعاها ، حتى ترجع . فأسلم الراعى اليه غنمه ، ومضى وذكر قصته واسلامه ووجوده النبى يقاتل . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (عد الى غنمك تجدها بوفرها) فوجدها كذلك . وذبح للذئب منها شاة . وكان هذا الراعى اسمه « أهبان بن أوس » .

وقد ذكر مثل هذه القصة عن « سلمة بن الأكوع » وأنها كانت سبب اسلامه •

ومن ذلك ما يحكى أن « أبا سفيان بن حرب » بينا هو فى ملأ من قريش بمكة • اذ بظبى يطرده ذئب • فدخل الظبى الحرم ، فرجع الذئب • فعجبوا من ذلك • فقـال الذئب : أعجب من ذلك : محمد ابن عبد الله • بالمدينة ، يدعوكم الى الجنة ، وتدعونه الى النار • فقال أبو سفيان بن حرب : واللات والعزى • لئن ذكرتم هذا بمكة ليتركنها خلوفا •

ومن ذلك ما روى عن « أم سلمة » : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى صحراء فنادته ظبية : يا رسول الله • قال : (ما حاجتك ؟) قالت : صادنى هذا الأعرابى • ولى خشفان فى ذلك الجبل • فأطلقنى • حتى أذهب فأرضعهما وأرجع • قال : (وتفعلين ؟) قالت : نعم • فأطلقها • فذهبت ورجعت فأوثقها • وكان ذلك الأعرابى نائما •

وقال يا رسول الله : ألك حاجة ؟ قـال : (تطلق هذه الظبية) فأطلقها • فخرجت تعدو فى الصحراء وتقول : أشهد أن لا اله الا الله • وأنك رسول الله •

ومن ذلك ما روى من كلام « الحمار » الذى أصابه بخيبر • وقال : اسمى « يزيد بن شهاب » فسماه النبى صلى الله عليه وسلم « يعفور » وكان يوجهه الى دور أصحابه ، فيضرب عليهم الباب برأسه ، ويستدعيهم • وأنه لمـا مات النبى صلى الله عليه وسلم تردى فى بئر جزعا وحزنا • فمات •

ومن ذلك حديث « الناقة » التى شهدت بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم لصاحبها أنه ما سرقها ، وأنها ملكه •

النوع الثانى :

ما روى عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : أنها قالت : كان عندنا « داجن » فاذا كان عندنا النبى صلى الله عليه وسلم • قر وثبت مكانه ، فلم يجىء ، ولم يذهب • واذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم • جاء ، وذهب •

ومن ذلك ما روى جابر بن عبد الله قال : جاء رجل فآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو على بعض حصون خيبر ، وكان فى غنم يرعاها لهم — يعنى لأهل خيبر — فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بالغنم ؟ فقال : (احصب وجوهها — يعنى اضربها بالرمل — فان الله سيؤدى أمانتك ، ويردها الى أهلها) ففعل • فسارت كل شاة منها حتى أتت أهلها •

ومن ذلك • حديث « أنس » أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل حائط رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر ، ورجل من الأنصار ، وفى الحائط غنم • فسجدت له • فقال أبو بكر : نحن أحق بالسجود لك منها • وذكر الحديث •

ومن حديث « أبى هريرة » : دخل النبى صلى الله عليه وسلم حائطا • فجاء بعير ، فسجد بين يديه •

ومن حديث « جابر » قال : وكان ذلك الحائط لا يدخله أحد الا شد عليه ذلك « الجمل » فلما دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم دعاه ، فوضع مشفره فى الأرض وبرك بين يديه ، فخطمه • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ما بين السماء والأرض شىء • لا يعلم أنى رسول الله ، الا عاصى الجن والانس) •

ومن حديث « عبد الله بن أبى أوفى » : أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل أهل ذلك الجمل عن شأنه • فقالوا له : انهم أرادوا نحره •

ومن ذلك ما روى « ابن وهب » : أن « حمام مكة » أظلت النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتحها • فدعا لها بالبركة •

ومن حديث « أنس » و « زيد بن أرقم » و « المغيرة بن شعبة » أن النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الغار • أمر الله شجرة فنبتت تجاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فسترته • وأمر حمامتين ، فوقفتا فى فم الغار • وأن العنكبوت نسجت على بابه • فلما أتى الطالبون له ، رأوا ذلك • فقالوا : لوكان فيه أحد لم تكن الحمامات ولا العنكبوت • فانصرفوا والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع كلامهم •

والأخبار فى هذا كثيرة شهيرة • وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل وديانة •

* * *

الفصل السابع : فى احياء الموتى ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة :

من ذلك • الخبر المشهور المعلوم المذكور عن غير واحد من الصحابة والأئمة : أن يهودية بخيبر أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « شاة » مشوية • فسمتها • فأكل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل القوم معه • فقال : (ارفعوا • فان هذه الشاة أخبرتنى أنها مسمومة) ثم قال لليهودية : (ما حملك على ما صنعت ؟) قالت : ان كنت نبيا صادقا ، لم يضرك الذى صنعت • وان كنت ملكا أرحت منك • فقال : (ما كان الله ليسلطك على ذلك) فقالوا : نقتلها ؟ • قال : (لا) • فلم يزل أثر تلك الأكلة فى لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال فى وجعه ، الذى مات منه : (ما زالت أكلة خيبر تعاودنى • فالآن قطعت أبهرى) •

قال « ابن اسحق » : ان كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا ، مع ما أكرمه الله به من النبوة •

وروى هذا الحديث من طريق « البزار » عن « أبى سعيد الخدرى » وزاد فيه : فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده • وقال : (كلوا بسم الله) فأكلنا • وذكرنا اسم الله ، فلم تضر أحد منا ، الا ما ذكر من موت « بشر بن البراء » •

وفى هذا الحديث أنواع من دلالات نبوته صلى الله عليه وسلم : نطق الميت ، وذلك أن الشاة كلمته بعد أن شويت • وأنهم أكلوا السم ، ولم يضرهم ، وفى موت البراء • دليل على أن الذى أكلوه سم قاتل • وبذلك اعترفت اليهودية • وقالت : أردت قتلك • فأراد الله أن يميت أحدهم ، ليعلم أن الذى أكلوه : سم • وأن يحيى جميعهم آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم • ومن آياته فى هذه القصة : تأخر موته بالسم ، دون علة لزمته منه نحو عشرين سنة • وهذه كلها أمور خارقة للعادات ، فهى من أوضح الدلالات •

ومن ذلك ما روى عن « فهد بن عطية » أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بصبى قد شب ، لم يتكلم قط • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله •

ومن ذلك حديث « معيقيب » قال : رأيت من النبى صلى الله عليه وسلم عجبا ، جىء بصبى يوم ولد • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (صدقت • بارك الله فيك) ثم أن الغلام لم يتكلم بعدها ، حتى شب • فكان يدعى « مبارك اليمامة » وكانت هذه القصة بمكة فى حجة الوداع •

ومن حديث « الحسن » قال : أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فذكر أنه طرح « بنية » له ، فى وادى كذا • فانطلق معه الى ذلك الوادى وناداها باسمها : (يا فلانة ، احيى باذن الله) فخرجت ، وهى تقول : لبيك وسعديك • فقال لهـا : (ان أبويك قد أسلما • فان أحببت أن أردك عليهما) فقالت : لا حاجة لى فيهما • وجدت الله خيرا منهمـا •

ومن ذلك حديث « أنس » أن شابا من الأنصار ، توفى • وله أم عجوز • قال فسجيناه ، وعزيناها • فقالت : مات ابنى ؟ • قلنا : نعم • قالت : اللهم ان كنت تعلم أنى هاجرت اليك ، والى نبيك ، رجاء أن تعيننى على كل شدة • فلا تحملنى على هذه المصيبة • فما برح أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا •

ومن حديث « عبد الله بن عبيد الله » قال : كنت فيمن دفن « ثابت بن قيس بن شماس » وكان قتل باليمامة ، فسمعناه حين أدخلناه فى القبر يقول : محمد رسول الله • أبو بكر الصديق • عمر الشهيد • عثمان البر الرحيم • فنظرنا • فاذا هو ميت •

ومن حديث « النعمان بن بشير » أن « زيد بن خارجة » خر ميتا فى زقاق من أزقة المدينة فرفع وسجى • اذ سمعوه بين العشائين ، والنساء يصرخن حوله • يقول : أنصتوا • أنصتوا • فحسر عن وجهه • فقال : محمد رسول الله النبى الأمى ، وخاتم النبيين ، كان ذلك فى الكتاب الأول • ثم قال : صدق • صدق •

وذكر أبا بكر ، وعمر ، وعثمان • ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته • ثم عاد ميتا ، كما كان •

* * *

الفصل الثامن : فى ابراء النبى صلى الله عليه وسلم المرضى ، وذوى العاهات :

من ذلك ، ما اشتهر ، واستفاض من قصة : عين « قتادة » يوم « أحد » وذلك أنه أصيب فى احدى عينيه ، حتى وقعت على وجنتيه ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه ،

ومن ذلك حديث « عثمان بن حنيف » أن أعمى قــال : يا رسول الله ، ادع الله أن يكشف لى عن بصرى ، فقال له : (انطلق ، فتوضأ ، ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ، نبى الرحمة ، يا محمد ، انى أتوجه بك الى ربى أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه فى) قال : فرجع الرجل ، وقد كشف الله عن بصره ،

ومن ذلك حديث « حبيب بن فديك » أن أباه ابيضت عيناه ، فكان لا يبصر بهما شيئا ، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر ، قال : فرأيته يدخل الخيط فى الابرة ، وهو ابن ثمانين ،

وروى أن « ملاعب الأسنة » أصابه استسقاء ، فبعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده حثوة من تراب ، فتفل عليها ، ثم أعطاها رسوله ، فأخذها رسوله متعجبا ، يرى أنه قد هزأ به ، فأتاه بها ، وهو على شفاء ، فشربها ، فشفاه الله تعالى ،

ومن ذلك حديث « كلثوم بن الحصين » وذلك أنه أصيب يوم أحد فى نحره ، فبصق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرأ ، وتفل على شجة « عبد الله بن أنيس » فلم تمد ،

ومن ذلك حديث « على » يوم « خيبر » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على خيبر : (لأعطين الراية غدا ، رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) ، فبات أصحابه تلك الليلة كلهم يرجو أن يعطاها ، فلما أصبح دعا عليا ، فاذا به رمد ، فتفل فى عينيه ، فبرىء لحينه ، وفتح الله على يديه الحصن ،

وفى تلك الغزاة ، نفث على ضربة بساق « سلمة بن الأكوع » فبرأت ،

وكذلك فعل بساق « على بن الحكم » يوم الخندق ، وكانت قد

انكسرت ، فبرأ مكانه ، ولم ينزل عن فرسه ، وأصاب عليا وجع • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم اشفه ، أو عافه) ثم ضربه برجله • فما اشتكى ذلك الوجع بعد •

وقطع « أبو جهل » لعنه الله يوم « بدر » يد « معوذ بن عفراء » فجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصقها فلصقت •

وكذلك أصيب فى ذلك اليوم « حبيب بن يساف » فنفث عليها من ريقه فصح • وأتته امرأة من « خثعم » معها صبى به بلاء لا يعقل ولا يتكلم • فأتى بماء فمضمض فاه ، وغسل يديه صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم أعطاها ذلك المـــاء ، وأمرها أن تسقيه اياه • ففعلت • فبرئ الغلام ، وعقل عقلا ، يفضل كثير من الناس •

وحديث « ابن عباس » : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، وبرأ •

وانكفأت القدر ، وهى تغلى على ذراع « محمد بن خاطب » وهو طفل صغير ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، ودعا له ، وتفل ، فبرأ لحينه •

وكانت فى كف « شرحبيل الجحفى » سلعة ، تمنعه القبض على السيف ، وعنان الدابة ، فشكاها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فما زال يمسحها بكفه حتى رفع كفه • وما لها أثر •

والأخبار فى هذا كثيرة • واذا تأملت هذا الفصل ، والذى قبله • علمت : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أوتى من المعجزات مثل ما أوتى عيسى عليه السلام من احياء الموتى ، وابراء العمى ، والمجانين ، وذوى الأسقام والآفات • كما تحكى النصارى فى انجيلها • وزاد عليه بأمور كما ذكر • وستأتى ان شاء الله تعالى •

فيلزم النصارى اذ كذبوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع ما أقمنا عليه من الآيات ، وأثبتنا من واضح المعجزات أن يكذبوا بنبوة عيسى عليه السلام • فان معجزاته كمعجزاته • وان كذبونا فيما نقلنا عارضناهم فيما نقلوه ، ولم يقدروا أن يثبتوا نبوة عيسى عليه السلام علينا ، ولا على غيرنا وكذلك يفعل الله بكل كاذب كفار •

* * *

الفصل التاسع : فى اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

اعلم يا هذا : أنه لو لم يثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الا ما ثبت فى هذا الفصل لكان فيه أعظم دليل على صدق رسالته ، وصحة نبوته . فانا نعلم بما روى فى هذا الباب من الآيات على القطع والاصرار : أن دعاؤه عند الله مسموع ، وأن مقامه عند الله مقام كريم مرفوع .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما دعا الله فى شىء أجابه فيه ، وظهرت بركة دعوته ، على المدعو له ، وعلى أهله وبنيه . حتى كان « حذيفة » يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا لأحد أدركته الدعوة وولد ولده .

ونحن نذكر من ذلك طرفا على شرط الاختصار :

من ذلك حديث « أنس » الصحيح ، المشهور . قال : قالت أمى يا رسول الله ، خادمك « أنس » ادع الله له . فقال : (اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيه) قال أنس حين حدث بهذا الحديث : فوالله ان مالى كثير ، وان ولدى ، وولد ولدى ، ليتعادون على نحو المـائة اليوم .

وفى رواية أخرى عنه : أنه قال : وما أعلم أحدا أصاب من رخاء العيش ما أصبت . ولقد دفنت بيدى هاتين مائة من ولدى ، لا أقول سقطا ، ولا ولد ولد .

ومن دعائه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن : فلو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا ، وفتح الله عليه ، ومات ، فحفر الذهب من تركته بالفئوس ، حتى مجلت الأيدى ، وأخذت كل زوجة من زوجاته : ثمانون ألفا . وكن أربعا . وقيل : بل صولحت احداهن ، لأنه طلقها فى مرضه على نيف وثمانين ألفا . وأوصى بخمسين ألفا . وهذا كله بعد صدقاته ، الفاشية فى حياته ، وعوارفه العظيمة .

أعتق يوما ثلاثين عبدا . ووردت له مرة عير له فيها سبع مائة بعير ، تحمل من كل شىء فتصدق بها ، وبما عليها ، وبأقتابها وأحلاسها .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لمعاوية بالتمكين فى البلاد . فنال الخلافة .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص بأن يجيب الله دعوته • فما دعا على أحد ، أو لأحد الا استجيب له •

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم حيث قال : (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين ، بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل بن هشام) • فأجاب الله دعوته فى عمر بن الخطاب •

ولذلك قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب •

وأصاب الناس عطش شديد ، فى سفر من أسفاره ، فدعا الله فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم •

وقد تقدم مثل ذلك •

ومن ذلك حديث الاستسقاء • وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يوم الجمعة يخطب • اذ دخل عليه رجل • فقال : يا رسول الله قد هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، وهلكت المواشى • فادع الله أن يغثنا • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم أغثنا • اللهم أغثنا • اللهم أغثنا) قال : فأنشأت سحابة مثل الترس • ثم انتشرت قال راويه : فلا والله ما رأينا الشمس سبتا • يعنى جمعة •

ثم دخل أعرابى فى الجمعة المقبلة • فقال يا رسول الله : هلكت المواشى ، وانقطعت السبل • فادع الله يمسكها عنا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم على الآكام والضراب ، ومنابت الشجر) قال : فانجابت السحابة عن المدينة ، انجياب الثوب ، فخرجنا نمشى •

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال للنابغة الجعدى : (لا يفضض الله فاك) فما سقطت له سن حتى مات •

وفى رواية : كان أحسن الناس ثغرا • اذا سقطت له سن نبتت له أخرى • وعاش عشرين ومائة •

وقال لابن عباس : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) • فكان بحر الفقه ، وترجمان القرآن • ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمينه • فما اشترى شيئا الا ربح فيه • ودعا للمقداد بن الأسود بالبركة • فكان عنده غراير من المـال •

ودعا لعروة بن أبى الجعد • فقال : لقد كنت أقدم بالكياسة — سوق لهم — فما أرجع حتى أربح أربعين ألفا •

وقال البخارى : فكان لو اشترى التراب ربح فيه . وندت له ناقة ، فدعا ربه أن يردها عليه فجاء بها اعصار ريح حتى ردها عليه .

ودعا لأم أبى هريرة فأسلمت ، ودعا لعلى أن يكفى ألم الحر والبرد ، فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف . وفى الصيف ثياب الشتاء . ولا يصيبه حر ، ولا برد . وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه . فقال : (اللهم نور له) فسطع له نور بين عينيه . فقال : يا رب أخاف أن يقولوا : انها مثلة . فتحول الى طرف سوطه . فكان يضىء فى الليلة المظلمة . فسمى ذا النور .

ودعا على « مضر » بالقحط . فأقحطوا سبعا ، حتى أكلوا الجلود والعظام ، حتى استعطفته « قريش » فدعا لهم فسقوا .

ودعا على « كسرى » حين مزق كتابه بأن يمزق ملكه ، فلم تبق له باقية .

وقال لرجل رآه يأكل بشماله : (كل بيمينك) فقال : لا أستطيع . فقال له : (لا استطعت) . فلم يرفعها الى فيه بعد .

وقال لعتبة بن أبى لهب : (اللهم سلط عليه كلبا من كلابك) فأكله الأسد .

وحديثه المشهور مع ملأ قريش . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم بينما هو ساجد ، بازاء الكعبة اذ ألقت قريش على ظهره فرثا ، ودما ، وسلا جزور نحرت . فقال : (اللهم عليك بهم) ثم سماهم واحدا واحدا . فكان من سمى : قتل يوم بدر .

ودعا على « الحكم بن أبى العاصى » وكان يختلج بوجهه ويغمز عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كذلك) فلم يزل يختلج الى أن مات .

ودعا على « غلم بن جثامة » فلفظته الأرض ، فوورى . فلفظته الأرض . ثم وورى فلفظته الأرض . مرارا . فألقوه بين ضدين — يريد جانبى الوادى — ورضوا عليه بالحجارة .

وباعه رجل فرسا . فجحده . فقال : (اللهم ان كان كاذبا

فلا تبارك له فيه) فأصبحت شاصية — يريد رافعة برجلها — يقول : ما تت ٠

والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن يحاط بها ٠

* * *

الفصل العاشر : فى ذكر جمل من بركاته ومعجزاته صـــلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما اشتهر وصح ٠ أنه وقع فزع بالمدينة ، فركب « فرسا » لأبى طلحة ، بطيئا ٠ فلما رجع قال لأبى طلحة : (وجـــدنا فرسك بحرا) — يريد كثير الجرى كالبحر — قال : فكان ذلك الفرس لا يجارى ٠

ونخس « جمل » جابر ، وكان قد أعيا ٠ فنشط ، حتى كان ما يملك زمامه ٠

وصنع مثل ذلك بفرس لجميل الأشجعى ، خفقها بمخفقة معه ، وترك عليها فلم تملك رأسها نشاطا ٠ وباع من بطنها باثنى عشر ألفا ٠

وكانت شعرات من شعر رسول الله صــلى الله عليه وسلم فى « قلنسوة » خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالا ، الا رزق النصر ٠

وكانت جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل للمرضى بعد موته ٠ فيستشفى بها ٠

وأخذ « جهجاه » قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكسره فأخذته فى يده أكلة ، فقطعها ٠ ومات قبل الحول ٠

وسكب من فضل وضوئه فى بئر قباء ٠ فما جف ماؤها بعد ٠

وبزق فى بئر كانت فى دار « أنس » فلم يكن بالمدينة أعذب منها ٠

ومر على ماء ، فسأل عنه ، فقيل اسمه « بيسان » وماؤه ملح ، فقال : (بل هو نعمان ، وماؤه طيب) فطاب ٠

وأوتى بدلو من ماء زمزم فمج فيه ، فصارت أطيب من المسك ٠

وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه ٠ وكانا يبكيان عطشا ٠ فرويا وسكتا ٠

وكانت لأم مالك « عكة » تهدى فيها للنبى صلى الله عليه وسلم سمنا ٠ فأمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تعصرها ، ثم دفعها

اليها • فاذا هى مملوءة سمنا • فيأتيها بنوها ، يسألونها الادم • وليس عندهم شىء • فتعمد اليها ، فتجد فيها سمنا • فكانت تقسم ادمها ، حتى عصرتها •

وكان يتفل فى أفواه المراضع فيجزيهم ريقه الى الليل •

ومن ذلك بركة يده ، فيما لمس ، أو غرس •

غرس لسلمان ثلاث مائة ودية • وكان كاتب مواليه على ثلاث مائة نخلة ، وعلى أربعين أوقية ، فغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده • الا واحدة • فأطعمت من عامها • الا تلك الواحدة • فقلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسها • فأطعمت من عامها •

وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه • فوزن منها أربعين أوقية لمواليه •

وفى حديث « حنش بن عقيل » قال : سقانى رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من سويق شرب أولها ، وشربت آخرها • فما زلت أجد شبعها اذا جعت ، وريها اذا عطشت ، وبردها اذا ظمئت •

وأعطى قتادة بن النعمان ، وصلى معه العشاء الأخيرة فى ليلة مظلمة مطيرة : « عرجونا » فقال : (انطلق فانه سيضىء لك من بين يديك عشرا ، ومن خلفك عشرا • فاذا دخلت بيتك ، فسترى سوادا ، فاضربه ، حتى يخرج • فانه الشيطان) فانطلق فأضاء له العرجون ، حتى دخل بيته • ووجد السواد ، فضربه حتى خرج •

ومنها دفعه لعكاشة « جذل حطب » وقال له : (اضرب به) حين انكسر بسيفه يوم بدر • فعاد فى يده سيفا صارما ، طويل القامة ، أبيض شديد المتن • فقاتل به • ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف ، الى أن استشهد فى قتال أهل الردة • وكان هذا السيف يسمى « العون »

وكذلك دفع لعبد الله بن جحش يوم أحد • وقد ذهب سيفه « عسيب نخل » فعاد فى يده سيفا •

ومن ذلك بركته فى درور الشياه الحوائل : اللبن الكثير • كقصة شاة « أم معبد » وهى قصة مشهورة • وكذلك غنم « حليمة » مرضعته •

وقد تقدم ذكره . وكذلك قصة شاة « عبد الله بن مسعود » وكان لم ينز عليها فحل قط . وكذلك شاة « المقداد » ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه ، ودعا فيه . فلما حلاه . اذا به لبن طيب ، وزبده فى فمه ، ومسح على رأس « عمير بن سعد » وبارك . فمات ، وهو ابن ثمانين ، فما شاب .

وقد روى مثل هذه القصص .

ومن ذلك أن « عتبة بن فرقد » كان يوجد له طيب يغلب طيب نسائه . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسح بيده بطنه ويده .

وسلت عن وجهه صلى الله عليه وسلم « عايذ بن عمرو » الدم ، يوم أحد . فدعا له . فكانت له غرة كغرة الفرس .

ومسح صلى الله عليه وسلم على رأس « قيس بن زيد الجذامى » ودعا له فهلك ابن مائة سنة ، ورأسه أبيض . وموضع كف النبى صلى الله عليه وسلم أسود . فكان يدعى الأغر ، ومسح وجه رجل آخر، فما زال على وجهه نور ، ومسح وجه « قتادة بن ملجان » فكان لوجهه بريق ، حتى كان ينظر فى وجهه ، كما ينظر فى المرآة .

ووضع صلى الله عليه وسلم يده على رأس « حنظلة بن خديم » وبارك عليه ، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه ، والشاة قد ورم ضرعها . فيوضع على موضع كف النبى صلى الله عليه وسلم ، فيذهب الورم .

ونضح فى وجه « زينب بنت أم سلمة » نضحة من ماء ، فما كان يعرف فى وجه امرأة من الجمال ما كان بها . ومسح على رأس صبى به عاهة — يعنى قرعا — فبرأ واستوى شعره . وكذلك مسح على غير واحد من الصبيان ، المرضى والمجانين ، فبرؤا . ولأجل هذا قال « طاووس » : لم يؤت النبى صلى الله عليه وسلم بأحد به جنون . فصك فى صدره ، الا ذهب ذلك الجنون ، وأتاه رجل آدر . فأمره أن ينضحها بماء من عس ، مج فيه ، ففعل . فبرأ . ومن ذلك خبره المشهور عن « تراب » يوم حنين . وذلك أنه لما اشتد القتال بينه وبين الكفار ذلك اليوم ، أخذ غرفة من تراب ، ورمى بها وجوه الكفار . وقال : (شاهت الوجوه) فما بقى منهم أحد ، الا أصاب من عينيه

من ذلك التراب ، فهزمهم الله ، ورجعوا على أعقابهم يمسحون عن أعينهم ٠

ومن ذلك الخبر المشهور عن أبى هريرة : أنه كان كثير النسيان ، فأمره ببسط ثوبه ، فغرف بيده ، ثم أمره بضمه ٠ ففعل ، فما نسى شيئا بعد ٠

والأخبار فى هذا كثيرة جدا تفوق الحصر ٠

* * *

الفصل الحادى عشر : فى ما أخبر به مما أطلعه الله من الغيب صلى الله عليه وسلم :

هذا الموضوع بحر ، لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره ، وهو من جملة آياته المعلومة على القطع ، الواصلة الينا من طريق التواتر ، لكثرة الحكايات ، وانتشار الروايات ، مع اتفاقها ٠ على أنه مطلع على كثير من الغيب ٠ فهذا تواتر معنوى ، يحصل به العلم القطعى ٠ وهكذا أكثر الفصول المتقدمة ٠ والأخبار المتلقاة عنه صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضوع قسمان : قسم وقع ، ووجد ، كما أخبر به ٠ وقسم آخر لم يقع ، لكونه لم يبلغ وقته ، وسيقع ولا بد ٠ ولذلك هو منتظر الوقوع ٠ ونحن انما نذكر فى هذا الفصل ما وقع ووجد حسب ما أخبر به ٠ اذ به تقع الحجة وعنده يظهر الاعجاز ٠

من ذلك حديث « حذيفة » قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ، فما ترك شيئا فى مقامه ذلك يكون الى قيام الساعة الا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ٠ وانه ليكون منه الشىء فأعرفه ٠ فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ، ثم اذا رآه عرفه ٠ ثم قال : لا أدرى ٠ أنسى أصحابى أم تناسوه ؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة الى أن تنقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعدا الا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته ٠

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما من طائر يحرك جناحيه فى السماء ، الا ذكر لنا منه علما ٠

وقد خرج أهل الصحيح فى كتبهم ، واشتهر عن الأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس واليمن والشام والعراق • وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة • لا تخاف الا الله • وان المدينة لا تغزى •

وكذلك أعلم بفتح خيبر على يد « على بن أبى طالب » فى غد يومه ، وبما فتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر • وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قتلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة • وانها ستكون لهم أنماط ، ويغدو أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع على يديه صحيفة ، وترفع أخرى • ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة • وانهم اذا مشوا المطيطا • وجد منهم بنات فارس والروم • رد الله بأسهم بينهم • وسلط شرارهم على خيارهم •

واخباره على قتال الترك والخزر والروم وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى بعده ، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده ، واخباره عن الروم ، لا تزال ذات أقران ، حتى تقوم الساعة ، واخباره بملك بنى أمية وولاية معاوية ووصاه ، واتخاذ بنى أمية ملك الله دولا • واخباره عن خروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما ملكوا • وخروج المهدى[1] واخباره بما ينال أهل بيته من القتل والشدائد • واخباره عن قتل « على » وقوله : (ان أشقاها الذى يخضب هذه من هذه) يريد لحيته من رأسه • واخباره بقتل « عثمان » وهو يقرأ المصحف • وأنه سيقطر دمه على قوله تعـالى « **فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم** »[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : (عسى الله أن يلبسك قميصا فان أرادوك على خلعه ، فلا تخلعه) يريد بذلك ما ولاه من الخلافة ، وما أرادوا من خلعه •

ومن ذلك خبر « حاطب بن أبى بلتعة » وذلك أنه كتب كتابا لأهل مكة ، يخبرهم فيه بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم ، واخفاء ذلك الكتاب ، ولم يطلع عليه أحدا ودفعه الى امرأة فجعلته فى عقاصها •

---

(١) أخبـار المهـدى غير صحيحة ، وكثير من الأخبـار التى ذكرها المؤلف : آحاد •

(٢) البقرة : ١٣٧

فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (انطلقوا الى موضع كذا ، فان به ظعينة عندها كتاب من حاطب الى مشركى قريش) فانطلقوا ففتشوا ، فلم يجدوا عندها شيئا . فقالوا لها : لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك . فأخرجته من عقاصها .

واخباره لبعض زوجاته أنهـا ستنبحها كلاب من الحوب ، وأنها تقتل حولها قتلى كثير . فكان ذلك كله ، كما ذكر صلى الله عليه وسلم .

وقوله لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) فقتله أصحاب معاوية . وقوله : (يكون فى ثقيف : كذاب ، ومبير) فرأوهما : الحجاج والمختار .

واخباره بأن مسيلمة يعقره الله ، فكان ذلك .

ومن ذلك أن ناقته ضلت ، فلم يدر أين هى ؟ فقالت قريش : يزعم محمدا أنه يعرف خبر السماء ، وهو لا يعرف ناقته ؟ فنزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أما أنا فلا أعلم . الا ما أعلمنى الله به . وان الله قد أخبرنى : انها بموضع كذا) فانطلقوا . فوجدت حيث ذكر . قد حبستها هناك شجرة .

وقوله لفاطمة الزهراء رضى الله عنها ـ ابنته ـ : (انك أول أهل بيتى لحوقا بى) فكانت أول من مات من أهل بيته .

وأخبر بأهل الردة والخوارج ، وعرف بعلاماتهم . فوجد ذلك كما أخبر .

والأخبار فى ذلك أكثر من أن تحصى ، يضطر الواقف عليها الى العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم .

* * *

الفصل الثانى عشر : فى عصمة الله له ممن أراد كيده :

وذلك من أبلغ آياته . صحت الروايات وثبتت الطرق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرس ممن يريد ضره لكثرة أعدائه ، ولطلبهم غرته . حتى نزل : « **والله يعصمك من الناس** »[١] فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة . وقال لحارسيه : (يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى ربى) فلم يقدر أحد أن يصيب منه مقتلا ، مع حرصهم على ذلك .

---

(١) المـائدة : ٦٧

ومن ذلك ما صح أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل منزلا فى بعض غزواته . فقال تحت شجرة . فأتاه أعرابى فاخترط سيفه . فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : (الله) . فرعدت يد الأعرابى ، وسقط سيفه من يده ، وضرب برأسه الشجرة ، حتى سال دماغه . وقد اتفق مثل هذه القصة لعذرة بن الحارث . فأسلم ورجع الى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس .

وقد روى أن هذه القصة كانت يوم بدر . وكذلك وقع مثل هذه القصة بذى أمر لدغشور بن الحرث . وكان ذا نجدة وجرأة . فأسلم . فلما رجع الى قومه . قالوا : أين ما كنت تقول . وقد أمكنك . فقال : انى نظرت الى رجل أبيض طويل ، دفع فى صدرى ، فوقعت لظهرى ، وسقط السيف من يدى . فعرفت أنه ملك . وفيه أنزل الله عز وجل : **« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم »**(١) الآية .

وكانت امرأة أبى لهب — وهى حمالة الحطب — تضع الشوك فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنما يطأ كثيبا أهيل — يريد سهلا — ولما أنزل الله عز وجل فيها ، وفى زوجها : **« تبت يدا أبى لهب وتب »**(٢) الى آخر السورة . أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد ، ومعه أبو بكر ، وفى يدها « فهر » من حجارة . فلما وقفت عليهما لم تر الا أبا بكر . وأخذ الله ببصرها عن نبيه عليه السلام . فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى . والله لو وجدته ، لضربت بهذا الفهر فاه .

ومن ذلك ما حدث به « الحكم بن أبى العاصى » قال : تواعدنا على أن نقتل محمدا حتى جئناه . فلما رأيناه سمعنا صوتا خلفنا . ما ظننا أنه بقى بتهامة أحدا . فوقعنا مغشيا علينا ، حتى قضى صلاته ، ورجع الى أهله . ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى اذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه .

ومن ذلك القصة المشهورة التى تؤذن بالكفاية التامة . وذلك أن قريشا اجتمعت على قتله ، وبيتوا ليدخلوا عليه بيته ، فعلم بهم .

---

(١) المائدة : ١١

(٢) المسد : ١

فقال لعلى : تحول على فراشى ، ففعل • ثم خرج عليهم ، ودر التراب على رؤوسهم ، فلم يروه • حتى دخلوا البيت ، فوجدوا عليا على فراشه ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ فقال لهم : قد خرج عليكم • وقد جعل التراب على رؤوسكم • فمد كل واحد منهم يده على رأسه ، فوجد التراب على رأسه •

وقد قيل : ان فى هذه القصة نزل قوله تعـالى : **« واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك • ويمكرون • ويمكر الله • والله خير المـاكرين »**(١) •

ومن ذلك ما اتفق لأبى جهل • وذلك أنه أخذ « ابل » رجل من العرب ، وتعدى عليه فيها ، فشكى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمنزل أبى جهل ، وصاح به • فخرج منتقعا لونه • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رد على هـذا ابله) فقال : نعم • ثم دخل مرة أخرى خائفا ، فصاح به ، فخرج فزعا ، متغيرا ذليلا • ففعل ذلك ثلاثا • ثم خرج فزعا ممتقعا لونه ، فانصرف الأعرابى • وألان القول للنبى عليه السلام ، فلامته قريش على (ذلك) فقال لهم : انه عرض لى دونه « فحل » من الابل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا أنيابه لفحل قط • وانه هم بى ليأكلنى • فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم • فقال : (ذلك جبريل • ولو دنا منه لأخذه) •

وكذلك أخذ « أبو جهل » صخرة ليطرحها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ساجد وقريش ينظرون • فلزقت بيده ، ويبست يداه ، الى عنقه ، فرجع القهقرى ، ورآه ثم سأل أن يدعو له ، ففعل • فانطلقت يداه • وكذلك تواعد مرة أخرى ، مع قريش لئن رأى محمدا يصلى ، ليطأن رقبته ، فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة أعلموه • فأقبل نحوه ، فلما قرب منه ولى هاربا ناكصا على عقبيه ، متقيا بيديه ، فسئل عن ذلك • فقال : لمـا دنوت منه ، أشرفت على خندق مملوء نارا كدت أهوى فيه ، وأبصرت هولا عظيما ، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض • فقال عليه السلام : (تلك الملائكة ، لو دنى لاختطفته عضوا عضوا) فأنزل الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم : **« كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى »**(٢) الى آخر السورة •

---

(١) الأنفال : ٣٠ — (٢) العلق : ٦ ، ٧

ومن ذلك حديث « شيبة » أنه أدرك النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين • فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان « حمزة » قد قتل أباه وعمه • فأتاه من خلفه • قال : فلما دنوت منه ، ارتفع الى شواظ من نار ، أسرع من البرق ، فوليت هاربا وأحس بى النبى صلى الله عليه وسلم فدعانى • فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق الى • فما رفعها الا وهو أحب الخلق الى •

ومن ذلك حديث « فضالة بن عبيد » قال : أردت قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه • قال : (أفضالة ؟) قلت : نعم • قال : (ما كنت تحدث به نفسك ؟) قلت : لا شىء • فضحك ، واستغفر لى • ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبى • فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه •

ومن ذلك خبر « عامر بن الطفيل » و « أربد بن قيس » وذلك أنهما وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقتلاه • فقال عامر لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد • فاضرب أنت • فلم يفعل « أربد » من ذلك شيئا • فلما كلمه « عامر » فى ذلك • قال له : والله ما هممت أن أضربه الا وجدتك بينى وبينه • أفأضربك ؟

ومن ذلك الخبر المشهور خبر « سراقة » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجرا للمدينة • لم يعلموا بخروجه ، فبعثت قريش فى طلبه فى كل وجه حتى جعلت لمن يأتى به جعلا : مائة ناقة •

قال سراقة : فبينا أنا جالس فى نادى قومى • اذ أقبل رجل • فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا • انى لأراه محمدا وأصحابه • قال : فأومأت له — يعنى أن اسكت — ثم قلت : انهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم • قال : لعله • قلت : فمكثت قليلا • ثم قمت ، فدخلت بيتى • ثم أمرت بفرسى ، فقيد لى • الى بطن الوادى وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى • وكنت أرجو أن أرده على قريش • وآخذ المائة ناقة • قال : فركبت فى اثره • فلما بدا لى القوم فرأيتهم ، عثر بى فرسى ، وذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه • قال : ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالاعصار • قال :

فعرفت حين رأيت ذلك : أنه قد امتنع منى • وأنه ظاهر • قال : فناديت القوم : أنا سراقة • انظرونى حتى أكلمكم •

فقال له أبو بكر : وما تبتغى منا ؟ قال : قلت كتابا يكون آية بينى وبينكم • فكتب له أبو بكر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأمسكه عنده ، حتى كان يوم الطائف •

والأخبار فى هذا كثيرة ، والحكايات صحاح شهيرة ، لا يمكن جحدها ، ولا ينكر حصول العلم عندها ، بل كلها تدل على صحة نبوته ، وتصديق شريعته ، وأنه كما قال الله عز وجل : **« وما محمد الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل »**(١) •

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب ، أو تدخل تحت عد وحساب وعند الوقوف على ما تضمنته الفصول المتقدمة ، والأبواب السابقة ، يحصل العلم الضرورى بصدقه فى رسالته ، وبوجوب اتباع شريعته • ومنكر ذلك معاند متواقح جاحد •

« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(٢) وقد نجز غرضنا من هذا الباب •

فان قال قائل من النصارى والمخالفين لنا : ما ذكرتموه من معجزات نبيكم • انما يثبت عندكم من أخبار الآحاد • وهى وان كانت صحاحا فلا يحصل بها العلم ، كما كنتم قدمتم ، حيث تكلمتم مع النصارى ، حين استدلوا على اثبات نبوة مسيحهم •

فانكم قلتم : لا نقبل فى مثل هذا الموضع خبر ، من تجوز العادة عليه الكذب والغلط • وانما نقبل فيها : خبر من لا تجوز عليهم العادة ، الكذب والغلط ، وهو الخبر المتواتر • ثم انكم قبلتم هنا أخبار من تجوز العادة عليهم الغلط والكذب ، وهى أخبار الآحاد • فقد خالفتم ما أصلتم ، وقبلتم عين ما أنكرتم •

قلنا فى الجواب عن ذلك : اعلم أيها المعترض • أنا لم نقبل فى هذا الباب الا الأخبار المتواترة التى يحصل العلم بها • لكن ينبغى أن

---

(١) آل عمران : ١٤٤ — (٢) الشعراء : ٢٢٧

تعلم أن المتواتر ضربان • ضرب يتواتر لفظه ومعناه • وذلك مثل قوله تعالى : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين** »[1] فان هذا اللفظ نعلم قطعا ويقينا : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قاله ، كما تلوناه من غير زيادة ولا نقصان • اذ قد نقله عنه الجم الغفير ، عن الجم الغفير ، فلا يتطرق اليه وجه من وجوه الشك ، فلا يقدر أحد أن يتشكك فى لفظه ، ولا فى معناه ، وكثير من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم المتقدمة الذكر من هذا القبيل • فهذا هو الضرب الأول •

وأما الضرب الآخر • وهو متواتر معناه دون لفظه ، فيحصل العلم أيضا بذلك المعنى • وذلك مثل أن تتوارد روايات كثيرة من أخبار الآحاد الصحاح على معنى واحد ، بألفاظ متغايرة ، وحكايات مختلفة • مثال ذلك : أنا نجد من أنفسنا علما قطعيا بشجاعة « على بن أبى طالب » رضى الله عنه • فاذا نظرنا فى الخبر الذى حصل لنا العلم بشجاعته ، لم نجده خبرا واحدا متواترا • وانما وجدناه جملة أخبار آحاد تواردت على معنى واحد ، وهو الشجاعة • فتسمع عنه يوما أنه فعل يوم خيبر كذا ، وفعل يوم حنين كذا ، ويوم صفين كذا ، ويوم الجمل كذا ، فلا تزال أخبار الآحاد تكثر حتى يضطر السامع الى العلم بمخبرها ، ولا يقدر على تشكيك نفسه فى شىء منها • وهذا مسلك فى تحصيل العلم • اذا تفقده العاقل المنصف من نفسه وجده مفيدا للعلم ، ومحصلا له ضرورة • ومن أنكر حصول العلم منه ، كان منكرا لما هو ضرورى •

فاذا ثبت هذا • قلنا بعده : ان ما نقلناه من معجزات نبينا عليه السلام ، منها ما تواتر لفظه ومعناه كانشقاق القمر وغيره • ومنها ما تواتر معناه ، وهو أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة • وذلك أن كل فصل منها اشتمل على معنى واحد وكثرت الأخبار عن ذلك المعنى ، حتى اضطر الواقف عليها الى العلم بمعناها ، وذلك مثل نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل ، والطعام القليل ، الى غير ذلك من الفصول فكل فصل منها قد تواتر معناه • وان لم تتواتر آحاد ألفاظه •

---

(١) آل عمران : ٨٥

ثم هذه الفصول بجملتها يحصل منها العلم القطعى ، واليقين الضرورى : بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كانت العادات تنخرق على يديه ، معجزة له • اذ قد تواردت جميع أخبار هذه الفصول على هذا المعنى •

فحصل من هذا : أنا لم نستدل على اثبات نبوة نبينا محمد ، بأخبار الآحاد • وانما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة ، المحصلة للعلم • والحمد لله •

والنصارى فيما أوردوا لم يستدلوا هكذا ، ولا عندهم علم من هذا ، وكفى أنهم فى ضلالتهم يعمهون • وفى شكهم يترددون •

عصمنا الله من الخطأ والزلل ، فى القول والعمل • بكرمه وجوده •

* * *

الفصل الثالث عشر : فى ما ظهر على أصحابه ، والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات :

اعلم • أن غرضنا فى اثبات هذا الفصل شيئان :

أحدهما : أن نبين : أن ما ظهر على أصحابه ، وعلى أهل دينه من الكرامات ، هو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الآيات • وذلك أن الله تعالى اذا أكرم واحدا منهم بأن خرق له عادة • فان ذلك يدل : على أنه على الحق ، وأن دينه حق • اذ لو كان مبطلا فى دينه ، متبعا لمبطل فى دعواه ، كاذب فى قوله على الله • لما أكرمه الله • ولا أكرم من اتبع دينه •

فعلى هذا نقول : ان كل كرامة لولى • انما هى آية للنبى الذى يتبعه ذلك الولى ، فهذا أحد الغرضين وهو أهمهما •

والغرض الثانى : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • وان كانوا قد أكرمهم الله بكرامات خارقة للعادات فلا يعتقد فيهم أنهم أنبياء • كما فعلت النصارى بالحواريين • بل يعتقد فيهم : أنهم أولياء الله ، وأصحاب رسول الله ، تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرعه ، وبلغوا عنه قوله ، وفعله • فبذلوا فى اظهار دين الله أنفسهم وأموالهم ، حتى أظهر الله على كل الأديان دينهم ، وايمانهم •

كما قال الله تعالى فيهم : « **محمد رسول الله . والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** »[1] .

ونحن الآن نذكر بعض ما أكرمه الله تعالى به .

من ذلك : ما علمنا من أحوالهم على القطع . وذلك أنهم بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرضوا لقتال كل من خالفهم من أهل الأرض يهوديهم ونصرانيهم ، مجوسيهم ووثنيهم ، عربيهم وعجميهم ، على قلة عددهم ، ونزارة عددهم . فقارعوا الأبطال ، وسبوا الذرارى والأموال ، وأسروا العتاة ، وقتلوا الرجال . وعلى هذا انقرض عصرهم .

ومع ذلك فلم يرو قط عنهم : أنهم ولوا مدبرين ، ولا رجعوا منهزمين ، بل كانوا يرجعون غالبين ، وبعدوهم ظافرين ، وعليهم ظاهرين . هذا مع كثرة من كان يجتمع عليهم من عدوهم ، ومن وقف على فتوحات الشام ، علم أن دين الحق ، هو دين الاسلام . فلقد اجتمع عليهم من عدوهم بالشام ثلاث مائة ألف . ونحوها ، بل قد قال « الواقدى » : « ثمان مائة ألف من النصارى المستعربة وغيرهم . وهم زهاء ثلاثين ألف ، خيلهم ورجلهم » فقارعوهم مقارعة الكرام ، وصبروا صبر من صدق ما وعده به نبيه محمد عليه الصلاة والسلام . فأظفرهم الله عليهم ، ومنحهم رقابهم ، وأورثهم أموالهم وديارهم .

وهكذا فعل الله معهم ، غير ما مرة ، ولا يشك فى أن هذا كرامة من الله لهم ، وأمر خارق للعادة فى حقهم ، فان العادة : أن من أكثر من مقارعة الشجعان ، فلا بد له من أن يصاب ، ولو فى وقت من الزمان ، وما اتفق لهم — وان كان كرامة لهم — فهو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وانه قد كان بشرهم بذلك ، وأخبرهم بكل ما طرأ لهم هنالك .

فقد ثبت أنه عليه السلام قال : (تغزو قيام من الناس . فيقال لهم : هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم . فيفتح لهم . ثم تغزو قيام من الناس . فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم .

---

(١) الفتح : ٢٩

فيفتح لهم • ثم تغزو قيام فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقال : نعم • فيفتح لهم) •

وهذا منه صلى الله عليه وسلم : اخبار بنصر أصحابه ، ونصر تابعيهم ، وتابعي تابعيهم ، ثلاثة قرون • وهذه الأعصار ، هكذا انقرضت ، لم يزل نصر الله لهم ، وعونه معهم ، تصديقا لنبيه ، واكراما لأصحابه ، رضى الله عنهم ، وجازاهم عنا بأفضل ما جازى أحدا عن أحد •

ومن ذلك ما ظهر على أحد منهم مما قدمنا ذكره ، حيث ذكرنا : أن طائفة منهم أكلت السم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يضرها • وقد ذكرنا حديث المرأة المهاجرة التى مات ابنها • فقالت : اللهم ان كنت تعلم أنى هاجرت اليك ، والى نبيك ، فلا تحملنى هذه المصيبة ، فحيى ، وأكل معهم • وكذلك ذكرنا مقالة « ثابت بن قيس بن شماس » بعد موته • وكلام « زيد بن خارجة » بعد موته فيما تقدم ، فلا معنى لاعادته • فلتنظر فيما تقدم •

ومن ذلك خبر « ابن عمر » رضى الله عنه • أنه كان فى بعض أسفاره ، فلقى جماعة وقفوا على الطريق خوفا من السبع ، فطرد السبع عن طريقهم • ثم قال : انما يسلط الله على ابن آدم ما يخافه ، ولو أنه لم يخف غير الله لم يسلط عليه شىء •

ومن ذلك حديث « العلاء بن الحضرمى » بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ، فحال بينهم وبين الموضع الذى يريدونه « قطة » من البحر ، فدعا الله باسمه الأعظم ، ومشوا على المـــاء •

ومن ذلك أن « عباد بن بشير » أو « أسيد بن حضير » خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج • وقد قدمنا مثل هذا •

ومن ذلك أن « سلمان » و « أبا الدرداء » كانت بينهما قصعة ، فسبحت ، حتى سمعا تسبيحها ، وقد تظاهرت الأخبار : بأن جماعة منهم رأوا الملائكة ، وكانت تسلم عليهم مثل « عمران بن حصين » و « أسيد ابن حضير » والأخبار فى هذا كثيرة •

وأما التابعون ، فقد ظهرت لهم من الكرامات والخيرات ما لا يمكن استيفاء ذكره فى هذا الكتاب .

فقد كان كثير منهم يمشى على المـاء ، ويطير فى الهواء ، وينظر الى الحصى فيصير جواهر ، وينظر الآخر الى الأرض بين يديه ، فيصير ذهبا ، وتطوى له الأرض ، ويتوضأ ، فيسيل المـاء من بين يديه قضبان ذهب . ويدعو الله تعالى فيبرئ المرضى والمجانين ، والزمناء ، الى ما لا يحصى كثرة .

وقد دون من هذا كثير ، يقضى منه العجب فى كتب كرامات الأولياء . ولو لم يكن من هذا ، الا قبر « معروف الكرخى » الكائن ببغداد ، لكان فيه كفاية ، وأعظم آية . وذلك أن قبره يستشفى به ، ويدعى الله عنده ، فيشفى المريض ، وتقضى الحاجة ، حتى أن أهل بغداد ، يقولون : قبر معروف الكرخى ، ترياق مجرب .

وبعد هذا

أقول للنصارى : وليست هذه الأمور العجيبة ، والأفعال الغريبة من قبيل الحيل والنيرجات ، التى تعظمون بها أديانكم ، وتموهون بها على عوامكم ، وتضيفونها الى هذيانكم .

فلقد حكى لنا : أنكم تمخرقون على ضعفاء العقول منكم بخرافات وترهات ، مثل ما وصف عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم . وذلك أنكم تزعمون أن يد الله المسيح تظهر بها فى يوم واحد من السنة من وراء ستر . وهذا مشهور عندكم .

ولقد حكى لنا من يوثق بحديثه : أن رجلا من اليهود كان قد حظى عند أحد رؤسائكم بالأندلس . بوصلة كانت بينهما . فرام الرئيس أن يخرج اليهودى عن دينه ، ويدخله فى دين النصرانية . وقال له : الا ترى هذه الأعجوبة : ظهور يد الله المسيح لنا فى يوم معلوم من السنة ؟ فقال له اليهودى : يا مولاى . أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك ، وصدقتك عليه . فابحث عنه . فان كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقا . دخلت فى دينك ، فخالط الرئيس الشك . فلما دنا ذلك اليوم ، مشى ذلك

الرئيس الى ذلك المشهد . وقرب مالا ، يهديه هنالك ، فبرز اليه الأساقفة ، وقربوه لتقبيل اليد . فلما ظهر له من وراء الستر ، وضع يده فيه ، فصاحوا به ، وأغلظوا له القول . يقولون له : اتق الله . الآن تخسف بك الأرض . الآن تقع عليك السماء . الآن ترسل عليك الصواعق . فقال لهم : دعوا عنكم هذا كله . فان هذه اليد ، لا أخل يدى عنها حتى أعلم حقا ما تصفون عنها ، أم باطلا .

فلما رأوا الحجة فروا عنه ، ولم يبق معه الا اثنان . أسرا اليه ، وقالا له : ما تبغى فى ذلك ؟ أصبوت عن دين آبائك ؟ أتريد أن تحل ربطا ، ربط منذ ألف سنة أو نحوها ؟ قال : لا . ولكنى أحب الوقوف على سر هذه اليد . فقالا : هى يد الأسقف ، واقف خلف هذا الستر . فقال : أحب أن أراه . فقالا : أنت وذاك . فكشفا له عن « قس » مجدود الخدين ، واقف خلف هذا الستر ، فلما عاينه الرئيس أرسل يده ، وخرج الى عسكره . فقال له اليهودى : يا مولاى ما تأمرنى به ؟ أأدخل فى دينك ، وأخرج عن دينى ؟ فقال له : رأيك . خرجت منه ، أو فلا خرجت .

وكذلك وصف لنا عن صليب فى بعض مشاهدكم المعظمة عندكم يمشى اليه الناس ليتعجبوا منه ، وهو واقف بين السماء والأرض ، وان بعض رؤسائكم سأل عن ذلك كاتبا له يهوديا ، فتفطن اليهودى الى أن ذلك الصليب : حديد ، تمسكه أحجار المغناطيس . فبحث عنه فوجد كذلك .

وكذلك . وصف عن « الثريا » التى فى كنيسة الغراب ، وحيلتها : حيلة الصليب . وكذلك كنتم تذكرون أن هذه الكنيسة ينزل فيها نور ، يوقد ذبال الثريا المذكورة ، فى ذلك اليوم المشهود . فذكر ذلك لأحد ملوك بنى أمية بالأندلس ، فتعجب من ذلك . وسأل عن ذلك ، فأخبره رجل من أهل افريقية بحيلتها ، وذكر أنهم مدوا مع الحائط : قصبة حديد ، ضيق جوفها ، وأبرزوا لها أنبوبا كسم الخياط . موضعه موزون مع طرف الثريا .

ثم انهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط ، فى القصبة متراكما ، حتى يخرج فى غاية القوة ، الى ذبال الثريا ، الذى هو فى زنة واحدة معه .

ووصف ذلك الافريقى مع ذلك حيلا فاحتال ذلك الأمير على الكنيسة فى أحد غزواته ، وقد دنا يومها ذلك • فدعى الافريقى ، وكان معه ، فسأله كشف ذلك • فعمد الافريقى فاستخرج منه قناة من الصفر ، على نحو ما كان ذكر • وعمد الى سماء الثريا ، فاستخرج منه حجرا من المغناطيس ، فسقطت • فأمر الأمير عند ذلك بمعاقبة القسيس •

وكذلك كنتم تزعمون : أن مريم نزلت من السماء ، على « دون اذ فنتش » المطران • بجامع « طليطلة » وكست رأسه بقجيلة ، وجسمه بثياب مزينة • وذلك فى ليلة النصف من شهر « أغشت » فتعظمون تلك الليلة تعظيما شنيعا •

وذلك كله انما يصح عليكم ، لجهلكم بالأمور كلها ، حقها ، وباطلها • حتى أنكم تصـدقون بالبـاطل والترهات • وتكذبون بالحق كله ، وباليقينيات • فردكم لغير معنى • وقبولكم لغير معنى • فلذلك لم تعدوا من العقلاء ، ولم تضربوا بسهم النبلاء •

ولقد أورد بعض حذاقنا ، المجترئين على الكلام : على النصارى فى كذبهم نزول مريم على « دون اذ فنش » الزامات • نبهت النصارى ، ولا محيص لهم عنها •

فقال لهم : أخبرونا عن نزول مريم الذى تزعمون • هل كان باذن سيدها ، أو بغير اذنه ؟ فان قلتم : كان باذنه • فكيف يجوز عليه أن يمتهن أم ولده — بزعمكم — فى حق عبده ؟ وهلا كان يرسل عبدا من عبيده ويصون أم ولده ؟

هذا يدل على عدم الغيرة • ولو فعل ذلك الواحد منا ، لعرض نفسه وزوجته للتهم • ولتضاف اليه النقائص ، وينسب الى همته الخسة •

وان قلتم : كان ذلك بغير اذن منه • فكيف ينبغى أن تخونه ؟ مع أن الله قد اصطفاها على نساء العالم ، واتخذها أم ولد — بزعمكم — فتنزل بغير اذنه الى رجل من جنسها بكسوة ، وثياب مزينة فى كنيسة خالية • وهذا محل خيانة •

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وسبحانه عما ينسب اليه الجاهلون بكرة وأصيلا • وأستغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم ، وأسأله التوبة من حكاية هذه القبائح ، ومن رواية هذه الفضائح •

فالحمد لله ، الذى أعاذ الاسلام من هذه الرذائل ، وخصه بكل الفضائل التى يستحسنها كل عاقل ، ويتدين بها كل فاضل • ويتميز عندها الحق من الباطل •

* * *

(انتهى الجزء الثالث من كتاب « الاعــلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهــام ، واظهار محاسن دين الاسلام ، واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » ويليه الجزء الرابع باذن الله • وأوله : الباب الرابع : فى بيــان أن النصــارى متحكمون فى أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم الا محض أغراضهم وأهوائهم) •

الباب الرابع

فى بيان أن النصارى متحكمون فى أديانهم

وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم الا محض أغراضهم وأهوائهم

هذا الباب يشتمل على صدر • وفنين •

الصدر : وفية فصلان •

والفن الثانى : فية فصلان •

الفصل الأول

ليست النصارى على شئ

اعلم أيها العاقل ــ وفقك الله ــ أن النصارى أضعف الناس عقولا ، وأقلهم فطنة وتحصيلا • فهم لذلك يعتقدون فى الله المحالات ، وينكرون الضروريات ، ويستندون فى أحكامهم الى الخرافات • فتارة يسندون قضاياهم الى منامة رأوها أو خرافة سمعوها ، وما وعوها ، وأخرى تحكم فيهم « متقسس » جاهل ، بمحض الجهل والهوى والأباطل • من غير أن يستدل على جواز شىء مما يريد أن يفعل من الأفاعيل ، لا بتوراة ولا بانجيل بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ، ويتأولهما تأويل منسلخ عن الملين ، وربما تنزل بهم عظام النوازل فيجتمعون لها فى المحافل ، فيتحكمون بأهوائهم ، ويقولون فيها بآرائهم ، فيحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله « **افتراء على الله • قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين** »(١) •

ونحن نبين ذلك ونستدل عليه ــ ان شاء الله تعالى ــ على طريقة الانصاف من غير اعتساف • فأما كونهم يعتقدون فى الله المحالات ، وينكرون الضروريات • فقد بيناه فيما تقدم • فمن أراد أن يعرف ذلك فليعد نظرا هنالك •

وأما كونهم يستندون فى أحكامهم الى الترهات والمنامات ، فيدل عليه : ما حكيناه فيما تقدم من خبر « بولش » فانه احتال عليهم ، حتى صرفهم عن دين المسيح • وقولهم من المذاهب والآراء كل قبيح • فصرفهم عن قبلتهم ، وأحل لهم ما حرم عليــهم ، وفرق جماعتهم ، وشــتت كلمتهم • فتم له كل مكــر ، على كل غبى غمــر • وقــد قدمت حديثه فى باب النبوات على الوفاء • وكذلك خبر « قسطنطين

---

(١) الأنعام : ١٤٠

ابن هيلانة » فانه لما رأى ملكه يختل ، ونظامه لا يستقيم ، ولا يتحصل باختلاف رعيته عليه ، وقلة انقيادهم اليه • جمع وزراؤه ، وشاورهم فاجتمع رأيهم أن يتعبد القوم بطلب دم ، وأن يشرع لهم شريعة ينسبها للمسيح • فكتب لهم ما بأيديهم من الانجيل أو أكثره ، وتعبدهم بالصلوبية ، وشرع لهم ترك الختان • وغير ذلك من الأحكام التى وافقته ، وجاءت على اختياره ، وأكد ذلك بمنامة رآها ، ذكر فيها أمر الصليب • فتم له مراده فيهم • وخبره معروف عندهم ، وعند غيرهم • وقد قدمت بعضه فى باب النبوات أيضا •

وأما كونهم يحكمون بآرائهم وأهوائهم • فيدل على ذلك : ما أودعوه كتب محافلهم ، وما عليه الآن معظم عملهم ، ومن طالع تلك الكتب ، قضى من جهلهم وجرأتهم على الله كل عجب • فان قالوا : انما نحكم بالمصالح ، وهى عندنا أصل راجح • قلنا لهم : ان كانت المصالح عندكم أصلا تعولون عليه ، وتسندون أحكامكم اليه ، فمن الذى أصلها لكم ؟ فان كنتم أصلتموها لأنفسكم فقد تحكمتم فى الأصل والفرع ، ثم يلزمكم من هذا القول : الاستغناء عن الشرائع • وأن ما شرع الله من الأحكام فى التوراة عبث ، لا معنى له ، ولا فائدة • اذا فى النظر فى المصالح غنى عنها •

وان كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح • فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم • واذا لم تستدلوا على ذلك ، فدعواكم باطلة ، وحجتكم داحضة •

ثم نقول لهم : هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح ، فهل شرعوا العمل بالمصالح ، كيف ما كانت المصلحة مطلقا ؟ أو عينوا لكم نوعا من المصالح ؟ فان كانوا قد عينوا ، فينبغى لكم : ألا تتعدوا ما عين لكم الأنبياء • فما بالكم تسترسلون استرسال من يحكم بهواه ، ولا يخاف الله • ولا يخشاه • وان كانوا أطلقوا لكم القول بالمصالح • وقالوا لكم : مهما ظهرت لكم مصلحة كائنة ما كانت ، فاعملوا بمقتضاها • فكان يلزم على هذا اسقاط كثير من أحكام التوراة بالمصالح والرأى • كما فعل « بولش » حيث قال لهم : « هل رأيتم سارحة تسرح من عند ربها ، ولا تخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قال : فانى رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج انما تجىء من هاهنا — يعنى الشرق — وما أوجب ذلك

الا وهو أحق الوجوه أن يصلى اليه . قالوا له : صدقت » .

فردهم عن استقبال بيت المقدس ، الى استقبال جهة الشرق لهذا الهذيان . ثم قال لهم بعد زمان : « رأيت رأيا . قالوا : هات . قال لهم : ألستم تزعمون أن الرجل اذا أهدى الى الرجل هدية ، وأكرمه بالكرامة فردها شق ذلك عليه . وأن الله سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل ما فى السماء لكم كرامة . فالله أحق ألا ترد عليه كرامته . فما بال بعض الأشياء حرام ، وبعضها حلال . ما بين « البقة » الى « الفيـل » حلال . قالوا : صدقت » .

وهذا محض الجراءة على الله ، والافتراء على شرائع الله ، ولم يصر قط أحد من المتشرعين الى مثله ، ويلزم عليه : أن يكون كل من أراد أن يشرع شرعا : شرعه ، فيكون العقلاء كلهم شارعين ، ويستغنى عن رسل رب العالمين . وهذا غاية الكفر والضلال ، وهو لازم على مذهب أولئك الجهال . فقد ظهر من هذا الفصل : أنهم لا يستندون الى شىء ، وأنهم ليسوا على شىء « **ألا انهم هم الكاذبون** »(١) .



(١) المجادلة : ١٨ .

الفصل الثانى

خروج النصارى على تعاليم التوراة والإنجيل

أريد أن أبين فى هذا الفصل : أنهم يخالفون كتبهم ، ولا يعملون بمقتضاها • بل يتركون العمل بها ابتداء ، ويقولون : تأولناها •

وذلك أن الله تعالى حرم فى التوراة : أكل الميتة ، والدم ، والخنزير ، والنطيحة ، والموقوذة ، والمنخنقة ، والقردة ، والشحوم التى لا تختلط باللحم ، والأرانب ، والأسد ، والدب ، واللب ، والفرس ، والبغل ، والحمار ، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر • ومن الطير : البازى ، والعقاب ، وكل طير يبغى بالمخالب ، ومن حيوان المآكل : حوت ليس له « سفانق » •

ــ هذا وجدناه فى كتبهم التى نقلنا منها « سفانق » وهو تصحيف منهم • وانما هو « سفاسق » وهى الطرائق عند الدرب • ومنه قيل : « سفاسق السيف » وهى طرائقه ، وفرنده • ذكره أبو عبيد فى الغريب المصنف ــ

ومنع حرث الثور مع الحمار ، وحمل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، وطبخ الجدى فى لبن أمه ، وأخذ الطير فى أعشاشها بفراخها ، وأكل الجزارة الملتصقة رئتهـا ، وأكل الخبز المختمر فى الفصوح ، ولا تقرب قربان الا بخبز فطير ، ومنع شحوم البقر ، وشحم الشاة ، ومنع قربان الحمام واليمام •

فهذه المذكورات كلها محرمة بنصوص التوراة التى لا تقبل التأويل • اذ قد عملت أنبياء بنى اسرائيل على مقتضاها ، ولم يغيروا شيئا منها •

وكذلك عيسى عليه السلام لم يغيرها عن مقتضياتها ، ولا نسخها • بل أقرها بالعمل ، وأمر بمقتضاها •

وان ادعوا نسخ شيء منها ، طالبناهم بدليل النسخ ، ولا يجدون سبيلا الى ذلك • ومع ذلك فتركوا العمل بما أمر الله به ، وارتكبوا ما نهى الله عنه •

ولقد وقفت على بعض كتبهم فى الفقه ، فذكر هذه المحرمات مؤلفة ثم تأولها بزعمه • وأنا الآن أذكر ما ذكر فى ذلك الكتاب ، ليقضى العاقل من تواقحهم وجهلهم : العجب العجاب • ويعلم أنهم مفترون ، ويكذبون على رب الأرباب •

قال ذلك الجاهل بعد ذكر المحرمات : « فهذه أمثلة ضربت فى التوراة ، التى هى أم الانجيل ، وأول الكتب كلها ، ففسر المسيح سيدنا فى الانجيل • حيث قال : « لم آت لنقض الكتاب ، بل لتمامه » فتمام الكتاب التأويل •

فأما الميتة فى التوراة • فانما نعنى بذلك : ألا تميتوا الأحياء ، ولا تغموا الحق فى الشهادة ، ولا ترفعوا الطعام ، وتمنعوه السائل والجائع • فأما الميتة والمنخنقة ، فما فى أكلها غبطة ، لذى عقل • فمن شاء أكل ، ومن شاء ترك • وأما الدم فيعنى به ألا يقتل أحد بريئا ، ويهريق دمه ، وعنى بالخنزير : الزنا ، والكفر بالله • اذ المعروف من الخنزير : الالتطاخ فى المطائق ، فنهانا عن فعله • وأما أكله • فما فيه منفعة ولا مضرة ، فمن شاء أكله ، ومن شاء تركه ، وعنى بالنطيحة ألا يتناطح ملك جبار ، وفقير مسكين • وعنى بالموقوذة ألا تزدرى بمن هو تحت ظلم غيرك • وعنى بالمنخنقة ألا تخنق أحدا ، اذا كان لك قبله حق فتضايقه ، وعنى بالقردة ألا تحاكى أحدا ، فتفعل كفعلها ، وعنى بالدب واللب ألا تأكل مع غيرك بالهجم والغارة • وعنى بالأرانب ألا تفعلوا فعل الأرانب ، فتكونوا كقوم لوط • فان الأرانب الذكور يأتى بعضها بعضا لكثرة شهوتها •

وعنى بالبازى ، والشدانق ، والعقاب ، وكل طير يبغى بمخلبه : ألا يقتل أحدا ، ولا يهريق دم أحد ، ولا يغلب أحدا على متاعه ، ولا تحسد جارا فتفعل كفعلها ، وعنى بالدابة التى ليست مشقوقة الحافر : الكفرة ، الذين يعبدون الأوثان ، ويسبحون لها أيام حياتهم ، ولا يقسمون أيامهم مشاطرة •

وعنى بالحوت الذى ليس له سفانق : الانسان المذنب الذى يتلون فى دينه ، وعبادته ، وعنى بحرث الثور مع الحمار : الانسان الكافر • وعنى بحمل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، ألا يتزوج الكافر مؤمنة ولا المؤمن كافرة •

وعنى بالجدى فى لبن أمه : ألا تأخذ مال اليتيم ظلما ، وعنى بالملتصقة الرئة : الانسان الحسود ، الحقود ، الذى يوسوس الشر فى صدره ، طول حياته ، وعنى بالخبز المختمر : ألا ينفخنا الشيطان ، ويهيج فينا الكبرياء • وعنى بالفطير : أن تكون أنفسنا ضامرة بلا انتفاخ •

وعنى بالحمـــام واليمام : المؤمنين الذين جعـــلوا أنفسهم لله قربانا » اهـ •

قال : « فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء • وأما تلك المذكورات بأعيانها ، فمن شاء أكلها ، ومن شاء تركها » اهـ •

هذا مذهب النصارى أجمعين ، ولا يأباه أحد منهم الا الأقلين • فينبغى لنا أن نوبخ هؤلاء الجاهلين ، ونعرض عليهم من الالزامات المفحمة ما كانوا عنه معرضين • ونقول لهم : ما الذى حملكم على أن حرفتم كتاب الله • وغيرتم شرع الله ، فأحللتم ما حرم عليكم من غير دليل ، وصرتم الى تأويل ، لم تضمكم اليه ضرورة عقل ولا معارضة قول رسول ؟ فيا للعجب ما أثقب أذهانكم ، وأصح أفهامكم اذ قد فهمتم من كتاب رب العالمين ، ما لم يفهمه أحد من النبيين ، بل قد زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران ، وعيسى عليهما السلام • اذ كانا قد عملا على تحريم ما فهمتم أنتم تحليله من الأحكام •

وعلى ذلك عملت بنو اسرائيل مدة مديدة من الأعوام الى زمان « بولس » المفسد لدين المسيح ، الذى جاءكم بمكر خالص ، وكفر صريح • فتلقيتم منه هذيانه ، ولم تعرفوا شأنه ، فحرفتم كتاب الله وانحرفتم عن الدين القويم ، دين المسيح ، حين حرف الدين • الذى لم تروا منه أثرا ، ولا سمعتم له خبرا •

ثم نقول : يا معشر المحرفين لكتاب الله • أخبرونا • هل كان موسى بن عمران ، وعيسى ابن مريم • ومن بينهما من أنبياء بنى اسرائيل ، علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم لا ؟ فان كانوا قد علموا فما بالهم

نصوا على خلاف ذلك ، وحكموا بتحريم تلك الأشياء ، فلم يرو قط عن واحد منهم : أنه أكل خنزيرا ، ولا ميتة ، ولا دما ، ولا شيئا مما ذكر تحريمه ، وأنتم تقولون هذا ، وتساعدون عليه • فكيف يمتنعون من أكل ما يحل لهم ، ثم يصرحون بتحريمه ؟ فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله ولبسوا فى أحكام الله • اذا كانوا علموا تحليل تلك الأشياء ، ثم صرحوا بتحريمها ، والنهى عنها • وان لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم • فمن أين علمتموه أنتم ؟ أشافهتكم بذلك الملائكة ، أم أرسل اليكم بذلك رسل أخر ؟ أم خلق لكم بذلك علم ضرورى ؟ وكل ذلك لا تقدرون على ادعائه ، فلم يبق الا أنكم جاهلون بشرع الله ، محرفون كتاب الله ، متواقحون على الله ، كاذبون عليه ، ومتهاونون برسله ، وستقفون بين يديه ، ويسألكم عما افتريتم عليه فتحيط بكم النيران ، وتجركم على وجوهكم اليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم انسان « **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين** » ؟(١) •

فتنادون اذ ذاك : يا أسقفنا « بولش » انظرنا • فما منا الا متخرق عاطش • فيقال لكم : هو فى أسفل سافلين ، فتصيروا اليه أجمعين • فاذا اجتمعتم معه ، لعن بعضكم بعضـــا ، وجحد بعضكم بعضا ، « **ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين** »(٢) •

ثم نقول لهم : ان جاز أن نتأول ألفاظ الشارع ، وكلماته من غير ضرورة داعية الى ذلك ، وندفع النصوص بالتحكم ، بطلت الكتب كلها والألسنة ، ولم يقدر واحد أن يفهم منها شيئا • اذ كل لفظ يتكلم به متكلم يمكن صرفه عن بابه ، وعن موضوعه الأصلى ونصابه •

واذا أمكن ذلك لم تقدروا على أن تثبتوا نبوة عيسى على اليهود ، بما قدمتم • فان من نص ماعندكم من كلام الأنبياء على نبوته قول يعقوب : « لا ينقطع قضيب الملك من نسل يهوذا ، حتى يأتى المسيح »(٣) فيسوغ لليهودى أن يقول : انما عنى بالملك : دينهم ، الذى ورثوه عن كتابهم وأنبيائهم • ولم يعن الملك الذى هو الامارة والولاية • وقد

---

(١) الزمر : ٦٠ (٢) العنكبوت : ٢٥

(٣) سـفر التكوين : ٤٩ : ١٠ — وتترجم حاليـا كلمة المسـيح بـ « شيلون » •

يسمى الدين : الملك • وقد جاء فى التوراة حيث قال الله تعالى لابراهيم : « الملوك من صلبك يخرجون »(١) وانما أراد بذلك الأنبياء ، وأهل الدين • ولم يرد بذلك الأمراء فقط •

وعلى هذا التأويل تحاجكم اليهود ، ويقولون لكم : هذا ديننا باق ، لم ينقطع • فانا نقيم التوراة وأحكامها ، فلم يأت بعد المسيح • وهذا التأويل فى هذا الموضع أسوغ مما تأولتم به أنتم أحكام التوراة •

فان أنكرتم هذا التأويل ، أنكروا تأويلكم ، وخطؤوكم ، وشهدوا عليكم أنكم غيرتم كتاب الله ، وحرفتموه •

هذا ما جنى عليكم تأويلكم ، اذ قد شككتم فى مسيحكم • ففى مثلكم يضرب المثل :

« يداك أوكتا ، وفوك نفخ » •

ولو شئنا لأبدينا لكم من التأويلات ، وأريناكم من المناقضات أكثر من هذا لفعلنا • ولكن منعنا من ذلك ما قدمنا • ولا يصح أن يقول قائل منهم : ان تحريم هذه المحرمات كلها التى تثبت فى التوراة : نسخ • بقول عيسى فى الانجيل : « ليس ينجس المرء ، ما يدخل فاه • وانما ينجسه ما يخرج من فيه »(٢) لأنا نقول : قول عيسى هذا اذا سلم مفهومه ، نفى التنجيس ، لا نفى التحريم • اذ هما حكمان متغايران مختلفان فان الحكم بتحريم هذه المذكورات انما يرجع الى منع أكلها • ثم يجوز أن تتناول بالأخذ والاعطاء وأنواع من التصرفات ، كما نقول فى الحمار الأهلى والبغل • فانه يحرم علينا أكله ، ويحل لنا تصريفه فى أنواع من المنافع غير الأكل • والحكم بالتنجيس : انما يرجع لمنع التناول مطلقا • أعنى يمتنع فيه الأكل والتصرف •

هذا اذا كان ذلك النجس محكوما بنجاسته مطلقا • فان حكم بنجاسته فى حال دون حال • كان ذلك • وصح أن يقال عليه أيضا : نجس • مثال ذلك : أن محكم الشرائع بأن العذرة يحرم علينا أن نصلى بها ، فلا يجوز أن نصلى بها ولا نحملها فى تلك الحال • ويجوز لنا أن نتناولها ونحملها فى غير حال الصلاة • فقد بان الفرق ما بين

---

(١) سفر التكوين : ١٧ : ٦

(٢) انجيل مرقس — الاصحاح السابع — الآية الخامسة عشر •

الحكم بالتنجيس ، والحكـم بالتحريم • ثم لو سلمنا أنهما اسمان للتحريم ، لمـا كان لتأويلكم السخيف ، معنى لطيف • فلأى معنى تأولتم ، وقلتم ما لا يصلح حمل اللفظ عليه ، ولم لم تقولوا : انه منسوخ • فهذا خطأ آخر وجهل لا يبوء به الا من كان مثلكم • فانه جمع بين التأويل والنسخ • وهما متناقضان •

فان معنى التأويل : أن اللفظ المؤول معمول به على وجه ، ومعنى النسخ : أن المنسوخ مرفوع الحكم على كل وجه ، غير معمول به أصـلا •

فقـد ظهر من الفصلين السابقين : أن هؤلاء القـوم متحكمون بأهوائهم فى دين الله ، تاركون للعمل بكتاب الله ، وسنن رسل الله **« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »**[١] **« فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »**[٢] •

وقد نجز غرضنا من الصدر ، فلنشرع فى الفن الأول الموعود •

* * *

---

(١) الكهف : ١٠٤ (٢) البقرة : ٧٩

الفن الأول

شعائر الدين النصرانى وطقوسه

غرضنا من هذا الفن : أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم ، ونبين فسادها ، وأنهم ليسوا على شىء فيها ، بل تركوا فيها نصوص التوراة والانجيل ، وعملوا بخلافها من غير حجة ، ولا دليل • ولقد كان لنا فيما قدمنا كفاية ، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم الى أقصى غاية ؛ لكنا أردنا أن نبين خطأهم وضلالهم فى أكثر قواعد دينهم ، حتى يتضح للناظر : أنهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم مبطلون ، وأنهم من كل وجه مضلون •

فنقول : اعلم أنه لو تصفح جميع ما انتحلوه من أديانهم لوجد مبنيا على ما مثل ما تقدم من هذيانهم •

لكنا نقتصر من ذلك على مسائل نباحثهم فيها • ونبين ضلالهم وتلاعبهم فى دينهم • فاذا فرغنا من هذا الغرض • ذكرنا فى الفن الثانى : جملة منأحكام شريعتنا ، ونقتصر من ذلك على ما عابوه علينا منها •

وانما فعلنا ذلك ، لأن هذا السائل الذى حركنا الى تأليف هذا الكتاب : هددنا بأن قال فى كتابه : « انى أبعث الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل ، التى لا تقدرون على انكارها »(١) فلو بصر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه ، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه • لكن جهل فقال ، وحيث وجب أن يسجد بال •

فنقول : يا هذا • ألنا يقعقع بالشنان ؟ آلآخذ بالحنيفية يدان ؟ كلا • والله • فليس مع الشمس سراج ، ولا شجر المرخ من الساج •
وها نحن نبتدىء بالمسائل تترى ان شاء الله تعالى •

---

(١) انظر الفصل الرابع من الباب الثالث ـ القسم الأول من كتاب « الاعلام » هذا •

مسألة فى المعمودية

أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية • وصفتها عندهم :

أن الذى يريد أن يدخل فى دينهم ، أو التائب منهم ، تتقدم « الأقسة » منه ، فيمنعونه من اللحم والخمر أياما ، ثم يعلمونه اعتقادهم وايمانهم • فاذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون ، فتكلم بعقيدة ايمانهم ، أمامهم ، ثم يغطسونه فى ماء ، يغمره • وقد اختلفوا • هل يغطسونه مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثا ؟ فاذا هو خرج من ذلك المـــاء ، دعى له الأسقف بالبركة ، ووضع يده على رأسه •

هكذا كانت صفة معموديتهم قديما فى « الأندلس » • وأما اليوم فلعلهم قد غيروا بعض أحكامها • وربما اختلفوا فى بعض تلك الأحوال • وهى عندهم عبادة مؤكدة ، وقاعدة ممهدة • ومن لم يقبلها عندهم فهو كافر ، وليس له من ذنوبه غافر •

وقد كتب الأسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » رســالة ذكر لهم فيها أمر المعمودية ، وفضيلتها • فقال : « المعمودية : هى اماتة الذنوب وقتلها • وتأويل الغطسات الثلاث : مكث المسيح فى قبره ثلاثة أيام ، والخروج عن المـــاء هو الخروج عن القبر » اهـ •

ومنهم من تأول فى هذه الغطسات الثلاث : أنه التثليث الذى يعتقـــدون •

وهذا التعميد لم يجر له فى التوراة ذكر ، ولم يشرعه الله قط لموسى • لكن كتب النصارى فى الانجيل : أن يحيى عمد عيسى بوادى الأردن ، فخرج منه روح القدس كالحمامة على المـــاء • وزعمت النصارى أيضا : أن عيسى قال للحواريين : « اذا مررتم بالأجناس ، فعمدوهم على اســـم الآب والابن والروح القدس » وزعموا أن « بيطر » عمد ثلاثة آلاف رجل فى يوم « نيقشتان » •

وهذه المسألة عندهم ظاهرة المستند ، قوية المعتمد • فانهم قد أسندوا نقلها الى الأنبيـــاء والحواريين كما تقدم • ولكنا مع ذلك

نطالبهم فيها مطالبات تؤذن بأنهم يرجعون الى الترهات . فنقول : سلمنا لكم جدلا ما ذكرتم من استناد المعمودية الى ما ذكرتم . لكن لم قلتم كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها نحن ؟ ولعل الله تعالى خص يحيى والحواريين بعمل المعمودية ، ولم يشرعها لغيرهم . فان ادعوا أن الله شرعها لهم كما شرعها للحواريين طالبناهم بالنص من كتبهم الذى به يجب على من دون الحواريين التعميد ، ولا يجدون شيئا من ذلك أبدا .

ثم نقول : لعل الحواريين ، ويحيى . انما عمدوا الناس لأن ماءهم كان مقدسا ، ودعاءهم متقبلا . لكون يحيى نبيا ، والحواريون كذلك عندكم . وأما أنتم فلستم أنبيـاء . وليس ماؤكم مقدسا فلستم مثلهم ، فكان ينبغى لكم ألا تعمدوا أحدا . لكنكم وضعتم لأنفسكم شرعا بالتوهم ، وزدتم فيه أمورا بالتحكم . ثم نقول : سلمنا جدلا : أن المعمودية شرع لكم . فمن أين زدتم فيها العدد ، ووضع اليد على الرأس ، والنفخ فى الوجه كما فعله بعض من مضى منكم ، ولم تكفرون من لا يستعملها ؟ ولم ينزل بشىء من ذلك سلطان ، ولا حكم بذلك انجيل ولا فرقان . لولا محض التلاعب بالأديان ، والتحكم فى دين الله والخذلان .

ثم نقول : هذا المـاءالذى تعمدون فيه . أهو مقدس . أو غير مقدس ؟ فان كان مقدسا فمن قدسه ؟ فان قلتم : ان الله قدسه . فمن أين علمتم ذلك ؟ ثم ان قلتم ذلك عورضتم بنقيضه . وقيل لكم : بل نجسه الله . وان قلتم : نحن قدسناه . قلنا : فمن أنتم حتى تقدسوا شيئا ؟ وهل يصلح أن يقدس من ليس بمقدس ، أو يطهر من ليس بمطهر ؟ بل أنتم مذنبون ، تتزايد ذنوبكم فى كل وقت وحين . فكيف تقدسون غيركم ، وأنتم لا تقدسون أنفسكم ؟ « فليت العجل يهضم نفسه » .

فحصل من هذا : أن ماءكم الذى تعمدون فيه غير مقدس . واذا كان كذلك فلأى شرط تشترطون فى المعمودية أن تكون بالمـاء ؟ وهلا عمدتم فى البول فانه ليس بنجاسة عندكم ، ولا فرق بينه وبين المـاء اذ كل واحد منهما ليس بمقدس ؟

ثم نقول : زعم النصارى أجمعهم ، وكتبوا فى كتبهم : أن يحيى عمد عيسى المسيح بوادى الأردن .

فنقول لهم : هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسا أم لم يكن ؟ فان قلتم : انه كان مقدسا فلا فائدة لفعل يحيى ، ولأى شىء لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد ؟ وأنتم تقولون : انه لما عمده نزل عليه الروح القدس مثل حمامة بيضاء • وان كان غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس الها ، أو ابن اله ؟ وأنتم تزعمون بجهلكم على اختلاف أقوالكم ، أنه اتحد بناسوته اللاهوت ، وهو فى بطن أمه • وكيف يتحد اللاهوت بمن ليس بمقدس ؟ وهل هذا كله منكم الا هذيان ، وضرب من الخذلان • تمجه القلوب والآذان •

* * *

مسألة فى غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين

اعلم أن هؤلاء القوم ، وضعوا لأنفسهم قوانين ، توافقوا عليها ، وارتبطوا لها ، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين : شاهد من توراة ، ولا من انجيل • فمن خالفها عندهم ، سموه خارجيا ، تارة ، وكافرا أخرى • والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم • ثم تلك الذنوب منقسمة الى ما لا يغفرونه ، والى ما يغفرونه • فاذا غفروا ذنب واحد منهم ، أدخلوه الكنيسة ، وقبلوا قربانه ، واذا لم يغفروا له ، أبعدوه عن كنائسهم وطردوه ، وهولوا عليه ، ولم يقبلوا برهانه • ولابد للذنب المغفور من كفارة • وتلك الكفارة ، بحسب ما يظهر لأقستهم • ويرونه موافقا لغرضهم • فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة ، وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذللا • وربما يبقى على ذلك أعواما عديدة • وتارة يوجبون عليه مالا • اما للكهم ، واما لهم ولكنائسهم •

ولابد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا فى كتبهم • ولنذكر من كل مسألة مثالا لئلا يطول الكتاب • وانما أنقل ألفاظهم من كتبهم لئلا يتقول متقول علينا بالباطل ، أو يظن بنا الجهل بمذهبهم ، أو ينسبونا الى الكذب فى شىء ، مما حكيناه عنهم •

مثال القسم الأول : العابثون بالصبيان :

« العابثون بالصبيان لا يغفرون لهم بوجه ، ولا يعطونهم قربانا

أبدا . ولا عند وفاتهم . على هذا أجمع أساقفة « طليطلة » فى ولاية « ايفة الملك » وقالوا : دعتنا هذه الفاحشة المنتنة أن يحكم بأجمعنا : أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به عقاب . فان كان راكب هذه الفاحشة « أسقفا » فليعزل ، ويبعد ابعادا شديدا دائما . وان كان من غيرهم فلينكل به نكالا شديدا ، ويضرب الفاعل والمفعول : مائة سوط ، وينفيان النفى الدائم ، ولا يعطيهم أحد من « الأقسة » توبة . ومن أعطاها لهم ، وتقبل قربانهم عزل وأبعد ، ولم يعط هو أيضا : توبة ، وأغرموه خمسة أرطال ذهبا للملك » اهـ .

هذا قانونهم الأول القديم ، ولا أدرى ما أحدثوه الآن . اذ الاحداث عنهم فى كل زمان .

ومثال الثانى : نكاح القرابات :

وذلك أن نكاحهن حرام بنص التوراة . زعموا : « فان نكح رجل قريبته الى سبع بطون . فان أصر على ذلك ، فلا يغفر له . ولا يعطى قربانا ، وان مات . وان أقلع عنها حرم القربان خمسة عشر سنة » وكلفوا أعدادا من الصلوات ، ومن العبادات ، وربما زادوا عليه خمسا ، فكملوا له عشرين سنة . وربما بلغه بعضهم خمسا وعشرين . وذلك بحسب سنه عندهم . فاذا كان بعد ذلك قبلوا توبته ، وأعطوه القربان . وأما المرأة فقد أبوا أن يعطوها القربان الا عند وفاتهـا .

وأما الذى يأتى البهيمة :

فان كان له زوجة لم يعط القربان الا بعد ثلاثين سنة ، وان لم تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين سنة .

ومثال ما يغرمون فيه الأموال :

من تزوج من غير بركة « القسيس » فانه يغـرم للملك مائة دينار ، ويضرب الزوجان مائة سوط ، مائة سوط .

وقد حكموا على قاتل عبده : بحرمان القربان سنتين ، **وعلى قاتل العمد غير عبد** ، بحرمان القربان ، **وبخضوعه عند** الكنيسة الى آخر وفاته .

وأما قاتل الخطأ • فقانونهم الأول : يقضى بأن يحرم القربان سبع سنين ، والقانون الثانى : يقضى بأن يحرم خمس سنين •

وعلى الجملة : فهذياناتهم ، وتحكماتهم أكثر من أن تحصى • ومن اطلع على كتب فقههم ، رأى فيها غرائب وعجائب • ومقصودنا التمثيل • وقد حصل والحمد لله • فنقول :

من وقف على هذه المواضع وأمثالها لم يشك فى أن القوم يصنعون أحكاما ، ويخترعونها ، ويلتزمونها • ولسنا ننكر : أن الشرائع لو جاءت بمثل هذه الكفارات والتحكمات لقبلناها والتزمناها •

وانما ننكر عليهم : أن يجعلوا أنفسهم شارعين ، وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين • فانه انما ينبغى الحكم والتحكم له • اذ له أن يفعل ما يريد ، ويحكم ما يشاء فى العبيد • وأما الأنبياء فلا يحكمون من عند أنفسهم • وانما يبلغون أحكام الله • ثم أعجب من ذلك جرأتهم على الله ، واستهزاؤهم بكتاب الله • فان هذه الذنوب التى قدمت ذكرها ، قد شرع الله أحكامها فى التوراة نصوصا ، وبين حدودها ، فجعل فى أكثر تلك المواضع : القتل ، ولم يحكم فيها بشىء مما اخترعوه ، وليس فى انجيلهم أيضا من هذه الأحكام شىء • وعند هذا تبين : أنهم خالفوا كتب الله ، وتركوا سنة رسل الله ، وتحكموا فى ذلك بأهوائهم ، وتركوا سنن أنبيائهم فحقت عليهم لعنة الله أبد الآبدين ، وغضبه الى يوم الدين •

فان قالوا : تلك الأحكام التى فى التوراة منسوخة بكتابنا ، وعلى لسان مسيحنا • قلنا لهم : **« هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »**(١) بل نقول : ان عيسى عليه السلام جاء متمما لأحكام التوراة ، ولم يجىء مغيرا لأحكامها ، ولا ناقضا لها • وكذلك نقلتم فى انجيلكم أن عيسى قال : « انما جئت متمما ، ولم آت لأنقض شريعة من قبلى »(٢) •

وهذا خلاف ما تدعونه من النسخ، بل يقتضى هذا بحكم ظاهره : أنه لا ينسخ شريعة من قبله ، وانما يوضحها ، ويحيى ما أميت منها • ثم لا يبعد أن يكون قد نسخ بعض أحكام التوراة ، وغاية ما يوجد

---

(١) البقرة : ١١١

(٢) انجيل متى : ٥ : ١٧

له من النسخ قوله : « وقيل(١) : من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق . وأنا أقول : من فارق امرأته منكم ، فقد جعل لها سبيلا الى الزنا . ومن تزوج مطلقة فهو فاسق » .

ثم قال : « بلغكم أنه قيل : العين بالعين ، والسن بالسن . وأنا أقول لكم : لا تكافئوا أحدا بسيئة . ولكن من لطم خدك الأيمن ، فأعطه الآخر . ومن أراد نزع قميصك فزده ردائك »(٢) .

فمثل هذا يمكن أن يقـــال فيه : انه نسخ(٣) . واذا بحث عن كتابكم كما يجب لم يوجد فيه نص من هذا على النسخ . فمن ادعى منكم أن شيئا مما ذكر فى التوراة تحريمه منسوخ ، فليأت بناسخ يشبه هذا القول . فان لم تأتوا بشىء من ذلك ، دل على أنكم متحكمون هنـــالك .

(مطالبة) وهى أنا نقول لهم : لأى معنى حرمتم من نكح قريبته خمســا وعشرين سنة من القربان وحرمتموه من نكح بهيمة ثلاثين سنة ؟ ولو عكستم ذلك كان أشبه ، فان نكاح الآدمية القريبة أشنع من حيث انها محرمة ، من نكاح بهيمة لا احترام لها . وكذلك نعكس عليهم كل ما ذكروه ، حتى يتبين فساد قولهم .

ونقول لهم أيضا : لأى معنى لم تجعلوا مكان الثلاثين : ثمانية وعشرين ، أو اثنين وثلاثين ؟ ولأى معنى خصصتم هذا العدد دون غيره ؟ وعند هذا يتبين بطلان تحكمهم ، وفساد رأيهم . وكذلك نقول : لأى معنى شرعتم فى العابث : مائة سوط . ولم تشرعوه فيمن نكح قريبته ؟ مع أن التوراة قد أمرت بقتل كل واحد منهما . فكان ينبغى أن تسووا فى الحكم بينهما . فاما أن تضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، أو لا تضربوهما . فظهر من هذا أنكم تركتم حكم التوراة ، ثم لم تعدلوا فيما تحكمتم به ، ثم من أعظم تواقحكم ، أنكم سهلتم

---

(١) وقيل : أى للقدماء .. وكلمة « فاسق » فى النص بدلها « زان » والنص فى انجيل متى : ٥ : ٣١ ـ ٣٢

(٢) انجيل متى : ٥ : ٣٨ ـ ٤٠

(٣) ليس هذا من قبيل النسخ . وانما المسيح يقصد النصح والارشاد . بدليل أنه أكد أكثر من مرة على عدم نسخه شريعة موسى . ومن قوله : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » (متى : ٢٣ : ٢ ـ ٣) .

الفـواحش على أنفسـكم ، وصعبتموها على غـيركم فحكمتم على « الأسقف » الذى يعبث بصبى بأن يبعد فقط ، وعلى غيرهم بأن يبعدوا ، وينكلوا ، ويجلدوا ، اذا فعلوا تلك الفاحشة ، ولو عكستم ذلك لكان أشبه . فان التغليظ على « الأقسة » مناسب لحالهم . فان المعاصى تقبح فى حقهم ، أكثر مما تقبح فى حق غيرهم . فان من كلام النبوة : « ان من أشد الناس عذابا : عالم ، لم ينفعه الله بعلمه » ومن كلام الحكماء : « حسنات الأبرار ، سيئات المقربين » ثم هذا المعنى معلوم من عادة الملوك ، فانهم يعاقبون وزراءهم والوقافين على رؤوسهم ، ويؤاخذونهم ، على أمور لا يحسن منهم أن يؤاخذوا بها سائس الدواب . بل لكل مقام مقال . ولكل عمل رجال . وكيف لا تقبح المعاصى فى حق « الأقسة » و « الأساقفة » وهم قد نزلوا أنفسهم منزلة الأنبياء ؟ حيث شرعوا الشرائع ، وتحكموا بوضعها ، بل تنزلوا منزلة المكلف الغافر ، الذى له الخلق والأمر .

فانهم قد قالوا للعوام : ان غفراننا لكم غفران الله . وحرماننا لكم : حرمان الله . فاذا أعطينا نحن القربان ، فقد قبله الله . واذا لم نعطه لم يقبله الله . واذا غفرنا نحن الذنب ، فقد غفره الله . فان غركم الشيطان — وقد فعل — بأن تقولوا : ان لنا لأجل القسيسية منزلة وحظوة ، فاتركوا العمل بشريعتكم لأجل مالكم عنـد الله من الفضل ، ولا تحرموا على أنفسكم شيئا من الفواحش . وقد سمعنا هذا النوع عن بعض « أقسة أرغون » فعليهم لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . ثم نقول لهم : يا معشر الأساقفة الجاهلين ، والقسيسين المتحكمين : من أنتم حتى تكونوا شارعين ؟ أأنتم عقاب رب العالمين ؟ أحصلتم على رضاه أجمعين ؟ بل ينبغى أن تتحققوا : أنكم فى العذاب خالدون ، حيث كفرتم برسالة سيد المرسلين مع ما دلت عليها من الشـواهد والبراهين . فلقد صدق الله ، وهو أصدق القائلين ، حيث قال مخبرا عن الأحبار والقسيسين : « **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهمـا ، واليه المصير** »(١) .

* * *

---

(١) المـائدة : ١٨

مسألة فى الصلوبية وقولهم فيها

لا خلاف عند النصارى : أن انكار صلب المسيح : كفر • ومن شك فيه فهو كافر • **وأنا الآن أذكر كلامهم فى « الصلوبية » وفى معناها عندهم :**

قالوا : « الكلمة هو الله • وهو مخلوق من طريق الجسم ، وخالق من طريق النفس ، وهو خلق جسمه ، وهو خلق أمه • وأمه كانت من قبله ، بالناسوت • وهو كان من قبلها ، باللاهوت • وهو الاله التام ، وهو الانسان التام ، ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عنهم ، فى خشبة الصلب • فمكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليتم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه ، وغار دمه فى اصبعه • لأنه لو وقع شىء من دمه على الأرض ليبست ، الا شىء وقع فيها فنبت فى موضعه النوار •

لأنه لما لم يمكن فى الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصى آدم ، الذى ظلمه ، واستهان بحقه ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء منزلة السيد ، وسقوط منزلة العبد • أراد أن ينتصف من الانسان الذى هو اله مثله • فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح ، الذى هو اله ، متساو معه ، فصلب ابن الله ، الذى هو الله ، فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة » اهـ •

هذا نص كلامهم من غير زيادة ولا نقصان •

وقال « بليون • الجاثليق » فى رسالته لليون الملك كبول : « أسرتنا ، لا يمكن أن تحل ، الا بأن يطلع انسان من جنسنا ، وطبيعتنا ، من لا تضبطه معصية الذنب ، على ضد آدم • ومن بدمه الطاهر ، تمحو أزلات الريق المهلك ، الذى كان حتمه الله ، وقضى به منذ البدء ، فتم ذلك الفعل عند انقضاء الزمان المحدود • وذلك ليتم الوعد الموعود » اهـ •

مفهوم هذا الكلام :أن ذنب آدم كان فى رقاب بنيه ، الى أن قتل عيسى ، وانتقم منه ، لأجل آدم ، وحينئذ عفى عن آدم وبنيه •

لهذه الحكمة كانت صلوبية المسيح عندهم •• يا معشر العقلاء انظروا بعين الاعتبار جهل هؤلاء الأغمار ، وجرأتهم على العزيز

الجبار • وقولهم بالشتيمة فى الأنبياء الأخيـــار ، فلقد ارتكبوا من المحالات ، وقالوا من الأكاذيب والترهات ما لم يقله أحد من المخلوقات • ثم لم يكتفوا بهذه العظائم ، حتى أضافوا لله ، ولأنبيائه أعظم النقائص والشتائم • فلله سر فى ابعاد بعض العباد **« ومن يضلل الله فما له من هاد »**(١) •

فهؤلاء كما قال الله العظيم فى كتابه الكريم : **« صم بكم عمى فهم لا يرجعون »**(٢) •

واعلم أنا لو تتبعنا تناقض هذا الكلام ، وأوردنا الالزامات عليه لكتبنا فى هذه المسألة وحدها سفرا • على أن العقلاء يعلمون فساد هذا المذهب بالضرورة عند مجرد الوقوف عليه • ولذلك لم يصر الى نحو هذا المذهب السخيف ، والقول القبيح أحد من الأمم ، لا من العرب ولا من العجم ، لا فى الحديث ولا فى القدم • وانما صار اليه هؤلاء النصارى الجهال ، لكونهم ليسوا من العقال ، بل حظهم من العقل حظ المجانين والأطفال ، فكلامهم أشبه شىء بكلام الموسوسين ، والمختلطين المبرسمين •

ولقد كان يقتضى ما يعلم من حالهم ، الكف عن مناظرتهم وجدالهم • لكن سكوت النبيه ، ربما كان داعية لتطاول السفيه • وقد تقدم هذا الاعتذار عن هذا فى أول الكتاب • ولكن مع هذا لابد للمجانين من العزائم ، وتعليق الأجراس والنمائم • فلنورد عليهم من الالزامات ، ما يبطل تلك الترهات ، ويبين تلك الأكذوبات ، فنقول :

قد ذكرنا فيما تقــدم : أن أمر الصلوبية • انمـــا شرعها لهم « قسطنطين بن هيلانة » الملك • وهو الذى سنها ، وكتبها لهم فى الانجيل ، ليوغر صدور عامته ورعيته على اليهود ، وأنه احتال عليهم بالرؤية التى اخترعها ، فتم له مراده منهم • ولم يكن عنده من أمر عيسى الا خبر جملى •

ثم اختلق لهم فى شأنه أمورا تفصيلية هى محال فى نفسها ، لكنها مهولة على العامة الرعاع • كقولهم فى الالتحام ، وفى لاهوت المسيح :

---

(١) غافر : ٣٣

(٢) البقرة : ١٨

« لم يدركه ألم الصلب والاهانة . وانما أدرك ذلك لحمته » وكاطلاق لفظ الطبيعتين على لاهوته وناسوته . الى ما عندهم من الهذيانات التى هى محال بالضرورات .

وقد قدمنا فى ذلك ، ما يغنى عن اعادته .

واعلم أن النصـــارى يدعون : أن اليهود قتلت المسيح عيسى يقينا . وأن اليهود يدعون : أنهم قتلوا رجلا ادعى نسخ التوراة ، بعد أن ادعى النبوة ، ولم يقم عليها شاهدا .

ونحن ندعى : أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يقتله اليهود ، ولا غيرهم . بل رفعه الله اليه ، من غير قتل ، ولا موت . ونحن نبين : أن الفريقين فى شك منه ، وغير عالمين بشىء مما يدعونه فى صلبه . فنقـــول :

ان مستند النصارى فى قولهم بالصلب : انما هو الانجيل . وقد بينا فيما تقدم : أنه قابل للتحريف والتبديل . وقد أرينا فيه التناقض والتحريف عيانا . وأوضحنا على ذلك برهانا . مع ما قدمنا من أن نقله ليس نقلا متواترا يفيد العلم . بل انما نقله من باب أخبار الآحاد ، التى لا يحصل بها العلم . وهذا يكفى ، مع أنهم ليسوا عالمين بشىء مما يتضمنه . ولو سلمنا أنه متواتر ، يحصل بنقله العلم . لقلنا : ان الأخبار التى فيه ، التى تتضمن الصلب لا تنص نصية قاطعة للشك : على أن المصلوب هو المسيح بعينه . بل هى محتملة . لأن المصلوب غيره ، ولم تتفطن النصارى بغباوتهم ، لوجوه الاحتمال . ونحن نسرد نصوصهم فى أناجيلهم ، ونبين ذلك ، ووجه الاحتمالات فيها ، ان شاء الله مستعينين به ، ومتوكلين عليه .

قال « متاؤوش » فى انجيله :

« وقف على المسيح يهوذا ، أحد الاثنى عشر . ومعه جماعة برماح وعصى . وكان معهم قواد القسيسين ، وأكابر بنى اسرائيل . وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان : من قبلته ، من الجماعة ، فهو

المراد ، فاحبسوه . وفى ذلك الوقت ، دنا يهوذا الى : ياشوا[1] .

وقال : السلام عليك يا معلم . فقال له ياشوا : يا صديق لم أقبلت هنا . فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته »[2] .

زاد « ماركش » :

« أنه لما قبضوا عليه ، تخلى عنه التلاميذ ، وهربوا . فاتبعه شاب عريانا ، وهو ملتف فى ردائه . فقبضوا عليه ، فأسلم لهم الرداء ، ونجا عريانا »[3] .

زاد « لوقا » :

« أن بلاط[4] . لما أخبر أنه « جلجالى » وعلم أنه من طاعة هيرودس بعثه اليه »[5] .

زاد فى انجيل « يوحنا » :

أن ياشوا . تقدم لجماعة وقال لهم : « من تريدون ؟ فقالوا له : ياشوا الناذرى . فقال لهم ياشوا : أنا هو . وكان يهوذا المدل عليه معهم ، واقفا . فلما قال لهم : أنا هو . قهقروا الى خلف ، فتساقطوا فى الأرض . ثم دنا منهم . وقال لهم : من تريدون ؟ فقالوا له : ياشوا الناذرى . فقال لهم ياشوا : قد قلت لكم : انى أنا هو . فان كنتم انما تريدوننى أنا . فأطلقوا سبيل هؤلاء »[6] .

وذكر « متى » :

« أن يهوذا الدال عليه ، لما أبصر ما فعل به : ندم ، ورد الثلاثين درهما على قواد القسيسين . وقال : أخطأت اذ سلمت دما صالحا . فقالوا له : ما علينا . أنت ترى . فألقى الدراهم فى البيت . وتوجه الى موضع خنق فيه نفسه »[7] .

---

(١) ياشوا : بدلها فى التراجم الحديثة : يسوع ، ويسوع قديما : يهوشوع .

(٢) متى : ٢٦ : ٤٧ ـ ٥٠

(٣) مرقس : ١٤ : ٥١

(٤) بلاط فى التراجم الحديثة : بيلاطس

(٥) لوقا : ٢٣ : ٧

(٦) يوحنا : ١٨ : ٤ ـ ٨

(٧) متى : ٢٧ : ٤ ـ ٥

هذه نصوص أناجيلهم ، ومستند اعتقاداتهم ، ليس شيء منها يدل دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه . بل اذا اعتبر العاقل تلك الحكايات المذكورات . ولفق متلفقها ، وحقق النظر فيها . تفطن لموضع الاشكال ، وتنبه لمثار الشك فيها والاحتمال .

ونحن نبين ذلك بعون الله فنقول : ما سودناه من أناجيلهم فيه احتمالات :

منها : أن يهوذا كذب لليهود فى قوله : « هو ذا » فان اليهود كانت لا تعرفه ، ولم تأخذه الا بشهادته : أنه هو . ألا ترى أن يهوذا عرفهم اياه بالعلامة .

وكذلك يدل على ذلك سؤالهم عنه . وكذلك سؤال « بلاط » عن بلده حين أخبر أنه من « جلجال » يدل على أنه كان لا يعرفه .

فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه . وانما عولوا فى تعيينه لهم على يهوذا . فاذا ثبت ذلك فيحتمل أن يكون « يهوذا » انما أشار الى غيره . لأنه كان ندم على بيعه ، كما تقدم نصه فى كتبكم .

ويدل على أنه تاب من ذلك ، وندم عليه ، وحسنت توبته . قول عيسى له فيما زعمتم ، حين سلم عليه : « يا صديق لم أقبلت ؟ » ولو كان مصرا على الدل عليه ، وعلى ما كان هم به . لما كان يحله لعيسى أن يقول له : « يا صديق » فانه كان يكون كافرا . ولا يمكن أن يقول للكافر « يا صديق » فانه كذب . لأن الكافر عدو . فيلزم هنا أحد ثلاثة أمور :

اما أن يكون يهوذا تاب فى ذلك الوقت وندم على ما فرط منه . فعفى عنه . وتوبته لا تصح فى تلك الحال ، أعنى حال الدلالة عليه ، الا بأن يعدل عنه ، ولا يدل عليه . وكذلك فعل . والله أعلم .

أو يكون عيسى كاذبا فيما قال له ، حيث أخبر أنه صديق وعيسى عليه السلام منزه عن الكذب .

أو يكون كتابكم باطلا ، ومحرفا .

فاختاروا من هذه الثلاث واحدة . وأى شيء التزمتم منها ، فهى مبطلة لقولكم ، وفاسدة .

ويدل على حسن توبته وصدقها : أنه رمى بالدراهم ، واعترف بالخطية ، وقتل نفسه • وهذا يدل على غاية الصدق فى الندم •

ومقصـــود هذا الكلام : أن يهوذا : ندم ، ولابد ، على ما فرط منه • فيحتمل أن يكون دل على غيره من أصحابه • وأن ذلك الغير ، رضى بأن يقتل مكان المسيح ، فتعرض بنفسه لليهود ، فأخذوه ، ورفع عيسى مكانه الى السماء ، كما رفع « أخنوخ » النبى — وهو « ادريس » عليه السلام — وهذا كما تقولون أنتم : انه لمـــا صلب وحيى اجتمع بأصحابه بجلجال ، ثم رفع الى السماء (١) •

فقد توافقنا على الرفع • وأنتم تقولون انه بعد الصلب والصفع والاهانة ، ونحن نجله ونكرمه عن ذلك • ونقول : انه رفع من غير صلب واهانة • بل صانه الله من أن يظفر به عدوا • وأكرمه حتى أحله مكانا عليـــا • ولو كنتم عقلاء لجحدتم أمر الصلوبية ، ولم تعترفوا بهـــا ، ولقبلتم قولنا فيهـــا • ولو فعلتم ذلك لكان أليق بكم ، وأستر لجهلكم • فانكم تريدون أن تجمعوا بين نقيضين حيث حكمتم عليه بأمرين محالين : الهية ، وصلوبية • •

ومنها : أنه يحتمل أن يكون المسيح فى الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم • وكان المتكلم معهم غيره • ممن يريد أن يبيع نفسه من الله • ويقى المسيح به •

فقال ذلك المتكلم : أنا المسيح • فحبسوه ، وخلوا سبيل غيره • فانفلت المسيح فى جملتهم • ويقوى هذا الاحتمال : أن يهوذا كان واقفا ناحية • ولم ينبه عليه ، لكونه كان نادما ، لمـــا قد تبين • وبعد ذلك رفع •

ومنها : أن أولئك الأعوان أخذوا عليه رشوة ، فأطلقوه • وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب • حيث قال « ماركش » : « ان الشاب أسلم اليهم : الرداء ، لمـــا تقبضوا عليه »(٢) واذا جاز أن يأخذ « يهوذا الاشكريوث »(٣) وهو حواريه على قتله ثلاثين درهما • جاز أن يأخذ الأعوان على اطلاقه : رداء •

---

(١) آخر انجيل لوقا •
(٢) انجيل مرقس : ١٤ : ٥١ ـ ٥٢
(٣) ترجمتها : « يهوذا الاسخريوطى » •

ومنها : أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى رفع المسيح الى السماء ، وصور لهم شيطانا أو غيره بصورة تشبه صورته ، فاعتقدوا أنه هو فصلبوه . والى هذا يشير سكوته ، حيث سألوه فسكت ، ولم يجاوبهم وفى الوقت الذى تكلم لهم نزلت تلك الصورة نفسها منزلته . وهذا كله ممكن ، لا يدفعه عقل ، فان الله على كل شىء قدير . ولا يدفعه أيضا نقل .

فان كل ما نقلتموه ليس نصا قاطعا . ولا نقل نقلا متواترا ، فحصل من هذا : أنكم غير عالمين بصلبه ولا موقنين بقتله .

وأما اليهود فليسوا أيضا عالمين بشىء من ذلك اذ لا يصدقون كتابكم . وليس عندهم نقل متواتر بذلك ، على التفصيل ، وغايتهم : أن يعتقدوا على الجملة : أن رجلا كان فيما مضى غير بعض أحكام التوراة ، فشهد عليه بذلك . فقتل . وكتابكم يدل على أنهم انما قتلوا رجلا شهد لهم فيه « يهوذا الاشكريوط » أنه : المسيح ، الذى ادعى أنه « ابن الله » فحصل من هذا : أن اليهود فى شك منه ، وأنكم أنتم على غير علم به . وهكذا قال كتاب الله ، الناطق على لسان رسوله الصادق : **« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه ، لفى شك منه ، ما لهم به من علم ، الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما »**(١) .

وحين بينا أنهم فى شك من الصلوبية ، ينبغى أن نتتبع بالنقض كلامهم المتقدم . فنقول :

أما قولهم : « من رحمته على الناس أنه رضى بهرق دمه عنهم فى خشبة الصلب » فتواقح لا يفوه به من له من الحياء أقل نصيب . يا عجبا . كيف يجترىء أن ينطق بهذه القبائح عاقل ؟ أم كيف يرضى لنفسه بمثل هذه المخازى فاضل ؟ وهلا كان يرحم عباده بأن يغفر لأبيهم(٢) . ولا يحتاج الى هذا كله ؟ أو ليس كان يكون غفران الذنب أهون عليه ابتداء ، وأليق بالحكمة والرحمة والرأفة من أن يعاقب من لم يجن ؟ ثم ذلك المعاقب الذى لم يجن الذنب ابنه ، بل هو عندكم

---

(١) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) يقصد بأبيهم : آدم عليه السلام .

نفسه ، باعتبار ما حل فيه منه . فلم يرض من عقوبة الذنب الذى جناه آدم ، حتى عاقب نفسه . أو ابنه . فأنتم فى هذا القول الوقاح ، والافك الصراح ، بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده ، فبقى بعد مدة غاضبا عليه ، وعلى غيره من عبيده . ناويا على معاقبتهم ، حتى ولد لنفسه ولد فعمد اليه فقتله ، بذنب العبد ، الذى كان أذنب ، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه ، ولامها وأهانها ، على ما صنع عبده ، مع انه قد كان متمكنا من أن يغفر لعبده ، ولا يفعل هذا بولده ، ولا بنفسه . فأى تشف يحصل له مما فعل ؟ بل يحصل له كل ألم ونقص ، وخلل . مثل السفيه الأحمق الجاهل ، بل يزيده ذلك فى كربته ، ويدعو الى دوام حزنه وحسرته .

ويلزمكم على ذلك : أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام . الا بعد أن صلب المسيح . وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فانها تقتضى : أن آدم بكى على خطيته ، ودعا الله تعالى حتى تاب عليه ، واجتباه . ويلزمكم أيضا عليه : أن يكون نوح وابراهيم وموسى ، وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم ، حتى صلب عيسى . وحينئذ غفر لهم .

وقد صرح بعض « أقستكم » لعنه الله : « أن آدم وجميع ولده الى زمان عيسى كانوا كلهم ثاويين فى الجحيم بخطيئة أبيهم ، حتى فداهم عيسى بهرق دمه فى الخشبة . فلما صلب نزل جهنم ، وأخرج منها جميعهم الا يهوذا الأشكريوث » .

فانظر . هل يستجرىء مجنون موسوس على أن يقول : أن نوحا وابراهيم الخليل وموسى الكليم . ومن بينهم من النبيين مثل يعقوب واسحق وغيرهما من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم فى نار الجحيم ، والعذاب الأليم ، وفى السخط العظيم . حتى صلب الاله نفسه وابنه .

فانظر . هل سب الأنبياء بأقبح من هذه الشتائم ؟ أو هل تجرأ احد قط أن يقول على الله ، وعلى رسله مثل هذه العظائم . فسبحان الحليم الذى يمهلكم ، والكريم الذى يرزقكم . ولكن انما يعجل من يخاف الفوت ، أو يجزع من الموت . **« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين »** ؟[1] .

---

(١) الزمر : ٦٠

ثم يلزمكم عليه أيضا . نسبة الله ، الى الجور ، والى أنه يأخذ بالذنب غير فاعله ، ويعاقب على الزور غير قائله . وهذا يهون عليكم . اذ ليس للاله قدر عندكم . اذ قد صرحتم : بأن آدم ظلمه ، وأنه لا يمكن أن ينتقم ممن ظلمه ، واستهان بقدره .

فياليت شعرى . لأى شىء لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاجز عن ذلك . أم لأنه لا يقدر على عقاب أحد ممن هنالك ؟ أم بحكمة أنه يعاقب غير الجانى ؟ أم لحكمة قتل ولده فى جناية عبده ؟

قاتلكم الله . ما أسخف عقولكم ، وما أرك فروعكم وأصولكم . ثم أعجب من ذلك : انهم يقولون : « الكلمة هى : الله . والله : هو المسيح » ثم يقولون : « انه لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاصى الذى ظلمه ، وانما انتقم من اله مثله » .

فانظر . الى هذا التناقض الشنيع . كيف يعتقدونه تارة : أنه هو . فيلزم عليه أنه هو المنتقم ، والمنتقم منه ، والمعاقب ، والمعاقب(١) . وتارة يعتقدون : أن الاهانة والصلب ، لم يحل بلاهوته ، بل حل بناسوته .

وناسوته ليس باله . فيلزم على هذا القول الآخر : أنه لم ينتقم من اله مثله . وكيف ما كان . فالتناقض لهم لازم والمحال .

وهكذا يفعل الله بالجهال أهل الضلال . ثم انظر سخف جرأتهم على الكذب . وقولهم بالمحال من غير سبب . حيث قال : « فأخذوه وصلبوه . فغار دمه فى اصبعه » وهذا لم يرد منه شىء فى كتبهم ؛ بل هو من كذبهم واختراعهم .

ولو كان هذا حقا لكان أولى بالنقل من نقلهم : جعل الصليب على عنقه . وأنه رفع اليه : اناء خل ، ليشربه . وكتب على خشبته بالرومية والعبرانية والعجمية : « هـذا ملك اليهود »(٢) فهذا ، ولابد كذب وتواقح . فان كابروا فى ذلك على عادتهم . قلنا لهم : فأتوا بالانجيل فاتلوه ان كنتم صادقين .

ثم انظر كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور فى قوله : « لأنه

---

(١) المعاقب : الاولى بكسر القاف ، والثانية بفتحها .

(٢) انجيل مرقس : ١٥ : ٢٦.

لو وقع شىء من دمه على الأرض ليبست » ثم انه اثر ذلك قال : « الا شىء وقع فيها نبت منه النوار » فكيف يصح فى عقل مجنون • فأحرى فى عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان أو يستحل أن يتحرك له بذلك لسان ؟ فانه كذب فاسد متناقض • فلعمرى لو أن شيطانا يتقول على ألسنتهم ، وهو يريد الاضحاك بهم • ما بلغ منهم بأكثر مما بلغوا من أنفسهم بهذا القول السفساف ، الذى اتفق العقلاء على فساده واستحالته من غير خلاف •

ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء فى افحام هؤلاء الأغبياء • فقـــال :

عجبى للمسـيح بين النصـارى
والى أى والـــد نسبـــوه
أسـلموه الى اليهـود ، وقالـوا :
انهـم بعـد قتلـه • صـلبوه
فاذا كان مـا تقولـون حقـا
وصـحيحـا • فأين كان أبـوه ؟
حين حـل ابنه ، رهين الأعـــادى
أتراهم قد رضـوه ؟ أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضيـــا بأذاهـم
فاحمـدوهم • لأنهـم عـذبوه
واذا كان ســـاخطا فاتركـوه
واعبـدوهم ، لأنهم غلبـــوه

فقد جعلتم أنفسكم ضحكة العقلاء ، حيث ارتكبتم كل قبيحة شنعاء • وما بالنا نطول الكلام مع من تبين عارهم ومحالهم للخاص والعام • فقدر هؤلاء القوم عند العقلاء ، أحقر من قلامة ، فى قمامة • وأخس من بقة ، فى حقة • ولولا أن هذيانهم ومحالهم طبق الوجود ؛ لـا كان ينبغى أن يتكلم معهم من العقلاء موجود • فان الكلام معهم مخل بالعقول ، محوج لحكاية القبائح والفضول •

وقد قدمت فى صدر الكتاب ما يمهد العذر ، ويزيل العتاب • وأنا أستغفر الله العظيم ، الذى لا اله الا هو الحى القيوم • وأسأله التوبة من حكاية قبائحهم ، وأسأله جزيل الأجر ، فى ابداء فضائحهم •

* * *

مسالة فى تركهم الختـــان

لا خلاف بينهم أن عيسى عليه السلام كان مختونا . وأن الختان من أحكام التوراة . وثابت فيها . وان أنكر ذلك متواقح جاهل . ذكرنا له نص التوراة .

قال فى التوراة : « اذا حبلت امرأة ، وولدت ذكرا ، تكون نجسة سبعة أيام ، كما تكون أيام حيضتها وفى اليوم الثامن يختن الصبى . ونكون نجسة ، تجلس مكانها ثلاثة وثلاثين يوما »(1) وهذا نص لا اشكال فيه . ثم ان النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع : تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمدون عليه ، ولا نسخ . يثبت عندهم له . ومن ادعى منهم شيئا من ذلك طالبناه بنص من الانجيل ، وليس لذلك من سبيل غير التحكم بالقال والقيل .

وقد وجدت فى كتبهم الفقهية : أنهم قالوا فى تأويل حكم الختان ؛ قولا أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان . قالوا : « انما عنى بالختان : نقاوة القلوب ، وصفاء النية ، وذهاب الغلوفة . كالذى يقول الكتاب عن اليهود : « ان رقابهم قاسية ، وقلوبهم غلف » ولذلك علمنا أن الله استقذر غلوفة القلب ، وليس غلوفة اللحم . فما على الانسان أن يختن لحمه . اذ لا منفعة له فى ذلك . فمن شاء اختتن ، ومن شاء ترك . والأحسن أن تترك الأجساد تامة ، غير ناقصة كما بها خلقنا الله عز وجل » أ . هـ

هذا نص كلامهم ، فى كتبهم . فانظر أيها العاقل ان كنت منصفا ، ما الذى ارتكبوه من العظائم ، ونسبوه الى الله ورسله من الشتائم .

فأولها : أنهم كذبوا على الله ، حيث قالوا : « انما أراد الله بهذا الحكم ازالة غلوفية القلوب » ولو كان ذلك حقا ، لبينه موسى للناس ، ولما جاءهم بالختان ، ولما فعله ، ولما فعل بيحيى ، وعيسى ، وسائر الأنبياء ، الذين حكموا بالتوراة ، ولم يزالوا يختتنون ، ويأمرون بالختان الى زمان المسيح . ثم ان المسيح لم ينه عنه ، ولا أمر بتركه ، فهذا على الله ورسله ، كذب صراح ، وقول وقاح .

---

(1) سفر اللاويين : ١٢ : ١ ـ ٤

وثانيها : انهم سفهوا أحكام الله ، ورسل الله ، حيث قالوا : « لا منفعة فى ذلك » ، مع أن الله قد حكم به وشرعه وبلغ ذلك أنبياؤه ورسله ، وعلموه الناس . فكيف يجوز على الله ، وعلى أنبيائه أن يتعبدوا الناس بحكم ، لا فائدة له ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . فهذا غاية الافتراء على الله ، وعلى رسله . ثم يلزمهم على ذلك أن يكونوا عابثين فى أفعالهم وأن وجود الشرائع وعدمها بمثابة واحدة ، وكذلك ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، ولا كفر أعظم من هذا .

ثم انا نبدى فوائد الختان ، حتى يظهر كذبهم وجهلهم وتواقحهم لكل انسان . ونقول : فى الختان فوائد كثيرة . منها :

أولا : أنها عبادة فى بدن الانسان ، اذا فعلها أثيب ، وان تركها عوقب — على القول بوجوبه — ، ولا فائدة أعظم من هذا .

وثانيا : أنه لا يتأتى مع وجود الغلفة ، مبالغة فى النظافة ، ومع زوالها يتأتى ذلك .

وثالثا : أنه ألذ فى الجماع ، وأسرع لمجىء شهوة الوقاع . ومع وجودها يكون أبعد للشهوة . وقد تكون الغرلة ، اذا طالت مكسلة عن الانزال .

ورابعا : أن خروج المـــاء الدافق من غير غلفة ، وانزعاجه أشد . فان الغلفة اذا طالت ربما نقصت من انزعاجه وفترته . واذا كان كذلك ، وخرج المـــاء فاترا ، قد لا يقع فى المحل الذى ينعقد فيه النطفة فلا ينعقد الولد ويكون هذا كالعزل . ومقصود الشرع فى الغالب : تكثير النسل .

فهذه أربع فوائد محققة ، لا يتصور انكارها . وقد لا يبعد أن يقصد الشرع جميعها أو بعضها . فاذن قد تبين : أن النصارى كذبوا على الله ، وجهلوا شرع الله .

وثالثها : أنهم تركوا حكم الله بالتوهم . بل بالهوى والتحكم . وتأولوا من غير حاجة للتأويل ، ورفعوا النص والتنزيل ، فهم أهل التحريف والتبديل . ثم العجب من كذبهم ، وظهور تناقضهم حيث حكوا عن عيسى أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى . وانما أتيت

لأتممها »(١) فان كان هذا القول حقا عندهم • فلأى شىء نقضوا شريعة من قبله حرفا حرفا • وان كان كذبا فكفاك بذلك فسادا وخلفا •

ورابعها: أنهم لما نقضوا حكم الله ، فضلوا بحكمهم وأهوائهم على شرع رسول الله • حيث قال : « رالأحسن أن تترك الأجسام تامة غير ناقصة » وهذه مبالغة فى تسفيه موسى والنبيين ، وفى تسفيه المسيح • فانهم قد تركو' الأحسن ، وفعلوا الأسوأ ، والأفسد • فاعتبر أحوالهم ، فما أعجبها ، وجهالاتهم فما أغربها • مذمومون ؛ وهم يتوهمون أنهم يمدحون ، ومخالفون ويظنون أنهم متبعون • ثم مع ظهور عور'تهم لكل عاقل ، يتعرضون للشريعة الصحيحة بكل جهل وباطل ويموهون بخرافات وترهات لا يلتفت اليها عاقل • يظنون أن دين الاسلام كدينهم ، المستند الى الترهات والأوهام ، التى لا يقبلها سليم الفطرة من العوام •

وسنبين أصول دين الاسلام ، ومستنداتهم فى أحكامهم ، بحول الله فى « الفن الثانى » من هذا الباب ان شاء الله تعالى •

❋ ❋ ❋

مسالة فى صيامهم

قال « حفص بن البر » منهم ، فى بعض كتبه • وقد سأله سائل عن صيامهم • فقـال : « أول من صام الأربعين يوما : « موسى ابن عمران » • وبعد ذلك صامها « الياس النبى » الذى رفعه الله فى عصر بنى اسرائيل • ثم بعد ذلك صامها المسيح • وأما العلماء ، فأكملوا ثلاثة وأربعين يوما • وانما هى عشر أيام السنة • كما قال « بولش » الحوارى فى بعض رسائله : « كما تؤدون العشرات من أموالكم • فأدوا العشرات من أبدانكم » • فهذا هو الصيام المفروض » •

اعلم يا هذا • أن هذا القس الذى هو « حفص » هو من أكيسهم وأفصحهم • على أنه ليس فىالقوم رجل رشيد ولا ذو عقل سديد • وانما كان كذلك لأنه قد ضربت عليه « الجزية » ولزمه الصغار والذلة ، اذ كان قد نشأ فى ذمة المسلمين ، وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى أجمعين •

---

(١) انجيل متى : ٥ : ١٧

ومع ذلك فاذا أخذ يتكلم فى علوم النصارى وأحكامهم ، تلجلج لسانه ، وقصر بيانه ، لأنه ينزل على آرائهم الفاسدة ، وتحكماتهم البـــاردة .

❋ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ ❋

تبين لك يا هذا : أن كلامه فى هذا الفصل فاسد . واحتجاجه بارد . وذلك أنه ادعى : أن صوم الثلاثة والأربعين واجب . وحين أخذ يستدل على وجوبها ، استدل على وجوب الأربعين . ثم أخبر أن علماءهم زادوا من عند أنفسهم ثلاثة أيام .

فنقول لهم : وهذه الثلاثة الأيام التى ادعيتم وجوبها . هل علم موسى وعيسى ومن بينهما من الأنبياء أنها من فرض الصيام . أو لم يعلموا ؟ فان كانوا قد علموا . فلأى معنى لم يبلغوا ، ولم يبينوا ؟ ويلزم معصية الأنبياء من وجهين : من حيث انهم لم يصوموا ما هو فرض الله . ومن حيث لم يبلغوا الشرع . وذلك محال عليهم ، وان كانوا لم يعلموا وجوب هذه الأيام الثلاثة . فمن أين علم الجهال أمثالكم وجوبها . والأحكام انما تستند الى أقوال الأنبياء وكتبهم ؟

فان قالوا : أوجبها « بولش » الحوارى . قلنا : ذلك هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم . ذلك هو الذى غير دين المسيح ، الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر ـــ على ما تقدم ـــ .

هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحلل لكم كل محرم كان فى الملة . ولذلك كثرت أحكامه عندكم ، وتداولتموها بينكم .

ويدلك على ذلك : أنك اذا سمعت له قولا فى حكم . فتكاد لا تجده الا مغيرا للأحكام المتقدمة ، مخالفا لها . فتارة يزيد ، وأخرى ينقص ؛ وأخرى يرفع . يعرف هذا من وقف على كتبهم ، وعلى ما ينقلون عنه ؛ ثم لو سلمنا أنه لم يفعل شيئا من ذلك ؛ لمـــا كان ينبغى لكم أن تأخذوا بقوله ، وتتركوا فعل موسى ، وعيسى ، والياس ، وقولهم .

وهل فعل ذلك الا جهل ، لا ينبغى أن يصار اليه ، ولا يلتزمه أحد حكما عليه ؟ فان المبلغين عن الله ، المبينين شرع الله ، انما هم موسى ، وعيسى ، ومن تنزل منزلتهم . وباتفاق منكم أن « بولش »

ليس منزلا ، منزلة موسى ، ولا منزلة عيسى ، وغايته اذا سلم مما ذكر عنه فى كتب التواريخ : أن يكون حواريا ، لم تكثر صحبته لعيسى . بل صحبه أياما قلائل بدعواه . وليست صحبته له كصحبة « متاؤوش » ولا « يوحنا » ولا أحد من الأحد عشر حواريا .

ثم لو سلمنا أنه صحبه صحبتهم ، فلعله ارتد بعد رفع عيسى كما فعله « الأشكريوث » بزعمكم .

ثم لو سلمنا أنه لم يرتد . فمن أين يلزم اتباع حكمه ؟ ولا سيما اذا غير الأحكام المتقدمة وحكم بخلافها . وليس بنبى ولا رسول . فان قلتم : انه نبى . فقد قدمنا ما يكذب قولكم ، ويرد عليكم زعمكم . فقد تبين من هذا أن « حفص بن البر » على جلالة قدره عندهم : قبل ما كان ينبغى له أن يرد ، ورد ما كان ينبغى له أن يقبل . فانه رد فعل موسى وعيسى والياس . وقبل قول عامة الناس . فهو ، وهم من الأخسرين أعمالا « **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »(١) .

ولو تتبعنا أحكام صيامهم لأظهرنا فيها كثيرا من هذيانهم . فلنأخذ من كل باب مسألة واحدة بحول الله ، وحسن عونه .

* * *

مسألة فى أعيادهم المصانة

قال « حفص » :

« أما بعد .. فان الذى أردت علمه من الأعياد السبعة التى أمر القانون بصيانتها ، فهى معروفة . فأول يوم منها : اذ بشر جبريل الملك مريم بايلاد المسيح . واليوم الثانى : اذ ولد المسيح . والثالث : اذ ختن الى ثمانية أيام . والرابع : اذ ظهر للمجين(٢) . وأهدوا اليه ذهبا ، ولوبانا ، ومرا . وهو يوم النجم . والخامس : يوم الفصح . اذ قام عن القبر . والسادس : اذ تخطفته السحابة ، ورقي الى السماء بمحضر الحواريين . والسابع : اذ نزل روح القدس على الحواريين . وتكلموا بجميع الألسن .

---

(١) الكهف : ١٠٤ . (٢) « الهجين » فى التراجم الحديثة : المجوس .

وأما غيرها من الأيام التى استشهد فيها الشهداء ، ويصـونها الناس ، ويتصدقون فيها على المساكين والضعفاء فواجب على كل ذى عقل أن يصونها • اما فى مدينه ، واما فى قرية » اهـ •

فنقول له ، ولهم : هذه الأيام المصانة عندكم • هل صيانتها واجب عندكم بالشرع ، أو ليس واجبا بالشرع ؟ فان قالوا : ليس بواجب بالشرع • قلنا لهم : فلأى معنى تمملونها ، وتلتزمون صيانتها ؟ حتى أن من كان فى قرية أو فى موطن لا ينبغى له أن يرتحل عنه حتى يتمها • فقد التزمتم ما ليس بلازم ، وأوجبتم ما ليس بواجب • فان قالوا : هى واجبة بالشرع • قلنا لهم : بأى شرع وجبت ؟ بشرع موسى ، أو شرع عيسى ؟ فان قالوا : بشرع موسى كذبوا • وقلنـا لهم : **« فأتوا بالتـوراة فاتلوها ان كنتم صـادقين »**(١) ولا شك فى أنهم لا يجدون شيئا منها فى التوراة ولا فى الانجيل • وغايتهم : أن يقولوا ما قال عالمهم « حفص » : « هذه أيام شريعة ، لأنها اتفق فيها أمور شريفة من أحوال المسيح » •

فنقول لهم : هب أنه اتفق ما تقولون • فمن أخبركم من الأنبياء أنه اذا اتفق أمر من تلك الأمور ، فافعلوا كذا ، واصنعوا ذلك اليوم عيدا ؟ وفى أى كتاب من كتبكم وجدتموه ؟ ولا شك فى أنهم لا يجدون شيئا مما ادعوه فلم يبق لهم الا محض التحكم ، ثم يلزمهم على مساق هذا : أن يبحثوا عن أيام عيسى وعن عددها ، ويتخذوا تلك الأيام أعيادا • فان أيامه كلها ومحاضره كانت شريفة • اذ كانت أيامه لا تخلو عن كرامة يكرمه الله بها ، وعن بركة من بركاته ، وعن معجزة من معجزاته • فلأى معنى خصصتم تلك الأيام ، لولا محض الهوى والتحكم الباطل ؟ ثم نقول لهم : هل كان عيسى يعلم فضيلة تلك الأيام ، أو لا يعلم ؟ فان كان يعلمها فلأى معنى لم يفعل فيها ما تفعلون ؟ أو لأى معنى لم يبين شرعه فيها ، لو كان له فيها شرع ؟ وان لم يعلم فضيلتها فكيف لم يعلم هو ما علمتم أنتم ؟ ثم كيف يجهل شيئا علمتموه أنتم ، وهو عندكم قد اتحد به علم الله •

فحصل من هذا : أنها ليست فاضلة ، ولا لله فيهـا حكم • اذ لو كانت فاضلة ، لله فيها حكم ، لعلمها ، ولو علمها لبينها • فلما

---

(١) آل عمران : ٩٣

لم يعلم ، ولم يبين علم أنه ليس لله فيها شيء مما اخترعتموه • لكنكم تحكمتم باختراع ما جهلتم ، وشرعتم ما لم يشرع لكم نبيكم • فان قالوا : هذه أيام اتخذناها لفعل الخير ، نتصدق فيها على مساكيننا ، ونطعم فيها جياعنا ، وهذه أفعال خير ، وبهذه جاءت الشرائع كلها •

قلنا لهم : لا ننكر أن الشرائع جاءت باعانة المساكين • لكن لم خصصتم لها أياما بالتحكم ثم أوجبتم صيانة تلك الأيام ؟ أو لأى شيء لم تقولوا : انه ينبغي اطعام المساكين أبدا ، وسد خلاتهم ، متى ظهرت ؟ ولم تحتاجوا الى وضـــع أحكـــام بالتوهم • ولو كنتم موفقين لسلكتم مسلك اتبـــاع المسيح • تفعلون ما فعل ، وتتركون ما ترك • ولو فعلتم ذلك لكان موافقا لتعظيمه •

ولو فرضنا عبدين أمرهما سيدهما بالاقتداء به ، وباتباع سنته ، فأخذ الواحد منهما يقفو أثر سيده فى أفعاله ، فلا يزيد فيها ولا ينقص منها • بل هو مواظب عليها غير خارج عنها ، ولا زائد فيها ، وهو مع ذلك معتقد لتعظيمه محب له • وأخذ الآخر يزيد تارة فى حكم ، وينقص تارة من حكم ، وهو مع ذلك معظم لسيده ، فلو فرضنا : أن السيد قال للأول : ما صنعت فيما أمرتك ؟ فقال له : لم أزد على ما رأيتك تفعل ولا نقصت • لأنى خفتك • وأيضا فانى أحبك وأعظمك • فأحببتك ، وأحببت فعلك الذى رأيتك تفعله ، فلا شك أن العقلاء يستحسنون هذا الفعل ، ويرون أن هذا العبد فى أعلى درجات العقل والطاعة لسيده والمحبة له والتعظيم • وان مثل هذا ينبغى للسيد أن يعتقه ، ويثيبه •

وأما الثانى : فاذا قال له سيده : ما فعلت فيما أمرتك ؟ فيقول : فعلت ما رأيتك تفعل ، وما أمرتنى به الا أنى زدت أفعالا لم تأمرنى بها ، ونقصت أيضا • فانى تركت أفعالا رأيتك تفعلها • فيقول له : لأى شيء زدت ما لم آمرك به ، ونقصت مما رأيتنى فعلت ؟ فلا يصح له ، أن يقول : لأنى عظمتك وأحببتك • فان هذا لا يناسب تعظيمه ، ولا محبته ، بل يناسب بغضه واهانته ، فلاشك أن العقلاء يحكمون ؟ أن مثل هذا العبد لم يطع سيده فى جميع ما أمره به ، وأنه كاذب فى تعظيمه ومحبته ، وأنه مستوجب لنكال سيده •

وهذا المثـال الأخير ، هو مثالكم مع المسيح ، فانكم تدعون تعظيمه وتخالفونه فى أفعاله ، وتزيدون عليه فى أحكامه ، فأنتم مستحقون لتوبيخه ، وعقاب مرسله ، وستجمعكم مع من شرع لكم هذه الأحكام ، نار حامية ، تسمى الهاوية .

* * *

مسألة فى قربانهم

قال حفص : « اعلم أن الذى أردت معرفته من خـبر القربان وشرحه .

أن الأنبياء ، وبنى اسرائيل كانوا يقربون القربان على ما تحكيه التوراة : العجول ، والجزر ، والخرفان . فاما « ملكى صادق » فانه أول من قرب القربان من الخبز والخمر . وكان قسيس الله فى البدء . واليه أدى ابراهيم العشرات المفروضة(١) . وقد حكى داوود النبى فى الزبور خبر « ملكى صادق » اذ بشر بالمسيح سـيدنا ، وأنزله منزلته ، وأحله محله ، وجعله « قسا » الى الأبد . فقال : « الرب أقسم يمينا ، وليس يندم أنت أبدا قسيس لى فى خطة القسيسين على رتبة ملكى صادق »(٢) فأما الحواريون وأتباعهم فانهم فرضوا هذا القربان الذى يقدسه الأساقفة والقساوس على المذبح من الخمر والخبز ، على ما تقدم من فعل « ملكى صادق » وكما قال المسيح فى الانجيل : « من أكل لحمى ، وشرب دمى . كان فى ، وكنت فيه . وأما الخبز النازل من السماء . فمن أكلنى يحيا بى »(٣) اهـ .

انظر . ما أعجب حال هؤلاء فى تركهم شرعية التوراة ، فى القربان ، وعدولهم عنها ، الى ما هو ضرب من الهذيان .

وذلك أن الله تعالى افترض القربان فى التوراة بالعجول والجزر والخرفان . كما ذكر . وعملت بذلك بنو اسرائيل من غير تغيير ولا تبديل الى مدة هؤلاء المغيرين لأحكام التوراة ، فغيروا وبدلوا ، وعدلوا الى الخبز والخمر من غير أن ينسخ لهم عيسى شيئا من ذلك ، ولا بدله بغيره ، لكنهم يكرهون العمل بأحكام التوراة ، فيعدلون عنها الى العمل بأهوائهم ،

---

(١) سفر التكوين : ١٤ : ١٨ ـ ٢٠ (٢) المزمور ١١٠ : ٤
(٣) انجيل يوحنا : ٦ : ٥٦

مع أنهم متعبدون بأحكامها • اذ الأحكام فى الانجيل قليلة جدا • ولم يتركوا لآرائهــم حتى يتحكموا بأهوائهم ، ثم انهم يتحكمون بآرائهم • فان اتفق لهم شىء يتمسكون به ، كان ذلك مؤكدا لأغراضهم ؛ وان لم يتفق لهم ذلك استغنوا عنه ، وحكموا بأغراضهم • ويبين هذا : أنهم استثقلوا العجول والجزر والخرفان لارتفاع أثمانها ، وأنه لا يوجد فيها ما يوجد فى الخمر من اللذة والطرب ، الداعين الى شربها •

ولذلك عدلوا للخمر مع خفة مؤنتها ، وقلة ثمنها • فانهم أشــد الناس بخلا • فان قيل لهم : بأى شىء عدلتم عن قربان التوراة ؟ قالوا : لأن « ملكى صادق » أول من قرب الخمر ، والخبز • ولأن المسيح قال : « من أكل لحمى وشرب دمى ، كان فى ، وأنا فيه » ولأن الحواريين فرضوا هذا القربان •

هذا غاية ما يحتجون به • ولابد من تتبع ذلك • وبيان تحكمهم وباطلهم • فنقول :

أما قولكم بفعل : « ملكى صادق » فباطل من أوجه :

أحدها : أنه لم يكن نبيا ، فان ادعيتم أنه نبى ، فلا بد من الدليل على ذلك • فعليكم اثباته ، ولو سلم ذلك : لتبقى عليكم أن تثبتوا أن شرعه : شرع لكم • ولو سلم أن شرعه شرع لكم ، لكان ينبغى أن تعلموا أن التوراة قد نسخت ذلك الشرع • اذ قد استقر : أن موسى عمل بخلافه • وكذلك الأنبياء بعده • ولو كان ذلك الحكم باقيا صحيحا لمــا كان ينبغى لموسى أن يعدل عنه • ولمــا جاءكم بغيره • فترككم التوراة التى أنتم مخاطبون بأحكامها وشرعها الى مالم تخاطبوا به ، ولا شرع لكم : استهانة بشرع التوراة وأحكامها ، بل استخفاف بالذى أنزلها ، وبالذى أنزلت عليه فقد بطل استدلالكم بفعل « ملكى صادق » من أوجه •

وأما استدلالكم بقول عيسى ، فهذيان • لا يلتفت اليه ؛ لأنه انما أراد : (من عمل بعملى ، أو تعلم من علمى ، أحببته وأحبنى) وما ذكره مثل محسوس قصد به التنبيه على معنى معقول • ودليل ذلك من قوله • قوله : « أنا الخبز النازل من السماء » انما أراد : أنه بمنزلة الخبز الذى يغتذى به ؛ لأنه قد جاء بغذاء الأرواح ؛

وبخبزها . وهذه استعارة حسنة مستعملة . وكثيرا ما يقال فى الكلام : « العلم ، والمعانى الشريفة : خبز الأرواح ، كما أن الطعام المعروف : خبز الأشباح » .

ولكلامه عليه السلام عامل آخر ، وتأويلات جارية غير ما ذكرتم ، يجوزها العقل ، ولا يبعدها استعمال اللفظ . لا يخرج شىء منها الى الهذيان الذى صرتم اليه ، الذى أفضى بكم لجهلكم ، الى ترك حكم ، وترك العمل بمقتضاه . ولولا التطويل لذكرنا منها وجوها . وبهذا اللفظ وما يشبهه ضللتم ، حيث قلتم بالاتحاد ، ولم تفهموا منه المراد . فكابرتم المعقول ، وحرفتم المنقول ، وحملتم من الشناعة والقباحة مالا يرضى به عليم ولا جهول . وقد ذكرنا ابطال ذلك فيما تقدم .

وأما استدلالهم بفعل الحواريين فذلك من فن الكذب عليهم أجمعين ، ولو سلمنا أنه صحيح وصدق . لما كان فى فعلهم حجة . بل ان كتاب الله تعالى يخالف فعلهم ، بل الحجة كتاب الله ، ولا يرتفع شىء من ذلك الا اذا بين عيسى عليه السلام : أنه منسوخ ، ويبلغكم ذلك عنه بنص قاطع على شروط النسخ ، على ما هو معروف عند أهله . بل قد أوردوا فى انجيلهم : أن عيسى قال للمبروص الذى شفاه : « امض واعرض نفسك على القسيسين ، واهد قربانك الذى أمر به موسى فى عهده »(١) .

وهذا نص على أن القربان عند عيسى انما هو الذى حكم به موسى ، وهو العجول والجزر والخرفان ، لا كما شرعتم أنتم من الهذيان .

فقد حصل من هذا أنكم خالفتم عيسى ، وقلتم عليه البهتان .

وأما استدلالهم بفعل القسيسين فأولئك المغيرون للدين والمحرفون لكتاب رب العالمين .

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها . أم الرباب بماسل

فقد ظهر من هذا أنهم تركوا قربان التوراة لغير شىء ، وأنهم على غير شى . فعليهم لعنة كل ميت وحى .

❋ ❋ ❋

---

(١) انجيل متى : ٨ : ٤

مسألة فى تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح

قال حفص : « أما الملح الذى نقـدس به الدور والبيوت • وأردت فهم ذلك • فانا وجدنا فى سير « الياس » النبى ، الذى رفعه الله : أن تلميذه « اليسع » مكث بمدينة « أريحا » زمانا • فقال له أهلها : « ان عندنا عينا جارية تنفجر منها مياه كثيرة مرة ، لا نفع فيها » فأمر أن يؤتى اليه باناء جديد • فأدخل فيه الملح ، وقدس به ماء العين(١) • فمن هذا السبب صرنا نقدس الدور والبيوت بالملح المقدس بعد ما يتلو عليه القساوس آيات من النبوة » اهـ •

فنقول لهم : يا هؤلاء المتـلاعبون بأديانهم ، المستمرون على هذيانهم • كيف جعلتم مثل هذا دليلا على ثبوت حكم عليكم ؟ وليس فيه دليل من وجوه كثيرة • لكنا نقتصر من ذلك على نكتة كافية وهى : أن « اليسع » لم يفعل ذلك على جهة بيان أنه : حكم • وانما فعل ذلك على جهة : اظهار الكرامة والمعجزة • فان ذلك المـاء عذب وطاب ، فظهرت كرامته ومعجزاته ، كما ظهـرت على « عيسى » حين مس « المبروص » وبرأ • وكذلك مس الأعميين فأبصرا • الى غير ذلك • وقد حكيتم فى بعض أناجيلكم : أن أعمى سأل من « عيسى » أن يرد عليه بصره ، فأخذ قطعة من طين فجعلها فى عينه • فأبصر • وهذا بمثابة ما فعل « اليسع » فكان ينبغى لكم : أن تقدسوا دوركم بالتراب والطين ، كما فعل « عيسى » وهو أولى بكم ، اذ هو مفضل عندكم على « اليسع » وغيره بزعمكم •

ومع ذلك فتركتم الاقتداء به ، واقتديتم بمن هو دونه • وذلك عكس ما كان ينبغى لكم • وهذا نتيجة جهلكم ، ومن سوء فعلكم •

❊ ❊ ❊

مسألة فى تصليبهم على وجوههم فى صلاتهم

قال حفص : « انما نصلب على وجوهنا • لأنا وجدنا فى كتب علمائنا السالفين • أنه لما أراد ملك « قسطنطينية » أن يغزو بعض أعدائه ، تراءى له فى السماء صورة صليب من لهب ، وملك من الملائكة

---

(١) انظر الاصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى من الآية التاسعة عشر •

يخاطبه ويقول له : ان كنت تريد غلبة أعدائك ، فاجعل هذه الصورة علامة تكون قدامك . فانك غالب ظافر بها على جميع أعدائك . فآمن وفعل ، كما قال له الملك ، وهو الذى بحث وكشف عن صليب المسيح ، حتى وجده مدفونا ، وعمل من المسامير التى كانت فيه لجاما لفرسه ، وزين جبينه بصليب من ذهب . فلم يزل من حينئذ أهل ملة المسيح يستعملون هذه العلامة ، لأنها علامة السبق والظفر » اهـ .

هذا الذى ذكره حفص هنا ، يصدق ما حكيناه عن قسطنطين فيما تقدم . فان كذبنا أحد منهم فيما ذكرناه عنه ، فليكذب أسقفه حفصا .

على أن ما ذكرناه مشهور عند أهل التاريخ الذين اعتنوا بنقل أخبار الأزمان الماضية والقرون السالفة .

وبعد هذا نقول لمن استدل على أن « الصليب » مشروع لهم : من أين عرفت صدق « قسطنطين » فيما حكام وقاله ؟ ولعله كذب . وأراد بذلك اصلاح رعيته وحالته وايغار صدور العامة على من خالفه وذلك داخل فى باب السياسات الى يسلكها من لم يتقيد بالشرعيات ، وكثيرا ما يشاهد من الملوك مثلها .

ثم لو سلمنا أنه صدق فى رؤياه . فمن أين علم أن الذى كلمه ملك ؟ فلعله شيطان قصد اضلالكم . وكذلك كان . حتى تعتقدوا الصلوبية ، التى هى أعظم كل بلية ، ومحمل على العصبية ، ثم لو سلمنا أنه ملك . فلأى معنى جعلتم ذلك التصليب فى صلاتكم ، وزدتم على ما علمكم عيسى ؟

ولقد كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى الصلاة مثل فعله ، ولا تزيدوا على ذلك . ثم يلزمكم على ذلك : أن يقال لكم : لا يخلو ذلك التصليب أن يكون حكما من أحكام الصلاة . أو لا يكون . فان كان حكما ، ولم تنقلوه عن عيسى ، ولا أنه علمه لكم . فقد نسبتم عيسى الى أنه كتم حكم الله ، ولم يبلغه . وهذا محال على عيسى . وعلى كل رسول أرسله الله الى أمة . وان قلتم انه ليس بحكم . فلم تفعلون فى الصلاة ما ليس بحكم شرعى ؟ وان قلتم : شرعه لنا أئمتنا ، وأساقفتنا . قلنا لكم : ومن جعل لأئمتكم أن يتحكموا فى شرع الله ، ويفتروا على الله ، وهم مذنبون عاصون ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا عطاء ولا منعا ؟

ثم نقول لهم : هذه الصلاة التى يصلب فيها على الوجه أفضل أم الصلاة التى لا يصلب فيها ؟ فان قالوا : الصلاة التى يصلب فيها • فيلزمكم على هذا أن تكون صلاتهم أفضل من صلاة المسيح • وكفى هذا شناعة وحماقة • وان كانت الصلاة التى لا يصلب فيهـا هى الأفضل ، فينبغى ألا تفعلوا مالا فضيلة فيه • وهذا كله يبين أن هؤلاء القوم لا يعولون على الأنبياء فى أحكامهم ، ولا يرجعون الى قوانينهم ، بل يعولون على أغراضهم وشهواتهم •

فلقد تمكن الشيطان منهم فأضلهم ، حتى استدرجهم عن الشرائع ، وأزلهـم •

فهذه المسائل التى ذكرناها ، هى من معظم قواعدهم ، وأصولهم • واذا كان علمهم فى هذه القواعد مثل ما رأيت ، فناهيك بفروعهم • ولنقتصر على ما ذكرنا • اذ فيه تنبيه على ما لم نذكر • ثم ان أحوجونا الى مزيد ، تتبعنا كبار كتبهم بأن ننقضها حرفا حرفا ، ونبين فسادها لفظا لفظا •

بقيت علينا مسألة واحدة ، وهى : بيان اعتقاداتهم فى الدار الآخرة وعذابها ونعيمها • وبها اختتام هذا الفن ان شاء الله تعالى •

* * *

مسألة فى قولهم فى النعيم والعذاب الأخراوين

قال صاحب كتاب « المسائل » :

« لسنا ننتظر فى المكافأة الالهية شيئا من الأرضيات الفانيات ، كالذى ينتظره شيعة « ملسيان » ولا تزويج العرائس كالذى يشتهيه « جرنش » و « مركش » ولا ما ينتسب الى المـأكول والمشروب ، كالذى يسوغه « بابيه » وجماعة • ولا ننتظر أن يكون ملك المسيح فى الأرض : ألف سنة ، بعد القيامة ليمتلك الصالحون معه ، متنعمين كتعليم « قابوش » الذى خيل بقيامتين • الأولى : للصـالحين ، والثانية : للكافرين • فقال : ان ما بين هاتين القيامتين تمسك الأحباس الجاهلة بالله فى زوايا الأرض فى أجسامهم ، ثم يحملهم الشيطان بعد تملك الصالحين فى الأرض ألف سنة ، على محاربة الصالحين المتملكين فيدفعهم الله عنهم بأمطار النيران • محاربا عنهم ، فيموتون ، هكذا •

مع سائرهم ، الذين ماتوا فى الكفر ثم يحيون فى لحم غير متغير ، للعذابات الدائمة » اهـ .

قد بين هذا المتكلم ، الحاكى خبط النصارى ، واختلاف فرقها ، فى هذه المسألة : بما أغنى عن البحث عن كثير من فرقهم . على أن فرقهم لا تنحصر ، واختلافهم لا ينضبط . فان اختلافهم كاختلاف المجانين . اذا اجتمعوا ، فكل واحد منهم يتكلم بما لا يعقل ، وما لا حجة له عليه ولا معول .

لكن مذهب جماهيرهم ، ومعظمهم ، ومن ينتسب الى التدين منهم : أن الخلق لابد أن يجتمعوا فى القيامة ، وأن عيسى محاسبهم ، فينعم ويعذب . لكن ليس عذابا بنيران وسلاسل وأغلال . وغير ذلك مما نعتقده نحن ، وليس نعيما أيضا بماكول ومشروب والتذاذ بنكاح .

ويشبه — والله أعلم — مذهبهم فى هذه المسألة مذهب الفلاسفة ، حيث ينكرون العذاب المحسوس ، والنعيم ويصرفون ذلك الى الالتذاذ الروحانى ، لكنهم لا يصرحون(١) به ، كما تصرح به الفلاسفة . اذ لا يقدرون على تبيين أغراضهم لقصورهم . ونحن نتكلم هنا مع من ينكر ذلك من المتشرعين ، فانهم قد اجتمعوا على اعادتنا كما كنا أول مرة . اذ قد اجتمعت على ذلك الشرائع كلها . من غير اختلاف بينها فيه .

فنقول لمنكر ذلك : لا يخلو أن ما تنكره ، اما من جهة العقل ، أو من جهة الشرع . فان قال : من جهة العقل ، قلنا له : كذبت وأخطأت . فان العقل لا يدل على استحالة ذلك . بل يدل على جوازه . اذ ليس فى ذلك الا أن الذى خلقنا أول مرة ، ومكننا أن نتنعم نعيما محسوسا ، ونتألم ألما محسوسا قادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا .

فان الاعادة انما هى خلق ثان . ومن قدر على الخلق الأول ، قدر على الخلق الثانى . وهذا معلوم بنفسه ، فهو اذن فعل ممكن فى نفسه ، ليس من قبيل الممتنع . والله تعالى قادر على كل ممكن ، فيجب وصفه بالقدرة على ذلك . فان قالوا : ان كان فى الجنة أكل

---

(١) عقيدة البعث الروحانى : يصرح بها النصارى فى كتبهم (انظر الاصحاح الخامس عشر من رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس) .

وشراب ونكاح ولباس ، فيلزم عليه أن يكون فى الجنة غائط وبول وولادة وتمزيق الثياب وتخريقها •

وكل ذلك محال أن يكون فى الجنة • قلنا : هذا جهل ، ولا يلزم شىء مما ذكرتم فيها • بل نقول : هناك أكل وشرب ، وليس هنالك غائط ولا بول • وهذا غير منكر ، اذ لا يلزم فى كل طعام أن يكون له فضـلة ، ولو سلمنا أن تكون له فضلة لمـا لزم أن يكون فضلة مستقذرة ، بل قد تكون فضلات كثيرة طيبا يتطيب به ، وشرابا يشرب • مثل المسك • فانه دم حيوان ، أو رجيعه ، أو العسل فانه فضل حيوان معروف وليس شىء من ذلك مستقذرا ، بل هو مستطاب مستلذ • ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا ، بل هو هكذا •

وقد جاءنا على لسان الصـادق : أن أهل الجنة لا يبولون ، ولا يتغوطون ، انما هو عرق يجرى من أجسادهم مثل المسك•

وأما الحمل فلا يلزم شىء منه ، اذ قد نجد من النساء : العواقر ، وهن اللواتى لا يلدن • فكذلك نساء أهل الجنة لا يلدن ، ولا يحضن •

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى • وفى لباس بنى اسرائيل « فى المفاز » دليل على بطلان ما يخيل هذا السائل ، فالذى يبقى الثياب الى مدة قادر على أن يبقيها أبد الآبدين •

وهذه أمور لا ينكرها الا كل غبى جاهل ليس له معقول حاصل • فاذا دل العقل على جوازه ، فينبغى أن يستدل على وقوع ذلك ، ووجوده بكلام الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، فنقول لمنكر ذلك شرعا :

لا يصح لك أن تستدل على انكارك بشىء من كلام الأنبياء • اذ لا تجده ، بل سنريك نصوص كلامهم على اثباته •

منها : أن من المعلوم أن آدم عليه السلام كان يأكل فى الجنة ويشرب وينكح • فان قالوا : الجنة التى كان فيها آدم قبل هبوطه الى الأرض انما كانت فى الأرض ، وهى جنة عدن التى قال فيها فى التوراة : « وغرس الله فردوسا بعدن من قبل ، وأسكنه آدم »[1] •

---

(١) سفر التكوين : ٢ : ١٥

وانما كانت تلك بستانا من بساتين الدنيا . قلنا : ليس فى التوراة نص قاطع يدل على أن الجنة التى يرجع الناس اليها يوم الجزاء ليست هى التى أسكن الله فيهـا آدم . بل التوراة محتملة لذلك . وأما كتابنا فيدل على أنها هى .

ثم لو سلمنا أنها ليست هى ، لحصل لنا من ذلك دليل جواز الأكل والشرب والنكاح فى الجنة . فانه كما جاز أن آدم أكل وشرب فيها . كذلك يجوز أن يأكل ويشرب وينكح فى الجنة التى يرجعون اليها . وهذا بين بنفسه عند المنصف .

ومنها : أن فى الانجيل : أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح ، وقد سقاهم كأسا من الخمر ، وقال لهم : « انى لا أشربها معكم أبدا ، حتى تشربوها معى فى الملكوت عن يمين الله »(١) وهذا نص لا يحتمل التأويل الا مع ضعف . وفيه أيضا فى قصة « العازر » الذى كان مطروحا على باب الغنى ، والكلاب تلحس جراح قروحه . وأن ذلك الغنى نظر اليه فى الجنة متكئا على حجر ابراهيم الخليل ، فناداه الغنى ، وهو فى النار : « يا أبى ابراهيم ابعث العازر الى بشىء من ماء . أبل به لسانى »(٢) وهذا نص آخر أبين من الأول .

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « يا ثعابين بنى الأفاعى . كيف لكم والنجاة من عذاب النار »(٣) .

وفيه أيضا أن الجماعة قالت للمسيح بكفر ناحوم : « متى جئت الى هنا يا معلم ؟ فقال لهم : آمين آمين . أقول لكم : تطلبوننى ، ليس لأنكم رأيتم عجائب بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم . فارغبوا فى طعام لا يفنى فى الجنة الدائمة »(٤) .

وفيه أيضا : أنه قال لتلاميذه فى وصية وصاهم بها : « لتطعمن ولتشربن فى مائدتى فى ملك الله »(٥) .

---

(١) انجيل متى : ٢٦ : ٢٩

(٢) الاصحاح السادس عشر من انجيل لوقا .

(٣) متى ولوقا ٣ : ٧ ، والاستشهاد فى غير موضعه لانه يقصد بالعذاب : هلاك اليهود فى زمن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم .

(٤) انجيل يوحنا : الاصحاح السادس ، والاستشهاد فى غير موضعه لانه يشير الى زمن نبى الاسلام بالجنة الدائمة (الحياة الابدية)

(٥) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٠ .

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « ان كان موسى أطعمكم خبزا فى المفاز ، فأنا أطعمكم خبزا سماويا »(١) يريد الجنة .

وقال أشعياء : « يا معشر العطاش توجهوا الى المـاء الورد . ومن لا فضة له ، فليذهب وليأكل ويشرب ويأخذ من الخبز واللبن بغير فضة ولا ثمن »(٢) .

وهذا كثير فى كتب الأنبياء بلا شك ، ولا امتراء . فان قالوا : فلأى معنى لم يصرح موسى فى التوراة بذلك ، وبأخبار القيامة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . وعلى سبيل التنبيه تحتمل وجوها :

أحدها : لعتو بنى اسرائيل وتمردهم ، ولكلال أفهامهم .

ثانيها : لبعد زمان ذلك .

ثالثها : ليعجل لهم جزاء أعمالهم . فانما كانوا يهددون ويخوفون بالعقوبات العاجلة ويوعدون باللذات العاجلة من الملك وتكثير الرزق ، وخصب البلاد الى غير ذلك .

رابعها : لأنه قد كان سبق فى علم الله تعالى أنه يرسل رسولا فى آخر الزمان ، ليس بعده نبى ولا رسول يبين أمور الآخرة بيانا شافيا ، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك لقرب القيامة من زمانه ، وليحصل لنبينا صلى الله عليه وسلم من فضيلة العلم والاعلام ما لم يحصل لأحد غيره ، ولتختص أمته بعلم ليس لأحد غيرها وهذا الوجه هو أقرب الوجوه . والله أعلم(٣) .

ويدل على ذلك قوله فى التوراة حين بشر بنبينا عليه السلام ، وذكر كثيرا من علاماته « ومعه كتاب نارى »(٤) وقد تقدم ذكر ذلك والدليل عليه أيضـا : أنك لا تجد عند أمة من الأمم من أخبار القيامة ، أمور الآخرة ما عندهم(٥) .

---

(١) يوحنا : ٦ والاستشهاد فى غير موضعه لانه يشير الى ايام نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم .
(٢) سفر أشعياء : ٥٥ : ١

(٣) فى كتاب تنقيح الأبحاث لابن كمونه : السبب .

(٤) تثنية ٣٣ : ٢

(٥) المؤلف لم يذكر الأدلة القاطعة من توراة موسى عليه السلام على اثبات البعث . وقد ذكرناها فى تقديمنا لكتاب « يقظة أولى الاعتبار فيما ورد »

فالحمد لله الذى جعل لنا كل الفضائل ، وخصنا بمحمد صلى الله عليه وسلم خير نبى وفاضل .

فقد ظهر من هذا النظر : أن ما انتحلوه من انكار النعيم ، والعذاب المحسوسين ، باطل بشهادة العقول ، وبنصوص كلام الأنبياء المنقول .

وقد فرغنا من الفن الأول ، والحمد لله كثيرا .

❋ ❋ ❋

= فى ذكر النار وأصحاب النار » للشيخ صديق حسن خان . وفى تقديمنا لكتاب « نفخ الروح والتسوية » للامام أبى حامد الغزالى — نشر مكتبة عاطف بجوار ادارة الأزهر ومكتبة المدينة المنورة بسور الأزبكية — ومن الآيات التى فى توراة موسى عليه السلام — وهى محل خلاف بين التوراة السامرية والتوراة العبرانية . فهى فى السامرية صريحة فى اثبات البعث ،وفى العبرانية تحتمل الجزاء فى الدنيا أو فى الآخرة — هذه الآيـات :

النص عن يوم القيامة فى التوراة العبرانية :

النص : يقول الله تعـالى : — كما كتبوا — « انهم أمة عديمة الرأى ، ولا بصيرة فيهم ، لو عقلوا لفطنوا بهذه ، وتأملوا آخرتهم . كيف يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة ؟ لولا أن صخرهم باعهم ، والرب سلمهم ، لأنه ليس كصخرنا صخرهم .

ولو كان أعداؤنا القضاة . لأن من جفنة سدوم جفنتهم ، ومن كروم عمورة . عنبهم عنب سم ، ولهم عناقيد مرارة ، خمرهم حمة الثعابين ، وسم الأصلال القاتل .

أليس ذلك مكنوزا عندى . مختوما عليه فى خزائنى ؟ لى النقمة والجزاء . فى وقت تزل أقدامهم . ان يوم هلاكهم قريب ، والمهيآت لهم مسرعة ، لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبيده يشفق . حين يرى أن اليد قد مضت ولم يبق محجوز ولا مطلق . يقول : أين آلهتهم الصخرة التى التجأوا اليها ؟ التى كانت تأكل شحم ذبائحهم وتشرب خمر سكائبهم . لتقم وتساعدكم وتكن عليكم حماية .

أنظروا الآن . أنا ، أنا هو ، وليس اله معى . أنا أميت وأحيى ، سحقت وانى أشفى ، وليس من يدى مخلص . انى أرفع الى السماء يدى ، وأقول : حى أنا الى الأبد . اذا سننت سيفى البارق ، وأمسكت بالقضاء يدى أرد نقمة على أضدادى وأجازى مبغضى . أسكر سهامى بدم ، ويأكل سيفى لحما . بدم القتلى والسبايا ، ومن رؤوس قواد العدو .

تهللوا أيها الأمم شعبه ، لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أضداده ، ويصفح عن أرضه . عن شعبه » (الاصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية : من الآية الثامنة والعشرين الى الآية الثالثة والاربعين) .

الفن الثانى

محاسن دين الاسلام

تمهيـــد :

الغرض من هذا الفن : أن نبين فيه عقيدة الاسلام ، وجملا من أصول أحكامه ، ومواضع من فروع دينه . أنكرتها النصارى عليه • وانما فعلنا ذلك لغرضين :

أحدهما : أن السائل الذى حركنا لهذا الكتاب ، هددنا • وزعم أنه ان سب وشتم ، كتب كتابا بنص شريعتنا ووجهه للبلاد حتى يقف الناس عليها • فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها : جهول • لا يحسن ما ينقل ، ولا ما يقول •

كى يقف العقلاء عليها ، وينظروا فيها • على أن شرعنا ليس بالخفى • بل قد طبق الأرض شرقا وغربا ، وقرع من العقلاء سمعا وقلبا ، فلم يسمع بمن مجه وطرحه غير معاند ، كبثه شرعنا وفضحه ، فانه جار على المنهاج المعقول ، المستحسن ، عند أرباب العقول •

وسأبين ذلك ان شاء الله تعـالى ، على أنى لم أتعرض لهذا السائل ولا لأحد من ملتهم بالسب ، أكثر من تبيين جهلهم ، وركاكة هذيانهم وقولهم • وربما أغاظوا فى بعض الأقوال لمـا ارتكبوا فيها من القبيح والمحال ، فأطلقت عليهم اللعنة ، حسب ما تقتضيه البغضاء والاحنة ، وتعويلا على ما فى التوراة من لعنتهم ، وركاكة شرعتهم •

قال فى التوراة : « ملعون • ملعون من يعلق بالصليب »[1] يريد

---

(١) تثنية ٢١ : ٢٢ ـ ٢٣ والامام الابوصيرى، مؤلف « بردة المديح المباركة » نظم قصيدة فى الرد على النصارى واليهود قال فيها عن « ملعون من يعلق بالصليب » ما نصه :

وعزوا الى يعقوب من أولاده	صـديقة حملت به وبتـولا
والى المسيح وأمه وكفى بها	لعنـا يعود عليهم مكفولا
ولمن تعلق بالصليب بزعمهم	ذكرا من الفعل القبيح مهولا

بذلك من اعتقد الصليب وادعاه وعظمه . وهذا نص بلعنتهم ، وموجب لبغضتهم . وهذا ما نعلمه مع ديننا ، وواضح سبيلنا .

والغرض الثانى : أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصرانى أو يهودى لم يسمع قط من ديننا تفصيلا ولا تصريحا . بل انما سمع له : سبا ، وتقبيحا . فأردت أن أسرده على الجملة ، ليتبين حسنه لمن كان ذكى العقل ، صحيح الفطرة . فلعل ذلك يكون سبب هداه ، وجلاء عماه **« وما توفيقى الا بالله »**[1] .

وفى هذا الفن فصلان : وانقسم هذا الفن الى فصلين ، لأن شريعة الاسلام مشتملة على اعتقاد بالقلوب ، وعمل بالجوارح . فالفصلين نذكر فى أحدهما : قواعد الاعتقاد . وفى الثانى : ندافع عن الاعتقاد وعن التشريع . فنقول :

---

(١) هود : ٨٨

الفصل الأول

اعتقاد المسلمين

أما اعتقاد المسلمين فهو : أن كل موجود سوى الله تعالى فهو محدث مخلوق مخترع على معنى أنه لم يكن موجودا ، ثم صار موجودا ، وأن له محدثا موجودا قديما ، لا يشبه شيئا من الموجودات الحادثة ، بل يتعالى عن شبهها من كل وجه ، فليس بجسم ولا يحل فى الأجسام ، ولا جوهر ، ولا يحل فى الجواهر ، ولا عرض ولا تحله الأعراض . وأنه اله واحد لا شريك له فى فعله ، ولا نظير له فى ذاته ، وطوله ، لا ينبغى له الصاحبة ، ولا الولد . ولم يكن له من خلقه كفؤا أحد . وأنه عالم ، قادر ، مريد ، حى ، موصوف بصفات الكمال من السمع والبصر والكلام وغير ذلك . مما يكون كمالا فى حقه . وأنه منزه عن صفات النقص والقصور ، وأنه يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه بما يشاء ، لا يفتقر الى شىء ، واليه يفتقر كل شىء ، وبيده ملك كل جماد وحى . لا يجب عليه لمخلوق حق ، وتجب حقوقه على الخلق ، لا يتوجه عليه : متى ؟ ولا : أين ؟ ولا : لم ؟ ولا كيف ؟ فلا يقال : متى وجد ؟ ولا أين وجد ؟ولا كيف هو ؟ ولا لم فعل ؟ **« لا يسئل عما يفعل ، وهم يسئلون »**(١) .

وان أرسال الرسل من أفعاله الجائزة ، وأنه قد أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وكلف الخلق ، وشرع لهم شرائع على ألسنة رسله ، وأن رسله صادقون فى قولهم ، ومؤيدون بالمعجزات من عند ربهم ، وأنهم عبيد الله ورسله ، وأنهم بشر مثلنا ، الا أن الله تعالى فضلهم بأن جعلهم واسطة بينه وبين خلقه ، وأطلعهم على ما شاء من غيبه ، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه ، وأنهم كلهم صادقون مصدقون ، لا نفرق بين أحد منهم . وأن محمدا بن عبد الله بن عبد المطلب العربى

(١) الأنبياء : ٢٣

القرشى الهاشمى رسول من الله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا . وأن الله تعالى أيده بالمعجزات الدالة على صدقه كما فعل بالرسل من قبله .

وأن شرعه واجابته لازمان لكل من بلغته دعوته حيث كان من أقطار الارض وجهاتها ، وعلى أى دين كان من أديانها .

لا يقبل ممن كفر به يوم القيامة ما هو عليه من دين ، بل يكون مخلدا فى العذاب أبد الابدين ، كما أن المؤمن به ، وبكل ما جاء به مخلد فى الجنة أبد الآبدين .

وأن شرعه ناسخ لكل الشرائع المتقدمة على الجملة . وهادم ما قبله من الأحكام السابقة ، وأن كل ما جاء به عن الله حق : من العذاب ، والحشر ، والنشر بعد الموت ، والصراط ، والميزان ، والحوض ، والمحاسبة ، وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف ، ولأهل الكبائر من أمته خاصة .

والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وأنهما محسوسان ، ليسا معنويين ، وأن خلود أهل الجنة سرمد ، وعذاب أهل النار الكافرين سرمد ، لا انقطاع لواحد منهما الى غير ذلك . مما هو مفصل فى الشريعة ، مما يعرفه اهله ، ولا يسعهم جهله .

وهذه قواعد اعتقاد أهل الاسلام ، مجردة عن أدلتها ، ومقتضبة من شواهدها . اذ ما منها قاعدة ، الا ويعضدها برهان عقلى ، لا يشك فيه عاقل ، ودليل سمعى لا ينكره فاضل . ومن أراد تعرف ذلك طلبه من مواضعه . وأما مستندات أحكامهم فهى كتاب الله ، وسنة رسول الله ، لا يعدلون لمحة عنها ، ولا يخرجون لحظة منها ، الا أن وجوه استدلالاتهم لا يحيط بها متطفل عليها لكثرتها ، ولتفاوت درجاتها .

فان كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله لا يستدل بهما ، من لا يعرف منظوم اللفظ ومفهومه وفحواه ومعقوله . ويعرف من المنظوم : النص ، والظاهر ، والمؤول والمجمل ، والعموم ، والخصوص ، والاستثناء ، والمطلق ، والمقيد ، ويعرف من المفهوم أحكامه وأقسامه ، وكذلك من الفحوى والمعقول على ما هو معروف فى علم الأصول ، الذى هو علم خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو من كرامات أهل الاسلام .

اذ ليس فى ملة من الملل المتقدمة ، من التحقيق ما عندهم ، ولا اجتمع لأحد قبلهم من العلوم مثل الذى اجتمع لهم •

ذلك بأنهم آخر الأمم ، وكتابهم آخر الكتب وأفضلها ، ورسولهم آخر الرسل ، وأفضلهم ، ولسانهم أحكم الألسنة ، وأفصحها على ما يعرفه من تصفح شريعتهم • وعرف لغتهم ، ونظر اليها بعين الانصاف ، وترك طريق التعصب والاعتساف • فالحمد لله على ما أولاه ، « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق »(١) •

ومما يبين للعاقل حسن شريعة الاسلام ، وجمال طريقتها • أنها مبنية على مراعاة مصالح الدنيا والآخرة ، واتمام مكارم الأخلاق الحسنة •

أما بيان مصالح الآخرة • فهو أن هذا الشرع يبين وجوهها ، ولم يغفل شيئا منها ، بل فسرها وأوضحها غاية الوضوح لئلا يجهل شىء منها • فوعد بنعيمها وتوعد بعذابها ، بخلاف الشرائع المتقدمة ، فانها انما كانت تتوعد على المخالفة بعقاب دنيوى ، كما فعل بنو اسرائيل غير مرة ، وتوعد بثواب دنيوى ، ولم يبين لهم شىء مما بين لنا على ما يقتضيه نسق التوراة ، اذ ليس فيها ذكر جنة ولا نار ، الا تنبيهات قليلة(٢) ، وكذلك الانجيل ليس فيه شىء من ذلك الا ما ذكرناه •

ومع ذلك فانه تعبدنا بعبادات محضة ذوات فعال وأركان • كالصلاة والحج وغير ذلك • وكل ركن من أركانها • فالمقصود به تعظيم الله تعالى ، وخضوع له بالظاهر والباطن ، حتى تؤدى كل جارحة من الجوارح حظها من تعظيم الله تعالى ، مع ما ينضاف الى ذلك من المعانى الشريفة والأدعية الرفيعة الفصيحة التى يعرف معانيها أهلها ، حسب ما فسروه فى كتبهم ، وليس كما تقولون أنتم فى صلاتكم :

« يا أبانا الذى فى السماء »(٣) •

---

(١) الأعراف : ٤٣ (٢) متى ٦ : ٩ ـ ١٣ ، ولوقا ١١ : ٢ ـ ٤

(٣) الآيات التى تدل على الجنة والنار فى التوراة منها : التثنية ٣٢ : ٣٤ ـ ٣٥ ، المزامير ٤٨ : ١٥ ـ ١٦ ، أشعياء ٦٥ : ١٣ ـ ١٥ ، دانيال ١٢ : ١٣ ، أيوب ١٩ : ٢٥ ـ ٢٧ ، وقول أيوب نص فى بعث الجسد مع الروح فى تراجم الكاثوليك •

فان ظاهر هذا مستبشع فى العرف ، محال فى العقل • أما استبشاعه فى العرف فانه يقبح بالعبد أن يخاطب سيده بلفظ الأبوة •

هذا • مع أن معنى الأبوة جائز فى حقوقنا • فكيف لا يقبح اطلاقه فى حق من لا تجوز الأبوة فى حقه ؟ فاطلاق مثل هذا اللفظ فى حق الله تعالى ينبغى ألا يجوز ولا يطلق وأما احالته فى العقل • فان ظاهر قولكم : « فى السماء » يفهم منه : أن السماء محيط به ، وان جاز ذلك ، جاز أن يكون جسما • وأنتم تأبون ذلك ، وهو محال فى حقه تبارك وتعالى •

وكذلك قولكم فى بقية هذا الدعاء :

« وعجل لنا خبزنا الدائم ، واغفر لنا ، كما يغفر بعضنا لبعض » فانه لفظ مستثقل مستقبح • ومعناه : مستغث ، مسترك • ولولا خوف التطويل ، لأبدينا ما يحتمل ذلك من قبيح التأويل •

فان قلتم : هكذا علمنا عيسى فى الانجيل • فقال لنا : « اذا صليتم فقولوا » قلنا : لا نسلم أن هذا مما علمه عيسى ، ولا مما جاء به ، بل هو اختراع من لا يحسن ما يقول ، وليس له الى المعارف وصول •

وقد تقدم : أن كتابكم قابل للتحريف والتصحيف • فهذا الذى ذكرنا ، ينبه على المصالح الأخروية ، وأما المصالح الدنيوية • فقد بينا أن مقصود شرعنا : حفظ الأديــان والنفوس والأمــوال والانســاب والأعراض والعقول • ولأجل ذلك شرع القتل ، والديات ، والعقوبات ، وحرم السرقة ، والخيانة ، وجميع وجوه أكل المــال بالباطل ، وحرم الزنا ، وفعل اللوطى • وغير ذلك من الفواحش •

وكذلك حرم الغيبة والنميمة ، والقذف ، والبهتان • والزور ، وجميع أصناف الكذب والغش والخداع والمكر ، الى غير ذلك من أنواع المفاسد •

ولأجل ذلك أيضا : حرم الخمر ، فانها تذهب العقل الذى هو مناط التكليف ، وبه يعرف البارى تبارك وتعــالى • والسكر آفة تناقضه وتضاده ، فهذه الأمور كلها محفوظة بالحدود ، والزواجر ، المشاكلة للعقوبات ، الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم اما بالكتاب ، واما بالسنة ، وليس شىء منها موضوعا بالتشهى والتحكم ، كما فعلتم أنتم •

وقد بينا ذلك ، بمستنده للشارع ، ولا نعدل عنه طرفة عين ، بل نقف عند ما أمر ، وننتهى عما نهانا ، ويعرف ذلك على التفصيل أهله ، ومن وقف عليه من العقلاء المنصفين .

وأما مكارم الأخلاق التى تضمنها شرعنا ، فلا تخفى على متأمل .

وذلك أن شرعنا : أمرنا بها ظاهرا وباطنا ، ونهانا عن رذائلها وسفسافها . فمن المكارم الظاهرة :النظافة ، والطهارة ، والتنزه عن الأقذار والأوساخ . فمن النظافة تطهير الثياب والابدان . فانها ينبغى أن تنزه عن الأقذار . مثل البول ، والغائط ، والمنى ، والمذى ، والدم ، والقيح ، وما شاكل ذلك .

ومن النظافة أيضا التطيب ، وتحسين الهيئة . فالطيب لا يخفى على عاقل استعماله ، وكذلك تحسين الهيئة ، ومن تحسين الهيئة قص الشارب ، واعفاء اللحية . فقص الشارب لتتأتى النظافة فى الأكل ، اذ لا تتأتى مع طوله ، اذ يدخل الشعر فى الفم ، وينغص الأكل ، ويقذره .

هذا مع ما يلحق الشارب من قذارة المخاط ، اذا كان الشارب كبيرا . ومع ذلك فلا يحلق عندنا كله ، ويمحق رسمه . فان ذلك مثلة وتشويه . وكذلك اللحى اذا حلقت فينبغى أن توفر توفيرا لا يخل بمروءة الانسان ولا يخرج عن عادة الناس ، وخير الأمور أوساطها .

وأما حلق اللحية فتشويه ومثلة ، لا ينبغى لعاقل أن يفعلها بنفسه .

والعجب من جهـل النصـارى بالشرائع ، وبما يستحسنه ذووا المروءات ، فانهم يحلقون لحاهم ، ويشوهون أنفسـهم ، ويوفرون غلوفتهم ، التى ينبغى أن تزال لمـا فى ازالتها من الفوائد على ما ذكرنا . ومن النظافة المأمور بها : تقليم الأظفار ، ونتف الابط ، وحلق العانة ، وغسل البراجم والمغابن بالمـاء . وهذا كله من شرعنا مبالغة فى النظافة ، ومحافظة على مكارم الأخلاق ، وعلى عادة ذوى العقول والمروءات .

وأما التنزه عن الأقذار فانه حرم علينا الخبائث من الميتة والدم ولحم الخنزير والأنجاس كلها على ما تقتضيه عادة العقلاء والمروءات . وأمرنا بأكل الطيبات واستعمال المستحسنات ، ونهانا عن السرف والتبذير .

ولأجل هذا نهانا عن استعمال أوانى الذهب والفضة ، وعن لباس الحرير للذكور . وذلك لما فيه من التبذير والسرف .

وأيضا . فان فيه ترفها ، يناسب ترفه أهل الجنة ، ويشبهه ، ولا ينبغى أن يفعل ذلك . ولأجل ذلك قال نبينا عليه السلام : (من شرب فى آنية الذهب والفضة ، لم يشرب بها فى الآخرة ، ومن لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة)(١) .

وهذا كله لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء . ولأجل ذلك قال الحكماء : « الدنيا قنطرة فاعبروها ، ولا تتعمروها » فهذه نبذة من النظافة الظاهرة . وأحكامها كثيرة ، تعرف فى مواضعها .

وأما النظافة الباطنية . فترجع الى التخلى عن مذموم الأخلاق ، والتحلى بمحامدها ومستحسنها ، وهى كثيرة فلنذكر الأخلاق المذمومة ، التى يتنظف منها . وبعدها نذكر الأخلاق المحمودة التى ينبغى الاتصاف بها .

أما الأخلاق المذمومة فكثيرة لكن أمهاتها ما نذكره . وهى : الغضب ، والحسد ، والبخل ، ومهانة النفس ، ودناءتها ، والرعونة ، وحب الجاه ، وحب الدنيا الذى منه كل خطيئة ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، الى غير ذلك من الأخلاق المذمومة التى من اتصف بها ، كان منجس الباطن بمثابة من كان متنجس الظاهر ، فعليه تنظيفه .

الا أن نظافة النجاسة الظاهرة بالماء ، ونظافة النجاسة الباطنة بالاتصاف بالأخلاق المحمودة التى هى : التوبة من المعاصى ، وحسن الصحبة مع الخلق ، والنصيحة لهم ، والعدل فى الأمور كلها ، والتواضع ، وكرم النفس ، وبغض الدنيا ، والزهد فيها ، والاخلاص ، والخوف ، والصبر ، والشكر ، والصدق ، والتوكل ، ومحبة الله تعالى ، ومحبة رسله .

الى غير ذلك من الأوصاف المحمودة ، التى من اتصف بها ، فقد نقى من أوصاف البشرية وتطهر الطهارة المعنوية .

---

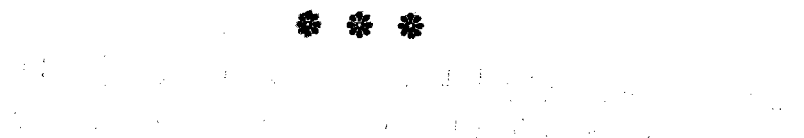
(١) هذا من أحاديث الترهيب .

فهذا أنموذج ، وقانون يعرف العاقل المنصف به حسن شريعتنا ، وجمال طريقتنا ، وأنها جارية على نهج العقول . ومستحسنة عند من له محصول . ومن أراد أن يتبين محاسن شريعتنا على التفصيل ، فلا يصل الى ذلك الا ببحث كثير ، وتطويل .

فان وقف ، فأمعن النظر ، واستدت منه الفكر ، قضى من عجائبها كل عجب ، وعلم على القطع والبتات أنها حق من الله ، من غير شك ولا ريب . وأن الذى جاء بها لا يجوز عليه الغلط ، ولا الكذب .

فها نحن معشر المسلمين . قد أرصدنا شريعتنا للاستعراض ، ونادينا عليها فى سوق الاعتراض ، لئلا يعترض أحد ، أو يعارض . فيدمغه ناقد لقوله ، وحافظ ، ولم نكل حكايتها الى غبى غافل ، عن مقاصد شرعنا جاهل .

وقد آن أن نذكر ما اعترض به النصارى على ديننا ، وننفصل عنه ان شاء الله تعـالى . وعند ذلك يتبين صميم جهلهم ، وسوء صنيعهم وفعلهم .



الفصل الثاني

دفاع عن الاسلام

اعلم أن النصارى يعيبون دين الاسلام ، ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم بأمور من فروع الاسلام ، لا ينبغى لمنصف أن يعيبها ، ولا يعيب شرعا هى فيه .

وقد كنا بينا فيما تقدم : أنه لا ينبغى أن ننبذ الشرائع أو نجحدها بما تجوزه العقول ، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا ، الذى جاءت به الشرائع بالقبول ، اذا علم صدق ذلك الشرع ، بل ينبغى للعاقل : أن ينظر فى دليل صدق ذلك الشرع . فان وجده دليلا صحيحا قبل منه كل ما يقول ؛ فانه صادق . والصادق لا يقول ما تكذبه العقول . نعم قد يقول ما يقصر العقل عن ادراكه ، وليس ذلك طعنا على قول الصادق . وانما العجز فى حق العقل . فليس كل ما تأتى به الشرائع يعرف العقل جوازه قبل وقوعه ، بل قد يكون منه ما يجهله .

وهذا بين عند الفهم المنصف . وقد كنا قررنا ذلك بأبلغ من هذا فيما تقدم .

فاذا تقرر ذلك . قلنا للنصارى : كان يجب عليكم أن تنظروا فى الأدلة التى بها استدل هذا النبى على صدقه ، فاذا صحت ، لزمكم قبول قوله ، وان لم تصح لديكم رددتم كلية شرعه ، ولا تعترضوا ببعض ما جاء به ، مما يجوزه العقل ، على ما تقرر .

ونحن قد أثبتنا الأدلة القاطعة على صدقه ، وأنواعها . فيجب عليكم أن تقبلوا شرعه . اذ قال : أنا رسول الله الى الناس كلهم ، والى اليهود والنصارى . وقد ظهر صدقه فى قوله . وان لم تفعلوا ، فقد وجبت عليكم اللعنة ، وحاقت بكم الطامة « **وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** »[1] .

---

(١) الرعد : ٤٢

ونحن نذكر ان شاء الله تعالى ما اعترضوا به على ديننا • ونحكى اعتراضهم كما ذكروه فى كتبهم ، ونسبوه الى أساقفتهم •

قال صاحب « كتاب الحروف » بعد أن ذكر وصية عيسى التى قال فيهـا : « احذروا أنبياء الكذب ، الذين يأتونكم بلباس الحملان — يعنى سمة الأبرار ، وزى العباد — وباطنهم ذئاب خاطفة »[1] قـال بعد ذلك ممرضا بنبينا ، ومستنقصا لديننا ، « وقد رأينا نفاذ قوله هذا فيمن ادعى النبوة ، فأظهر سمة الحملان ، ثم عمل عمل الذئاب ، فأمر بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس عامة ، والتحريض على قتل من خالفه ، والأمر بالقصاص ، والانتقام •

ثم أمر بالاكثار من النساء ، ورخص فى طلاقهن ، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات ، ثم ردهن الى الأزواج الأولين ، بعد طلاق ثان • وأحل ذلك لهن من الرجل الثانى الى الأول • ثم ما وصف الله به من الجور والقساوة والظلم • اذ زعم أنه يهدى بعضا ، ويضل بعضا » •

وقـال « القوطى » — الذى قدمنا ذكره — : « لا فائدة فى شريعتكم ، لأنا نجد الأحكام الشرعية ، حكمين : الأول : التوراوى الذى هو « من لطمك فالطمه » •

الآخر : الانجيلى الذى هو « من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى » •

وأنت ترى فضل هذا ، على الأول[2] • ثم لا تجد لهذين الحكمين ثالثا ، الا كان داخلا فيهما » أ • هـ

هذا منتهى ما يعترض به من ينتمى الى النظر من « أقستهم » وان كان بعيداً عن التحقيق •

وأما عامتهم ، ومن لا مبالاة بهم : فقد تقولوا العظائم ، وجاهروا

---

(١) انجيل متى : ٧ : ١٥

(٢) حكم التوراة ما جاء المسيح ابن مريم لنسخه ، وقوله من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى • يشير به الى الرحمة داخل المجتمع الذى يدين بمبادئه ، والعفو والتسامح • ولقد كان لابد من القصاص والوقوف أمام القاضى فلابد من تنفيذ حكم التوراة • وقد أثر عن المسيح فى انجيل لوقا : أنه قال لتلاميذه : « من ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا ٢٢ : ٣٦) •

بالنواقح والشتائم • ونحن نجيب هذين القسين على ما قالاه ، جوابا يرفع الاشتباه ، ونرجو به التقرب من الاله • فنقول للأول :

أما استدلالك على رد نبوة نبينا بقول عيسى ، فتجهيل للعامة ، وتلبيس عليهم ، فانك أدخلته فى جملة أنبياء الكذب • وقد شهد الأنبياء بصدقه — كما قدمنا — بل قد شهد كتابك بصدقه وبنبوته • فانه قد جاء فيه من قول عيسى مالا يمكنك انكاره ، حيث ذكر « البرقليط » وأخبر أنه يأتى ، ووصفه بما ينبغى له — وقد قدمنا ذلك مستوفى — •

فهذا منك • يا هذا • جهل بكتبك ، وتكذيب لأنبيائك ورسلك • وانما الذى حذر منه عيسى وغيره من الأنبياء انما هم أنبياء الكذب كما قال ، ولم تزل الأنبياء يحذرون من الأنبياء الكذابين •

ولقد أكثر من مثل هذا التحذير : نبينا عليه السلام ، حتى قال : « يكون فى آخر الزمان ثلاثون كذابا ، كلهم يزعم أنه نبى • وأنا خاتم النبيين ، فلا رسول بعدى ، ولا نبى » وقد وجد بعضهم • ولابد من أن يوجد الباقى ، كما قال الصادق •

وأما قولك : « ان سمة نبينا سمة الحملان ، وعمله عمل الذئاب » فكذب صراح ، وافك وقاح • ونحن قد بينا سمته وعمله ومنهاجه • وقد عرف حاله القريب والبعيد ، بل سمته سمت الأنبياء ، وعمله عملهم ، ولا فرق بينه وبينهم الا أنه أفضلهم وأكملهم • وانما قلنا ذلك لأن فى صحف أشعياء أنه قال : « أنت أيام الافتقادات ، أيام الكمال » ثم قال : « لتعلموا يا بنى اسرائيل الجاهلين ، أن الذى تسمونه ضالا ، هو صاحب النبوة ، تفترون بذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم فجـوركم » •

وانما قلنـا : انما عنى نبينا ، ولم يرد غـيره • لأنه قال : « يا بنى اسرائيل » وهذا خطاب لجميعهم ، ولم تكذب جميع بنى اسرائيل بنبوة نبى ، الا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك مما تقدم • وأما عيسى وغيره ، فكان منهم من آمن به وصدقه على ما هو معروف •

وأما قولك : « أمر بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس » • فكذب وتشنيع لا يرضى به سفلة الناس • بل قد أمر بالألفة والاجتماع ، والتحاب فى الله ، والمؤاخاة فى ذاته ، والتعاون على البر والتقوى ، ونهى عن التباغض والتدابر والتخاذل على ما بيناه من شرعه •

وكل ذلك من حاله وحالهم معروف بحيث لا يجهل ، ومشهور بحيث لا ينكر . نعم رحمته للمؤمنين ، وغلظته على الكافرين .

وكذلك وصفه الله فى كتبه ، وعلى لسان رسله . قال الله العظيم فى محكم وحيه الكريم : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم** »(١) وكذلك كانت أحوال أصحابه قال الله تعالى : « **محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم** »(٢) وليس كما تقولونه أنتم عن أصحاب عيسى أنه لما تقبضت اليهود عليه فروا عنه وأنكروه ، وحلفوا على أنهم لم يعرفوه . فأسلموه وتركوه .

وقد بينا فيما تقدم : ما ذكرت الأنبياء من أوصافه . وعلى أنه لم يغلظ على الكافرين ، حتى تمردوا على الله وكذبوا رسالات الله . وذلك أنه أقام بين أظهرهم عشر سنين ، أو نيفا عليها ، يدعوهم الى الله على سبيل الوعظ والانذار ، والتعليم والتبليغ ، واظهار الآيات والعجائب ملينا لهم القول ، ومظهرا لهم الاشفاق ، وباذلا لهم النصيحة ، صابرا بنفسه على ما يلقى من أذاهم ، ومن سبهم . وهم مع ذلك يبالغون فى ضرره بكل ما يمكن ، وكلما ألح عليهم بالانذار ، زادوا فى الاضرار ، حتى هموا بقتله وطرده عن بلده وأهله .

وبعد ذلك أمره الله بالانتصار ممن ظلمه ، واخراج من أخرجه . ولذلك أنزل الله تعالى عليه : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير** »(٣) .

وأما قوله : « والتحريض على قتال من خالفه » فهذا لا ينبغى أن يعاب به دين . فان الكافر بالحق لا حرمة له ، وجنايته أكبر من كل جناية ، فعقوبته ينبغى أن تكون أكبر من كل عقوبة ، لا سيما بعد أن تقدم للكافرين بالأعذار ، وبولغ لهم فى الانذار ، ولأجل أن الكافر لا حرمة له عند الله : يعاقبه فى الدار الآخرة عقوبة لا انقطاع لها باتفاق الشرائع .

وان جاز أن يعاب شرعنا لأنه جاء بقتال الكافرين ، جاز أن يعاب شرع موسى (٤) . فانه جاء بقتال الجبارين ، على ما لا يخفى على

---

(١) التوبة : ١٢٨
(٢) الفتح : ٢٩
(٣) الحج : ٣٩
(٤) الاصحاح العشرون من سفر التثنية .

أحد من المتشرعين • فقد لزم هذا المنكر لشرعنا من حيث أنه شرع فيه القتال أن ينكر ما يدين به ويعتقده من شرع موسى بن عمران ، وينبغى له أن يسفه فعل « يشوع بن نون » حيث أذاق الجبارين أشد القتل وأعظم الهون ، ثم أعجب من ذلك جهلهم بما فى كتبهم ، أو مجاهرتهم بانكارها (١) •

وذلك أنهم يجدون فى كتبهم أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم ، ويجدون فيها أنه يبعث بالقتل والسيف ، ثم ينكرون ذلك ، ويباهتون فيه • وقد ذكرنا من ذلك ما فيه كفاية • ومن ذلك ما قد جاء فى كتاب « أشعياء » أنه أخبر عن هزيمة العرب ، وقتل أشرافهم • فقال لما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم : « يدوسون الأمم ، كدوس البيادر ، وينزل البلاء بمشركى العرب ، وينهزمون » ثم قال : « وينهزمون بين يدى سيوف مسلولة ، وقسى موتورة ، من شدة الملحمة »(٢) •

وكذلك قال « حبقوق » : « تضىء لنوره الأرض ، وستنزع فى قسيك اغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء »(٣) وهذه نصوص على اسمه وصفته ــ كما تقدم ــ •

وقد أشار انجيلكم الى هذا فانكم تزعمون أن عيسى قال لتلاميذه : « انى كنت أرسلتكم ، وليس معكم مزود ، ولا خف ، فهل ضركم ذلك ، أو نقصكم شيئا ؟ قالوا : لا • قال : أما الآن • فمن لم يكن له كيس فليأخذ كيسا ، ومزود فليشتر مزودا ، ومن لم يكن له سيف ، فليبع من ثيابه ، وليشتر سيفا »(٤) •

فأمرهم باشتراء السيوف ، للقتال • بعد أن كان نهاهم عن القتال(٥) • لعلمه أن محمدا يبعث بعده بالسيف وهذا كثير ، بحيث لا يحتمل التأويل •

---

(١) فى انجيل لوقا يقول المسيح : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية • هل أعوزكم شىء ؟ قالوا : لا • فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك • ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا : ٢٢ : ٣٥ ــ ٣٦) •

(٢) الاصحاح الحادى والعشرون من سفر أشعياء •

(٣) الاصحاح الثالث من سفر حبقوق • وبدل « محمد » : « مسيحك » •

(٤) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٥ ــ ٣٦

(٥) المسيح لم ينه عن القتال لأنه ما جاء لنسخ شريعة موسى •

وخير من ذلك كله : أنهم قد ذكروا فى انجيلهم ، أن عيسى قال لهم : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض ، لم آت لاصلاحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم . انما قدمت لأفرق بين المرء وابنه ، والمرأة وابنتها ، وأعداء المرء أهل بيته »[1] .

وهذا نص . بأن عيسى انما جاء بالمحاربة والقاء العداوة بين الناس . وهذا عين ما أنكروه علينا . ثم قد زاد ، وأعلى . ذلك : أنهم حكوا أنه قال : « لم آت لأصلح أهل الأرض ، لم آت لاصلاحهم » وظاهر هذا : انما جاء بفساد أهل الأرض .

وهذا لا يصح أن يقوله عيسى عليه السلام ، ولا غيره من الأنبياء ، وهو من كذبهم وتحريفهم . وقد قدمنا ذلك فيما سبق . ومن العجب أنهم يقولون : ان ملة المسيح ، وشريعته لم تأت بقتال ويتمدحون بأنها لم تظهر بقتال ، وانما ظهرت بما ظهر على أيدى الحواريين من العجائب . وهم مع ذلك يعترفون بمحاربة « قسطنطين » وبمقاتلته من خالفه . وأنه الذى تلقيت عنه الشريعة الصليبية . فانه أرى فى النوم صورة الصليب . وقيل له : بهذا تنتصر . ففعله ، واعتقده ، وقاتل . فنصر .

وأعجب من ذلك تلبسهم بالقتال ، والاكثار منه أبد الدهر الى اليوم ، وهم مع ذلك يدعون : أن القتال غير مشروع لهم ، ويذمون الشريعة التى جاءت به ، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم ، وشهدت على كذبهم أحوالهم . ثم نقـول لقسطنطين ، ولجماعة النصارى المقاتلين :

قتالكم من خالفكم . لا يخلو اما أن يكون مشروعا لكم ، أو غير مشروع لكم . فان كان مشروعا لكم . فلأى معنى تخالفونا فى ذلك ، وتذموا شرعنا لأجله ، وان لم يكن مشروعا لكم فلأى معنى تركتم شرعكم ، وفعلتم خلافه ؟

وكيف حل لكم ذلك ؟ فأنتم بين أمرين قبيحين عليكم : اما أن تعترفوا بأن قتال الأعـداء جائز حسن ، فلا تذموا شرعنا لأجله ، واما أن تعترفوا بأنه غير جائز وقبيح فيلزمكم التنـاقض والسفه والخروج عن شريعة المسيح . فأنتم على المثل السائر : « أعور بأى عينيه شاء » .

---

(١) انجيل متى : ١٠ : ٣٤ ـ ٣٦

فان قالوا : انما نقتصر بالقتال لأنفسنا ، ونمتنع ممن يريد به ظلمنا • قلنا : ومن شرع لكم ، أن تنتصفوا ممن ظلمكم ، أو تنتصروا لأنفسكم ؟ بل قد حكيتم فى انجيلكم أنه قال لكم : « احفظوا أعداءكم وأكرموا من أساء اليكم • فان لم تحفظوا الا اخوانكم ، فما أجرؤكم على ذلك » •

وهذا نص على أنه ينبغى لكم أن تستسلموا عن قاتلكم ، ولا تنتصروا ممن ظلمكم • فان لم تفعلوا ذلك فقد تركتم شرعكم ، واستهنتم بسنة نبيكم • ثم يلزمكم على ذلك : أن تعترفوا بأن شرعكم ناقص اذ قد بين لكم نبيكم ، بعض المصالح ، وترك بعضها ، وهو القتال ، الذى استدركتموه بنظركم من حيث كان ضروريا ومحتاجا اليه ، وتعترفوا بكمال الشرع الذى جاء بالقتال ، الذى هو شرعنا •

وعند هذا يتبين فساد قولهم : ان الحكم حكمان ، لا ثالث لهما ، ويفسد عيبهم علينا القصاص • وذلك أنهم يزعمون : أن حكم التوراة : يقتضى القصاص ، وحكم الانجيل : يقتضى العفو • ثم زعم ذلك الجاهل أن لا حكم ثالث • ولم يشر بثالث متوسط ، هو أكملهما وأتمهما ، وهو الحكم الفرقانى ، حيث قال الله العظيم : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** »(١) وقال : « **ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور** »(٢) وقال تعالى : « **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** »(٣) •

ثم العجب من هؤلاء الجهال • كيف يذمون شريعتنا ، ويكذبونها من حيث انها تضمنت القصاص ، ويؤمنون بشريعة موسى ، وقد صرحت بالقصاص ؟ فيلزمهم على قولهم : أن يكذبوا بشريعة موسى ويذمونها من ذلك الوجه •

ثم أعجب من ذلك كله : مدحهم شريعتهم من حيث كانت مبنية على العفو والصفح ، ثم مع ذلك أبوا أن يجوزوا عفو الله تعالى عن « آدم » ، حين أكل من الشجرة ، حتى قالوا : ان جميع بنى آدم

---

(١) النحل : ١٢٦
(٢) الشورى : ٤٣
(٣) الشورى : ٤١

كانوا مرتهنين بمعصية أبيهم حتى فداهم « المسيح » بنفسه • بل لم يتصور عندهم عفو الله ، حتى انتقم من « اله » مثله • تعالى الله ، وتقدس عما يقول الظالمون علوا كبيرا •

فعلى هذا نقول لهم : لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى مطلقا ، أو الانتقام هو الأفضل ، أو الحالة الثالثة • فان كان العفو هو الأولى ، فلم لم يعف الله تعالى عن « آدم » من غير أن يعاقبه وبنيه على ما زعمتم ؟ وان كان الانتقام هو الأولى ، فلم لم ينتقم من « آدم » وبنيه مطلقا ؟

فلم يبق على هذا الا أن الأولى : هو الحالة الثالثة ، وهو : الانتقام فى حال من مستحقه ، والعفو فى حال أخرى عن مستحق العقاب تفضلا وتكرما ، حسب ما يريده البارى تعالى •

وعلى هذا المنهاج السديد ، والأمر الرشيد جاءت شريعتنا ، فهى كاملة متممة ، والحمد لله • ثم اذا كان العفو هو الأولى والأفضل • وبه جاءت شريعتكم ، فلأى معنى تتركون شريعتكم الأولى ؟

فقد اعترفم بألسنتكم ، وتناقضتم بأفعالكم • وكم لكم منها وكم •

وأما اعتراضه على شرعنا بتحليل نكاح الكثير من النساء ، فذلك مالا ينبغى أن ينكره أحد من العقلاء • فانه من مجوزات العقول • وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول • ثم قد ورد عن جماعة من الرسل ، وقد جاءت بذلك الكتب • ألم يجىء فى التوراة أن « ابراهيم » كانت له « سارة » و « هاجر » وكذلك ورد فيها : أن يعقوب جمع بين أختين « ليئة » و « راحيل » وقد ثبت أيضا : أن سليمان كانت له مائة امرأة ، أو تسعة وتسعون • بل قد روى فى الاسرائيليات : أنه كان له ثلاث مائة امرأة حرة ، وسبع مائة سرية[1] •

فان كذبتم شرعنا لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة فلتكذبوا بنبوة « ابراهيم » و « يعقوب » و « سليمان » • ولا فرق بين نبينا وبين هؤلاء الأنبياء فى : أن كل واحد منهم رسول الله يبلغ

---

(١) الاصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول .

حكم الله • فما لكم تنكرون ما بمثله تعترفون ، وتكذبون عين ما تصدقون • فلعل المعتوه ، الذى لا يعرف مابه يفوه •

ثم لا ينكر عاقل حكمة الله تعالى فى شرعية كثرة النساء • اذ مقصوده بذلك : انما هو تكثير النسل ، وعمارة الدنيا بالذرارى ، ليكثر الصالحون ، لما أراد الله بهم من الكرامة ، وليكثر الطالحون ، لما أراد الله بهم من الشقاوة والتعذيب ، ولتنفذ على خلقه أحكامه ، وتجرى عليهم أقداره « **لا يسئل عما يفعل ، وهم يسئلون** »(١) •

وأما اعتراضه بالطلاق ، ورد المطلقات • فقد تقدم ذكره على أوضح المقالات ، وأشفينا فى الجواب على أحسن الغايات ، فلينظره من أراده فى باب النبوات •

وأما اعتراضهم على اعتقادنا : أن الله يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء • فقد قدمنا فيه قولا كافيا • ولكنا مع ذلك نؤيده ايضاحا • فنقـــول :

قد قام الدليل القاطع ، والبرهان الصادع : على أن الله تعالى منفرد بخلق الموجودات ، ومريد لكل الحادثات ، لا يخرج عن قدرته ممكن ، ولا يشذ عن ارادته حادث • والهدى والضلال من الحوادث ، فاذن هما مستندان اليه ، وموجودان بارادته ، وتحقيق هذا البرهان : يعرف فى موضعه •

ثم نقول : لا يشك عاقل أن الهدى والضلال ، وما فى معناهما أمور محدثة ، وأفعال موجودة ، بعد أن لم تكن ، وكل فعل محدث ، فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة ، ففاعل الهدى والضلال ، وخالقهما اما أن يكون الله سبحانه ، أو غيره • محال أن يكون غير الله لاستحالة وجود خالقين • ويلزم منه : امتناع الخلق ــ كما قدمنا حين ذكرنا دلالة التمانع ــ فلم يبق الا أن يكون الفاعل هو الله تعالى • اذ لا خالق الا هو ، ولا مبدع سواه •

ثم نقول للنصارى : صلب المسيح وقتله • اما أن يكون ضلالا • واما أن يكون هدى • ومحال أن يكون هدى ، فانكم تكفرون من فعل ذلك ،

---

(١) الأنبياء : ٢٣

وتضللونهم • ولأجل ذلك الفعل حاق الغضب ، وحاقت اللعنة على اليهود ، بزعمكم • فلم يبق الا أن يكون ضلالا •

واذا كان كذلك فقد لزمكم أن الله فعل الضلال • فانكم قد صرحتم بأن الله انما فعل ذلك لأجل خطية « آدم » ، ولم يرد الله أن ينتقم من « آدم » ، ولا من أحد من ولده • وانما أراد أن ينتقم من « اله » مثله • فقد صرحتم ونصصتم : أن الله تعالى أراد الضلال وفعله على أقبح ما سمع ، وأشنع ما به يتحدث • ثم انا لا ندرى مما يكون التعجب أكثر ؟ ان كان من ذهاب عقولكم ، أو من جهلكم بكتبكم •

فأما نقص عقولكم فانكم تقولون أقوالا تتناقضون فيها ، ولا تشعرون ، وتلتزمون ضروبا من المحالات ، وتنكرون أمورا جائزات — كما قدمنا آنفا ، ولم نزل نبين ذلك من أول كلمة من هذا الكتاب الى آخره — •

وأما جهلكم بكتبكم • فقد جاء فى كتابكم نصا ، هذا المعنى الذى أنكرتموه علينا • وذلك أن عيسى قال حين دنا أجله : « يا أبتاه •• انك قادر على جميع الأشياء فزح عنى هذه الكأس • ولكن لست أسألك أن تفعل مشيئتى ، بل مشيئتك »(١) وهذا نص على أن الله على كل شىء قدير ، وأنه يفعل ما يريد ، وأنه أراد صلب « المسيح » بزعمكم • وكان ضلالا لليهود بلا شك •

فما لكم تخبطون • وعن كتبكم تعرضون • بل أنتم عن عقولكم مصروفون ، وفى ورطة الجهل مرتبكون • وفى بحبوحة الضلال عمهون •

فلقد صدق الذى قال : اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال •

والكلام على الهدى والضلال ، والطبع والختم ، يستدعى تطويلا ، وشرحا وتفصيلا • ومن طلبه وجده اذا ساعده التحقيق ، ورافقه التوفيق •

وقد حصل غرضنا من مكالمة هؤلاء ، وافحامهم • والحمد لله •

وأما قوله ، ودعواه : انا وصفنا البارى تعالى بالجور والقساوة والظلم ، فعلى المثل السائر : « رمتنى بدائها ، وانسلت » •

---

(١) انجيل متى : ٢٦ : ٣٩

أما نحن ، فننزه الله تعالى عن كل ما ذكر ، ولا نقول بقول يؤدى الى ذلك ، وكيف يصح فى حقه تعالى الظلم ، والجور ، وهو انما يتصرف فى ملكه ، وملكه(١) ، وخلقه ، ولا يجب عليه لأحد من خلقه حق ، بل هو متفضل بكل ما يفعل ، وانما يتصور الظلم والجور ، فى حق من تصرف فى ملك غيره ، أو عدل عن فعل ما وجب عليه ، وهذا كله فى حق الله تعالى محال .

وانما يلزم وصفه بالظلم والجور والقساوة لمن قال : ان « آدم » عصاه ، ثم جعل ذنبه على جميع ولده ، ثم لم يقنع بشىء من دمائهم ، بل ولا من دمائهم كلهم ، حتى انتقم من « اله » مثله ، وأجرى دمه على خشبة الصليب . فهذا ظلم من حيث حمل الذنب من لم يفعله ، وجور من حيث قتل الها ، لأجل لقمة من شجرة ، أكلها غيره ، وقساوة من حيث قتل ولده وحبيبه فى عبده العاصى عندكم ، ولم يعف .

نعوذ بالله من هذه القبائح ، ومن التزام هذه الفضائح ، وتتبع جهالات الجهال ، بحل معقول العقال .

على أن كلام هؤلاء القوم ، لا يستحق أن يسمع ، اذ ليس لهم فى العقول مطمع ، ولكثرة فساد كلامهم ، يحار النحرير الناظر فى هذيانهم ، فيظل متعجبا ، وينشد متمثلا :

تفرقت الظباء على خراش فلا يدرى خراش ما يصيد

وأنا أكرر الاستغفار من حكايات كلامهم ، وأسأله النفع باظهار فساد مرامهم ، ومع ذلك فقد أصبنا منهم غرضا ، وصادفنا منهم مقتلا ، ولئن زادوا ، زدنا ، وان عادوا ، عدنا .

ان عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

* * *

وينبغى أن نختم الكتاب بدعاء مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعل الواقف على كتابى هذا ، يؤمن عند خاتمته ، وعسى الله أن يشركنا فى صالح دعوته .

---

(١) « ملكه » : الأولى بكسر الميم ، والثانية بضمها .

فنقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ، ما تحول بيننا ، وبين معاصيك . ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا . واجعله الوارث منا . واجعل ثأرنا على من ظلمنا . وانصرنا على من عادانا . ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا . ولا تجعل الدنيا أكبر همنا . ولا مبلغ علمنا . ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » آمين . آمين .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد سيد المرسلين ، وسلام عليه ، وعليهم فى العالمين ، وعلى صحبه أجمعين ، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

* * *

نجز الكتاب المبارك بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه على يد العبد الفقير ، الى الله تعالى : على بن محمد بن عانبه . الفيومى نسبا . والشافعى مذهبا . حامدا لله ، ومصليا ، ومسلما ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، فى سابع عشرين شهر ربيع أول سنة تسع وسبعين وثمانى مائة .

* * *

قال فى أصل النسخة : وكان الفراغ منه ضحوة سادس شهر شعبان سنة ست وعشرين وسبع مائة بدمشق المحروسة ، والحمد لله رب العــالمين .

* * *

تم الجزء الرابع من كتاب « الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام . واظهار محاسن دين الاسلام . واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » وبتمامه تم الكتاب كله . بعون الله . وكان الفراغ من تحقيقه والتعليق عليه والتقديم له فى يوم السبت العشرين من شهر شوال سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وألف من الهجرة الموافق الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ألف وتسعمائة وثمان وسبعين من الميلاد . فى مدينة القاهرة .

ملحق

في تقديمنا لهذا الكتاب تحدثنا في مبحثين اثنين هما ١ ــ الأقانيم ٢ ــ والمسيا المنتظر ــ بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة ــ ومع كتابتهما كتبت مبحثا ثالثا عن « مبادىء النصرانية » ورأيت أن أضعه في نهاية الكتاب كملحق لأن فهمه يتعسر على القارىء أو السامع إذا لم يقرأ قبله المبحثين وكتاب « الاعلام » هذا ، أو كتبا فيها ما يساعد على الفهم . « **وعلى الله قصد السبيل** »[1] .

د . أحمد حجــازى السقا

---

(١) النحل : ٩

المبحث الثـالث

مبـادىء النصرانية

أى سفر من أسفار الكتب المقدسة عند النصارى يمكن أن تظهر لنا منه بوضوح مبادىء النصرانية ؟

ليس غير سـفر أعمـال الرسـل ، المسمى باللغة اليونانية : « الأبركسيس » فان هذا السفر الموضوع بعد الأناجيل الاربعة لا يحكى فقط عن نمو الجماعة النصرانية الأولى ، بل يحكى للناس جميعا : كيف اتفق بطرس وبولس ويعقوب ومن نحا نحوهم فيما ذهبوا اليه على تغيير دعوة المسيح عيسى ابن مريم — عليه السلام — الأصلية • وقبل أن نبين ما اتفقوا عليه نقول أولا : لماذا اتفقوا على ما ذهبوا اليه ؟ هل **« حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »**(١) كما فى القرآن الكريم •

انهم يعلمون علـم اليقين من أ — توراة موسى عليه السـلام (الأسفار الخمسة) ب — ومن أسفار الأنبيـاء الذين ظهروا من بعد موسى عليه السلام ، يعلمون أن نبيا سيظهر للعالم(٢) • قال عنه بطرس : « فان موسى قال للآباء : ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم • له تسمعون فى كل ما يكلمكم به • ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » (أ ع ٣ : ٢٢ — ٢٣) وهذا النبى يعلمون : أنه ليس عيسى عليه السلام ، لأنه من بنى اسرائيل ؛ ولو كان النبى الآتى من بنى اسرائيل لقال : « من أنفسكم » ، ولأنه ليس مماثـلا لموسى فى ١ — الحروب ٢ — والمعجزات ٣ — والانتصـار على الأعـداء (تث ٣٤ : ١٠ — ١٢) : فان الذى لم يسمع لكلامه : لم يبده الرب من الشعب على يديه ، كما أبادهم على يد نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم •

---

(١) البقرة : ١٠٩

(٢) انظر الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية ، وسفر التثنية من الأسفار الخمسة •

وهذا النبى يعلمون أنه سيكون ناسخا لشريعة موسى عليه السلام فان من أوصافه : « له تسمعون فى كل ما يكلمكم به » لقد اتفقوا على استبدال نبى بنبى . نبى تحدثت عنه نبوءات التوراة وهو : « محمد » صلى الله عليه وسلم بنبى لم يرد له ذكر فى أى سفر وهو « عيسى » عليه السلام . وفى سبيل ذلك لا بد من أن يتفادوا أمرين اثنين لا ثالث لهما : الأول : النبوءات التى تحدثت عن محمد صلى الله عليه وسلم . والثانى : الشريعة التى سيبلغها النبى المنتظر للناس عن أمر الله عز وجل ، مناسبة للزمان الذى سيظهر فيه . فماذا قالوا لتفادى هذين الأمرين ؟

قالوا : ان النبوءات يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام . وقالوا : نعمل شريعة جديدة فيها من تعاليم موسى وفيها من تعاليم الرومانيين ، وننسبها الى عيسى عليه السلام . وكيف ينسبونها اليه وقد رفع الى السماء وهو لا يعلم عنها شيئا ؟ هذا اشكال اعترضهم . ولكنهم تفادوه أيضا بزعمهم : أن عيسى عليه السلام نزل من السماء بعد سنين من رفعه اليها وقابل « بولس » وهو منطلق الى مدينة « دمشق » فى « رؤيا » وقال له : يا بولس انطلق باذنى وأمرى بدعوتى الى ١ — أمم ٢ — وملوك ٣ — وبنى اسرائيل . ونسوا أن يبينوا ما هى الدعوة الجديدة التى لقنها عيسى لبولس ، ما بينوا قط لأن الظاهر من رسائل بولس أنه يدعو بدعوة من تلقاء نفسه ، ويشرع للناس ما استحسنه من تلقاء نفسه ، وينصح تلاميذه بما يصلح المعدة والبطن . وخلاصة دعوته فى هذه العبارة : « **الدعوة التى دعى فيها كل واحد ، فليلبث فيها** » (١ كور ٧ : ٢٠) أى اذا دعى اليهودى الى النصرانية وقبل الدعوة فليعمل بحسب شريعته التى درج عليها وهى شريعة موسى . واذا دعى اليونانى الى النصرانية وقبل الدعوة فليعمل بحسب قوانين بلاده التى تحكم المواطنين وبحسب العادات والتقاليد التى درج عليها ... وهكذا . يكون اسم النصرانية كمظلة على رؤوس الكل . والناس أحرار فى أعمالهم تحت المظلة . ثم قال على سبيل « الاذن » : « **أقول لغير المتزوجين وللأرامل** : انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا . ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من التحرق . **وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا ، بل الرب** : أن لا تفارق المرأة رجلها ؛ وان فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها ،

ولا يترك الرجل امرأته . وأما الباقون **فأقول لهم أنا . لا الرب** : ان كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضى أن تسكن معه ، فلا يتركها ... الخ » (كورنثوس الأولى : ٧) .

ومن نصائحه لتيموثاوس فى رسالته الأولى اليه : « لا تكن ف ما بعد شراب ماء ، بل استعمل خمرا قليلا من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة » (تيمو ٥ : ٢٣) .

* * *

وليلاحظ ما نبديه الآن وهو :

أن دعوة موسى عليه السلام فى أصلها كانت لبنى اسرائيل ، ومعاصريهم من الأمم . فان موسى طلب من فرعون الايمان بالله رب العالمين ، وعدم العلو عليه . وموسى حث بنى اسرائيل بعد الخروج من مصر على فتح البلاد لنشر الايمان والعمل بالشريعة وبين لهم أن الجنة تحت ظلال السيوف . كما بين نبى الاسلام وعيسى عليهما السلام للأتباع الصادقين . ففى القرآن الكريم يقول الله عز وجل : « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن** » (التوبة : ١١١)

وأن دعوة موسى — عليه السلام — حرفها « عزرا » فى مدينة « بابل » من بعد سنة ٥٨٦ ق . م ومن التحريف الذى أقره فيها : أن تكون دعوة موسى — عليه السلام — لبنى اسرائيل من دون الناس . ولما ظهر عيسى عليه السلام وبخ علماء بنى اسرائيل على تقصيرهم فى دعوة الأمم فى قوله : « ويل لكم أيها الناموسيون . لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة . ما دخلتم أنتم . والداخلون منعتموهم » (لو ١١ : ٥٢) ثم قال لتلاميذه :

١ — انطلقوا أولا بالضرورة الى بنى اسرائيل بالدعوة .

٢ — ثم ثانيا بعد أن يعلم ويفهم جميع بنى اسرائيل انطلقوا الى الأمم .

قال متى عن الأمر الأول والثانى : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة

للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ١٠ : ٥ — ٧) .

وقال متى عن الأمر الأول والثانى : ان امرأة من نساء الكنعانيين ، أهل فلسطين ، طلبت من المسيح أن يشفى ابنتها من الجنون « فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها . لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة . فأتت وسجدت له — أى أعطته التحية — قائلة : يا سيد : أعنى . فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع ، وقال لهـا : يا امرأة . عظيم ايمانك . ليكن لك كما تريدين ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » (متى ١٥ : ٢١ — ٢٨) باستثناء تشبيه الأمم بالكلاب فى هذا النص ومستبعد أن يحدث هذا التشبيه من المسيح صاحب الخلق الرفيع — فانه نص فى دعوة الأمم بعد ما يفهم الدعوة بنو اسرائيل الذين يشبهون الخراف الضالة فى فلاة من الأرض بسبب التواء علماء بنى اسرائيل فى تعليمهم .

وقال متى عن الأمر الثانى : ان المسيح بعدما رفع الى السماء ، نزل ثانية الى الأرض وكلمهم قائلا : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم » (متى ٢٨ : ١٩) .

وانطلاق التلاميذ الى الأمم — حسب كلام المسيح نفسه — على النحو التالى :

١ — أن تؤمن الأمم بالاله الواحد ، المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ، الذى لا يرى ولا يقدر أحد أن يراه وليس كمثله شىء ، كما نص كتاب موسى عليه السلام .

٢ — أن تعمل الأمم بشريعة موسى عليه السلام .

٣ — أن يعلموا أن نبيا من العرب سيظهر لينسخ شريعة موسى هو محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ — وعلى الأمم اذا ظهر هذا النبى العربى أن يتركوا العمل بشريعة موسى وأن يعملوا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن بطرس وبولس ويعقوب وأتباعهم غيروا كلام المسيح نفسه • وجعلوا النصرانية دينا عالميـا لا على كلام المسيح السابق ذكره بل على أن عيسى هو كان النبى المنتظر ، وما عرفوا أنه هو الا بعد قتله وصلبه كما يزعمون ، وعلى أن الانجيل شريعة يجب التعبد على أحكامها • وعلى أن عيسى خاتم النبيين ولا نبى من بعده الى يوم القيامة •

وغير خاف مما قدمنا على ذى بصيرة أنهم اتفقوا لكراهيتهم للعرب أبناء اسماعيل عليه السلام أن يخضعوا لأحكامهم ، وأن لا يكون لهم فضل فى دولتهم ، والا لـماذا تفادوا مجىء النبى الآتى منهم من قبل مجيئه ، وطبقوا النبوءات على واحد من بنى اسرائيل ؟ لقد فكر اليهود فى عالمية الدعوة ثانيا فى شكل النصرانية ليكسبوا أنصارا جددا يقاومون بهم العرب اذا ظهر النبى منهم وانضم حوله الأتباع من كل جنس • ولأنهم يخزون اذا رجعوا الى الأصل ، تظاهر منهم من تظاهر بالاخلاص للمسيح وعملوا العالمية فى شخصه لأنه منهم وأتباعه بالضرورة سيكونون لليهـود « **بعضهم أولياء بعض** » (المـائدة : ٥١) لأن الأناجيل مبنية على كتاب التوراة وأسفار الأنبياء •

ولنبين الأمرين هنا فنقول :

أولا ــ النبوءات :

يحكى هذا السفر أن بطرس تلميذ عيسى عليه السلام الذى لـما نصحه بعـدم دخول أورشليم خوفا عليه من اليهود « التفت وقال لبطرس : اذهب عنى يا شيطان • أنت معثرة لى • لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢٣) بطرس هذا هو أول من خطب فى النصارى وكان عدتهم يومئذ « نحو مئة وعشرين » مبينا أن نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام حتى لا ينتظر الناس نبيا من بعده سواء كان آتيا من اليهود ــ كما يدعى اليهود ــ أو كان آتيـا من بنى اسماعيل كما يقـول العرب وعيسى ابن مريم نفسه (أعمال ١ : ٢٠) •

وفى الخطبة الثانية لبطرس وهى فى الاصحاح الثانى من هذا السفر يواجه اليهود بأن داوود عليه السلام قال فى سفر الزبور عن النبى المنتظر : « ان الله سيضع أعداءه تحت قدميه ، ونحن نعلم أن

عيسى لم يضع أعداءه تحت قدميه فكيف نطبق هذه النبوءة عليه ؟
قال بطرس : لنقل ان عيسى لم يمت . لنقل انه وان رفع ما يزال حيا ، ولسوف يرجع ليحارب أعداءه وينتصر عليهم ويضعهم تحت قدميه . والدليل على أنه حى : أنه لما قتل ووضع فى القبر ردت أليه الروح وانتصر على الموت وصعد الى السموات العلى ومن كان شأنه هكذا فلا يستبعد منه الرجوع ثانية الى الدنيا ليدين الأحياء والأموات . وما يزال النصارى الى اليوم يعتقدون فى نزول المسيح لينتصر على أعدائه ، ويزعمون أنه فى غيبة والملك له سيرجع كما كان ملك داوود وسليمان عليهما السلام فى الزمان القديم . لقد عقد مقارنة بين داوود وعيسى فى أمرين اثنين هما ١ ـ الملك ٢ ـ والموت فقال : كان داوود ملكا ومات . وقبل موته تنبأ عن عيسى الذى سيكون ملكا قبل موته أى موت عيسى . وحيث ان عيسى مات من قبل أن يكون ملكا . اذن هو فى « غيبة » وسيرجع حسب تنبوء داوود نفسه . ولقد كذب بطرس والحاكى عن بطرس بشهادة المسيح نفسه . ذلك لأن بطرس استدل بقول داوود عن النبى المنتظر : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » زاعما أن داوود يشير الى عيسى عليه السلام ، مع أن عيسى عليه السلام ـ كما سبق أن بينا ـ قال : إن الذى يشير اليه داوود ليس من اليهود عموما لأنه عبر عنه بسيده والابن لا يكون سيدا لأبيه وفى هذه الخطبة جهر بطرس بأن عيسى عليه السلام « ربا ومسيحا » من قبل أن يجهر بولس . ومن كلام بطرس فى هذه الخطبة : « أيها الرجال الاخوة يسوغ أن يقال لكم جهارا عن رئيس الآباء داوود : انه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم . فاذا كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم : أنه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه ، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح : أنه لم تترك نفسه فى الهاوية ولا رأى جسده فسادا . فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعا شهود لذلك . واذا ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب ، سكب هذا الذى تبصرونه وتسمعونه . لأن داوود لم يصعد الى السموات . وهو نفسه يقول : قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك . فليعلم يقينا جميع بيت اسرائيل : أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم ربا ومسيحا » الخ .

وفى الخطبة الثالثة لبطرس وهى فى الاصحاح الثالث من سفر الأعمال ، يطبق كلام موسى فى الأسفار الخمسة عن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم على عيسى عليه السلام . يقول لليهود : « لقد قام عيسى من الأموات وغاب عن الدنيـــا ، وسيرجع ليملك عليكم وعلى العالم ويؤسس مملكة لن تنقرض أبدا . ولماذا لا يرجع وموسى وعد بنبى على مثاله ليس هو غير يسوع المسيح » ؟ ولقد كذب بطرس والحاكى عن بطرس فان موسى لمـــا وعد بنبى على مثاله قال أيضا : « لن يكون مثلى فى بنى اسرائيل » فكيف يكون المماثل لموسى يسوع المسيح وهو من بنى اسرائيل ؟ ومن كلام بطرس فى هذه الخطبة : « والآن أيها الاخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضا . وأما الله فما سبق وأنبأ به بأفواه جميع أنبيائه : أن يتألم المسيح قد تممه هكذا . فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ، ويرسل — أى الله — يسوع المسيح ، المبشر به لكم قبل ، الذى ينبغى أن السماء تقبله الى أزمنة رد كل شىء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيـــائه القديسين منذ الدهر . فان موسى قال للآباء : ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهلكم من اخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب وجميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام . أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذى عاهد به الله آباءنا قائلا لابراهيم : وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » الخ .

* * *

لقد تعسف بطرس فى تأويل النبوءات تعسفا ممقوتا خرج به عن الواقع الحقيقى . فمن ذا الذى يصدق أن عيسى بعد قتله دخل النار ثم خرج من النار حيا ليجلس فى السماء . ومؤرخو القرن الأول للميلاد كتبوا أن عيسى لم يقتل ولم يصلب ؟ لقد تعسف بطرس ليطبق النبوءات على عيسى ، غير مبال بالحقائق التاريخية الثابتة . وغير مبال بالأوصاف التى تدل على النبى المنتظر من نص النبوءات . وغير مبال بسياق العبارات ليربط النبوءة بما قبلها وبما بعدها من التعابير . وأيضا غير مبال بالمحكم والمتشابه فى نصوص التوراة والانجيل . ولكى يبرر النصارى خطؤه المعمد وغلطه وتناقضه : ادعوا أنه كان من العوام الأميين غير الدارسين وأنه ما قال بما قال الا بالهام من الروح القدس .

ففى سفر الأعمال : « فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما انسانان عديما العــلم ، وعاميان تعجبوا • فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع »(أ ع ٤ : ١٣) •

وفى الخطبة الرابعة لبطرس وهى فى الاصحاح الرابع من سفر الأعمال يعمد الى تطبيق نبوءة قالها داوود عليه السلام عن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، يعمد الى تطبيقها على عيسى عليه السلام متجاهلا أن عيسى نفسه ـــ كما روى متى ـــ لم يطبقها على نفسه بل طبقها على نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم •

يحكى الكاتب أن بطرس شفى رجلا أعرج ، ولمــا استدعاه رؤساء اليهود ليسألوه : بأية قوة وبأى اسم صنعت هذا ؟ «**قال لهم** : يا رؤساء الشعب وشيوخ اسرائيل : ان كنا نفحص اليوم عن احسان الى انسان سقيم ، بماذا شفى هذا ؟ فليكن معلوما عند جميعكم وجميع شعب اسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصرى الذى صلبتموه أنتم ، الذى أقامه الله من الأموات • بذاك وقف هذا أمامكم صحيحا • هذا هو الحجر الذى احتقرتموه أيها البناؤون الذى صار رأس الزاوية »(١) الخ

انظر • لقد قال لهم ان عيسى ابن مريم « هو الحجر » فما قصة هذا الحجر ؟

* * *

تبدأ قصته من النبى داوود عليه السلام فقد نطق نبوءة عن النبى المنتظر المماثل لموسى عليه السلام فى المزمور المئة والثامن عشر بين فيها أن النبى المنتظر سيتألم من اعراض الناس عن دعوته ولكن الله لن يسلمه الى أيدى أعدائه ليقتلوه • وأن هذا النبى سيرفضه اليهود لأنه من غير جنسهم ، انه من نسل المصرية هاجر جارية ابراهيم عليه السلام ، ونسلها لا قيمة له فى نظر اليهود كالحجر الذى يرفض البناؤون وضعه فى البناء • وأن هذا النبى سيكون مباركا من قبل الله • ومن عبارات داوود : ١ ـــ الاحتماء بالرب خير من التوكل على انسان • الاحتماء بالرب خير من التوكل على الرؤساء • كل الأمم أحاطوا بى • باسم الرب أبيدهم • أحاطوا بى واكتنفونى • باسم الرب أبيدهم •

(١) انظر أيضا الرسالة الأولى لبطرس : الاصحاح الثانى •

أحاطوا بى مثل النحل • انطفأوا كنار الشوك • باسم الرب أبيدهم » ٢ — « افتحوا لى أبواب البر : أدخل فيها وأحمد الرب • هذا الباب للرب • الصديقون يدخلون فيه • أحمدك لأنك استجبت لى ، وصرت لى خلاصا • الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية • من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيينا » ٣ — « مبارك الآتى باسم الرب » •

وفى انجيل متى ومرقس ولوقا نجد عيسى ابن مريم عليه السلام يقول لعلماء بنى اسرائيل : ان هذا النبى الذى يتحدث عنه داوود سيأتى من بعدى وسيتسلم الملك منكم والشريعة • ولما اغتاظوا منه لذلك وأرادوا قتله خافوا من ثورة العامة عليهم لأنهم كانوا يحبون المسيح • قال المسيح : انكم يا بنى اسرائيل كعمال فى حقل ائتمنكم صاحبكم عليه ، ولما أرسل اليكم ليحاسبكم قتلتم المرسلين وأهنتموهم • وما جزاء من يفعل ذلك الا أن تسحب منه الثقة الى غيره ليقوم ذلك الغير بالعمل وأداء الحق • ولما قال ما معناه هذا قال له العلماء وقد فهموا مغزى كلامه : « حاشا » أى لن يحصل لنا ذلك • « فنظر اليهم وقال : اذن ما هو هذا المكتوب : الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية • كل من يسقط على ذلك الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه • فطلب رؤساء الكهنة والكتبة أن يلقوا الأيادى عليه فى تلك الساعة ، ولكنهم خافوا الشعب • لأنهم عرفوا أنه قال المثل عليهم » (لوقا ٢٠ ، متى ٢١ ، مرقس ١٢) •

لقد أشار بالمكتوب الى الزبور المئة والثامن عشر وطبقه حرفيا على نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم وبين أنه لن يقتل كما قال داوود ، وأنه اذا قصد قوما بالحرب أهلكهم • واذا هم قصدوه أهلكهم • كالحجر القوى من ينطحه لا يؤثر فى الحجر بل يؤثر فى نفسه هو • واذا وقع الحجر على شىء أثر فيه ، أما الحجر نفسه فلا يتأثر • ولم يكن بهذه الصفة عيسى عليه السلام •

وفى انجيل متى ولوقا أيضا نجد المسيح يقول : سيأتى من بعدى الذى قال عنه داوود : « مبارك الآتى باسم الرب » قال المسيح لعلماء بنى اسرائيل : « هو ذا بيتكم — أى هيكل سليمان فى القدس — يترك لكم خرابا • والحق أقول لكم : انكم لا تروننى حتى يأتى وقت تقولون فيه : مبارك الآتى باسم الرب » (لوقا ١٣ ، متى ٢٣) •

لقد تجاهل بطرس هذا كله . وزعم أن المقصود من كلام داوود عليه السلام هو عيسى عليه السلام . مخالفا بذلك كلام عيسى نفسه ، وما تدل عليه النبوءة من الأوصاف .

ورجع بطرس الى النصارى الذين كانوا قد بلغوا يومئذ « نحو خمسة آلاف » ليتلو معهم نبوءة أخرى من نبوءات داوود على نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم مفسرين لها تفسيرا لا تقره اللغة . هى نبوءة « ابن الله » التى هى أصل أقنوم « الابن » عند النصارى . يقول داوود عليه السلام فى المزمور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه ... الخ » انه يبين فزع الأمم ، لا أمة واحدة . من النبى الآتى المماثل لموسى ، وأن الأمم ، لا أمة واحدة ، سيفكرون معا فى مقاومة دعوته ، وأن ملوك الأرض ، لا ملك أرض واحدة ، سيقومون متآمرين عليه لهلاكه . وانهم بمناوأته يقاومون الله الذى سيرسله ومن أجل ذلك « الرب يستهزىء بهم » كما يقول داوود عليه السلام .

هذا هو معنى كلام داوود بحسب اللغة ، ولكن كاتب سفر الأعمال يروى التفسير هكذا : « أيها السيد — يخاطبون الله — أنت هو الاله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، القائل بفم داوود فتاك : لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل ، قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه . لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذى مسحته : هيرودس ، وبيلاطس البنطى ، مع أمم وشعوب اسرائيل » (أع ٤ : ٢٤ — ٢٦) . يريد أن يقول : ان : هيرودس وبيلاطس الواليان على اليهود هما ملوك جميع الأرض ، وهما رؤساء دول العالم فهل هذا صحيح ؟ ويريد أن يقول : ان شعب اسرائيل كله هو أمم العالم وشعوب العالم . فهل هذا صحيح ؟ أى تفسير أشد التواء من هذا التفسير ؟ ومع قوله هذا لم يسلم له انتصار النبى المنتظر . لأن نبوءة داوود توضح أنه لن يقتل بيد أعدائه وقد صرحوا بقتل عيسى عليه السلام الذين جعلوه هدفا للنبوءات . وليست له .

* * *

وفى الخطبة التى ألقاهـا بطرس فى مدينة « قيصرية » أمام « كرنيليوس » وهى فى الاصحاح العاشر من سفر الأعمال زعم أن النبى يحيى عليه السلام كان يبشر بمجىء عيسى عليه السلام ولم يكن يبشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . قال يحيى عليه السلام : « يأتى بعدى من هو أقوى منى : الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سـيور حذائه . أنا عمدتكم بالمـاء ، وأمـا هو فسيعمدكم بالروح القدس » (مرقس ١ : ٧) ولم يكن عيسى من بعده بل كان معه . ودعا معه بنفس الدعوة التى دعا بها يوحنا المعمدان « النبى يحيى » دعوا معا بصوت واحد : « اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢ و ٤ : ١٧) زعم بطرس أمام « كرنيليوس » أن يسوع المسيح هو الذى قال عنه يوحنا : « يأتى بعدى من هو أقوى منى ... الخ » مع أن المسيح لم يكن أقوى من يوحنا ، كانا من الدعاة الفقراء ، ولم يكونا من الملوك الأغنياء . كانا من الأنبياء ، ولم يكونا من الانبيـاء الملوك كداوود وسليمان عليهما السلام .

« ففتح بطرس فاه . وقال : بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده ، الكلمة التى أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح . هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل بعد المعمودية التى كرز بها يوحنا ، يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة . الذى جال يصنع خيرا ويشفى جميع المتسلط عليهم ابليس ، لأن الله كان معه . ونحن شهود بكل ما فعل فى كورة اليهودية وفى أورشليم ، الذى أيضا قتلوه معلقين اياه على خشبة . هذا أقامه الله فى اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهرا ، ليس لجميع الشعب ، بل لشهود سبق الله فانتخبهم . لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات ، وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله : ديانا للأحياء والأموات . له يشهد جميع الأنبياء : أن كل من يؤمن به ينال باسـمه غفران الخطايا » (أع ١٠ : ٣٤ ـــ ٤٣) .

* * *

وقـد اقتفى بولس أثر بطرس فى تطبيق النبوءات قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام . اذ أنه انطلق الى بلاد العرب من

دمشق ثم رجع اليهـا ثم بعد ثلاث سنين صعد الى « أورشليم » ليتعرف ببطرس ، ومكث عنده خمسة عشر يوما ورأى يعقوب صديق بطرس وحوارى المسيح ورأى أيضا يوحنا وبرنابا (غلاطية ١ ، ٢) ورجع ليردد نفس الافكار التى صرح بهـا بطرس ، لا يرددها فى أورشليم وحدها ، بل فى كل مكان تطؤه قدماه . ففى مدينة « انطاكية ببيسيدية » دخل مجمعا من مجامع اليهود — كما فى الاصحاح الثالث عشر من سفر الأعمال — وشرح نبوءة يوحنا المعمدان كما شرحها بطرس ، وشرح أيضا نبوءة المزمور الثانى كما شرح بطرس . قال بولس :

« أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقون الله : اسمعوا . اله شعب اسرائيل هذا : اختار آباءنا ورفع الشعب فى الغربة فى أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم فى البرية ، ثم أهلك سبع أمم فى أرض كنعان وقسم لهم أرضهم بالقرعة . وبعد ذلك فى نحو أربعمئة سنة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول ابن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا ، الذى شهد له أيضا اذ قال : وجدت داوود بن يسى « رجلا حسب قلبى الذى سيصنع كل مشيئتى . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لاسرائيل مخلصا : يسوع . اذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ولمـا صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا اياه . لكن هو ذا يأتى بعدى الذى لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه [1] .

أيها الرجال الاخوة بنى جنس ابراهيم ، والذين بينكم يتقون الله : اليكم أرسلت كلمة هذا الخلاص ، لأن الساكنين فى أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا .

وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تمموهـا ، اذ حكموا عليه ، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل ، ولمـا تمموا كل ما كتب عنه ، أنزلوه عن الخشبة ووضعوه فى قبره . ولكن الله أقامه من الأموات ، وظهر أياما كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل الى أورشليم ، الذين هم شهوده عند الشعب .

---

(١) انظر أيضا أول الاصحاح التاسع عشر من سفر الأعمال .

ونحن نبشركم بالموعد الذى صار لآبائنا : ان الله قد أكمل هذا لنا ، نحن أولادهم . اذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضا فى المزمور الثانى : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك .. الخ » .

وفى مدينة « دمشق » أيضا جهر بولس بأن يسوع المسيح هو ابن الله ، الذى تنبأ عنه داوود عليه السلام فى المزمور الثانى ، وأن يسوع المسيح هو المسيا . تماما كما قال بطرس . زعم بولس أنه رأى المسيح فى « رؤيا » وأن المسيح زجره ووبخه على اضطهاده لأتباعه ، وصرح له بأن ينطلق الى الأمم بالانجيل وأنه كما فى الاصحاح التاسع من سفر الأعمال « جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله ، فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ، وقالوا : أليس هذا هو الذى أهلك فى أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم ، وقد جاء الى هنا ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة ، وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين فى دمشق محققا : أن هذا هو المسيح » .

* * *

« كان تلميذ من تلاميذ المسيح اسمه « فيلبس » من القرية التى منها « بطرس » وهى « بيت صيدا » قال لصديق له : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس ، والأنبياء : يسوع ابن يوسف ، الذى من الناصرة » فرد عليه بقوله : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شىء صالح ؟ ثم قال للمسيح : « يا معلم أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل » (يوحنا ١ : ٤٤ — ٤٩) ففيلبس فى محاولة جر رجل صديقه الى الايمان بدعوة المسيح زعم أن المسيح هو الذى تحدثت عنه الأسفار الخمسة وأسفار الأنبياء الذين ظهروا من بعد موسى . مع أن الأسفار الخمسة وأسفار الأنبياء لا تشير بكلمة واحدة الى يسوع المسيح لأنه من بنى اسرائيل ، ومستبعد من أنبياء بنى اسرائيل نسخ شريعة موسى ، فلماذا ينبه الله على مجىء نبى من بنى اسرائيل ؟ ان التنبيه لازم على من يحق له نسخ شريعة موسى ، لأنها كلام الله فى الأصل ولا يترك كلام الله الذى نشأت عليه أجيال الى من سيقول ان معى كلام الله المناسب لزماننا هذا بسهولة ، لأن التصريح بنسخ شريعة ليس بالأمر الهين ، خاصة وأن الشريعة المنسوخة لليهود وأن الناسخ ليس منهم ، بل من جنس آخر هم العرب أبناء النبى اسماعيل عليه السلام . وصديقه يؤمن على

أساس أن المسيح هو ابن الله الذى أشار اليه داوود بظهر الغيب وبين فى أوصافه انه سيكون رئيسا مطاعا ، أى ملكا . والمسيح لم يكن رئيسا ولا ملكا فقد قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ولم يقع كاتب الانجيل فى هذا الخطأ وحده ، وانما وقع فى خطأ آخر وهو قوله : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء » فان موسى تارك للناموس . وليس هو بتارك لأسفار الأنبياء . وكيف يترك كتبا نسبت لأصحابها من بعد موتهم ، وأصحابها ظهروا من بعده بسنين ؟

يحكى لوقا كاتب سفر أعمال الرسل — كما يزعمون فى بعض الروايات — أن فيلبس هذا كان من أهل الخطوة كالياس النبى عليه السلام ، وقد وجد وزيرا من أهل الحبشة فدعاه الى النصرانية فقبل الدعوة ، ولما رأى ماء قال لفيلبس « ماذا يمنع أن أعتمد ؟ » أى أستحم بالماء لأدخل فى الدين على طهارة « فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز . فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله » فعمده فيلبس لقوله هذا (أعمال : ٨) وعلى ذلك كان فيلبس شريكا لبطرس وبولس فى تطبيق نبوءة الابن على عيسى المسيح عليه السلام .

* * *

واشترك فى تطبيق نبوءة المسيا على عيسى عليه السلام معهم يهودى من يهود « الاسكندرية » اسمه : « أبلوس » فقد جاء عنه فى الاصحاح الثامن عشر من سفر الأعمال : « انه كان باشتداد يفحم اليهود جهرا ، مبينا بالكتب : أن يسوع هو المسيح » .

* * *

أما عن نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » ويسمى أيضا « ملكوت الله » فأشهر من طبقها على عيسى عليه السلام رغم أنفه : « استفانوس » و « بولس » .

وأصل نبوءة « ابن الانسان » من التوراة من سفر النبى المعظم دانيال . كان دانيال فى مدينة « بابل » فى عهد الملك « نبوخذناصر » ورأى الملك هذا أحلاما أطارت عنه النوم ، ولما طلب من الحكماء تعبير الحلم لم يستطيعوا التعبير ، لأن الله عز وجل ما ألهم التعبير لغير النبى دانيال ، الذى سبح الله ومجده بقوله : « ليكن اسم الله

مباركا من الأزل والى الأبد لأن له الحكمة والجبروت ، وهو يغير الأوقات والأزمنة ، يعزل ملوكا وينصب ملوكا . يعطى الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما . هو يكشف العمائق والأسرار . يعلم ما هو فى الظلمة وعنده يسكن النور » (دانيال ٢ : ٢٠ — ٢٣) وقال دانيال للملك (أ) : رأيت فى حلم « تمثـالا » ١ — رأسه من ذهب جيد ٢ — صدره وذراعاه من فضة ٣ — بطنه وفخذاه من نحاس ٤ — ساقاه من حديد ٥ — قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف .

(ب) ورأيت « حجرا » هوى بقوة شديدة على « التمثال » فضرب قدميه ، فوقع على الأرض مهشما . وصار « الحجر » : « جبلا كبيرا » بعد ما حطم التمثال وهشمه . هذا هو الحلم أيها الملك . واليك تعبيره :

١ — رأس التمثال : مملكة بابل ٢ — صدر التمثال وذراعاه : مملكة أخرى — هى : مملكة فارس — ٣ — بطن التمثال وفخذاه : مملكة ثالثة — هى : مملكة اليونان — ٤ — ساقا التمثال : مملكة رابعة — هى : مملكة الرومان — ومملكة الرومان تكون منقسمة على ذاتها — الى شرقية وغربية وفى أيام ملوك الرومان بعد الانقسام : « يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت الى الأبد » (دانيال ٢ : ٤٤) .

وهـذا الحلم الذى رآه الملك نبوخذ ناصر رآه أيضا بعد ذلك دانيال نفسه بأيام . لكن بصورة غير الصورة التى رآها الملك . أما التعبير فغير مختلف عن تعبير رؤيا الملك . رأى دانيال فى حلم الليل :

(أ) أربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير — الأبيض المتوسط — (ب) وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة .

١ — أسد ٢ — دب ٣ — نمر ٤ — حيوان هائل وقوى وشديد جدا . ثم رأى عقب الحيوان الرابع الهائل والقوى والشديد جدا : « ابن انسان » أعطاه الله عز وجل ملكا عظيما . قال عنه دانيال ما نصه : « كنت أرى فى رؤى الليل واذا مع سحب السماء مثل ابن انسان أتى وجاء الى القديم الأيام فقربوه قدامه ، فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » .

ثم نطق دانيال بتعبير الحلم فقال ما نصه :

« هؤلاء الحيوانات العظيمة التى هى أربعة هى : أربعة ملوك يقومون على الأرض • أما قديسو العلى فيأخذون المملكة ويمتلكون المملكة الى الأبد والى أبد الآبدين » (دانيال ٧ : ١٧ — ١٨) •

هذه أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » ولقد فسر هذه النبوءة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : ان « ابن الانسان » هو نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم • وأن الله عز وجل سيعطيه ملكا عظيما • ونسب الملك الى السموات لأنها جهة العلو فى نظر الناس • وأن الناس سيتعبدون بشريعته — أى يخضعون لله عز وجل على وفق ما فيها من بينات •

لقد حكى كتاب الأناجيل — والرواية هنا لمتى — ما نصه : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ١ — ٢) « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٤ : ١٧) أى أن المعمدان ويسوع دعوا معا بصوت واحد الى اقتراب ملكوت السموات الذى تنبأ عنه النبى المعظم دانيال فى الاصحاح الثانى والسابع من سفره •

وضرب المسيح ابن مريم الأمثال الكثيرة لكيفية انتشار هذا الملكوت • ومن أمثلته هذا المثال : « يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها فى حقله وهىأصغر جميع البزور • ولكن متى نمت فهى أكبر البقول • وتصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها » (مت ١٣ : ٣١ — ٣٢) أى أن المسلمين فى بدء الاسلام يكونون قلة ثم يكثرون رويدا رويدا حتى يملأوا الأرض • وهذا هو مثل المسلمين المذكور فى القرآن الكريم فى سورة الفتح يقول تعالى : « **ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه** »(١) ولم يرد فى انجيل متى فقط ، بل ورد فى مرقس ولوقا أيضا • قال المسيح فى رواية مرقس : « بماذا نشبه ملكوت الله ؟ أو بأى مثل نمثله ؟ مثل حبة خردل متى زرعت فى الأرض فهى أصغر جميع البزور التى على الأرض • ولكن متى زرعت تطلع وتصير

---

(١) الفتح : ٢٩.

أكبر جميع البقول وتصنع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلها » (مر ٤ : ٣٠ — ٣٢) وقال المسيح فى رواية لوقا : « ماذا يشبه ملكوت الله ؟ وبماذا أشبهه ؟ يشبه حبة خردل أخذها انسان وألقاها فى بستانه • فنمت وصارت شجرة كبيرة وتآوت طيور السماء فى أغصانها » (لو ١٣ : ١٨ — ١٩) •

* * *

هذا هو أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » وهذا هو تفسير المسيح عيسى عليه السلام للنبوءة • فما تفسير النصارى لها من بعد المسيح ؟

فى الاصحاح السابع من سفر الأعمال ، وقف « استفانوس » خطيبا بحيث يسمعه « بولس » وصرح بأن ابن الانسان هو يسوع المسيح ، وليس هو نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم كما صرح عيسى عليه السلام • وفى الاصحاح التاسع عشر من هذا السفر وفى مواضع كثيرة يردد بولس عبارات « استفانوس » الذى لم يشاهد المسيح بعينى رأسه مثل بولس • قال استفانوس : « ها أنا أنظر السموات مفتوحة ، وابن الانسان قائما عن يمين الله » لمـــا حكى عنه الكاتب : « وأما هو فشخص الى السماء ، وهو ممتلىء من الروح القدس ، فرأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله » (أع ٧ : ٥٥ — ٥٦) وقال الكاتب عن بولس فى مدينة « أفسوس » : « ثم دخل المجمع ، وكان يجاهر مدة ثلاثة أشهر محاجا ومقنعا فى مـــا يختص بملكوت الله » (أع ١٩ : ٨) •

* * *

يوم الرب :

ولمـــا قال بطرس وتبعه بولس بأن عيسى لم يمت ، وانه رفع حيا الى السماء ، وأنه سيرجع الى الدنيا ليحارب أعداءه وينتصر • ويؤسس فى الدنيا ملكا كملك داوود وسليمان فى الزمان القديم • علم أن الزمن اذا طال ولم ينزل عيسى سيسأل الناس : متى يوم الرب ؟ أى متى اليوم الذى سيظهر فيه عيسى ليقيم الملك الدنيوى • لأنهم طبقوا بالزور نبوءات التوراة عليه • فقال فى الاصحاح الثالث من رسالته الثانية : « سيأتى فى آخر الأيام قوم مستهزئين ، سالكين بحسب

شهوات أنفسهم ، وقائلين : أين هو موعد مجيئه ؟ لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باق هكذا من بدء الخليقة » ورد بقوله : « لا يخف عليكم هذا الشيء الواحد أيها الأحباء : أن يوما واحدا عند الرب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد ، لا يتباطأ الرب عن وعده ، كما يحسب قوم التباطؤ ، لكنه يتأنى علينا » .

والنصارى اليوم ، طوائفهم العظمى ، على أن يوم الرب قريب . ولكن لن ينزل عيسى بالجسد والروح ، بل بالروح دون الجسد .

❋ ❋ ❋

ثانيا — تغيير التوراة :

لاحظ أولا ما يلي :

يروى القرطبى الامام الفقيه المفسر فى تفسير قوله تعالى عن عيسى — عليه السلام — : **« ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »** (آل عمران : ٥٠) قول عن امام من الأئمة هو : أن عيسى — عليه السلام — ما أحل لهم الا ما حرمه علماء بنى اسرائيل على الناس لا ما حرمه الله بنص فى التوراة .. وهذا القول مع صوابه لم يجزم بصوابه المفسر . ولماذا لم يكن ؟ لأن العلماء نظروا الى آيات أربعة فى دعوة المسيح . الآية الأولى قول الله عن عيسى عليه السلام انه **« مصدقا لما بين يدى من التوراة . ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »** (الصف : ٦) أى أن دعوته فى أمرين اثنين : الأول : أنه مصدق للتوراة غير ناسخ . والثانى : أنه لم يعط لأتباعه شريعة منفصلة عن شريعة موسى عليه السلام ، لم يعطهم الا خبرا بمجيء نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم والخبر لا ينسخ التشريع . والآية الثانية : قول الله عن عيسى عليه السلام أنه قال لقومه : **« ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه »** (الزخرف : ٦٣) أى أنه كان على شريعة موسى التى يختلفون فى تفسير بعض آياتها فيفسر لهم التفسير الصحيح . والآية الثالثة : **« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه »** (المائدة : ٤٧) وقد فهم منها البعض أن الحكم بالانجيل يعنى أنه شريعة منفصلة عن التوراة ، وفهم منها البعض — وقد أشار اليهم الزمخشرى المفسر ، طيب الله ثراه — أن الحكم بالانجيل هو نفسه الحكم بالتوراة . لماذا ؟ لأنه مكتوب فى الانجيل — رغم تحريفه — أن عيسى عليه السلام قال لأتباعه :

« أتظنون أنى جئت لأبطل الشريعة والأنبياء . الحق أقول لكم : لعمر الله : انى لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها » فعلى قوله هذا : اذا أراد النصارى أهل الانجيل أن يقيموا حكم الله فعليهم بهدى امامهم وهدى امامهم معروف من قوله : « لم آت لأبطلها » اذن فليتحاكموا فيما بينهم على قوانينها . والآية الرابعة : قول الله تعالى عن عيسى عليه السلام : **« ومصدقا لمـا بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »** (آل عمران : ٥٠) وهذه الآية هى موضع الاشكال فى الظاهر حيث فهم البعض : أن التصديق لا صلة له البتة بانجيله الذى أحل فيه وأن التصديق لا يتعارض مع شريعة جديدة تكون معه .

وفهمهم هذا يكون صحيحا اذا كان الله تعالى قد صرح فى أمر عيسى عليه السلام بأنه مع التصديق مهيمن على التوراة ، ففى الحالة هذه يجب القول بأن عيسى عليه السلام قد أعطى — بناء عن وحى الله — شريعة مستقلة عن شريعة موسى عليه السلام . لأن معنى الهيمنة : السيطرة بقوة على الكتاب . أى يصدق على صحيحه ويصرح بباطله ، ويغير من تشريعاته ما هو غير صالح للناس فى زمانه . فهل الهيمنة على التوراة من اختصاص عيسى عليه السلام ؟ لا . ليست من اختصاصه ، بل من اختصاص محمد نبى الاسلام — صلى الله عليه وسلم — فانه هو وحده المصدق والمهيمن . وحيث ذلك ثابت فان تحليل عيسى عليه السلام يجب أن ينظر فيه الى أى أمر غير تغيير نصوص التوراة التى تحرم ما يريد هو أن يحله . والا لزم التناقض فى مفهوم دعوته بين التصديق فقط وحل ما حرم على بنى اسرائيل . وهذا هو الذى حدا بى الى فحص هذا الموضوع بدقة متناهية . وقد انتهيت فيه الى أنه أحل بعض ما حرمه على الناس علماء بنى اسرائيل من تلقاء أنفسهم .

وما يزال البعض من الناس فى عصرنا هذا يعد النصرانية دينا سماويـا تاليـا للديانة اليهودية وسابقا على الاسلام ، ويزعمون أن الأديـان : ثلاثة أديان : اليهودية والنصرانية والاسلام . وأنا أعلم أن زعمهم قائم — لا على حسب واقع الناس اليوم — بل على أنهم عالمون بأن عيسى عليه السلام قد أضاف جديدا على شريعة موسى عليه السلام . ولقد علموا ذلك من الترجمة المتداولة للانجيل وفيها يقول متى عن عيسى عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٥ : ١٧) يفهمون من

قوله « لأكمل » أنه أضاف جديدا . ولم يكلفوا أنفسهم أن يبحثوا عن هذا الجديد المضاف الذى أكمل به عيسى عليه السلام كتاب موسى عليه السلام . أى جديد أضافه عيسى عليه السلام ؟ وان أصول الانجيل باللغة اليونانية فيها « بل لأصحح » وفى الترجمة التى نقلت عن برنابا « لم آت لأبطلها بل لأحفظها » وفى الخطاب الاخير يقول للجموع وللتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » (متى ٢٣ : ٢ — ٣) لقد أوصى فقط بحفظ شريعة موسى والعمل بها ولم يصرح بجديد عليها مضاف اليها . وأى جديد يصرح به ، وقد أحال الأتباع الى علماء بنى اسرائيل ومنهم من يؤمن به ومن لا يؤمن به ؟ فأى دليل على هذا الزعم وهذا كلام صاحب الشأن كما هو مكتوب وواضح للعالم والمتعلم ؟ .

ليست الأديان ثلاثة ، بل اثنين فقط لا ثالث لهما : اليهودية أولا ، والاسلام آخرا . وقد نسخ الدين الأخير الدين الأول الذى حرفه من قبل ظهوره وغير وبدل بشهادة أهله . فانه فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر أرمياء على لسان الله تعالى : « لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعا ، بل فى بيتى وجدت شرهم يقول الرب ... وقد رأيت فى أنبياء السامرة حماقة . تنبأوا بالبعل وأضلوا شعبى اسرائيل . وفى أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه . يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر ... من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض ... أما وحى الرب فلا تذكروه بعد لأن كلمة كل انسان تكون وحيه اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الجنود الهنا » الخ . وأى تصريح أوضح من هذا التصريح ؟

* * *

لنتحدث بعد تلك الملاحظات فى محاولة بطرس وبولس ويعقوب لتغيير التوراة فنقول :

يحكى هذا السفر أن بطرس الذى وصفه المسيح عليه السلام بأنه « شيطان » هو أول من دعا الى تغيير التوراة فى « الشريعة » وقد غيرها هو ومن معه من أجل الرومان أولا ، الذين أرادوا أن يدخلوهم فى النصرانية بسهولة .

لقد كان من عادة العلماء من بنى اسرائيل بعد سبى بابل أن لا يدخلوا بيت خاطىء ، وأن لا يمشوا معه ، وأن لا يتعرفوا على رجل

ليس من جنس بنى اسرائيل ، وأن لا يعاشروه ، وأن لا يدخلوا بيته ، وأن لا يأكلوا طعامه • وليست هذه العادة لأن الله نص عليها فى التوراة ، بل لأنهم ابتدعوها من سبى بابل • ولذلك وبخهم المسيح وبكتهم • فقد روى « متى » أنه دخل مع تلاميذه بيت خاطىء ليدعوه الى التوبة فلما نظره العلماء « قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى • فاذهبوا وتعلموا ما هو(١) : « انى أريد رحمة لا ذبيحة » ؟ لأنى لم آت لأدعو أبرارا • بل خطاة الى التوبة » (متى ٩ : ٩ — ١٣) وقد اقتفى بطرس أثر المسيح مع الفارق • فقد دخل المسيح وأكل حسبما تنص شريعة موسى فى الأطعمة ودخل بطرس بيت « أممى » غير يهودى ، وأكل ما هو محرم فى شريعة موسى من الأطعمة ، ولما سألوه عن تحليله لما هو محرم لم يجب بأن المسيح أحل ما كان محرما ، وانما أجاب بأنه : « رأى السماء مفتوحة ، **واناء** نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وصار اليه صوت : قم يا بطرس اذبح وكل • فقال بطرس : كلا يا رب لأنى لم آكل قط شيئا دنسا أو نجسا ، فصار اليه أيضا صوت ثانية : ما طهره الله لا تدنسه أنت • وكان هذا على ثلاث مرات ، ثم ارتفع الاناء أيضا الى السماء » (أ ع ١٠ : ١١ — ١٦) وقد واجه المجتمعين برأيه فى معاشرة الأمميين « قال لهم : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى اليه • وأما أنا فقد أرانى الله أن لا أقول عن انسان ما انه دنس أو نجس » (أ ع ١٠ : ٢٨) وعلل رأيه بقوله : « **بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده** » (أ ع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) •

ولما رجع بطرس من عند الأممى الى « أورشليم » وقد علم اليهود أنه دخل بيت أممى وأكل عنده : **خاصموه** • فقص عليهم قصة « **الاناء** » الذى يشبه « الملاءة » فعندئذ **سكتوا عن الخصام** • قال

---

(١) أى المكتوب فى التوراة : أن الله يريد الرحمة بالناس ، ولا يريد القرابين والذبائح فى حد ذاتها • والنص فى سفر « هوشع » هكذا : انى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هو ٦ : ٦) •

كاتب السفر فى الاصحاح الحادى عشر : « ولما صعد بطرس الى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين : انك دخلت الى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم ، فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلا : أنا كنت فى مدينة يافا أصلى فرأيت فى غيبة رؤيا : اناء نازلا مثل ملاءة عظيمة مدلاة بأربعة أطراف من السماء ... الخ » ثم يقول الكاتب : « فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين : اذن أعطى الله الأمم أيضا : التوبة ، للحياة » .

أى أن بطرس بتلك الرؤيا ، رؤيا الاناء المشابه للملاءة يريد أن يقول : ان كل ما كان محرما فى التوراة أصبح حلالا من الآن . ان من الأطعمة المحرمة فى التوراة : الجمل ، والأرنب ، والوبر ، والخنزير ، والنسر ، والأنوق ، والعقاب ، والحدأة ، والباشق ، والشاهين على أجناسه ، والغراب على أجناسه ، والنعامة ، والظليف ، والسأف ، والباز على أجناسه ، والبوم ، والكركى ، والبجع ، والقوق ، والرخم ، والغواص ، واللقلق ، والببغاء على أجناسه ، والهدهد ، والخفاش . وكل دبيب الطير ، والميتة . وتعبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « انه نجس لكم » — « نجس لكم » — « نجسة لكم » فى الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية ، وفى الاصحاح الحادى عشر من سفر اللاويين تعبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « نجس لكم » — « انها نجسة لكم » — « لا تدنسوا أنفسكم بدبيب يدب ، ولا تتنجسوا به ، ولا تكونوا به نجسين » ويريد بطرس أن يقول : ان ما كان دنسا ، وما كان نجسا فى التوراة ، أصبح طاهرا ومباحا أكله من يومنا هذا . هذا رأى بطرس . وهو نفسه رأى بولس . فان بولس يقول : الانسان الذى يحرم طعاما ما على نفسه ، فله هو وحده هذا الطعام حرام . ولكن ليس للناس جميعا . ان الايمان بيسوع المسيح كاف فى دخول الجنة بدون أعمال ، لأنه صلب ليكفر عن خطايا المؤمنين به . يقول لأهل غلاطية : « انه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما » (غلا ٢ : ١٦) ويقول لأهل كولوسى : « لا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت » (كو ٢ : ١٦) ويقول لأهل رومية : « انى عالم ومتيقن فى الرب يسوع : أن ليس شىء نجسا بذاته الا من يحسب شيئا نجسا فله هو نجس » (رو ١٤ : ١٤) ويقول بولس لأتباعه : تلونوا ونافقوا وداهنوا فى الدعوة كما أنا أفعل . فان رأيتم انسانا يريد الدخول فى النصرانية وهو يريد

أن يحرم على نفسه طعاما ما فلا تجبروه على أكله . يقول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس : « كل الأشياء تحل لى ، لكن ليس كل الأشياء توافق ... كل ما يباع فى الملحمة : كلوه ، غير فاحصين عن شىء من أجل الضمير . ولكن ان قال لكم أحد : هذا مذبوح لوثن فلا تأكلوا ... كونوا بلا عثرة لليهود ، ولليونانيين ، ولكنيسة الله ، كما أنا أيضا أرضى الجميع فى كل شىء ، غير طالب ما يوافق نفسى ، بل الكثيرين لكى يخلصوا » (١ كو ١٠ : ٢٣) الخ .

* * *

ولقد ظل بطرس وبولس على رأيهما هذا الى أن فارقا الحياة الدنيـــا . ورأيهما هذا هو الذى سارت عليه النصرانية الى يومنا هذا . أما رأى يعقوب وهو تحريم : الدم والمخنوق من الأطعمة . فهو رأى لا يعتد به ، لأنه من من الناس يستسيغ فى حالة الاختيار — لا فى حالة الاضطرار — أن يأكل جثة ميتة ، خنقها بحبل من الناس خانق ؟ ومن من الناس يستسيغ فى حالة الاختيار أن يأكل الدم ، لا فى حالة الاضطرار ؟ ورأى يعقوب أيضا فى تحريم المذبوح للأوثان هو نفسه رأى النصارى كلهم لأنهم لا يعبدون أوثانا ، بل يعبدون آلهة غير مرئية ، الا المسيح الذى يزعمون أنهم رأوه الها فى صورة انسان .

وخلاصة المكتوب عن رأى يعقوب فى الاصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل هكذا :

١ — ذهب بولس وبرنابا لدعوة الأمم الى النصرانية فآمن « جمهور كثير من اليهـــود واليونانيين » وهنـــا قاوم نفر من اليهود دعوة « اليونانيين » لا على أنها دعوة ، بل لأنهم دخلوا فى النصرانية على عاداتهم وتقاليدهم . قال المقاومون : ليدخلوا ويعملوا بالتوراة ، لأن المسيح ما جاء للنسخ بل للاصلاح . وقال الداعيان : « أن يثبتوا فى الايمان » . وفى ذلك الوقت : دخل نفر من علماء بنى اسرائيل من الفريسيين بلاد اليونانيين « وجعلوا يعلمون الاخوة — اليونانيين — : أنه ان لم تختتنوا حسب عادة موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » فمن أجل ذلك رأى بولس وبرنابا وأناس آخرون معهما أن يذهبوا الى « أورشليم » للتشاور فى هذا الموضوع مع حوارى عيسى الأولين . ولمـــا التقوا بهم فى « أورشليم » أخبروهم بما حدث وقالوا لهم :

ان اليونانيين لمـا قبلوا النصرانية على عاداتهم «قام الناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين ، وقالوا : انه ينبغى أن يختتنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى» فعندئذ وقف بطرس خطيبا وقال مما قال : « لمـاذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ ، لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله » ؟ أى يريد اسقاط التكاليف الشرعية عن « الأمم » ووقف يعقوب بعده خطيبا فكان مما قال :

« أرى أن لا يثقل على الراجعين الى الله من الأمم • بل يرسل اليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصـنام والزنا والمخنوق والدم لأن موسى منذ أجيال قديمة له فى كل مدينة من يكرز به ، اذ يقرأ فى المجامع كل سبت » •

واستحسن المجتمعون رأى يعقوب • فكتبوا رسالة الى الذين آمنوا من غير اليهود فى مدن : انطاكية وسورية وكليكية ، وأرسلوها مع أربعة أشخاص هم : بولس ، وبرنابا ، ويهوذا الملقب : برسابا ، وسيلا • وهذا نص الرسالة :

« الرسل والمشايخ والاخوة يهدون سلاما الى الاخوة الذين من الأمم فى أنطاكية وسورية وكليكية •

اذ

قد سمعنا : أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال ، مقلبين أنفسكم ، وقائلين : أن تختتنوا وتحفظوا الناموس • الذين نحن لم نأمرهم •

رأينا • وقد صرنا بنفس واحدة : أن نختار رجلين ، ونرسلهما اليكم مع حبيبنا : برنابا وبولس • رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح • فقد أرسلنا : يهوذا ، وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور : شفاها • لأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن : أن لا نضع عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، ، والمخنوق ، والزنا • التى ان حفظتم أنفسكم منها ، فنعما تفعلون •

كونوا معافين » أ • هـ

انتهى نص الرسالة • ولمـا وصلت الى أصـحابها وقرأوهـا :

« فرحوا » كما يقول الكاتب . وبها ضاع دين عيسى الذى هو نفسه دين موسى .

* * *

وأصحاب هذه المؤامرة لم يستطيعوا أن يجهروا بها فى « أورشليم » وجهروا فى « أورشليم » باحترام التوراة ووجوب العمل بها .

ويعقوب نفسه الذى اقترح تلك الرسالة ، خاف على « بولس » لما رجع الى « أورشليم » بعدما أوصل الرسالة الى أصحابها ، وقال له مع المشايخ : « أنت ترى أيها الأخ : كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا ، وهم جميعا غيورون للناموس . وقد أخبروا عنك : أنك تعلم جميع اليهـود الذين بين الأمم : الارتداد عن موسى ، قائلا : أن لا يختتنوا أولادهم ، ولا يسلكوا حسب العوائد . فاذن ماذا يكون » ؟

ولمـا خاف عليه من اليهود . اقترح عليه الاقتراح الآتى :

« افعل هذا الذى نقول لك : عندنا أربعة رجال عليهم نذر . خذ هؤلاء ، وتطهر معهم ، وأنفق عليهم ، ليحلقوا رؤوسهم ، فيعلم الجميع : أن ليس شىء مما أخبروا عنك ، بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس »

ولقد نفذ بولس هذا الاقتراح « أخذ بولس الرجال فى الغد ، وتطهر معهم ، ودخل الهيكل مخبرا بكمال أيام التطهير ، الى أن يقرب عن كل واحد منهم القربان » .

فماذا كان من اليهود الذين رأوه فى الهيكل ؟ لمـا رآه اليهود الذين من آسـيا فى الهيكل أهاجوا عليه جميع السـاكنين فى أورشـليم « صارخين يا أيها الرجال الاسرائيليون : أعينوا .. هذا الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضدا للشعب ، والناموس ، وهذا الموضع ، حتى أدخل يونانيين أيضا الى الهيكل ، ودنس هذا الموضع المقدس » وللوقت « هاجت المدينة كلها ، وتراكض الشعب وأمسكوا بولس ، وجروه خارج الهيكل ، وللوقت أغلقت الأبواب ، وبينما هم يطلبون أن يقتلوه . نما خبر الى أمير الكتيبة : أن أورشليم كلها قد اضطربت . فللوقت أخذ عسكرا وقواد مئات وركض اليهم . فلما رأوا الأمير والعسكر كفوا عن ضرب بولس » أ . ه ولنشرع بعد ذلك فى الحديث عن عالمية الملة النصرانية فنقول :

عالمية الملـة النصرانية

قلنا من قبل : ان شريعة موسى عليه السلام كانت من قبل أن تنسخ بالقرآن الكريم لبنى اسرائيل وللأمم أيضـا . وأنه من قبل ظهور النصرانية كان للشريعة الموسوية دعاة اليها ، ومدعويون عاملون بالدعوة فى كل مكان . كما قال يعقوب حوارى المسيح : « لأن موسى منذ أجيال قديمة ، له فى كل مدينة ، من يكرز — أى يبشر — به . اذ يقرأ فى المجامع كل سبت » (أع ١٥ : ٢١) .

وقد رأى النصارى الأولون أن ينطلقوا بالدعوة الى بنى اسرائيل والأمم كما أوصى المسيح لكن الى بنى اسرائيل أولا . وقد اختلف اليهود فيما بينهم بعد رفع المسيح الى السماء فى مد دعوتهم الى الأمم ، وقد كانوا أوقفوا مد الدعوة من بعد سبى بابل الا نفرا منهم غاروا على دين الله ولم يستجيبوا لقوانين الحرمان والقطيعة التى سنها عزرا وطبقها نحميا على واحد من أبناء « يوياداع » ابن « أليا شيب » الكاهن العظيم (نح ١٣ : ٢٨) فرأى بعضهم مد الدعوة ورأى بعضهم قصرها على بنى اسرائيل . والذين رأوا مد الدعوة الى الأمم ، كانوا مخلصين فى دعوتهم وأمناء . لأنهم دعوا الى شريعة موسى التى ما نسخها المسيح ولا نقضها .

فان بولس لمـا فتح للأمم باب الايمـان الى النصرانية على حسب تقاليـدهم « انحـدر قوم من اليهودية ، وجعـلوا يعلمون الاخوة : أنه ان لم تختتنوا حسب عادة ناموس موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » (أع ١٥ : ١) ولم يدعوا الى « الختان » فحسب بل الى كل أحكام التوراة ، كما يقول كاتب سفر الأعمال أيضا : « ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين . وقالوا : انه ينبغى أن يختتنـوا ، ويوصـوا بأن يحفظوا ناموس موسى » (أع ١٥ : ٥) .

واليهود الذين رأوا قصر التوراة على بنى اسرائيل ، نظروا بعين العداء وعين البغض الى اخوانهم الذين ساروا الى الأمم بالتوراة بنصها دون تفسير ، أو بالنص والتفسير معا ، والى النصارى الذين لم

يسيروا الى الأمم بالتوراة كنص يحتاج الى تفسير ، بل بتفسير المسيح نفسه للنبوءات التي فيها عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . ولما نظروا اليهم بعين العداء وعين البغض صبوا عليهم من العذاب الأليم ما قدروا عليه ، وأوحوا الى الرومان أن يصبوا عليهم من العذاب الأليم ما يقدرون عليه . قائلين للرومان : ان أكثرهم يقولـون لرعاياكم : سيظهر نبى ملك تمتد مملكته الى أقصى الأرض ، وسيزيل الدولة الرومانية من فلسطين . وقولهم هذا للرعايا يجرؤهم على القياصرة والولاة والرؤساء فلا يعطون كل ذي حق حقه من التوقير والطاعة والاحترام . واذا تجرأت الرعية على الملوك : قل العمل وساء النظام ، وظهرت الفوضى ، واضطربت المملكة . وهذا كله يعجل بفناء الدولة الرومانية ، ويمحوها من الوجود . فامتدت يد الرومان الى اليهود الأمناء والنصارى الأتقياء بالتعذيب والقتل والنفي والتشريد مما لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد حتى زماني هذا .

وأصبح فى العالم وقتئذ ثلاث فئات : اليهود والنصارى والرومان . اليهود الذين يريدون لأنفسهم كيانا مستقلا الى الأبد . ولا يتم لهم ذلك إلا بانكار النبي الذي سيظهر من العرب أبناء اسماعيل عليه السلام . والنصارى الذين يريدون أن يقدموا خدمة لله باعترافهم بذلك النبى المعظيم . والرومان الذين يريدون من رعاياهم : الطاعة التامة للقياصرة والولاء للدولة ، ولا يتم لهم ذلك الا بتكميم أفواه النصارى واليهود الأمناء وقطع أيديهم عن الكتابة حتى لا يقولوا : ان النبى العربى قادم ، ليزيل الدولة .

* * *

ومن أجل مصالح الكل اجتمعوا للمصالحة ، فان النصارى من مصلحتهم أن يخف الاضطهاد عنهم . واتفقوا على ما يلى :

١ ــ طلب اليهود من النصارى أن لا يجهروا بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، وأن يقولوا : ان نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء تدل على عيسى ابن مريم . وعيسى على جهة الخصوص هو المسيح المنتظر .

٢ ــ طلب الرومان من النصارى أن لا يجهروا بنى الاسلام صلى الله عليه وسلم . وأن يصوغوا عقائد النصرانية على مثال عقائد الرومان فى تعدد الآلهة . وأن يسلك الناس فى الحياة بحسب عادات أسرهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم . واذا سأل الناس عن يوم الرب ، يوم

ظهور المسيا الذى تبلتم عنه من قبل قولوا : قرب انتهاء الدنيا وقيام القيامة .

٣ — طلب النصارى في مقابل ذلك أن يخف الاضطهاد أولا ، ثم تعترف الدولة الرومانية رسميا ثانيا بمذهبهم .

وقد تم ذلك . وهل كان يتم ذلك فى عهد النصارى الأوائل ؟ ما كان يتم ذلك لقرب عهدهم من النبوة ، ولمشاهدة معجزات المسيح بأعينهم ولسماع دعوته بآذانهم ، أما فى هذا الجيل الثالث . فلن أبناء أبناء الأوائل ليسوا فى القوة كما كان الآباء والأجداد وقد وصلت اليهم مبادىء المسيح سماعا ، من معرضين ومعتدلين ، والمبادىء اذا وصلت الى النفوس متأرجحة بين الشك واليقين ، لا تحمس القلب على الدفاع عنها ، بل تدفعه الى عدم المبالاة بها حتى يفرغ لها . فمن أجل ذلك قبل أبناء الأبناء « قرار المصالحة » قائلين فى أنفسهم : ان ما وعد الله به لابد كائن ، ولنرحم نحن أنفسنا مما ابتلينا به . لكن الذين خافوا الله واليوم الآخر صرحوا بأن قرار المصالحة باطل ، وفضلوا سكنى الأديرة والكهوف عن التكلم بالباطل ، ومنهم آريوس وأتباعه الذين أشرنا اليهم من قبل ، ومنهم الرهبان الذين أسسوا الأديرة خوفا من الظلم .

* * *

ولكى يفهم القارئون معى أكثر وأكثر عن « قرار المصالحة » هذا . عليهم أن يقرأوا الاصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل عالمين أنه لم ينتشر بصورته هذه الا فى القرن الرابع . فمنه يمكنهم أن يفهموا . ولا نحيل القارئين الى غير هذا السفر من الكتب المناوئة للنصرانية التى فصلت القول فى « قرار المصالحة » تفصيلا جيدا لأنه من السهل على نصرانى أن يدفع تفاصيلهم بقوله : هذا كلام من أعدائنا لا تحتجون به علينا . ولا شك أن المكتوب فيه : فيه لبس للحق بالباطل . ولكن من الممكن استخلاص الحق من الباطل . بمضاهاة النصوص بعضها ببعض . انه من الذى يقدر أن يقول عن النص الآتى انه خال من الباطل : « وحدث بعد هذه الأمور : أن الله امتحن ابراهيم ، فقال له : يا ابراهيم . فقال : ها أنذا . فقال : خـذ ابنك وحيدك الذى تحبه : اسحق ، واذهب الى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » (تك ٢٢ : ١ — ٢) ؟ ان الباطل فى كلمة « اسحق » فانه

ليس الابن الوحيد لابراهيم ، ان الابن الوحيد لابراهيم هو اسماعيل عليه السلام ، وان الباطل فى كلمة « أرض المريا » فان مريا لم تعين لبنى اسرائيل مكانا مقدسا الا فى زمن داوود عليه السلام . لما وضع أساس الهيكل وأكمله ابنه سليمان وعرف بهيكل سليمان .

ومن الذى لا يقدر على استخلاص الحق فى « قرار المصالحة » مما سطره لوقا فى ذاك الاصحاح من سفر الأعمال ؟

كان لليهود العبرانيين فى مدينة « تسالونيكى » اليونانية : « مجمع » أى موضع لعبادة الله كالمسجد عندنا نحن المسلمين « فدخل بولس اليهم حسب عادته ، وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب ، موضحا ومبينا أنه كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات . وأن هذا هو المسيح : يسوع ، الذى أنا أنادى لكم به » فماذا جرى ؟ اقتنع قوم وأبى آخرون ، والذين أبوا وامتنعوا أخذوا رجالا وقفلوا أبواب المدينة ، وتجمعوا حول البيت الذى دخله بولس لما خرج من المجمع . ثم ذهبوا الى « حكام المدينة » صارخين : ان هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا الى ههنا ، « وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر » ويقول الكاتب : « فأزعجوا الجمع ، وحكام المدينة اذ سمعوا هذا » .

وبحيلة طريفة هرب بولس الى مدينة « بيرية » ثم الى مدينة « أثينا » واذ وجدهم يعبدون « تمثالا » لاله مجهول . وقف فى وسطهم وقال : « أيها الرجال الأثينيون . أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرا . لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر الى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه : « لاله مجهول » فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به » وقال النصارى : انه أراد بالاله المجهول الذى نادى لهم به : الله عز وجل الذى هو قد تجسد وتأنس فى شخص عيسى ابن مريم كما يزعمون فى قوله : « الله ظهر فى الجسد » وقد مر البيان .

* * *

وانتهز بطرس وبولس ومن نحا نحوهما فرصة الجهل فى تلك الأزمنة بسبب تقصير علماء بنى اسرائيل فى الدعوة فاعتمدوا على الخرافات فى اقناع الناس بما يريدون . وللخرافات كما هو معروف أثر عظيم فى العامة ، ويقل هذا الأثر تدريجيا اذا ظهر العلماء بالحق . ونكتفى من خرافاتهم بهذا النص المكتوب فى الاصحاح الثامن من سفر الأعمال :

« ثم ان ملاك الرب كلم فيلبس قائلا : قم واذهب نحو الجنوب على الطريق المنحدرة من أورشليم الى غزة التى هى برية ، فقام وذهب • واذا رجل حبشى خصى ، وزير لكنداكة ، ملكة الحبشة ، كان على جميع خزائنها • فهذا كان قد جاء الى أورشليم ليسجد(١) •

وكان راجعا وجالسا على مركبته ، وهو يقرأ النبى اشعياء • فقال الروح لفيلبس : تقدم ورافق هذه المركبة • فبادر اليه فيلبس وسمعه يقرأ النبى اشعياء • فقال : ألعلك تفهم ما أنت تقرأ ؟ فقال : كيف يمكننى ان لم يرشدنى أحد • وطلب الى فيلبس أن يصعد ويجلس معه • وأما فصل الكتاب الذى كان يقرأه فكان هذا • مثل شاة سيق الى الذبح ، ومثل خروف صامت أمام الذى يجزه ، هكذا لم يفتح فاه • فى تواضعه انتزع قضاؤه ، وجيله من يخبر به ، لأن حياته تنتزع من الأرض •

فأجاب الخصى فيلبس وقال : أطلب اليك • عن من يقول النبى هذا ؟ عن نفسه أم عن واحد آخر ؟ ففتح فيلبس فاه ، وابتدأ من هذا الكتاب فبشره بيسوع •

---

(١) فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم • فقال له : يا ابراهيم • فقال : هأنذا • فقال : **خذ ابنك وحيدك** الذى تحبه اسحق ، **واذهب الى أرض المريا** ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك • فبكر ابراهيم صباحا ، وشد على حماره ، وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله • **وفى اليوم الثالث رفع عينيه وأبصر الموضع من بعيد** • فقال ابراهيم لغلاميه : اجلسا أنتما ههنا مع الحمار • **وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ، ثم نرجع اليكما** » • **فى أى مكان سيذهب ابراهيم ليسجد** ؟ ان معنى السجود : هو التوجه الى الله بالعبادة فى مكان معين ومعروف • فما هو هذا المكان ؟ هل هو جبل جرزيم فى نابلس كما يزعم اليهود السامريون • أم هو جبل صهيون فى أورشليم كما يزعم اليهود العبرانيون ؟ ان الوزير الخصى قد جاء الى أورشليم ليسجد • فأين ذهب ابراهيم ليسجد ؟ ان ذهاب ابراهيم الى مكان للسجود يدل على أنه معروف للغلامين من قبل ، ومعروف للناس أيضا • ولا يمكن أن يكون هذا المكان غير « مكة المكرمة » لأن ابراهيم لم يضع مكانا للسجود فى نابلس أو أورشليم • وانما صار مكان فى نابلس وصار مكان فى أورشليم من بعد داوود عليه السلام أى بعد ألف سنة تقريبا من ولادة ابراهيم عليه السلام • ولأن المكان معروف من قبل ذهاب ابراهيم اليه • وفى النص تحريف فى وضع اسحق بجانب الابن الوحيد وفى وضع مريا بدل مكة المكرمة ، فان مريا لم تكن قبلة فى ذاك الزمان • كما قلنا من قبل •

وفيما هما سائران فى الطريق أقبلا على ماء . فقال الخصى : هو ذا ماء . ماذا يمنع أن أعتمد ؟ فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز . فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله[1] . فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما الى الماء — فيلبس والخصى — فعمده ، ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس ، فلم يبصره الخصى أيضا . وذهب فى طريقه فرحا . وأما فيلبس فوجد فى أشدود » .

وأصبحت النصرانية دينا عالميا بعد « قرار المصالحة » هذا الذى تم فى عهد القيصر « قسطنطين » دينا عالميا بجبروت الرومان وقوتهم ، لا بالاقناع والبيان .

* * *

وقد قلنا من قبل :

انهم تفادوا النبوءات ، ولأن النبوءات تدل على شريعة جديدة غير شريعة موسى ستكون مع النبى المنتظر ، قالوا بشريعة للمسيح ليكون هو المشار اليه بالنبوءات فى زعمهم .

ونقول أيضا : انهم يعلمون أن النبى المنتظر ستكون دعوته عالمية لجميع أمم الأرض . فهل تفادوا هذه الصفة فيه ؟ لقد جعلوا النصرانية دينا عالميا بالمبادىء التى قرروها ، وما أنزل الله بها من سلطان ربما ليتفادوا هذه الصفة فيه . ولو أنها عالمية على الأصل الذى دعا اليه المسيح ، وهو العمل بالتوراة حتى يأتى النبى المنتظر فيدخلون فى دينه ما صح لانسان أن يعترض عليها بأدنى اعتراض لأنها بهذا المعنى فارضة نفسها على العالم من قبل مجىء المسيح . لكن قصدهم من العالمية هو تفادى الصفة من جهة ، وليكسبوا أنصارا يناوئون بهم أتباع النبى المنتظر اذا ظهر فى حينه من جهة أخرى ، وكسب الأنصار عندهم أهم من تفادى الصفة ، فانهم لا يعجزون اذا لزم الأمر عن تحريف الكلم عن مواضعه .

* * *

لقد فهموا صفة العالمية من النبوءات هكذا :

١ — بينت التوراة أن لاسماعيل عليه السلام بركة كما لاسحاق

---

(١) انظر كيف استعانا بالخرافات فى تطبيق نبوءات التوراة وأسفار الانبياء على المسيح عليه السلام .

عليه السلام بركة . واليهود يعلمون أن بركة اسحاق تعني ملكا ونبوة ، واسماعيل مثله ، وأن النبوة في إسحاق لم تكن لنسله فقط ، لأن موسي عليه السلام الذى اصطفاه الله علي الناس عموما برسالاته وبكلامه كانت دعوته لنسل اسحاق وللمصريين وغيرهم .

٢ — لما حضر يعقوب الموت قال لبنيه عن النبى المنتظر : « وله يكون خضوع شعوب » .

٣ — لما وصف موسي النبى المنتظر بأوصاف تسعة فى الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية قال عنه فى ترجمة اليهود : « ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » ومن هذه الترجمة يفهم أن « الانسان » يكون من جنس اليهود فقط لأن أول النبوءة « أقيم لهم نبيا » ومن ترجمة بطرس فى الاصحاح الثالث من سفر الأعمال : « ويكون أن كل نفس ... الخ » يفهم أن « كل نفس » من اليهود أو من غير اليهود ، وهذا هو قصد بطرس .

٤ — لما قسم موسى فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية بركة الله فى نسل ابراهيم عليه السلام . وتحدث عن بركة من « فاران » موضع سكنى أبناء اسماعيل عليه السلام قال عقب الحديث عنها : « انه أحب الشعب » فى الترجمة العبرانية . وفى الترجمة السامرية قال : « محب الشعوب » أى أن دعوة النبى الذى سيكون من أبناء اسماعيل سكان فاران ستكون عالمية لجميع الشعوب . هذا من الأسفار الخمسة . ونبوءاتها هى العمدة فى الاستدلال .

لنذكر الآن من الأدلة التى اعتمد عليها بطرس وبولس فى عالمية الدعوة . ملاحظتين أنهما ناديا :

١ — بعالمية الملة النصرانية .

٢ — وبتشريعات مخالفة لتشريعات التوراة وعقائد مخالفة أيضا . وهما بهذين الأمرين مخالفان للمسيح ابن مريم عليه السلام الذى قال بالعالمية على وفق التوراة ، وفسر نبوءات التوراة للأتباع قبل أن يأمرهم بالانطلاق الى الأمم .

اعتمد بطرس وبولس فى النداء بعالمية الدعوة على أن الله رب العالمين ، وليس ربا لليهود وحدهم كما زعم اليهود من بعد سبى بابل .

وأن الناس جميعا يهودا أو غير يهود أبناء لآدم وآدم من تراب . اذن الناس جميعا اخوة ، من التراب فى البدء خلقوا ، والى التراب فى النهاية راجعون . اذن على أى أساس يميز الله جنسا على جنس وهم متساوون فى المبدء والنهاية ؟ واذا كان مبدأ التمييز غير موجود لعدم ما يقتضيه فلماذا يصر اليهود على قصر الشريعة عليهم ، وترك الأمم فى طغيانهم يعمهون ؟ ان الله تعالى لم يفضل اليهود على سائر الأجناس الا لأنه ائتمنهم على شريعة موسى التى كانت للناس هدى ونورا فى ذاك الزمان ، فلما خانوا الأمانة بالتحريف أولا ثم بقصرها عليهم ثانيا نبذهم وأهملهم . وماذا يكون الحال الآن لو جارينا اليهود فى كفرهم وعنادهم ؟ ليس الا قلة الأصدقاء وقت ظهور النبى المنتظر ، فيدوسنا برجليه . اذن لابد أن نحث اليهود على عالمية الدعوة .

قال بطرس فى بيت « كرنيليوس » : « بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده » (أع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) .

ولما خاصمه اليهود فى دعوة الأمم قال لهم : « ان كان الله قد أعطاهم الموهبة ، كما لنا أيضا بالسوية ، مؤمنين بالرب يسوع المسيح ، فمن أنا ؟ أقادر أن أمنع الله » ؟ (أع ١١ : ١٧) .

وبعد وعظ من بولس للأمم ، طلبوا منه ثانية أن يعظهم فانتهره اليهود أن لا يعظهم ، فقال لهم : « كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة الله ، ولكن اذ دفعتموها عنكم ، وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية ، هو ذا نتوجه الى الأمم » (أع ١٣ : ٤٦) .

وفى موضع آخر يقول كاتب سفر الأعمال ان اليهود اذ كانوا يقاومون دعوته ، ويجدفون عليه ، « نفض ثيابه ، وقال لهم : دمكم على رؤوسكم . أنا برىء . من الآن أذهب الى الأمم » (أع ١٨ : ٦) .

* * *

وكان استدلال بطرس بنبوءات التوراة ونبوءة يوحنا المعمدان اللاتى فسرها قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام . فمثلا اذا تحدثت نبوءة عن أن النور الذى سينزل على النبى المنتظر سيعم المسكونة كلها . أى دعوته عالمية ، يقول بطرس : ان ذلك النور هو نور الانجيل .

والعالمية للانجيل على زعمه وليست للقرآن الكريم كما تدل النبوءات بالحـــق .

أما استدلال بولس فهو بالنبوءات كما فعل بطرس فى تفسيرها . وهو أيضا بآيات فى أسفار التوراة وأسفار الأنبياء .

* * *

فعن بطرس يحكى الكاتب فى الاصحاح الثانى من سفر الأعمال : أن كثيرا من الناس فى أورشليم فى عيد العنصرة الذى بعد عيد الحصاد بخمسين يوما من جميع الأمم من مصر وليبيا وروما وبلاد العرب وغيرهم لـــا حلت عليهم الروح — كما زعموا — تكلم كل انسان بلغة غير لغته ، فتحير الجميع وارتابوا قائلين بعضهم لبعض : ما عسى أن يكون هذا ؟ وكان آخرون يستهزئون قائلين : انهم قد امتلأوا سلافة . وعندئذ وقف بطرس خطيبا وقال : هذا الحال قد أشارت اليه التوراة فى سفر النبى يوئيل ، وهو حال منطبق على أتباع المسيح الآن فآمنوا بدعوته . مع أن عبارات يوئيل لا تؤدى الى غرضه « وقف بطرس مع الأحد عشر ، ورفع صوته وقال لهم : أيها الرجال اليهود والساكنون فى أورشليم أجمعون :

ليكن هذا معلوما عندكم ، وأصغوا الى كلامى . لأن هؤلاء ليسوا سكارى ، كما أنتم تظنون . لأنها الساعة الثالثة من النهار ، بل هذا ما قيل بيوئيل النبى . يقول الله : ويكون فى الأيام الأخيرة أنى أسكب من روحى على كل بشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاما ، وعلى عبيدى أيضا وامائى أسكب من روحى فى تلك الأيام فيتنبأون ، وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان . تتحول الشمس الى ظلمة ، والقمر الى دم قبل أن يجىء يوم الرب ، العظيم الشهير ، ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص » (أع ٢ : ١٤ — ٢١) .

ان هـــذا كله يا بطرس قبل مجىء يوم الرب . ولم يحدث — باعترافك — من هذا شىء قبل ظهور المسيح عليه السلام . فان قلت : قبل مجيئه قرب القيامة من الأموات . يجب عليك أن تثبت دليل المجىء فى ذلك الوقت قبل ما تقول شيئا .

وعن بطرس أيضا يقول الكاتب : ان يوحنا المعمدان لـــا تنبأ عن

نبى من بعده ، أقوى منه — وبالتأكيد لا يشير الى عيسى ، كما بينا — قال بطرس انه يشير الى عيسى عليه السلام يقول بطرس : « الكلمة التى أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح . هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذى صار فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل ، بعد المعمودية التى كرز بها يوحنا ... » الخ (أع ١٠ : ٣٦ — ٣٨) .

* * *

هذا عن بطرس ، أما عن بولس . فقد وضح فى خطبته فى مدينة أنطاكية بيسيدية » ما وضحه بطرس .

« قام بولس ، وأشار بيده وقال :

أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقون الله اسمعوا : اله شعب اسرائيل هذا اختار آباءنا ، ورفع الشعب فى الغربة فى أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم فى البرية ، ثم أهلك سبع أمم فى أرض كنعان ، وقسم لهم أرضهم بالقرعة ، وبعد ذلك فى نحو أربعمئة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول بن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا الذى شهد له أيضا . اذ قال : وجدت داوود بن يسى ، رجلا حسب قلبى ، الذى سيصنع كل مشيئتى . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لاسرائيل : مخلصا ، يسوع . اذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ، ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا اياه . لكن هو ذا يأتى بعدى الذى لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه ... » الخ (أع ١٣ : ١٦ — ٢٥) .

لقد وجه بولس خطابه هذا ليس الى اليهود المعبر عنهم بالرجال الاسرائيليين ، بل وجه خطابه أيضا الى الأمم المعبر عنهم فى الخطاب بالذين يتقون الله . ثم استدل على أن آخر الأنبياء من نسل داوود : بنبوءة فى التوراة هى : « وجدت داوود ... » الخ وأن المسيح ابن مريم جاء من نسل داوود تتميما للنبوءات ، وأنه هو الذى كان يبشر بمجيئه يوحنا المعمدان . ولقد أخطأ بولس خطأ بينا فى قوله : ان آخر الأنبياء

من داوود ، فان يحيى وعيسى وهما خاتما النبيين فى بنى اسرائيل لم يكونا من نسل داوود ، بل كانا من نسل هارون النبى أخى موسى — عليهم السلام — وهذا واضح من الاصحاح الأول فى انجيل لوقا . فان زكريا وامرأته اليصابات أم يحيى من نسل هارون ، ويقول لوقا : ان مريم قريبة لاليصابات ، أى من السبط الذى هو منه ، لأن شريعة بنى اسرائيل تنص على تميز الأسباط بزواج كل امرأة بواحد من عشيرة سبط أبيها (عدد ٣٦ : ٨) واذا ثبت أن مريم قريبة لاليصابات يثبت أن مريم من هارون كما أن اليصابات من هارون .

* * *

أما عن استدلال بولس بآيات من التوراة على عالمية الدعوة فهذا ليس فى سفر الأعمال ، بل فى الاصحاح التاسع من رسالته الى أهل رومية ، والاصحاح العاشر . لقد صرح بقوله : « لا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن ربا واحدا للجميع ، غنيا لجميع الذين يدعون به » (رو ١٠ : ١٢) وأقام الأدلة هكذا :

قال بولس : « فماذا نقول ؟ ألعل عند الله ظلما ؟ حاشا . لأنه يقول لموسى : « انى أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف » فاذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل لله الذى يرحم . لأنه يقول الكتاب لفرعون : « انى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتى ، ولكى ينادى باسمى فى كل الأرض » فاذن هو يرحم من يشاء ، ويقسى من يشاء . فستقول لى : لماذا يلوم بعد ؟ لأن من يقاوم مشيئته ؟ بل من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله ، وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك ؟ ولكى يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد ، التى أيضا دعانا نحن اياها ليس من اليهود فقط ، بل من الأمم أيضا ، كما يقول فى هوشع أيضا : « سأدعو الذى ليس شعبى شعبى ، والتى ليست محبوبة محبوبة ، ويكون فى الموضع الذى قيل لهم فيه : لستم شعبى أنه هناك يدعون أبناء الله الحى » وأشعياء يصرخ من جهة اسرائيل : « وان كان عدد بنى اسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص ، لأنه متمم

أمر ، وقاض بالبر . لأن الرب يصنع أمرا مقضيا به على الأرض » وكما سبق اشعياء فقال : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلا لصرنا مثل سدوم ، وشابهنا عمورة » .

فماذا نقول : ان الأمم الذين لم يسعوا فى أثر البر ، أدركوا البر . البر الذى بالايمان ؟ ولكن اسرائيل وهو يسعى فى أثر ناموس البر . لم يدرك ناموس البر . لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالايمان ، بل كأنه بأعمال الناموس .. الخ » .

استدل بولس من توراة موسى التى بيد اليهود والنصارى الآن على أن الديانة الموسوية كانت ديانة عالمية لجميع الأمم بدليلين . الأول : قول الله لموسى عليه السلام : « أتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم » فان « من » للعموم . وهذا النص فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج الآية التاسعة عشر . والثانى : قول الله لفرعون على لسان موسى عليه السلام : « لأجل هذا أقمتك لكى أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى كل الأرض » فان « لكى يخبر باسمى فى كل الأرض » يدل على شيوع هذا الخبر فى العالم ليخشوا الله العالم كله وهو الله عز وجل فيعملوا بشريعته . وهذا النص فى الاصحاح التاسع من سفر الخروج الآية السادسة عشر . واستدل بولس أيضا بأسفار الأنبياء . بآيات فى سفر هوشع وبآيات فى سفر أشعياء والآيات التى استدل بها من هوشع استدل بها بالمعنى لا بنص الألفاظ وهى : « ادع اسمه « لوعمى » لأنكم لستم شعبى ، وأنا لا أكون لكم . لكى يكون عدد بنى اسرائيل كرمل البحر ، الذى لا يكال ولا يعد ، ويكون عوضا عن أن يقال لهم : لستم شعبى . يقال لهم : أبناء الله الحى » (هو ١ : ٨ — ١٠) وآيات سفر أشعياء على العالمية هى « لأنه وان كان شعبك يا اسرائيل كرمل البحر ترجع بقية منه . قد قضى بفناء فائض بالعدل . لأن السيد رب الجنود يصنع فناء ، وقضاء فى كل الأرض » (أش ١٠ : ٢٢ — ٢٣) وهى : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة ، لصرنا مثل سدوم ، وشابهنا عمورة » (أش ١ : ٩) يقصد بالبقية الصغيرة نسل من غير بنى اسرائيل على فهم بولس — وليس هذا مراد أشعياء — وواضح من الأدلة التى ذكرها بولس قوة الاستدلال بآيات من أسفار موسى عليه السلام لا بأسفار الأنبياء .

* * *

والسؤال الأخير فى بحثنا هذا : لمـاذا يعد علماء مقارنة الأديان « بولس » المؤسس الحقيقى للنصرانية لا عيسى ابن مريم عليه السلام ؟ مع أن بولس لم يزد على ما أثبته بطرس ويعقوب ؟ هل لكثرة جهاده أكثر من رفقائه ؟ هل لكثرة رسـائله التى بلغت أربعة عشرة رسالة ولبطرس رسالتان وليعقوب واحدة ؟ هل لأنه اختص بدعوة الأمم وغيره دعا بنى اسرائيل لا الأمم ؟ هل لأنه فلسف المبادىء بأسلوب يقنع العوام والسذج والبسطاء من الناس ؟ هل لأنه اجتذب أنصارا أكثر من غيره لقوله : **« الدعوة التى دعى فيها كل واحد ، فليلبث فيها »** كما فى الاصحاح السابع من رسالته الأولى الى أهل كورنثوس ؟ ليس لكثرة الجهاد وكثرة الرسائل ولا لاختصاصه بالأمم • فانهم فعلوا كما فعل ــ كما بينا من قبل ــ وانما لأنه فلسف المبادىء واجتذب أنصارا أكثر من غيره • ولا أشك فى أنه مات على يهوديته ، التى حرف من أجلها دعوة المسيح عليه السلام • ولعل ما أذكره الآن يصلح دليلا على الحكم عليه :

فى اليوم[1] الثالث عشر من ينـاير سنة ألف وأربعمائة وتسع وثمانين من الميـلاد كتب شخص يهودى اسمه « شامور » حاخام (حكيم) يهود مدينة « ارل » بفرنسا • الى المجمع اليهودى العالمى فى « اسطنبول » يستشيره حول بعض الحالات الحرجة قائلا :

ان الفرنسيين فى مدن : « اكس » و « ارل » و « مرسيليا » يتهددون معابدنا • فماذا نعمل ؟

فرد « المجمع اليهودى العالمى » بما نصه :

« أيها الاخوة الأعزاء بموسى •

تلقينا كتابكم ، الذى تطلعوننا فيه ، على ما تقاسونه من الهموم والبلايا ، فكان وقع الخبر علينا شديد الوطأة • اليكم رأى الحاخاميين والربانيين :

---

(١) ورد هذا الخبر فى مجلة « الدروس اليهودية » سنة ١٨٨٠ م ، وهى مجلة يمولها اليهودى الثرى « جيمس روتشيلد » ــ نقلا عن ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ من كتاب « الصهيونية بين تاريخين » ــ دار العودة ــ بيروت سنة ١٩٧٢ م

تقولون : ان ملك فرنسا يجبركم على اعتناق الديانة المسيحية فاعتنقوها ، لأنه ليس بوسعكم أن تقاوموا • لكن يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى ، راسخة فى قلوبكم • وتقولون : انهم يأمرونكم بالتجرد من ممتلكاتكم ، فاجعلوا أولادكم تجارا ليتمكنوا رويدا رويدا من تجريد المسيحيين من أملاكهم • وتقولون : انهم يعتدون على حياتكم ، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم • وتقولون : انهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة واكليريكيين ، ليهدموا كنائسهم • وتقولون : انهم يسومونكم تعديات أخرى كثيرة • فاجعلوا أولادكم وكلاء دعاوى وكتاب عدل ليتدخلوا دوما فى القضايا الحكومية ، ويخضعوا المسيحيين لنيركم ، فتستولون على زمام السلطة العالية • وبذلك يتسنى لكم الانتقام • سيروا بموجب أمرنا هذا • فتتعلموا بالاختبار أنكم من مذلتكم وضعتكم تتوصلون الى ذروة القوة والعظمة •

٢١ كاسلو (ت ٢) ١٤٨٩

أمير اليهود « أ • ه

* * *

وضح لنا أن مبادىء النصرانية : مبدأين اثنين ، ثم وضحت لنا عالمية دعوتهم • وكل ما كتبناه الزاما لهم أثبتناه من كتب النصارى أنفسهم • وقد حاولت تبسيط الأساليب عن المعانى ليفهم المتعلم كما يفهم العالم • وانى على يقين من أن الآتين من بعدى سيكونون أقوى منى على الايضاح والبيان • فقد وضعت لهم ما يتكلمون فيه • والله ولى التوفيق •

د • احمـــد حجازى السقا

محتويات الكتاب

* * *

الجزء الأول

الباب الأول : فى بيان مذاهبهم فى الأقانيم وابطال قولهم فيها

(٥٥ ـ ٨٨)

الموضـــــوع — الصفحة

الباب الثانى : فى بيان مذاهبهم فى الاتحاد والحلول وابطال قولهم فيهما

(٨٩ — ١٥٧)

* * *

الجزء الثانى

الباب الثالث : فى النبوات وذكر كلامهم

(١٦١ — ٢٥٨)

* * *

الجزء الثـالث

أنواع القسم الثانى فى اثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

(٢٦١ — ٣٨٧)

* * *

الجزء الرابع

الباب الرابع : فى بيان أن النصارى متحكمون فى أديانهم

(٣٨٩ — ٤٥٨)

* * *

ملحق :

المبحث الثـالث

(٤٦٠ — ٤٩٨)